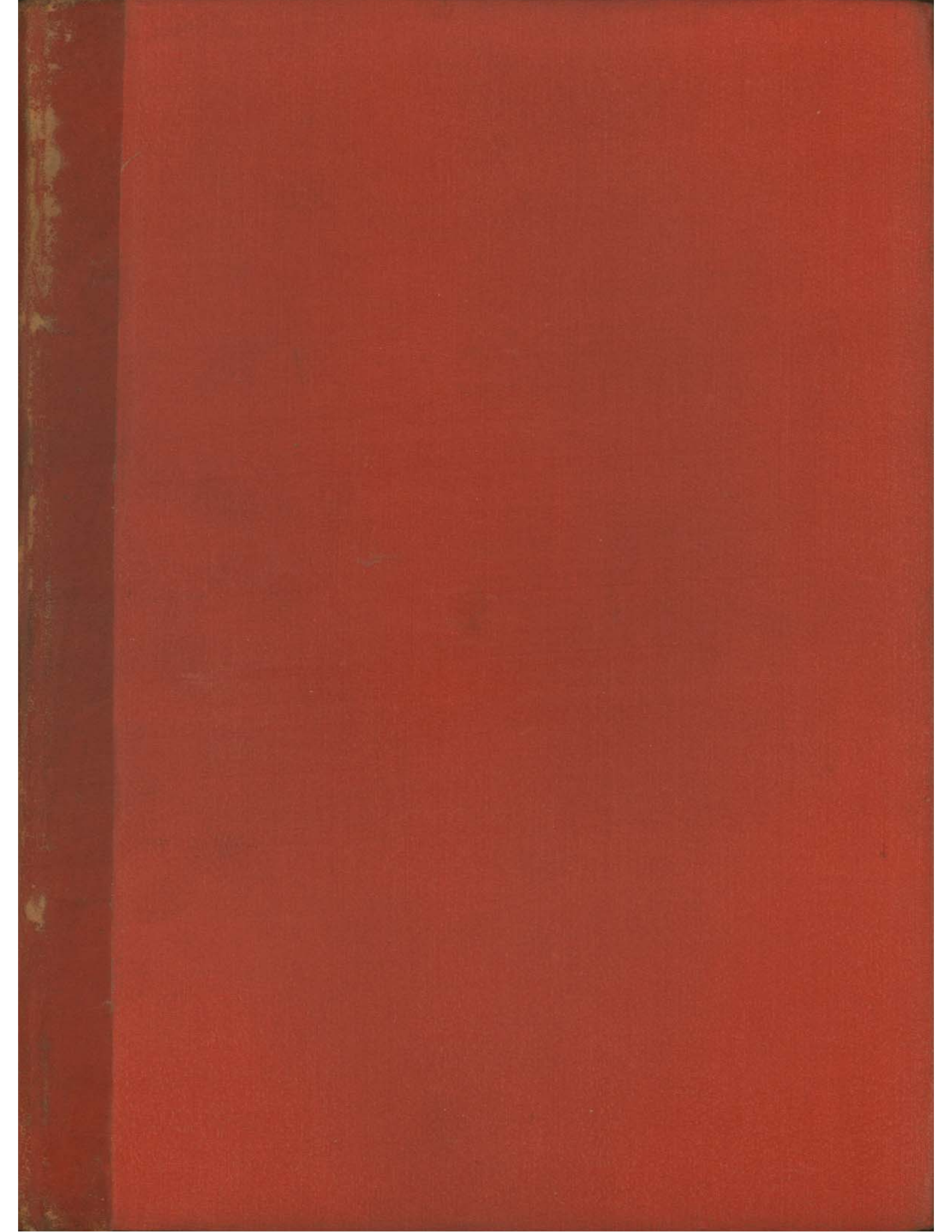
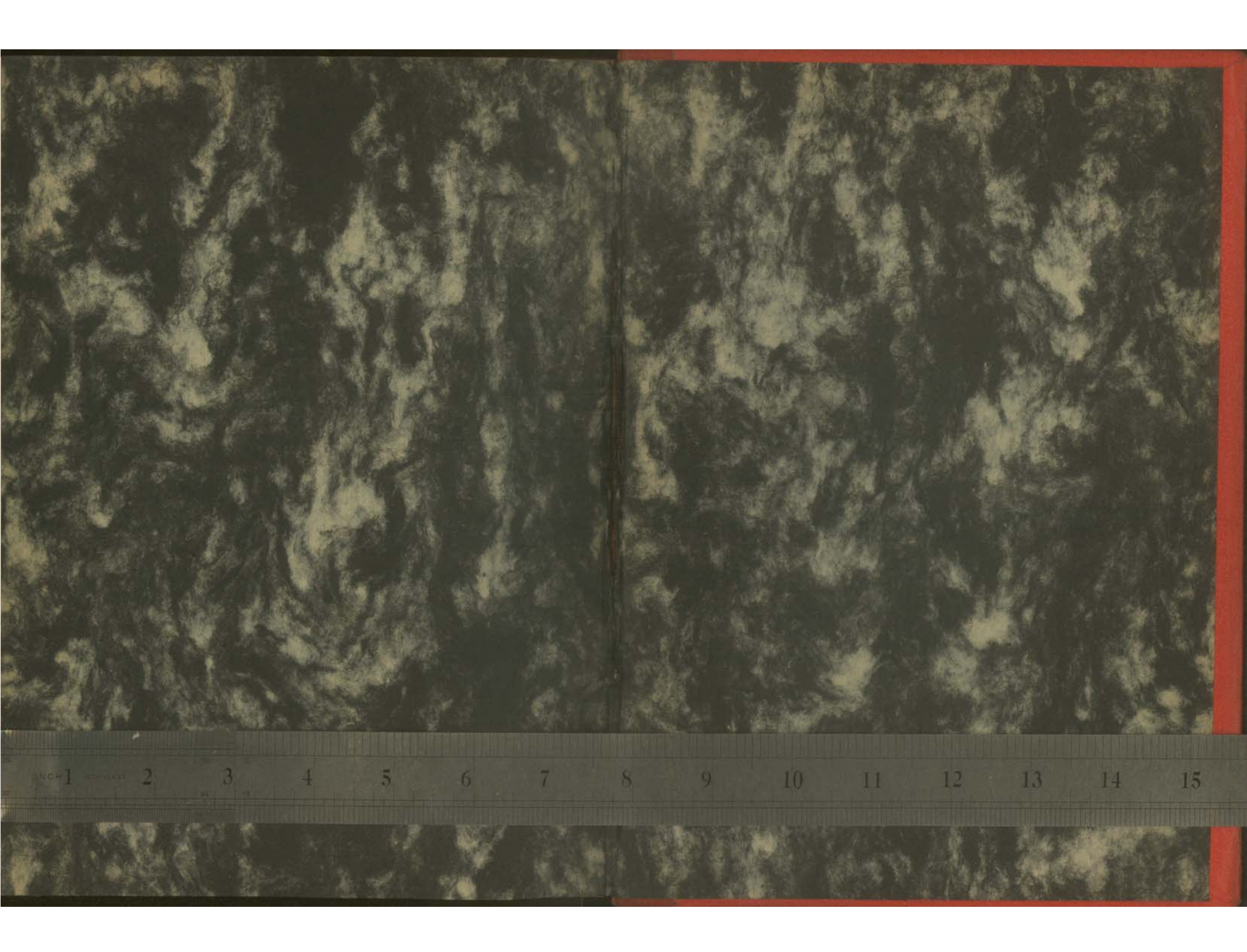
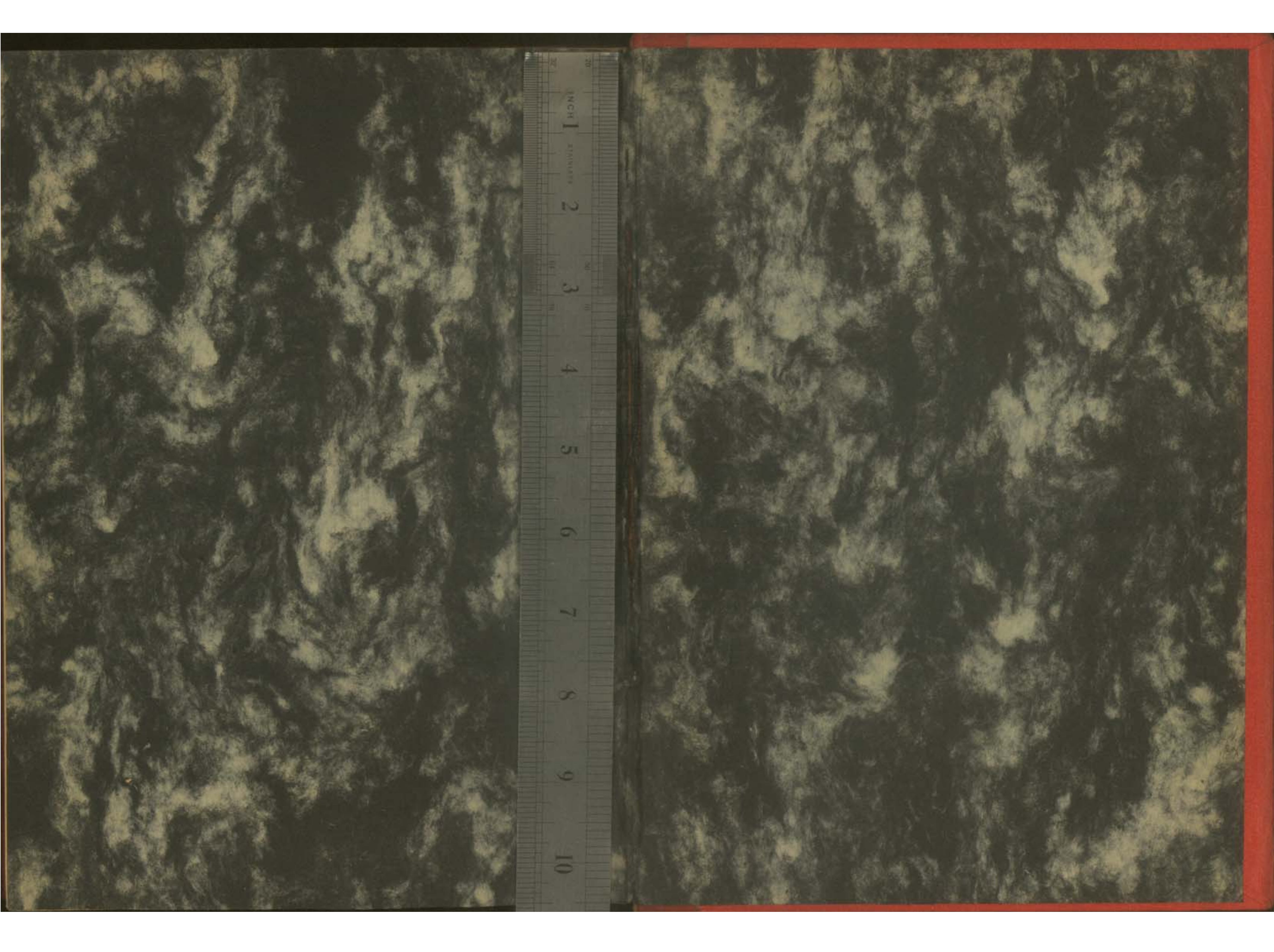










المسمى

ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم

لخاتمة المحققين وامام المدققين قاضي القضاة أبي السعود محمد بن محمد العمادي

ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هجرية وتوفى سنة ٩٥١

الجزء الثالث

صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقوبلت على عدة نسخ وقرئت فى المرة الأخيرة على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ حسن محمد المسعودى

المدرس بالقسم العالى بالأزهر

الملتزم

محمد محمد عبد اللطيف

صاحب المكتبة الحسينية المصرية

بالأزهر الشريف بمصر

الطبعة الأولى

سنة ١٣٤٧ هجرية — سنة ١٩٢٨ ميلادية

المطبعة المصرية

ادارة محمد محمد عبد اللطيف

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

(مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ محله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف وقيل على أنه مبتدأ والأول هو الاظهر كما أشير اليه فى سورة يونس أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ماعليه اطباق الاكثر أو لامحل له من الاعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل فى أخواته وقوله تعالى ﴿كتاب﴾ خبر له على الوجه الثانى ولمبتدا محذوف على الوجوه الباقية ﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظما متقنا لايعتريه خلل بوجه من الوجوه أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها أو على حقية ماتشتمل عليه من الاحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما اذا فسر الاحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذا من قولهم أحكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه ايهام مالا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى الى الفساد لولا المانع و فى اسناد الاحكام على الوجوه المذكورة الى آيات الكتاب دون نفسه لاسيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى أقصى غاية منه مالا يخفى ﴿ثم فصلت﴾ أى جعلت فصولا من الاحكام والدلائل والمواعظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد فى المعاش والمعاد على الاسناد المجازى والتفسير بجعلها آية آية لايساعده المقام لان ذلك من الاوصاف الاولية فلا يناسب عطفه على احكامها بكلمة التراخى وأما المعنيان الاولان فهما وان كانا مع الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لا أنها أحكمت أو فصلت بعد أن لم تكن كذلك اذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل الا أنهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها الى بعض على وجه يستتبع أحكاما مخصوصة وآثارا معتدا بها و بملاحظة مصالح العباد ناسب أن يشار الى تراخى رتبتهما عن رتبة الاحكام وان حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل الا أنه ليس فى مثابته فى استتباع مايستتبعه من الاحكام والآثار أو فرقت فى التنزيل منجمة بحسب المصالح فان أريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخى زمانى وان أريد جعلها فى نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبى لان ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف احكامها وقرىء أحكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أى فرقت بين الحق والباطل ﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفة للكتاب وصف بها بعدما وصف باحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ابانة لجلالة شأنه من حيث الاضافة أو خبر بعد خبر للمبتدا المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين و فى بنائهما للمفعول ثم ايراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والاحاطة بجلائلها ودقائقها منكرا بالتنكير التفخيمى و ربطهما به لا على النهج المعهود فى اسناد الافاعيل الى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على فخامتهما و كونهما على أكمل مايكون

مالايكتنه كنهه ﴿ألا تعبدوا الا الله﴾ مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعنى كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد فى حذف حرف الجر مع أن المصدرية كانه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله أى لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتمحضوا فى عبادته فان الاحكام والتفصيل على مافصل من المعانى مما يدعوهم الى الايمان والتوحيد ومايتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل أن مفسرة لما فى التفصيل من معنى القول أى قيل لاتعبدوا الا الله ﴿اننى لكم منه﴾ من جهة الله تعالى ﴿نذير﴾ أنذركم عذابه ان لم تتركوا ماأنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى ﴿وبشير﴾ أبشركم بثوابه ان آمنتم به وتمحضتم فى عبادته ولما ذكر شئون الكتاب من احكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم مانظم فى سلك الغاية والأمر من التوحيد وترك الاشراك وسط بينه وبين قرينيه أعنى الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للايذان بأن التوحيد فى أقصى مراتب الأهمية حتى أفرد بالذكر وأيد ايجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بأنه كما لا يتحقق فى نفسه الا مقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك فى الذكر لاينفك أحدهما عن الآخر وقد روعى فى سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ماروعى فى الكتاب من تقديم النهى على الاثبات والتخلية على التحلية ليتجاوب أطراف الكلام و يجوز أن يكون قوله تعالى ألا تعبدوا الا الله كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال ترك عبادة غير الله أى الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا اننى لكم من جهة الله تعالى نذير و بشير أى نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر و بشير أبشركم بثوابه على تقدير ترككم له وتوحيدكم ولما سيق اليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع فى ذكر ماهو من تمامه على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل فى وصف البشير والنذير فقيل ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ وهو معطوف على أن لاتعبدوا على ماذكر من الوجهين فعلى الاول أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا أو نهيا كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك للدين حنيفا لأن مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما و وجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لاتوصف بها الا اذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال ﴿ثم توبوا اليه﴾ عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل مافعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر مافرط منكم من الشرك ثم ترجعوا اليه بالطاعة أو تستمروا على ماأنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصى وعلى الثانى أن مفسرة أى قيل فى أثناء تفصيل الآيات لاتعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وارشاد لهم الى طريق الابتهال فى السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وايتاء الفضل بقوله تعالى ﴿يمتعكم متاعا حسنا﴾ أى تمتيعا وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الأرض نباتا أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعشكم عيشا مرضيا لايفوتكم فيه شىء مما تشتهون و لاينغصه شىء من المكدرات ﴿الى أجل مسمى﴾ مقدر عند الله عز وجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لايطمح وراءها طامح جرى التمتيع اليها مجرى التأبيد عادة أو لايهلككم بعذاب الاستئصال ﴿ويؤت كل ذى فضل﴾ فى الطاعة والعمل ﴿فضله﴾ جزاء فضله اما فى الدنيا أو فى الآخرة

وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع الى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض مايتفق فى الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب انسان له فضل طاعة وعمل لايمتع فى الدنيا أكثر مما متع آخر دونه فى الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتيعا فقيل و يعط كل فاضل جزاء فضله اما فى الدنيا كما يتفق فى بعض المواد واما فى الآخرة وذلك مما لامرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع فى الانذار فقيل ﴿وان تولوا﴾ أى تتولوا عما ألقى اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وانما أخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أو لأن العذاب قد علق بالتولى عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى سابقة ذكره وقرئ تولوا من ولى ﴿فانى أخاف عليكم﴾ بموجب الشفقة والرأفة أو أتوقع ﴿عذاب يوم كبير﴾ هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم فى قوله تعالى ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم اما لكونه كذلك فى نفسه أو وصف بوصف مايكون فيه كما وصف بالثقل فى قوله تعالى ثقلت فى السموات والأرض وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف وأياما كان فى اضافة العذاب اليه تهويل وتفظيع له ﴿الى الله مرجعكم﴾ رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لا الى غيره ﴿وهو على كل شئ قدير﴾ فيندرج فى تلك الكلية قدرته على اماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى اليهم فحوى الكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق اليهم ماينبغى أن يساق من الترغيب والترهيب وقع فى ذهن السامع أنهم بعدما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدراً بكلمة التنبيه اشعاراً بأن مايعقبها من هناتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه ﴿ألا انهم يثنون صدورهم﴾ يزورون عن الحق وينحرفون عنه أى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والاعراض لأن من أعرض عن شئ ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد نحا نحوه العلامة الزمخشرى ولكن حيث لم يصلح التولى سببا للاستخفاء فى قوله عز وجل ﴿ليستخفوا منه﴾ التجأ الى اضمار الارادة حيث قال و يريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على اعراضهم وجعله فى قود المعنى اليه من قبيل الاضمار فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب فانفلق ولايخفى أن انسياق الذهن الى توسيط الارادة بين ثنى الصدور و بين الاستخفاء ليس كانسياقه الى توسيط الضرب بين الأمر به و بين الانفلاق ولعل الاظهر أن معناه يعطفون صدورهم على مافيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على مافيها من الاشياء المستورة وانما لم يذكر ذلك استهجانا بذكره أو ايماء الى أن ظهوره مغن عن ذكره أوليذهب ذهن السامع الى كل مالاخير فيه من الأمور المذكورة فيدخل فيه ماذكر من توليهم عن الحق الذى ألقى اليهم دخولا أوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء و يؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة و يضمر فى قلبه مايضادها وقال ابن شداد انها نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يراه النبى صلى الله عليه وسلم فكأنه انما كان يصنع مايصنع لأنه لو رآه النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدى ذلك الى ظهور مافى قلبه من الكفر والنفاق وقرئ يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله عنهما لتثنونى وقرئ تثنون وأصله تثنونن من تفعوعل من الثن وهو ماهش من الكلأ وضعف يريد مطاوعة صدورهم

للثنى كما يثنى الهش من النبات أو أراد ضعف ايمانهم ورخاوة قلوبهم وقرئ تثنئن من اثنان افعال منه ثم همز كما قيل ابيأضت وادهأمت وقرئ تثنوى بوزن ترعوى ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ أى يتغطون بها للاستخفاء على مانقل عن ابن شداد أوحين يأوون الى فراشهم و يتدثرون بثيابهم فان مايقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته و يرخى ستره ويحنى ظهره و يتغشى بثوبه و يقول هل يعلم الله مافى قلبى ﴿يعلم مايسرون﴾ أى يضمرون فى قلوبهم ﴿ومايعلنون﴾ أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه وانما قدم السر على العلن نعيا عليهم من أول الأمر ماصنعوا وايذانا بافتضاحهم ووقوع مايحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه ونظيره قوله تعالى قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء على عكس ما وقع فى قوله تعالى وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله اذ لم يتعلق باشعار أن المحاسبة بما يخفونه أولى منها بما يبدونه غرض بل الأمر بالعكس وأما ههنا فقد تعلق باشعار كون تعلق علمه تعالى بما يسرونه أولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة فى الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع أنه وقع الغنية عنه بما قبله من قوله عز وجل انى أعلم غيب السموات والارض ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية ﴿انه عليم بذات الصدور﴾ تعليل لما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس وفى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة مالا يصفه الواصفون كأنه قيل انه مبالغ فى الاحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لا تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه مايسرون ومايعلنون ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور والمعنى أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها ﴿وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها﴾ غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الايصال اليها بطريق طبيعى أو ارادى لتكفله اياه تفضلا ورحمة وانما جئ به على طريق الوجوب اعتباراً لسبق الوعد وتحقيقا لوصوله اليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس فى طلبه ﴿ويعلم مستقرها﴾ محل قرارها فى الأصلاب ﴿ومستودعها﴾ موضعها فى الأرحام وما يجرى مجراها من البيض ونحوها وانما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لأن النطفة بالنسبة الى الأصلاب فى حيزها الطبيعى ومنشئها الخلقى وأما بالنسبة الى الأرحام وما يجرى مجراها فهى مودعة فيها الى وقت معين أو مسكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة فى الأرض والمعنى مامن دابة فى الأرض الا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه اليها ويعلم موادها المتخالفة المتدرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى الأطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها فى كل مرتبة مايليق بها من مبادى وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها فى الممات ولا يلائمه مقام التكفل بأرزاقها ﴿كل﴾ من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها ﴿فى كتاب مبين﴾

أى مثبت فى اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المظهر لما أثبت فيه للناظرين ولما انتهى الأمر الى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال مافى الأرض من المخلوقات التى لاتكاد تحصى من مبدأ فطرتها الى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدأ خلق السموات والأرض والحكمة الداعية الى ذلك فقيل ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام﴾ السموات فى يومين والأرض فى يومين وما عليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق مافى الأرض لكونه من تتمات خلقها وهو السر فى جعل زمان خلقه تتمة لزمان خلقها فى قوله تعالى فى أربعة أيام أى فى تتمة أربعة أيام والمراد بالأيام الأوقات كما فى قوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أى فى ستة أوقات أو مقدار ستة أيام فان اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الأرض ولا يتصور ذلك حين لاأرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على أنه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الأمور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلم مايقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الاشارة الى كونها أجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والاحكام ﴿وكان عرشه﴾ قبل خلقهما ﴿على الماء﴾ ليس تحته شىء غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه كما ورد فى الاثر فلا دلالة فيه على امكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على امكانه فقط ولا على كون الماء أول ماحدث فى العالم بعد العرش وانما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما ﴿ليبلوكم﴾ متعلق بخلق أى خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ماتحتاجون اليه من مبادى وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فى تضاعيفهما من تعاجيب الصنائع والعبر ماتستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿أيكم أحسن عملا﴾ فيجازيكم بالثواب والعقاب غب ماتبين المحسن من المسىء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والامارات والمخايل ومراتب أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما أن الأول أشرف من الثانى فكذا الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذى أثير وانما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر فى آياته البينات المنصوبة فى الأنفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم مافى مطاوى الكتاب الحكيم من الأوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتفضلونى على يونس ابن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وانما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لأن أحدا لايقدر على أن يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الأرض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم ايراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والأحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصود الأصلى مما ذكر من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة وأكمل الأساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لايحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت

بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن أن ينظم ظهوره فى سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى مافيه من الترغيب فى الترقى الى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها والله تعالى أعلم ﴿ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت﴾ على مايوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الأعمال ﴿ليقولن الذين كفروا﴾ ان وجه الخطاب فى قوله تعالى انكم الى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص أى ليقولن الكافرون منهم وان وجه الى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم ﴿ان هذا الا سحر مبين﴾ أى مثله فى الخديعة أو البطلان وهذا اشارة الى القول المذكور أو الى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وان لم يجب كونه بطريق الوحى المتلو الا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا الى القرآن لانبائه عنه فى كل موضع وكونه علما عندهم فى ذلك فعمدوا الى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم فى العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو اشارة الى نفس البعث ولا يلائمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شىء موجود ظاهرا لا أصل له فى الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بما قبلها اما من حيث أن البعث كما أشير اليه من تتمات الابتلاء المذكور فكأنه قيل الأمر كما ذكر ومع ذلك ان أخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تتماته لايتلعثمون فى الرد ويعدون ذلك من قبيل مالا صحة له أصلا فضلا عن تصديق ماهذه من تتماته وأما من حيث أن البعث خلق جديد فكأنه قيل وهو الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك ان أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يقولون مايقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى الا ساحر على أن الاشارة الى القائل أو الى القرآن على أسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو على أن أنك بمعنى عنك فى علك أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره أو على أنه مجاراة معهم فى الكلام على نهج المساعدة لئلا يسارعوا الى اللجاج والعناد وربما قرع أسماعهم بت القول بخلاف ماألفوا وألفوا عليه آباءهم من انكار البعث ويكون ذلك أدعى لهم الى التأمل والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾ المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود فى قوله تعالى فان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون مايخص ببعض منهم على أنه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون ﴿الى أمة معدودة﴾ الى طائفة من الأيام قليلة لأن مايحصره العد قليل ﴿ليقولن مايحبسه﴾ أى أى شىء يمنعه من المجىء فكأنه يريده فيمنعه مانع وانما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ما كانوا به يستهزئون ومرادهم انكار المجىء والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ ذلك ﴿ليس مصروفا﴾ محبوسا ﴿عنهم﴾ على معنى أنه لايرفعه رافع أبدا ان أريد به عذاب الآخرة أولا يدفعه عنكم دافع بل هو واقع بكم ان أريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لايجوز فى غيره توسعا وبأنه قد يقدم المعمول حيث لامجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها. قال أبو حيان وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله الا مادل عليه ظاهر هذه الآية

الكريمة وقول الشاعر فيأبى فما يزداد الا لجاجة وكنت أبيا فى الخنا لست أقدم

﴿وحاق بهم﴾ أى أحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ أى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه واشعار بعلية ماورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله واحاطته والتعبير عنها بالماضى وارد على عادة الله تعالى فى أخباره لانها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به مالا يخفى ﴿ولئن أذقنا الانسان منا رحمة﴾ أى أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها اليه بحيث يجد لذتها ﴿ثم نزعناها منه﴾ أى سلبناه اياها وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها ﴿انه ليؤس﴾ شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به ﴿كفور﴾ عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه اشارة الى أن النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن افاضة أمثاله فى العاجل وايصال أجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها واسناد الاول الى الله عز وجل دون الثانى مالا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير وأما نزع الرحمة فانما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها ﴿ليقولن ذهب السيئات عنى﴾ أى المصائب التى تسوؤنى ولن يعترينى بعد أمثالها كما هو شأن أولئك الاشرار فان الترقب لورود أمثالها مما يكدر السرور وينغص العيش ﴿انه لفرح﴾ بطر وأشر بالنعم مغتر بها ﴿فخور﴾ على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الاربع موطئة للقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط ﴿الا الذين صبروا﴾ على ما أصابهم من الضراء سابقا أو لاحقا ايمانا بالله واستسلاما لقضائه ﴿وعملوا الصالحات﴾ شكرا على آلائه السالفة والآنفة واللام فى الانسان اما لاستغراق الجنس فالاستثناء متصل أو للعهد فمنقطع ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لهم مغفرة﴾ عظيمة لذنوبهم وان جمت ﴿وأجر﴾ ثواب لاعمالهم الحسنة ﴿كبير﴾ ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث ان اذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الاجمال الواقع فى قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا والمعنى أن كلا من اذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للانسان أيشكر أم يكفر لايهتدى الى سنن الصواب بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه الى مهاوى الضلال فلا يظهر منه حسن عمل الا من الصابرين الصالحين أو من حيث ان انكارهم بالبعث واستهزاءهم بالعذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل انما فعلوا مافعلوا لان طبيعة الانسان مجبولة على ذلك ﴿فلعلك تارك بعض مايوحى اليك﴾ من البينات الدالة على حقية نبوتك المنادية بكونها من عند الله عز وجل لمن له أذن واعية ﴿وضائق به صدرك﴾ أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم فى أثناء الدعوة والمحاجة ﴿أن يقولوا﴾ لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التى لا تكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة وتماديا فى العناد

على وجه الاقتراح ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ مال خطير مخزون يدل على صدقه ﴿أو جاء معه ملك﴾ يصدقه قيل قاله عبد الله بن أمية المخزومى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أرباب العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين الى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحرا مثل حاله عليه الصلاة والسلام بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها اليهم فحمل على الحذر منه بما فى لعل من الاشفاق فقيل ﴿انما أنت نذير﴾ ليس عليك الا الانذار بما أوحى اليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول ﴿والله على كل شىء وكيل﴾ يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه فى جميع أمورك فانه فاعل بهم مايليق بحالهم والاقتصار على النذير فى أقصى غاية من اصابة المحز ﴿أم يقولون افتراه﴾ اضراب بأم المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والانكار والتعجيب والضمير المستكن فى افتراه للنبى صلى الله عليه وسلم والبارز لما يوحى أى بل أيقولون افتراه وليس من عند الله ﴿قل﴾ ان كان الامر كما تقولون ﴿فأتوا﴾ أنتم أيضا ﴿بعشر سور مثله﴾ فى البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أى أمثاله وتوحيده اما باعتبار مماثلة كل واحدة منها أو لان المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما فى قوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا أو للايماء الى أن وجه الشبه ومدار المماثلة فى الجميع شىء واحد هو البلاغة المؤدية الى مرتبة الاعجاز فكأن الجميع واحد ﴿مفتريات﴾ صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لانها الصفة المقصودة بالتكليف اذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شىء فى مقام التحدى وانما ذكر على نهج المساهلة وارخاء العنان ولأنه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة فى الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له فى البلاغة مختلقات من عند أنفسكم ان صح أنى اختلقته من عندى فانكم أقدر على ذلك منى لانكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادى ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم الوقائع والأيام وزاولتم أساليب النظم والنثر ﴿وادعوا﴾ للاستظهار فى المعارضة ﴿من استطعتم﴾ دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى كل ماتأتون وماتذرون والكهنة ومدارهكم الذين تلجؤن الى آرائهم فى الملمات ليسعدوكم فيها ﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا أى متجاوزين الله تعالى ﴿ان كنتم صادقين﴾ فى أنى افتريته فان ذلك يستلزم امكان الاتيان بمثله وهو أيضا يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور ﴿فان لم يستجيبوا لكم﴾ أى فان لم يفعلوا ما كلفوه من الاتيان بمثله كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايماء الى أنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره لهم بالاتيان بمثله دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والضمير فى لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما فى قول من قال وان شئت حرمت النساء سواكم أوله وللمؤمنين لانهم أتباع له عليه الصلاة والسلام فى الأمر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد وارشاد الى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الايمان والطمأنينة فى الايقان ولذلك رتب عليه قوله عز وجل ﴿فاعلموا﴾ أى اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقينا متاخما لعين اليقين بحيث لا مجال معه لشائبة

ريب بوجه من الوجوه كأن ماعداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للاشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر ايراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فان تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو اثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه من العلم ﴿انما أنزل﴾ ملتبسا ﴿بعلم الله﴾ المخصوص به بحيث لا تحوم حوله العقول والافهام مستبدا بخصائص الاعجاز من جهتى النظم الرائق والاخبار بالغيب ﴿وأن لا اله الا هو﴾ أى واعلموا أيضا أن لا شريك له فى الالوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أى مخلصون فى الاسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية الى معارج اليقين ويجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الأمر بالتحدى والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من اليهم تجأرون فى مهماتكم وملماتكم الى المعاونة والمظاهرة فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الأمر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث أنه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم فكأنه قيل فان لم يستجيبوا لكم عند التجائكم اليهم بعد ما اضطررتم الى ذلك وضاقت عليكم الحيل وعيت بكم العلل أو من حيث ان من يستمدون بهم أقوى منهم فى اعتقادهم فاذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وان كان ذلك قبل ظهور عجز أنفسهم يكون عجزهم أظهر وأوضح واعلموا أيضا أن آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة فى الألوهية وأحكامها فهل أنتم داخلون فى الاسلام اذلم يبق بعد شائبة شبهة فى حقيته وفى بطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الاذعان لكون القرآن من عند الله تعالى دخولا أوليا أو منقادون للحق الذى هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفى هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واقناط من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والأول أنسب لما سلف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتى من قوله تعالى فلا تك فى مرية منه وأشد ارتباطا بما يعقبه كما ستحيط به خبرا ﴿من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها﴾ أى ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وكثرة الأولاد والرياسة وغير ذلك والمراد بالارادة ما يحصل عند مباشرة الأعمال لا مجرد الارادة القلبية لقوله تعالى ﴿نوف اليهم أعمالهم فيها﴾ وادخال كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلا وليس المراد باعمالهم أعمال كلهم فانه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما يهواه فان ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل أعمالهم بل بعضها الذى يترتب عليه الأمور المذكورة بطريق الأجر والجزاء من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمعنى نوصل اليهم ثمرات أعمالهم فى الحياة الدنيا كاملة وقرئ يوف على الاسناد الى الله عز وجل وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم وقرئ نوفى بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله

وان أتاه خليل يوم مسغبة   يقول لا غائب مالى ولا حرم

﴿وهم فيها﴾ أى فى الحياة الدنيا ﴿لا يبخسون﴾ أى لا ينقصون وانما عبر عن ذلك بالبخس الذى هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التى هى اعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء للامر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة فى نفى النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا والمعنى انهم فيها خاصة لا ينقصون ثمرات أعمالهم وأجورها نقصا

كليا مطردا ولا يحرمونها حرمانا كليا وأما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى ﴿أولئك﴾ الخ فانه اشارة الى المذكورين باعتبار ارادتهم الحياة الدنيا أو باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخس أو باعتبارهما معا وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال أى أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس ﴿الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار﴾ لأن هممهم كانت مصروفة الى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون بها شيئا آخر فلا جرم لم يكن لهم فى الآخرة الا النار وعذابها المخلد ﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أى ظهر فى الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التى كانت تؤدى الى الثواب لو كانت معمولة للآخرة أو حبط ما صنعوه فى الدنيا من أعمال البر اذ شرط الاعتداد بها الاخلاص ﴿وباطل﴾ أى فى نفسه ﴿ما كانوا يعملون﴾ فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولأجل أن الأول من شأنه استتباع الثواب والأجر وأن عدمه لعدم مقارنته للايمان والنية الصحيحة وأن الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبئ عن الحدوث وبالثانى البطلان المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه وفى زيادة كان فى الثانى دون الأول ايماء الى أن صدور أعمال البر منهم وان كان لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدوام كصدور الأعمال التى هى من مقدمات مطالبهم الدنية وقرئ وبطل على الفعل أى ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرئ وباطلا ما كانوا يعملون على أن ما ابهامية أو فى معنى المصدر كقوله ولا خارجا من فى زور كلام وعن أنس رضى الله عنه أن المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى ان أعطوا سائلا أو وصلوا رحما عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وأنت خبير بأن ذلك انما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لا بد من تقييد قوله تعالى ليس لهم الا النار بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية الا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أوليا فانه عز وعلا لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بأن القرآن منزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شئ أصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شئ أصلا اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شئ فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والاسلام فقيل ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أى برهان نير عظيم الشأن يدل على حقية ما رغب فى الثبات عليه من الاسلام وهو القرآن وباعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع اليها فى قوله تعالى ﴿ويتلوه﴾ أى يتبعه ﴿شاهد﴾ يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الاعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة منه أو ما وقع فى بعض آياته من الاخبار بالغيب وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عز وجل غير أنه على التقدير الأول يكون فى الكلام اشارة الى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله بشهادة الاعجاز ﴿منه﴾ أى من القرآن غير خارج عنه أو من جهة الله تعالى فان كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك أيضا من الشواهد التابعة للقرآن

الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى أفمن كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى فاعلموا فهل أنتم دخولا أوليا وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم وقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل و بالشاهد القرآن فالضمير فى منه لله تعالى أو البينة القرآن و يتلوه من التلاوة والشاهد جبريل أو لسان النبي صلى الله عليه وسلم على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظ والأولى هو الأول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان اقامة الشهادة بصحته و كونه من عند الله تابعاله بحيث لا يفارقه فى مشهد من المشاهد فان القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذى يشهد بأمرها الى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى فى قوله عز قائلا ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ على فاعله مع كونه مقدما عليه فى النزول فكأنه قيل أفمن كان على بينة من ربه و يشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وانما قدم فى الذكر المؤخر فى النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلو والتنكير فى بينة وشاهد للتفخيم ﴿اماما﴾ أى مؤتما به فى الدين ومقتدى و فى التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب مالا يخفى من تفخيم شأن المتلو ﴿و رحمة﴾ أى نعمة عظيمة على من أنزل اليهم ومن بعدهم الى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهو الكون على بينة من الله ولما أن ذلك عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بأنهم ﴿يؤمنون به﴾ أى يصدقونه حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته ﴿ومن يكفر به﴾ أى بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة ﴿من الاحزاب﴾ من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فالنار موعده﴾ يردها لامحالة حسبما نطق به قوله تعالى ليس لهم فى الآخرة الا النار و فى جعلها موعدا اشعار بأن له فيها مالا يوصف من أفانين العذاب ﴿فلا تك فى مرية منه﴾ أى فى شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز وجل غبما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به ﴿انه الحق من ربك﴾ الذى يربيك فى دينك ودنياك ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك اما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم واما لعنادهم واستكبارهم فمن فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم و بين مصيرهم ومآلهم يعنى أن بينهما تفاوتا عظيما بحيث لايكاد يترامى ناراهما وايراد الفاء بعد الهمزة لانكار ترتب توهم المماثلة على ماذكر من صفاتهم وعدد من هناتهم كأنه قيل أبعد ظهور حالهم فى الدنيا والآخرة كما وصف يتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن مايكون فى العاجل والآجل كما فى قوله تعالى أفاتخذتم من دونه أولياء أى أبعد أن علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه أولياء وقوله تعالى أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ بأن نسب اليه مالايليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله يعنى أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهذا التركيب وان كان سبكه على انكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها وافادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبئ عنه ماسيتلى من قوله عز وجل لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ﴿أولئك﴾ الموصوفون بالظلم البالغ الذى هو الافتراء على الله تعالى و بهذه الاشارة حصلت الغنية عن اسناد العرض الى أعمالهم واكتفى باسناده اليهم حيث قيل ﴿يعرضون﴾ لان عرضهم من تلك الحيثية و بذلك العنوان عرض لاعمالهم على وجه أبلغ

فان عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته ﴿على ربهم﴾ الحق وفيه ايماء الى بطلان رأيهم فى اتخاذهم أربابا من دون الله عز وجل ﴿و يقول الأشهاد﴾ عند العرض من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم وهو جمع شاهد أو شهيد كأصحاب وأشراف ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غنى عن الشهادة بوقوعه وانما المحتاج الى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لايقولون هؤلاء كذبوا على ربهم و يجوز أن يكون المراد بالاشهاد الحضار وهم جميع أهل الموقف على ماقاله قتادة ومقاتل و يكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذما لهم بذلك لاشهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى و يقول دون و يشهد الخ وتوطئة لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ بالافتراء المذكور ويجوز أن يكون هذا على الوجه الأول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم انا نعوذ بك من الخزى على رؤس الاشهاد ﴿الذين يصدون﴾ أى كل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد ﴿عن سبيل الله﴾ عن دينه القويم ﴿و يبغونها عوجا﴾ انحرافا أى يصفونها بذلك وهى أبعد شئ منه أو يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيرا أو شرا أى طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم انه ليس من عند الله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أى يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها لا أنهم يؤمنون بها و يزعمون أن لها سبيلا سويا يهدون الناس اليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأن كفر غيرهم ليس بشئ عند كفرهم ﴿أولئك﴾ مع ماوصف من أحوالهم الموجبة للتدمير ﴿لم يكونوا معجزين﴾ الله تعالى مفلتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك ﴿فى الارض﴾ مع سعتها وان هربوا منها كل مهرب ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع اما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لاحد منهم من ولى أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر و يعقوب بالتشديد ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ لفرط تصامهم عن الحق و بغضهم له كأنهم لايقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم فى عدم اذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع أشد منه فى عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالابصار بالغ فى نفى الاول عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى فى الثانى بنفى الابصار فقال تعالى ﴿وما كانوا يبصرون﴾ لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة فى الانفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفى من ولاية الآلهة فان مالايسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من أول الأمر سوء العاقبة ﴿أولئك﴾ المنعوتون بما ذكر من القبائح ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عز سلطانه ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الآلهة وشفاعتها أو خسروا مابذلوا وضاع عنهم ماحصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة ﴿لاجرم﴾ فيه ثلاثة أوجه الاول أن لا نافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع مافى حيزه فاعله والمعنى لاينفعهم ذلك الفعل حق ﴿أنهم فى الآخرة هم الأخسرون﴾ وهذا مذهب سيبويه والثانى جرم بمعنى كسب ومابعده مفعوله وفاعله مادل عليه الكلام أى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ماحصل من ذلك الا ظهور خسرانهم والثالث أن لاجرم بمعنى لابد أى لابد أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وأيا ما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فتبين أنهم أظلم من كل ظالم وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من انكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه و بين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير فانهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم و بين أحد من الظلمة الاخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو فى أعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم

وبين مصيرهم ومآلهم شرع فى بيان حال أضدادهم أعنى فريق المؤمنين ومايؤل اليه أمرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه الآية ليتبين ماينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل ﴿ان الذين آمنوا﴾ أى بكل مايجب أن يؤمن به فيندرج تحتهمانحن بصدده من الايمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وانما يحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة مايؤدى الى ذلك فى الانفس والآفاق أو فعلوا الايمان كما فى يعطى ويمنع ﴿وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم﴾ أى اطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخضوع والتواضع من الخبت وهى الأرض المطمئنة ومعنى أخبت دخل فى الخبت كأتهم وأنجد دخل فى تهامة ونجد ﴿أولئك﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ دائمون وبعد بيان تباين حاليهما عقلا أريد بيان تباينهما حسا فقيل ﴿مثل الفريقين﴾ المذكورين أى حالهما العجيب لأن المثل لايطلق الاعلى مافيه غرابة من الأحوال والصفات ﴿كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ أى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وان أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بالأعمى و بالأصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير و بالسميع لكن الأدخل فى المبالغة والاقرب الى مايشير اليه لفظ المثل والانسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع و بعدم الابصار أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو فى قوله تعالى والأصم و فى قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما فى قول من قال

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وأياما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها أمر التشبيه مايلائم الأحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعامى الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر اليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر فى قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وانما لم يراع هذا الترتيب هنا لكون الأعمى أظهر وأشهر فى سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثانى لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بما سبق من الايمان والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لاجميع الاحوال المعدودة لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدى اليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى أحدهما ومن النعيم المقيم فى الآخر فان اعتبار ذلك ينزع الى كون التشبيه تمثيليا بأن ينتزع من حال الفريق الأول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين و وقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لاخسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصر والسمع فتخبط فى مسالكه فوقع فى مهاوى الردى ولم يجد الى مقصده سبيلا و ينتزع من حال الفريق الثانى فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالى حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما فى مهماته فيهتدى الى سبيله و ينال مرامه ﴿هل يستويان﴾ يعنى الفريقين المذكورين والاستفهام انكارى مذكر لما سبق من انكار المماثلة فى قوله عز وجل أفمن كان على بينة الآية ﴿مثلا﴾ أى حالا وصفة وهو تمييز من فاعل يستويان ﴿أفلا تذكرون﴾ أى أتشكون فى عدم الاستواء وما بينهما من التباين أو أتغفلون عنه فلاتتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الانكار واردا على المعطوفين معا أو أتسمعون هذا فلا تذكرون فيكون راجعا الى عدم التذكر بعد تحقق مايوجب وجوده وهو المثل المضروب كما فى قوله تعالى أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق مايوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لامن

قبيل الانكار فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى هل يستويان فان ذلك لنفى المماثلة ونفى الاستواء . ولما بين من فاتحة السورة الكريمة الى هذا المقام أنها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل فى شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذى أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر فى تضاعيف ذلك ماله مدخل فى تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب والزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحرا وأخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع فى تحقيق ماذكر وتقريره بذكر قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريقين أحدهما أن ماأمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الانبياء قاطبة والثانى أن ذلك انما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى فلا يبقى فى حقيته كلام أصلا وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل ﴿ولقد أرسلنا نوحا الى قومه﴾ الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما فى سورة الاعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطلق هذه اللام الا مع قد لانها مظنة التوقع وأن المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ماصدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن ادريس عليهما السلام وهو أول نبي بعث بعده . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة ﴿انى لكم نذير﴾ بالكسر على ارادة القول أى فقال أو قائلا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالفتح على اضمار حرف الجر أى أرسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو انى لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن والمعنى على الكسر وهو قولك ان زيدا كالاسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيرا لا لان دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الانذار فقط ألا يرى الى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الخ بل لانهم لم يغتنموا مغانم ابشاره عليه الصلاة والسلام ﴿مبين﴾ أبين لكم موجبات العذاب و وجه الخلاص منه لان الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيه ﴿ألا تعبدوا الا الله﴾ أى بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بأرسلنا ولا ناهية أى أرسلناه ملتبسا بنهيهم عن الشرك الا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه وأحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون أدخل فى القبول ولم يفعل ذلك فى صدر السورة لئلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذير أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من أنى لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله تعالى ﴿انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ تعليل لموجب النهى وتصريح بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان و وصفه بالأليم على الاسناد المجازى للمبالغة كما فى نهاره صائم وهذه المقالة وما فى معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام فى أثناء الدعوة على ما عزى اليه فى سائر السور لما لم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم فى تلك المدة المتطاولة على مانطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات عطف على فعل الارسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المتعرض لأحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد

التيا والتى بالفاء التعقيبية فقيل ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أى الأشراف منهم من قولهم فلان ملىء بكذا أى مطيق له لأنهم ملئوا بكفايات الأمور أو لأنهم ملأوا القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملئوا بالاحلام والآراء الصائبة و وصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الأمر لا لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة ﴿ما نراك الا بشرا مثلنا﴾ مرادهم ما أنت الا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل ولكن لانراه وكذا الحال فى قولهم ﴿وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى﴾ فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الا بشرا مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك فى موضع الحال منه اما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز أن يكون من رؤية القلب وهو الظاهر فهما المفعول الثانى وتعلق الرأى فى الأول بالمثلية لا بالبشرية فقط وانما لم يبتوا القول بذلك مع جزمهم به واصرارهم عليه اراءة بأن ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل فى الأمر والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتى وتعريضا من أول الأمر برأى المتبعين فكأن قولهم وما نراك جواب عما يرد عليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتنم اتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزعموا أن هؤلاء أراذلنا أى أخساؤنا وأدانينا جمع أرذل فانه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالأكبر والأكابر أو جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصالة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى أى ظاهره من غير تعمق من البدو أو فى أوله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأه أبو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أى وقت حدوث بادى الرأى والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم مع كونهم أولى الألباب الراجحة لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الا ظاهر الحياة الدنيا كان الأشرف عندهم الأكثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم انما هو نعيم الآخرة والأشرف من فاز به والأرذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك ﴿وما نرى لكم﴾ أى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين ﴿علينا من فضل﴾ يعنون أن اتباعهم لك لا يدل على نبوتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم أنهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة أو اياك فى دعوى النبوة واياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احترازا منهم عن نسبتهم الى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف ﴿قال ياقوم أرأيتم﴾ أى أخبرونى وفيه ايماء الى ركاكة رأيهم المذكور ﴿ان كنت على بينة﴾ برهان ظاهر ﴿من ربى﴾ وشاهد يشهد بصحة دعواى ﴿وآتانى رحمة من عنده﴾ هى النبوة ويجوز أن تكون هى البينة نفسها جىء بها ايذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير فى قوله تعالى ﴿فعميت عليكم﴾ حينئذ ظاهر وان أريد بها النبوة وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لارادة كل واحدة منهما أو لكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة أو لتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت أخفيت وقرىء عميت ومعناه خفيت وحقيقته أن الحجة كما تجعل مبصرة وبصيرة تجعل عمياء لان الاعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره وفى قراءة أبى فعماها عليكم على الاسناد الى الله عز وجل ﴿أنلزمكموها﴾ أى أنكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب أرأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم أعرفهما جاز فى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكهم الله ﴿وأنتم لها كارهون﴾

لا تختارونها ولا تتأملون فيها ومحصول الجواب أخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى الا أنها خافية عليكم غير مسلمة عندكم أيمكننا أن نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها أى لا يكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق اظهار اليأس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله تعالى ولا ينفعكم نصحى الخ لكنه محمول على أن مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الاعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار الى الالزام حال كراهتهم لها لا الى الالزام مطلقا هذا ويجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل وبحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها من بعض وبه يناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتباء للرسالة وبالكون عليها التمسك به والثبات عليه وبخفائها على الكفرة على أن الضمير للبينة عدم ادراكهم لكونه عليه الصلاة والسلام عليها وبالرحمة النبوة التى أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظهرانيهم والمعنى أنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله الا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبرونى ان امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربى وآتانى بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتى لها وكونى عليها الى الآن حتى زعمتم أنى مثلكم وهى متحققة فى نفسها أنلزمكم قبول نبوتى التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الاقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التى أدرجوها فى خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشأفة آرائهم الركيكة ﴿وياقوم لا أسألكم عليه﴾ أى على ما قلته فى أثناء دعوتكم ﴿مالا﴾ تؤدونه الى بعد ايمانكم واتباعكم لى فيكون ذلك أجرا لى فى مقابلة اهتدائكم ﴿ان أجرى الا على الله﴾ الذى يثيبنى فى الآخرة وفى التعبير عنه حين نسب اليهم بالمال مالا يخفى من المزية ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا من أنه لو اتبعه الأشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به فى قولهم أنؤمن لك واتبعك الأرذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لايمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك أنفة من الانتظام معهم فى سلك واحد ﴿انهم ملاقو ربهم﴾ تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أى انهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجل كأنه قيل لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسى لأنهم مقربون فى حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون فى الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة فكيف أطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على ما فى قلوبهم من ايمان صحيح ثابت كما ظهر لى أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء ايمانهم على بادى الرأى من غير نظر وتفكر وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم ان كان الأمر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتى وأيضا فهم انما قالوا ان اتباعهم لك انما هو بحسب بادى الرأى بلا تأمل وتفكر وهذا لا يكاد يصلح مدارا للطرد فى الدنيا ولا للمؤاخذة فى الآخرة غايته أن لا يكونوا فى مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الايمان على ظاهر الرأى يؤدى الى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا انهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى ﴿ولكنى أراكم قوما تجهلون﴾ بكل ما ينبغى أن يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتى وبركاكة رأيهم فى التماس ذلك وتوقيف ايمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم فى سلك واحد وزعما منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وايثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم الى الخساسة ﴿وياقوم من ينصرنى من الله﴾ يدفع حلول سخطه عنى

﴿ان طردتهم﴾ فان ذلك أمر لامرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وانما لم يصرح به اشعارا بأنه غنى عن البيان لاسيما غب ما قدم مايلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عنى غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿أفلا تذكرون﴾ أى أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ماذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ماتأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم ﴿ولاأقول لكم﴾ حين أدعى النبوة ﴿عندى خزائن الله﴾ أى رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة أعز من أن تنال بأسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أى لاأدعى فى قولى انى لكم نذير مبين انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد ﴿ولا أقول انى ملك﴾ حتى تقولوا مانراك الا بشرا مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعنى انكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة الى تكذيبى والحال أنى لاأدعى شيأ من ذلك ولا الذى أدعيه يتعلق بشئ منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التى بها تتفاوت مقادير البشر ﴿ولا أقول﴾ مساعدة لكم كما تقولون ﴿للذين تزدرى أعينكم﴾ أى تقتحمهم وتحتقرهم من زراه اذاعابه واسناد الازدراء الى أعينهم بالنظر الى قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا واما للاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا فى شأنهم مافعلوا ذلك أى لاأقول فى شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين ﴿لن يؤتيهم الله خيرا﴾ فى الدنيا أو فى الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيرى الدارين ان قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن أى وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذى تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوة تستتبع الأمور المذكورة وأنها لاتتسنى ممن ليس على تلك الصفات فان العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الأراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفى ذلك جميعا فكأنه قال لاأقول وجود تلك الأشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير ﴿الله أعلم بما فى أنفسهم﴾ من الايمان وانما اقتصر على نفى القول المذكور مع أنه عليه الصلاة والسلام جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما فى الدارين وأنهم على يقين راسخ فى الايمان جريا على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم وارشادا لهم الى مسلك الهداية بأن اللائق لكل أحد أن لايبت القول الا فيما يعلمه يقينا ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ولايجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة ﴿انى اذا﴾ أى اذا قلت ذلك ﴿لمن الظالمين﴾ لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لأنفسهم بذلك فان وباله راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم وقيل اذا قلت شيأ مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لأن تبعة تلك الأقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين ﴿قالوا يانوح قد جادلتنا﴾ خاصمتنا ﴿فأكثرت جدالنا﴾ أى أطلته أو أتيته بأنواعه فان اكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولما حجهم عليه الصلاة والسلام وأبرز لهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول وألقمهم الحجر برد شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب المعجل أو العذاب الذى أشير اليه فى قوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لايكون المراد باليوم يوم القيامة ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فيما تقول ﴿قال انما يأتيكم

به الله ان شاء﴾ يعنى أن ذلك ليس موكولا الى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى وانما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا أو آجلا ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه مالا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الاتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعوننى فى الكلام ﴿ولا ينفعكم نصحى﴾ النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من قول أو فعل وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو اعلام موقع الغى ليتقى وموضع الرشد ليقتفى ﴿ان أردت أن أنصح لكم﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ماسبق عليه والتقدير ان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة دليل على ما حذف من جواب قوله تعالى ﴿ان كان الله يريد أن يغويكم﴾ والتقدير ان كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى هذا على ما ذهب اليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ما ذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا ولا ينفعكم نصحى جزاء للشرط الأول والجملة جزاء للشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الأول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهارا للعجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وايذانا بأن ماسبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهدا فى ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع أنه محقق لامحالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ماوقع بازائه من ارادته تعالى لاغوائهم وانما اقتصر فى ذلك على مجرد ارادة الاغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة فى بيان غلبة جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لايجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للاشعار بتقدم ارادته تعالى زمانا كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وانما قدم على هذا الكلام مايتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء ردا عليهم من أول الامر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع مافيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وأن خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى اذا بشم وهلك ﴿هو ربكم﴾ خالقكم ومالك أمركم ﴿واليه ترجعون﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة ﴿أم يقولون افتراه﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول قوم نوح ان نوحا افترى ماجاء به مسندا الى الله عز وجل ﴿قل﴾ يانوح ﴿ان افتريته﴾ بالفرض البحت ﴿فعلى اجرامى﴾ اثمه ووبال اجرامى وهو كسب الذنب وقرئ بلفظ الجمع وينصره أن فسره الأولون بآثامى ﴿وأنا برئ مما تجرمون﴾ من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلا وجه لاعراضكم عنى ومعاداتكم لى وقال مقاتل يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه انما جئ به فى تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها لاسيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من المحاجة وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم ﴿وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك﴾ أى المصرين على الكفر وهو اقناط له عليه السلام من ايمانهم واعلام لكونه كالمحال الذى لا يصح توقعه ﴿الا من قد آمن﴾ الا من قد وجد منه ما كان يتوقع من ايمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى الا ماقد سلف ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ أى لا تحزن حزن بائس مستكين ولا تغتم بما

كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم ﴿واصنع الفلك﴾ ملتبسا ﴿بأعيننا﴾ أى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عز وجل حفاظا وحراسا يكلؤنه بأعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة ﴿ووحينا﴾ اليك كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا . عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذلا سبيل الى صيانة الروح من الغرق الا به فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بأن يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشئ سيصنعه بأمره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا واما للجنس . قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون حمل فى البطن الأول الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جنس البشر هو ومن معه مع ما يحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الأول الدواب والوحوش وفى الثانى الانس وفى الاعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وسمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا ﴿ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا﴾ أى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ماليس فيما لو قيل ولا تدعنى فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل ﴿انهم مغرقون﴾ أى محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل الى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين ﴿ويصنع الفلك﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وأياما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره أعنى قوله تعالى ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ استهزؤا به لعمله السفينة اما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لأنه كان يصنعها فى برية بهماء فى أبعد موضع من الماء وفى وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون يانوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا وقيل لانه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع انكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميدة مع مافيه من تحمل المشاق العظيمة التى لا تكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك ﴿قال ان تسخروا منا﴾ مستجهلين لنا فيما نحن فيه ﴿فانا نسخر منكم﴾ أى نستجهلكم فيما أنتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير فى منا اما لأن سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين أيضا أو لانهم كانوا يسخرون منهم أيضا الا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام اياهم بما فعلوا من

السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام اياهم بذلك والا فعده عليه الصلاة والسلام اياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الاخلاق الحميدة وانما أظهره جزاء بما صنعوا بعد اللتيا والتى فان سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم فى كل مرة والا لقيل ويقول ان تسخروا منا الخ بل انما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا أى ان تنسبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى الجهل وتسخروا منا لاجله فانا ننسبكم اليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى والتعرض لاسباب حلول سخط الله تعالى التى من جملتها استجهالكم ايانا وسخريتكم منا والتشبيه فى قوله تعالى ﴿كما تسخرون﴾ اما فى مجرد التحقق والوقوع أو فى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ غب ملأ لا فى الكيفيات والأحوال التى لا تليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام فكلا الامرين واقع فى الحال وقيل نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لاسداد له لأن حالهم اذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجرى مجراها فتأمل ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وهو عذاب الغرق ﴿ويحل عليه﴾ حلول الدين المؤجل ﴿عذاب مقيم﴾ هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى اما استفهامية فى حيز الرفع أو موصولة فى محل النصب بتعلمون وما فى حيزها ساد مسد مفعولين أو مفعول واحد ان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم اياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع مالا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة وكانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالاخزاء لما فى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة فى التهديد وتخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان فى غاية الجزالة ﴿حتى اذا جاء أمرنا﴾ حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر أو صفة لملأ وقد عرفت أن الحق هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم فى ايذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لأذيتهم لا مسارعته عليه الصلاة والسلام الى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام ﴿وفار التنور﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور . روى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو أبعد شئ من الماء على خرق العادة وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان عمل السفينة فى ذلك الموضع أو فى الهند أو فى موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعكرمة والزهرى أن التنور وجه الأرض وعن قتادة أشرف موضع فى الأرض أى أعلاه وعن على رضى الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر ﴿قلنا احمل فيها﴾ أى فى السفينة وهو جواب اذا ﴿من كل﴾ أى من كل نوع لابد منه فى الأرض ﴿زوجين﴾ الزوج ماله مشاكل من نوعه فالذكر زوج للانثى

كما هى زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولازالة ذلك الاحتمال قيل ﴿اثنين﴾ كل منهما زوج للآخر وقرئ على الاضافة وانما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما أمر به من الحمل لأنه يحتاج الى مزاولة الأعمال منه عليه الصلاة والسلام فى تمييز بعضه من بعض وتعيين الازواج فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى اليسرى فيجعلهما فى السفينة وأما البشر فانما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل أو لانها انما تحمل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد حملهم اياها ﴿وأهلك﴾ عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته و بنوه و نساؤهم ﴿الا من سبق عليه القول﴾ بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم فى قوله تعالى و لاتخاطبنى فى الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان أريد بالاهل الاهل ايمانا وهو الظاهر كما ستعرفه أو متصل ان أريد به الاهل قرابة و يكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجئ بعلى لكون السابق ضارا لهم كما جئ باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴿ومن آمن﴾ من غيرهم وافراد الاهل منهم للاستثناء المذكور وايثار صيغة الافراد فى آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلا ﴿وما آمن معه الا قليل﴾ قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله و بنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحق كانوا اعشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضا أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام و يافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية فى ايمانهم للايماء الى المعية فى مقر الامان والنجاة ﴿وقال﴾ أى نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى ان ربى لغفور رحيم ولو رجع الضمير الى الله تعالى لناسب أن يقال ان ربكم ولعل ذلك بعد ادخال ما أمر بحمله فى الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج أو أدخلها فى الفلك وقال للمؤمنين ﴿اركبوا فيها﴾ كما سيأتى مثله فى قوله تعالى وهى تجرى بهم والركوب العلو على شئ متحرك و يتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة فى ليس لأن المأمور به كونهم فى جوفها لافوقها كما ظن فان أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها فى البطن الأسفل والأنعام فى الاوسط وركب هو ومن معه فى الأعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك والسر فيه أن معنى الركوب العلو على شئ له حركة اما ارادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فاذا استعمل فى الاول يوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل فى الثانى يلوح بمحلية المفعول بكلمة فى فيقال ركبت فى السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلا فاذا ركبوا فى الفلك وقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها ﴿بسم الله﴾ متعلق باركبوا حال من فاعله أى اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين بسم الله ﴿مجريها ومرساها﴾ نصب على الظرفية أى وقت اجرائها وارسائها على أنهما اسما زمان أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما فى بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول و يجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدا وخبر فى موضع الحال من ضمير الفلك أى اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين أو جملة مقتضبة على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام اذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجرى واذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو و يجوز أن يكون الاسم مقحما كما فى قوله

الى الحول ثم اسم السلام عليكما و يراد بالله اجراؤها وارساؤها أى بقدرته وأمره وقرئ مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا ﴿ان ربى لغفور﴾ للذنوب والخطايا ﴿رحيم﴾ لعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه و رحمته على ماعليه رأى أهل السنة ﴿وهى تجرى بهم﴾ متعلق بمحذوف دل عليه الأمر بالركوب أى فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم ﴿فى موج كالجبال﴾ وهو ماارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها وماقيل من أن الماء طبق مابين السماء والأرض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان انما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ونادى نوح ابنه﴾ فان ذلك انما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر اذ حينئذ يمكن جريان ماجرى بين نوح عليه الصلاة والسلام و بين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل وقرئ ابنها وابنه بحذف الألف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه ومايقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لايقادر قدرها فان جناب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين وقرئ ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لايلائمه الاستدعاء الى السفينة فانه صريح فى أنه لم يقع فى حياته يأس بعد ﴿وكان فى معزل﴾ أى فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه واخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال ينزجر عما كان عليه و يقبل الايمان وقيل لم يكن الذى تقدم من قوله تعالى الا من سبق عليه القول نصا فى كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على ذلك ﴿يابنى﴾ بفتح الياء اقتصارا عليه من الألف المبدلة من ياء الاضافة فى قولك يابنيا وقرئ بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين لأن الراء بعدهما ساكنة ﴿اركب معنا﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى وحفص بادغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وانما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك ﴿ولاتكن مع الكافرين﴾ أى فى المكان وهو وجه الأرض خارج الفلك لافى الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه فى الايمان لأنه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر ﴿قال سآوى الى جبل﴾ من الجبال ﴿يعصمنى﴾ بارتفاعه ﴿من الماء﴾ زعما منه أن ذلك كسائر المياه فى أزمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود الى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بأن ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وأن لامحيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين له حقيقة الحال و يصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه و يتعرض لنفى ما أثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بأن يقول لايعصمك منه مفيدا لنفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره و لا لنفى الموصوف أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث ﴿قال لاعاصم اليوم من أمر الله﴾ سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولامجيب أى أحد من الناس للمبالغة فى نفى كون

الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات
المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الأسباب العادية وعبر عن الماء فى محل اضماره بأمر الله أى
عذابه الذى أشير اليه حيث قيل حتى اذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره وتنبيها لابنه على خطئه فى تسميته ماء
ويوهم أنه كسائر المياه التى يتفصى منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فان أمر الله لايغالب
وعذابه لايرد وتمهيدا لحصر العصمة فى جناب الله عز جاره بالاستثناء كانه قيل لاعاصم من أمر الله الا هو وانما قيل
﴿الا من رحم﴾ تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير وبالاجمال ثم التفصيل واشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب
سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق مايتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع
أطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لايغنى عنه شيئاً وارشاده الى العياذ بالمعاذ الحق عز حماه وقيل لا مكان يعصم
من أمر الله الا مكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لا عاصم لاذا عصمة الا من رحمه الله تعالى ﴿وحال بينهما
الموج﴾ أى بين نوح وبين ابنه فانقطع ما بينهما من المجاوبة لابين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى ﴿فكان من المغرقين﴾
اذ هو انما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لابينه وبين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما
وان لم يحل بينه وبين الملتجىء اليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع
غير مفتقر الى البيان وفى ايراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم ﴿وقيل ياأرض ابلعى﴾ أى انشفى استعير له من
ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى ﴿ماءك﴾ أى ما على وجهك من ماء
الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والأنهار وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لان المقام
مقام النقص والتقليل لامقام التفخيم والتهويل ﴿وياسماء أقلعى﴾ أى أمسكى عن ارسال المطر يقال أقلعت السماء
اذا انقطع مطرها وأقلعت الحمى أى كفت ﴿وغيض الماء﴾ أى نقص ما بين السماء والأرض من الماء ﴿وقضى الأمر﴾
أى أنجز ماوعد الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وانجائه بأهله أو أتم الأمر ﴿واستوت﴾ أى استقرت الفلك
﴿على الجودى﴾ هو جبل بالموصل أو بالشأم أو بآمل . روى أنه عليه الصلاة والسلام ركب فى الفلك فى عاشر
رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أى هلاكا لهم والتعرض
لوصف الظلم للاشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ماسبق من قوله تعالى ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ولقد بلغت
الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون ولعمرى
ان ذلك فوق مايصفه الواصفون فحرى بنا أن نوجز الكلام فى هذا الباب ونفوض الأمر الى تأمل أولى الألباب والله
عنده علم الكتاب ﴿ونادى نوح ربه﴾ أى أراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى ﴿فقال رب ان ابنى من أهلى﴾ وقد
وعدتنى انجاءهم فى ضمن الأمر بحملهم فى الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل مافيه من الاجمال ﴿وان وعدك
الحق﴾ أى وعدك ذلك أو ان كل وعد تعده حق لايتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا أوليا ﴿وأنت
أحكم الحاكمين﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم أو أنت أكثر حكمة من ذوى الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من
الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام اذ نادى ربه انى مسنى الضر
وأنت أرحم الراحمين ﴿قال يانوح﴾ لما كان دعاؤه عليه الصلاة السلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان
من أهله نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى ﴿انه ليس من أهلك﴾ أى ليس منهم أصلا لأن مدار الأهلية هو القرابة
الدينية ولاعلاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى

التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى
﴿انه عمل غير صالح﴾ أصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء فانما هى اقبال وادبار
وايثار غير صالح على فاسد اما لأن الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصاً فيما هو من قبيل
الفاسد المحض كالقتل والمظالم واما للتلويح بأن نجاة من نجا انما هى لصلاحه وقرأ الكسائى ويعقوب انه عمل غير
صالح أى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ما ذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله
وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهى عن سؤال انجائه الا أنه جىء بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك
اندراجا أوليا فقيل ﴿فلا تسألنى﴾ أى اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب منى ﴿ما ليس لك به علم﴾ أى مطلبا
لاتعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسئول الذى هو مفعول للسؤال أوطلبا
لاتعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى واردا بصريحه فى كل من
معلوم الفساد ومشتبه الحال ويجوز أن يكون المعنى ما ليس لك علم بأنه صواب أوغير صواب فيكون النهى واردا فى
مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الأولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه
وهذا كما ترى صريح فى أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجاء ابنه مع سبق
وعده بانجاء أهله وهو منهم كما قيل فان النهى عن استفسار مالم يعلم غير موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشىء داع الى
الاستفسار عنه لا الى تركه بل هو دعاء منه لانجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد اما بتقريبه الى الفلك
بتلاطم الأمواج أو بتقريبها اليه وقيل أو بانجائه فى قلة الجبل ويأباه تذكير الوعد فى الدعاء فانه مخصوص بالانجاء فى الفلك
وقوله تعالى لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ومجرد حيلولة الموج بينهما لايستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور
امكان عصمة الله تعالى اياه برحمته وقد وعد بانجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لايجوز عليه عليه السلام
أن يدعوه الى الفلك أو يدعو ربه لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الالتجاء الى الجبل ليس بنص فى الاصرار
على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه أن الجبل أيضا يجرى مجراه أو لكراهة
الاحتباس فى الفلك بل قوله سآوى الى جبل يعصمنى من الماء بعد ما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولاتكن مع
الكافرين ربما يطمعه عليه السلام فى ايمانه حيث لم يقل أكون معهم أوسنأوى أو يعصمنا فان افراده نفسه بنسبة الفعلين
المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام الا أنه
عليه الصلاة والسلام لو تأمل فى شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله فى كل ما يأتى ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه
المستثنى من أهله ولذلك قيل ﴿انى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ فعبر عن ترك الاولى بذلك وقرىء فلا تسألن بغير ياء
الاضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء ﴿قال رب انى أعوذ بك أن أسألك﴾ أى أطلب منك من بعد ﴿ما ليس لى به علم﴾
أى مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أوطلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لا أعلم
أنه صواب أو غير صواب على ما مر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك
مبالغة فى التوبة واظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب اليك
أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لامحيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته
قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك ﴿والاتغفرلى﴾ ماصدر عنى من السؤال المذكور ﴿وترحمنى﴾ بقبول توبتى
﴿أكن من الخاسرين﴾ أعمالا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لاسيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة

التى هى النجاة وهلاك الاعداء والاشتغال بما لا يعنى خصوصا بمبادى خلاص من قيل فى شأنه انه عمل غير صالح والتضرع الى الله تعالى فى أمره معاملة غير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الامر واستواء الفلك على الجودى والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع فى الخارج اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لا بعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لا يقدم فى الامور الدينية الاصولية الا بعد اليقين قياسا على ما وقع فى قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذى هو أول القصة وكان حقها أن يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر فى موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى واذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذى هو تثنية التقريع ولظن أن المجموع تقريع واحد وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضا بل لأن ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر ما مر من الجواب المستدعى لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها الى ذكر قبولها فى ضمن الأمر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجىء مفصلا ولا ريب فى أن هذه المعانى آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لا يكاد يفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وأن ذلك انما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك انما يكون بتمام الطوفان فلا جرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة أخرى هى التصريح بهلاكه من أول الأمر ولو ذكر النداء الثانى عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الأمر الى أن يرد قوله انه ليس من أهلك أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الأمر ثم ذكر الأمر الوارد على الأرض والسماء الذى هو عبارة عن تعلق الارادة الربانية الأزلية بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودى فقصت القصة الى هذه المرتبة وبين ذلك أى بيان ثم تعرض لما وقع فى تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله ﴿قيل يانوح اهبط﴾ أى انزل من الفلك وقرىء بضم الباء ﴿بسلام﴾ ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة ﴿منا﴾ أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح فى العالمين ﴿وبركات عليك﴾ أى خيرات نامية فى نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق وقرىء بركة وهذا اعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه فى كل ما يأتى وما يذر ﴿وعلى أمم﴾ ناشئة ﴿ممن معك﴾ الى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيامة ﴿وأمم سنمتعهم﴾ أى ومنهم على أنه خبر حذف لدلالة ما سبق عليه فان ايراد الأمم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعنى ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم ممتعون فى الدنيا معذبون فى الآخرة وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا

عليهم صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أى وعلى أمم هم الذين معك وانما سموا أمما لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الأمم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالأمم المشار اليهم فى قوله تعالى وأمم سنمتعهم بعض الأمم المتشعبة منهم وهى الأمم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة ويبقى أمر الأمم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففى دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لأن من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل ﴿ثم يمسهم﴾ اما فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا ﴿منا عذاب أليم﴾ عن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم ﴿تلك﴾ اشارة الى ما قص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام اما لكونها بتقضيها فى حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهى مبتدأ خبره ﴿من أنباء الغيب﴾ أى من جنسها أى ليست من قبيل سائر الأنباء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها ﴿نوحيها اليك﴾ خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أى موحاة اليك ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك﴾ خبر آخر أى مجهولة عندك وعند قومك ﴿من قبل هذا﴾ أى من قبل ايحائنا اليك واخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحى أو من قبل هذا الوقت أو حال من الهاء فى نوحيها أو الكاف فى اليك أى جاهلا أنت وقومك بها وفى ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمه اذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم ﴿فاصبر﴾ متفرع على الايحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا أى واذ قد أوحيناها اليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك الخ ﴿ان العاقبة﴾ بالظفر فى الدنيا وبالفوز فى الآخرة ﴿للمتقين﴾ كما شاهدته فى نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه اسوة حسنة فهى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للامر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو فى أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الأولى منه أعنى التوقى من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهى أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فان العاقبة للصابرين ﴿والى عاد﴾ متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى ﴿أخاهم﴾ أى وأرسلنا الى عاد أخاهم أى واحدا منهم فى النسب كقولهم يا أخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب هنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر فى سورة الأعراف وقوله تعالى ﴿هودا﴾ عطف بيان لأخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فانه هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن العوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن عم أبى عاد وانما جعل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب فى اقتفائه ﴿قال﴾ لما كان ذكر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه أجيب

عنه بطريق الاستئناف فقيل قال ﴿ياقوم اعبدوا الله﴾ أى وحده كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿مالكم من اله غيره﴾ فانه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للامر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه ﴿ان أنتم﴾ ما أنتم باتخاذكم الأصنام شركاء له أو بقولكم ان الله أمرنا بعبادتها ﴿الا مفترون﴾ عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ياقوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى﴾ خاطب به كل نبى قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه وامحاضا للنصيحة فانها مادامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى لا يتأتى الا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الأجر ﴿أفلا تعقلون﴾ أى أتغفلون عن هذه القضية أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقلونها أو أتجهلون كل شئ فلا تعقلون شيأ أصلا فان هذا مما لا ينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أى اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة ﴿ثم توبوا اليه﴾ أى توسلوا اليه بالتوبة وأيضا التبرؤ من الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده ﴿يرسل السماء﴾ أى المطر ﴿عليكم مدرارا﴾ أى كثير الدرور ﴿ويزدكم قوة﴾ مضافة ومنضمة ﴿الى قوتكم﴾ أى يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة ﴿ولا تتولوا﴾ أى لا تعرضوا عما دعوتكم اليه ﴿مجرمين﴾ مصرين على ما كنتم عليه من الاجرام ﴿قالوا ياهود ماجئتنا ببينة﴾ أى بحجة تدل على صحة دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر ﴿وما نحن بتاركى آلهتنا﴾ أى بتاركى عبادتها ﴿عن قولك﴾ أى صادرين عنه أى صادرا تركنا عن ذلك باسناد حال الوصف الى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم فى سورة الأعراف أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أى بمصدقين فى شئ مما تأتى وتذر فيندرج تحته ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد فى العتو مالا يخفى ﴿ان نقول الا اعتراك﴾ أى مانقول الا قولنا اعتراك أى أصابك ﴿بعض آلهتنا بسوء﴾ بجنون لسبك اياها وصدك عن عبادتها وحطك لها عن رتبة الألوهية والمعبودية بما مر من قولك مالكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون والتنكير فى سوء للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبئ عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول والا لغو لأن الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعد كلامك الا من قبيل مالا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد الى سبيل الترقى من الأدنى الى الأعلى حيث أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ماجاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وان لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك

المرتبة أيضا حيث قالوا ماقالوا قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون من دونه﴾ أى من اشراككم من دون الله أى من غير أن ينزل به سلطانا كما قال فى سورة الأعراف أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان أو مما تشركونه من آلهة غير الله أجاب به عن مقالتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم مما يضر أو ينفع وأنها بمعزل من ذلك ولما كان ماوقع أولا منه عليه الصلاة والسلام فى حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الألوهية انما وقع فى ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه مما يورث شينا حتى زعموا أنها تصيبه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسميه المصدرة بان وأشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانة بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون فى ايصال الكيد اليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الانظار والامهال فى ذلك فقال ﴿فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون﴾ أى ان صح مالوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على اضرار من ينال منها ويصد عن عبادتها ولو بطريق ضمنى فانى برئ منها فكونوا أنتم معها جميعا وباشروا كيدى ثم لا تمهلونى ولا تسامحونى فى ذلك فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ماقالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من أعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادى المضادة والمضارة وحثهم على التصدى لأسباب المعازة والمعارة فلم يقدروا على مباشرة شئ مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ الى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال ﴿انى توكلت على الله ربى وربكم﴾ يعنى انكم وان بذلتم فى مضارتى مجهودكم لا تقدرون على شئ مما تريدون بى فانى متوكل على الله تعالى وانما جئ بلفظ الماضى لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءته وحفظى عن غوائلكم وهو مالكى ومالككم لا يصدر عنكم شئ ولا يصيبنى أمر الا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله ﴿مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها﴾ أى الا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الأخذ بالناصية تمثيل لذلك ﴿ان ربى على صراط مستقيم﴾ تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على اذ لا يضيع عنده معتصم ولا يفتات عليه ظالم والاقتصار على اضافة الرب الى نفسه اما بطريق الاكتفاء لظهور المراد واما لأن فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام ﴿فان تولوا﴾ أى تتولوا بحذف احدى التاءين أى ان تستمروا على ما كنتم عليه من التولى والاعراض ﴿فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم﴾ أى لم أعاتب على تفريط فى الابلاغ وكنتم محجوجين بأن بلغكم الحق فأبيتم الا التكذيب والجحود ﴿ويستخلف ربى قوما غيركم﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف فى ديارهم وأموالهم قوما آخرين أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا يعذرنى ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفى اقتصار اضافة الرب عليه عليه السلام رمز الى اللطف به والتدمير للمخاطبين ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليكم ﴿شيئا﴾ من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقط منه النون ﴿ان ربى على كل شئ حفيظ﴾ أى رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شئ فكيف يضره شئ وهو الحافظ للكل ﴿ولما جاء أمرنا﴾ أى نزل عذابنا وفى التعبير عنه بالأمر مضافا الى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجئ مالا يخفى من التفخيم والتهويل أو ورد أمرنا بالعذاب ﴿نجينا هودا والذين

آمنوا معه﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿برحمة﴾ عظيمة كائنة لهم ﴿منا﴾ وهى الايمان الذى أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ أى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم اربا اربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة و لاعذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وان لم تكن مقيدة بمجىء الأمر لكن جىء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ ﴿وتلك عاد﴾ أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة أو لأن الاشارة الى قبورهم و آثارهم ﴿جحدوا بآيات ربهم﴾ كفروا بها بعد ما استيقنوها ﴿وعصوا رسله﴾ جمع الرسل مع أنه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم واظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لانفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ما أتى به هود وغيره من الأنبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ من كبرائهم و رؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم فان الاتباع للأمر من أوصاف الأسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من عند عنداً وعنداً اذا طغا والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى وأطاعوا من حداهم الى الردى ﴿وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة﴾ ابعاداً عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لاتفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم يعنى أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا ﴿ويوم القيامة﴾ أى أتبعوا يوم القيامة أيضا لعنة وهى عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الأولى عليها وللايذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم تجمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ايذانا باختلاف نوعى الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الاخروية الثواب والرحمة ﴿ألا ان عاداً كفروا ربهم﴾ أى بربهم أو نعمة ربهم حملا له على نقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه ﴿ألا بعداً لعاد﴾ دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للمبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم ﴿قوم هود﴾ عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد الثانية عاد ارم والايماء الى أن استحقاقهم للبعد بسبب ماجرى بينهم و بين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه ﴿والى ثمود أخاهم صالحا﴾ عطف على ماسبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن اسف بن ماشج ابن عبيد بن جادر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لان يسأل و يقال ماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف ﴿قال ياقوم اعبدوا الله﴾ أى وحده وعلل ذلك بقوله ﴿مالكم من اله غيره﴾ ثم زيد فيما يبعثهم على الايمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الاخلاص فيه بقوله ﴿هو أنشأكم من الارض﴾ أى هو كونكم وخلقكم منها لاغيره قصر قلب أو قصر افراد فان خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مرارا من أن خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التى ستوجد الى يوم القيامة انطواء اجماليا وقيل ان خلق آدم عليه الصلاة والسلام وانشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب

انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبر ﴿واستعمركم﴾ من العمر أى عمركم واستبقاكم ﴿فيها﴾ أو من العمارة أى أقدركم على عمارتها أو أمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم و يرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لمثلكم ﴿فاستغفروه ثم توبوا اليه﴾ فان ما فصل من فنون الاحسان داع الى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد زيد فى بيان ما يوجب ذلك فقيل ﴿ان ربى قريب﴾ أى قريب الرحمة كقوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ﴿مجيب﴾ لمن دعاه وسأله وقد روعى فى النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما فى الوجود أعنى الاجابة ﴿قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا﴾ أى كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيداً و مستشارا فى الأمور وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاضلا خيراً نقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿قبل هذا﴾ الذى باشرته من الدعوة الى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكأنهم لم يكونوا الى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة الى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوءاً بالمد والهمزة ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ أى عبدوه والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿واننا لفى شك مما تدعونا اليه﴾ من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة ﴿مريب﴾ أى موقع فى الريبة من أرابه أى أوقعه فى الريبة أى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب اذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالاسناد مجازى والتنوين فيه وفى شك للتفخيم ﴿قال ياقوم أرأيتم﴾ أى أخبرونى ﴿ان كنت﴾ فى الحقيقة ﴿على بينة﴾ أى حجة ظاهرة و برهان وبصيرة ﴿من ربى﴾ مالكى ومتولى أمرى ﴿وآتانى منه﴾ من جهته ﴿رحمة﴾ نبوة وهذه الأمور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتباراً لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة ﴿فمن ينصرنى من الله﴾ أى ينجينى من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ماسبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ان عصيته﴾ أى بالمساهلة فى تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وانكار نصرته أدخل ﴿فما تزيدوننى﴾ اذن باستتباعكم اياى كما ينبىء عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أى لاتفيدوننى اذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه ﴿غير تخسير﴾ أى غير أن تجعلونى خاسرا بابطال أعمالى وتعريضى لسخط الله تعالى أو فما تزيدوننى بما تقولون غير أن أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وايتائه النبوة ﴿و ياقوم هذه ناقة الله﴾ الاضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق ﴿لكم آية﴾ معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل ما فى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تأخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم خبرا وعاملا فى آية ﴿فذروها﴾ خلوها وشأنها ﴿تأكل فى أرض الله﴾ ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الأرض الى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ بولغ فى النهى عن التعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادى الاصابة ونكر السوء أى لاتضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشىء من السوء فضلا عن عقرها وقتلها ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ أى قريب النزول . روى أنهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاثبة ناقة عشراء

مخترجة جوفاء و براء وقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولداً مثلها فى العظم فآمن به جندع ابن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من الايمان دواب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل مافيها ثم تتفحج فيحلبون ماشاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك ﴿فعقروها﴾ قيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها ﴿فقال﴾ لهم صالح ﴿تمتعوا﴾ أى عيشوا ﴿فى داركم﴾ أى فى منازلكم أو فى الدنيا ﴿ثلاثة أيام﴾ قيل قال لهم تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ﴿ذلك﴾ اشارة الى مايدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه ﴿وعد غير مكذوب﴾ أى غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله ويوم شهدناه سليما وعامراً أو غير مكذوب كأن الواعد قال له أفى بك فان وفى به صدقه والا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أى عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه مالايخفى من التهويل ﴿نجينا صالحا والذين آمنوا معه﴾ متعلق بنجينا أو بآمنوا ﴿برحمة﴾ بسبب رحمة عظيمة ﴿منا﴾ وهى بالنسبة الى صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كامر أو ملتبسين برحمة ورأفة منا ﴿ومن خزى يومئذ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزى يومئذ أى من ذلته ومهانته أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا اياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه هنا وفى المعارج فى قوله تعالى من عذاب يومئذ وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ ﴿ان ربك﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿هو القوى العزيز﴾ القادر على كل شئ والغالب عليه لاغيره ولكون الاخبار بتنجية الأولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب أهم ذكرها أولاً ثم أخبر بهلاك الأعداء فقال ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ عدل عن المضمر الى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم واشعاراً بعليته لنزول العذاب بهم ﴿الصيحة﴾ أى صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء ﴿فأصبحوا﴾ أى صاروا ﴿فى ديارهم﴾ أى بلادهم أو مساكنهم ﴿جاثمين﴾ هامدين موتى لايتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الاخذ وسرعته اللهم انا نعوذ بك من حلول غضبك. قيل لما رأوا العلامات التى بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿كأن لم يغنوا﴾ أى كأنهم لم يقيموا ﴿فيها﴾ فى بلادهم أو فى مساكنهم وهو فى موقع الحال أى أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط ﴿ألا ان ثمود﴾ وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا وفى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين

﴿كفروا ربهم﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى ﴿ألا بعداً لثمود﴾ وقرأ الكسائى بالتنوين ﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم﴾ وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم جبريل وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وانما أسند اليهم مطلق المجئ بالبشرى دون الارسال لانهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل الى قوم لوط لقوله تعالى انا أرسلنا الى قوم لوط وانما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود فى السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الاسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا والى ثمود أخاهم صالحا ثم رجع اليه حيث قيل والى مدين أخاهم شعيبا ﴿بالبشرى﴾ أى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها باسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وقوله وبشروه بغلام عليم وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم والاظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك ولما كان الاخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ماقالوا أجيب بأنهم ﴿قالوا سلاما﴾ أى سلمنا أو نسلم عليك سلاما ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولا ذا سلام أو ذكروا سلاما ﴿قال سلام﴾ أى عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم بأحسن من تحيتهم وقرئ سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبلة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما ﴿فما لبث﴾ أى ابراهيم ﴿أن جاء بعجل﴾ أى فى المجئ به أو مالبث مجيئه بعجل ﴿حنيذ﴾ أى مشوى بالرضف فى الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال ﴿فلما رأى أيديهم لاتصل اليه﴾ لايمدون اليه أيديهم للاكل ﴿نكرهم﴾ أى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره بمعنى وانما أنكرهم لأنهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير وقد روى أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى أيديهم فى اللحم ولاتصل اليه أيديهم وهذا الانكار منه عليه الصلاة والسلام راجع الى فعلهم المذكور وأما انكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وانما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس ألا يرى الى قوله تعالى فى سورة الذاريات سلام قوم منكرون ﴿وأوجس منهم﴾ أى أحس أو أضمر من جهتهم ﴿خيفة﴾ لما ظن أن نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومه وانما أخر المفعول الصريح عن الظرف لأن المراد الاخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيئاً هو الخيفة لا أنه أوجس الخيفة من جهتهم لامن جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿قالوا لاتخف﴾ ماقالوه بمجرد ما رأوا منه مخايل الخوف ازالة له منه بل بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى فى سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك ﴿انا أرسلنا﴾ ظاهره أنه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما أن قوله تعالى انا نبشرك تعليل لذلك فان ارسالهم الى قوم آخرين يوجب أمنهم من الخوف أى أرسلنا بالعذاب ﴿الى قوم لوط﴾ خاصة الا أنه ليس كذلك فان قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين صريح فى أنهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك ﴿وامرأته قائمة﴾ وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من

ضمير قالوا أى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم ﴿فضحكت﴾ سرورا بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا وقيل بوقوع الأمر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فانى أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء ﴿فبشرناها باسحق﴾ أى عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا ﴿ومن وراء اسحق يعقوب﴾ بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها أى ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف أى من بعد اسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيي أو واقع فى الحكاية بعد أن ولدا فسميا بذلك وتوجيه البشارة ههنا اليها مع أن الأصل فى ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد ﴿قالت﴾ استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت اذ بشرت بذلك فقيل قالت ﴿ياويلتا﴾ أصل الويل الخزى ثم شاع فى كل أمر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة كما فى يالهفا وياعجبا وقرأ الحسن على الأصل وأمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ومعناه ياويلتى احضرى فهذا أوان حضورك وقيل هى ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت ﴿أألد وأنا عجوز﴾ بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة ﴿وهذا﴾ الذى تشاهدونه ﴿بعلى﴾ أى زوجى وأصل البعل القائم بالامر ﴿شيخا﴾ وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الاشارة وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلى بدل من اسم الاشارة أو بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير فى أألد لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله أى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك وانما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز داؤهن عقام ولأن البشارة متوجهة اليها صريحا ولأن العكس فى البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة الى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه ما لا يخفى من المحذور واقتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لانها المستبعد وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد ﴿ان هذا﴾ أى ما ذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا ﴿لشىء عجيب﴾ بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقى ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها فى ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها تعجبها من ذلك لانها كانت ناشئة فى بيت النبوة ومهبط الوحى والآيات ومظهر المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما يتعلق بذلك مشيئته الازلية لاسيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده والى ذلك أشاروا بقوله تعالى ﴿رحمة الله﴾ التى وسعت كل شىء واستتبعت كل خير وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها ﴿وبركاته﴾ أى خيراته النامية المتكاثرة فى كل باب التى من جملتها هبة الاولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بنى اسرائيل لأن الانبياء منهم وكلهم من ولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿عليكم أهل البيت﴾ نصب على المدح أو الاختصاص لأنهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه الصلاة السلام أيضا ليكون جوابهم لها جوابا له أيضا ان خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به

انكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شىء قدير ولستم بأهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شىء وبركاته أى خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم ﴿انه حميد﴾ فاعل ما يستوجب الحمد ﴿مجيد﴾ كثير الخير والاحسان الى عباده والجملة لتعليل ما سبق من قوله رحمة الله وبركاته عليكم ﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع﴾ أى ما أوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبى من كل وجه بل له مدخل تام فى السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لأنه مصب الفائدة فان بتأخير ما حقه التقديم تبقى النفس منتظرة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن ﴿وجاءته البشرى﴾ ان فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسببية ذهاب الخوف ومجىء السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى ﴿يجادلنا فى قوم لوط﴾ أى جادل رسلنا فى شأنهم وعدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفق يجادلنا ظاهرة وأما ان فسرت ببشارة الولد أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته اياهم أنه قال لهم حين قالوا له انا مهلكوا أهل هذه القرية أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ان قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون ابراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم فى شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التى من جملتهم قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف وأما الذى علمه عليه السلام بعد النهى عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لا دخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق ﴿ان ابراهيم لحليم﴾ غير عجول على الانتقام ممن أساء اليه ﴿أواه﴾ كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس ﴿منيب﴾ راجع الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ما حمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة ﴿ياابراهيم﴾ أى قالت الملائكة ياابراهيم ﴿أعرض عن هذا﴾ الجدال ﴿انه﴾ اى الشأن ﴿قد جاء أمر ربك﴾ أى قدره الجارى على وفق قضائه الازلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء فى أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر ﴿وانهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صور غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك ﴿سىء بهم﴾ أى ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو سىء وسيئت باشمام السين الضم . روى أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الأرض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط ﴿وضاق بهم ذرعا﴾ أى ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت

نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازا أى ان بدنه ضاق قدره من احتمال ماوقع وقيل الذراع اسم للجارحة من المرفق الى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم ذرعاقصرها كما أن معنى سعتها و بسطتها طولها و وجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع اذا مدها ليتناول ما يتناول الطويل الذراع تقاصرعنه وعجز عن تعاطيه فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الأمر ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ شديد من عصبه اذا شده ﴿وجاءه﴾ أى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه ﴿قومه يهرعون اليه﴾ أى يسرعون كأنما يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى ﴿ومن قبل﴾ أى من قبل هذا الوقت ﴿كانوا يعملون السيئات﴾ أى جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيئات فضروا بها وتمرنوا فيهاحتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين ﴿قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم﴾ فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولايجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لالعدم مشروعيته فان تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأيا ما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم واظهار آلشدة امتعاضه مما أو ردوا عليه طمعا فى أن يستحيوا منه و يرقوا له اذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بأن لا مناكحة بينهم وهو الأنسب بقولهم لقد علمت مالنا فى بناتك من حق كما ستقف عليه ﴿فاتقوا الله﴾ بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم ﴿ولا تخزون فى ضيفى﴾ أى لا تفضحونى فى شأنهم فان اخزاء ضيف الرجل وجاره اخزاء له أو لا تخجلونى من الخزاية وهى الحياء ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ يهتدى الى الحق الصريح و يرعوى عن الباطل القبيح ﴿قالوا﴾ معرضين عما نصحهم به من الأمر بتقوى الله والنهى عن اخزائه مجيبين عن أول كلامه ﴿لقد علمت مالنا فى بناتك من حق﴾ مستشهدين بعلمه بذلك يعنون انك قد علمت أن لا سبيل الى المناكحة بيننا و بينك وما عرضك الا عرض سابرى و لا مطمع لنا فى ذلك ﴿وانك لتعلم ما نريد﴾ من اتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغى ﴿قال لو أن لى بكم قوة﴾ أى لفعلت بكم مافعلت وصنعت ما صنعت كقوله تعالى و لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴿أو آوى الى ركن شديد﴾ عطف على أن لى بكم الى آخره لما فيه من معنى الفعل أى لو قويت على دفعكم بنفسى أو أويت الى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد. روى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب ﴿قالوا﴾ أى الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة قومه ﴿يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك﴾ بضرر و لا مكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه رب العزة جل جلاله فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم كما قال عز وعلا فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط قوما سحرة ﴿فأسر بأهلك﴾ بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القرآن من السرى والفاء لترتيب الأمر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الأمر والنهى من جنابه عز وجل اليه عليه السلام ﴿بقطع

من الليل﴾ بطائفة منه ﴿ولا يلتفت منكم﴾ أى لا يتخلف أو لا ينظر الى ورائه ﴿أحد﴾ منك ومن أهلك وانما نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير فان من يلتفت الى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفة أو لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم ﴿الا امرأتك﴾ استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك و يؤيده أنه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك وقرئ بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما و مجرد كونها معهم وذلك لا يستدعى الأمر بالاسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسرى هى بنفسها كما يروى أنه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسرى بها عليه السلام من غير أمر بذلك اذ موجب النصب انما هو عدم الأمر بالاسراء بها لا النهى عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخالفا للنهى لا يجدى نفعا لأن انصراف الاستثناء الى الالتفات يستدعى بقاء الأهل على العموم فيكون الاسراء بها مأمورا به قطعا وفى حمل الأهلية فى احدى القراءتين على الأهلية الدينية وفى الأخرى على النسبية مع أن فيه مالايخفى من التحكم والاعتساف كر على ما فر منه من المناقضة فالأولى حينئذ جعل الاستثناء على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذى فى قوله تعالى ما فعلوه الا قليل منهم فان ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الأفصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون أكثر القراء على غير الأفصح ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله ﴿انه مصيبها ما أصابهم﴾ من العذاب وهو امطار الأحجار وان لم يصبها الخسف والضمير فى انه للشأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما أصابهم مبتدأ والجملة خبر لان الذى اسمه ضمير الشأن وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم و لا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع ﴿ان موعدهم الصبح﴾ أى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للامر بالاسراء والنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع ﴿أليس الصبح بقريب﴾ تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع فى الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب و روى أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا ذلك وانما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولانه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح ﴿جعلنا عاليها﴾ أى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف ﴿سافلها﴾ أى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس أيضا لتهويل الأمر وتفظيع الخطب لأن جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له . روى أنه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب ﴿وأمطرنا عليها﴾ على أهل المدائن أو شذاذهم ﴿حجارة من سجيل﴾ من طين متحجر كقوله حجارة من طين وأصله سنك كل فعرب وقيل هو من أسجله اذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشئ المرسل أو مثل العطية فى الادرار أو من السجل أى مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما ﴿منضود﴾ نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الأمطار ﴿مسومة﴾ معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض أو باسم من ترمى به ﴿عند

ربك﴾ فى خزائنه التى لايتصرف فيها غيره عز وجل ﴿وماهى﴾ أى الحجارة الموصوفة ﴿من الظالمين﴾ من كل ظالم ﴿ببعيد﴾ فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمتك ما من ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم وأسفارهم الى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أواجرائه على موصوف مذكر أى بشئ بعيد أو بمكان بعيد فانها وان كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الأرض الا أنها حين هوت منها فهى أسرع شئ لحوقا بهم فكانها بمكان قريب منهم أو لانه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث ﴿والى مدين﴾ أى أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام أوجعل اسما للقبيلة بالغلبة أوأهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه ﴿أخاهم﴾ أى نسيبهم ﴿شعيبا﴾ وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى والى ثمود أخاهم صالحا أى وأرسلنا الى مدين أخاهم شعيبا ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام ﴿ياقوم اعبدوا الله﴾ وحده ولاتشركوا به شيئاً ﴿مالكم من اله غيره﴾ تحقيق للتوحيد وتعليل للامر به وبعد ما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادى ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ كى تتوسلوا بذلك الى بخس حقوق الناس ﴿انى أراكم بخير﴾ أى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ماتأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها أوأراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقبت بعلة أخرى أعنى قوله عز وجل ﴿وانى أخاف عليكم﴾ ان لم تنتهوا عن ذلك ﴿عذاب يوم محيط﴾ لايشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى وأحيط بثمره واصله من احاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أوعذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة وهى حال العذاب على الاسناد المجازى وفيه من المبالغة مالايخفى فان اليوم زمان يشتمل على ماوقع فيه من الحوادث فاذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب مااشتمل عليه منه كما اذا أحاط بنعيمه ويجوز أن يكون هذا تعليلا للامر والنهى جميعا ﴿وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أى بالعدل من غير زيادة ولانقصان فان الزيادة فى الكيل والوزن وان كان تفضلا مندوبا اليه لكنها فى الآلة محظورة كالنقص فلعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وانما أمر بتسويتهما وتعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على أنه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم اصلاح ماأفسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم ﴿ولا تبخسوا الناس﴾ بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما ﴿أشياءهم﴾ التى يشترونها بهما وقد صرح بالنهى عن البخس بعد ما علم ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والأمر بابقائه اهتماما بشأنه وترغيبا فى ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز أن يكون المراد بالأمر بايفاء المكيال والميزان الأمر بايفاء المكيلات والموزونات ويكون النهى عن البخس عاما للنقص فى المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما فى قوله تعالى ﴿ولاتعثوا فى الأرض مفسدين﴾ فان العثى يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كأخذ العشور فى المعاملات قال زهير بن أبى سلمى

أفى كل أسواق العراق اتاوة ... وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

والعثى فى الأرض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج مايقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من

خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولا تعثوا فى الأرض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم ﴿بقية الله﴾ أى ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطى المحرمات ﴿خير لكم﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثورا بل شر محض وان زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى يمحق الله الربو ويربى الصدقات ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ بشرط أن تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لا محالة أوان كنتم مصدقين لى فى مقالتى لكم وقيل البقية الطاعات كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرئ تقية الله بالفوقانية وهى تقواه عن المعاصى ﴿وماأنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وانما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت اذ أنذرت ولم آل فى ذلك جهدا أوما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى ان لم تتركوا ماأنتم عليه من سوء الصنيع ﴿قالوا ياشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا﴾ من الأوثان أجابوا بذلك أمره عليه السلام اياهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الأصنام ولقد بالغوا فى ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بانكار الوحى الآمر بذلك حتى ادعوا أن لا آمر به من العقل واللب أصلا وأنه من أحكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التى هى من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التى توارثناها أبا عن جد وانما جعلوه عليه السلام مأمورا مع أن الصادر عنه انما هو الأمر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحى وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه اليهم وتخصيصهم باسناد الأمر الى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لأنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك وكانوا اذا رأوه يصلى يتغامزون ويتضاحكون فكانت هى من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرئ أصلواتك ﴿أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء﴾ جواب عن أمره عليه السلام بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ماأى أو أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء من الأخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرئ بالتاء فى الفعلين عطفا على مفعول تأمرك أى أصلاتك تأمرك أن تفعل أنت فى أموالنا ماتشاء وتجويز العطف على ما قيل يستدعى أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام ايجاب الايفاء والعدل فى معاملاتهم لانفس الايفاء فان ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وانما لم نقل عطفا على أن نترك لأن الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام اياهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك مايعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس فى وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الأمر ويستدعى أن يصدر عنه عليه السلام فى أثناء الدعوة مايدل على ذلك أو يوهمه وأنى ذلك فتأمل وقرئ بالنون فى الأول والتاء فى الثانى عطفا على أن نترك أى أوأن نفعل نحن فى أموالنا عند المعاملة ما تشاء أنت من التسوية والايفاء ﴿انك لأنت الحليم الرشيد﴾ وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وانما أرادوا بذلك وصفه بضديهما كقول الخزنة ذق انك أنت العزيز الكريم ويجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ماذكروه على معنى انك لأنت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء اللهم الا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل ﴿قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة﴾ أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء فى جعلهم أمره ونهيه غير مستند الى سند ﴿من ربى﴾ ومالك أمورى وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ماهو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه فى نظائره ﴿ورزقنى منه﴾ أى من لدنه

﴿رزقا حسنا﴾ هو النبوة والحكمة أيضا عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الابدية له ولأمته وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أى أتقولون فى شأنى ماتقولون والمعنى انكم نظمتمونى فى سلك السفهاء والغواة وعددتم ماصدر عنى من الأوامر والنواهى من قبيل مالا يصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بى وبأفعالى حتى قلتم ان ماأمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضى به قاضى الفطنة وانما يأمر به صلاتك التى هى من أحكام الوسوسة والجنون فأخبرونى ان كنت من جهة ربى ومالك أمورى ثابتا على النبوة والحكمة التى ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقنى بذلك رزقا حسنا أتقولون فى شأنى وشأن أفعالى ماتقولون مما لاخير فيه ولاشر وراءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم وأما ماقيل من أن المحذوف أيصح لى أن لاآمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصى أوهل يسع لى مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره ونهيه فبمعزل من ذلك وانما يناسب تقديره ان حمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن تكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق فى أموالنا وتخالفنا فى ذلك وتشق عصانا وهذا مما لاينبغى أن يصدر عنك فانك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيمابيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا مسرودا على ذلك النمط فأجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذى آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبرونى ان كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقنى مالا حلالا أستغنى به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وماتذرون ﴿وماأريد﴾ بنهيى اياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف ﴿أن آخالفكم الى ماأنهاكم عنه﴾ أى أقصده بعدماوليتم عنه وأستبد به دونكم يقال خالفت زيدا الى كذا اذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عن كذا اذا كان الأمر على العكس ﴿ان أريد﴾ أى ماأريد بما أباشره من الأمر والنهى ﴿الا الاصلاح﴾ الا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة ﴿مااستطعت﴾ أى مقدار مااستطعته من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح فى الجملة لا عن ارادة ماليس فى وسعه منه ﴿وماتوفيقى﴾ أى كونى موفقا لتحقيق ماأنتحيه من اصلاحكم ﴿الا بالله﴾ أى بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه وانما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقا للحق وازاحة لما عسى يوهمه اسناد الاستطاعة اليه بارادته من استبداده بذلك ﴿عليه توكلت﴾ فى ذلك معرضا عما عداه فانه القادر على كل مقدور وماعداه عاجز محض فى حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار ﴿واليه أنيب﴾ أى أرجع فيما أنا بصدده ويجوز أن يكون المراد وما كونى موفقا لاصابة الحق والصواب فى كل ما آتى وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض التوحيد الذاتى والفعلى واليه أنيب أى عليه أقبل بشراشر نفسى فى مجامع أمورى وايثار صيغة الاستقبال على الماضى الأنسب للتقرر والتحقق كما فى التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ولايخفى مافى جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به فى أموره وحسم أطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لان الانابة انما هى الرجوع الاختيارى بالفعل الى الله تعالى لا الرجوع الاضطرارى للجزاء أومايعمه ﴿ويا قوم لايجرمنكم﴾ أى لايكسبنكم من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا ﴿شقاقى﴾ معاداتى وأصلها أن أحد المتعاديين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر ﴿أن يصيبكم﴾ مفعول ثان

ليجرمنكم أى لايكسبنكم معاداتكم لى أن يصيبكم ﴿مثل ماأصاب قوم نوح﴾ من الغرق ﴿أوقوم هود﴾ من الريح ﴿أوقوم صالح﴾ من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنبا اذا جعلته جارما له أى كاسبا وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد كما نقل أكسبه المال من كسب المال فكما لافرق بين كسبته مالا وأكسبته اياه لافرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه فى المعنى الا أن الأول أصح وأدور على ألسنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة مثل ما أصاب بالفتح لاضافته الى غير متمكن كقوله

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أوقال

وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما مر فى سورة المائدة عند قوله تعالى ولايجرمنكم شنآن قوم الآية ﴿وماقوم لوط منكم ببعيد﴾ زمانا أو مكانا فان لم تعتبروا بمن قبلهم من الأمم المعدودة فاعتبروا بهم فكأنه انما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم ايذانا بأن ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوما فى سمط ماذكر من دواهى الأمم المرقومة أو ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمعاصى فلا يبعد أن يصيبكم مثل ما أصابهم وافراد البعيد مع تذكيره لأن المراد وما اهلاكهم على نية المضاف أو وماهم بشئ بعيد لان المقصود افادة عدم بعدهم على الاطلاق لامن حيث خصوصية كونهم قوما أو ماهم فى زمان بعيد أو مكان بعيد ولايبعد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه طمعا فى ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه﴾ مر تفسير مثله فى أول السورة ﴿ان ربى رحيم﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿ودود﴾ مبالغ فى فعل مايفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما ﴿قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول﴾ الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أى مانفهم مرادك وانما قالوه بعد ماسمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك الى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل مالايفهم معناه ولايدرك فحواه وأدمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه مايستوجب أقصى مايكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك مافيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ولذلك قالوا ﴿وانا لنراك فينا﴾ فيما بيننا ﴿ضعيفا﴾ لاقوة لك ولاقدرة على شئ من الضر والنفع والايقاع والدفع ﴿ولولا رهطك﴾ لولا مراعاة جانبهم لا لولا هم يمانعوننا ويدافعوننا ﴿لرجمناك﴾ فان ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة الى السبعة أو الى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة مما لايكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ مكرم محترم حتى نمتنع من رجمك وانما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء الضمير حرف النفى وان لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة على رجوع النفى الى الفاعل دون الفعل لاسيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وماأنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا الى نفى مافيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار ﴿قال﴾ عليه السلام فى جوابهم ﴿ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله﴾ فان الاستهانة بمن لايتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وانما أنكر عليهم أعزية رهطه منه تعالى

مع أن ما أثبتوه انما هو عطاق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك فى أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا نفى العزة بالمرة والمعنى أرهطى أعز عليكم من الله فانه مما لا يكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة أصلا ﴿واتخذتموه﴾ بسبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر الا بأمره ﴿وراءكم ظهريا﴾ أى شيئا منبوذا وراء الظهر منسيا لا يبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسى فى النسبة الى الامس ﴿ان ربى بما تعملون﴾ من الأعمال السيئة التى من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه ﴿محيط﴾ لا يخفى عليه منها خافية وان جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا أنهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنابه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الأذلة ﴿ويا قوم اعملوا﴾ لما رأى عليه السلام اصرارهم على الكفر وأنهم لا يرعوون عما هم عليه من المعاصى حتى اجترؤا على العظيمة التى هى الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا ﴿على مكانتكم﴾ أى على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وانما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لى وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه وابذلوا جهدكم فى مضارتى وايقاع ما فى نيتكم واخراج ما فى أمنيتكم من القوة الى الفعل ﴿انى عامل﴾ على مكانتى حسبما يؤيدنى الله ويوفقنى بأنواع التأييد والتوفيق ﴿سوف تعلمون﴾ لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم انى عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه خزى ظاهر حيث لا يكون الا بجناية عظيمة توجبه ﴿ومن هو كاذب﴾ عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفى نسبته الى الضعف والهوان وفى ادعائهم الابقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب الكاذب ليس بمرتقب كاتيان العذاب بل انما المرتقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن اما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كانه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب واما موصولة أى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب ﴿وارتقبوا﴾ وانتظروا مآل ما أقول ﴿انى معكم رقيب﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفى زيادة معكم اظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره ﴿ولما جاء أمرنا﴾ أى عذابنا كما ينبئ عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أو وقته فان الارتقاب مؤذن بذلك ﴿نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ وهى الايمان الذى وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم وانما ذكر بالواو كما فى قصة عاد لما أنه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط فانه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾ عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بأن ما أخذهم انما أخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه ﴿الصيحة﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى اليها كما مر فيما قبل ﴿فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾ ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم

منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجئ العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمرا مسلم الوقوع غنيا عن الاخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا له ومقصود الافادة وانما قدم تنجيته اهتماما بشأنها وايذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على الغضب الذى يظهر أثره بموجب جرائرهم وجرائمهم ﴿كأن لم يغنوا﴾ أى لم يقيموا ﴿فيها﴾ متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها ﴿ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾ العدول عن الاضمار الى الاظهار ليكون أدل على طغيانهم الذى أداهم الى هذه المرتبة وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعنى ثمود وانما شبه هلاكهم بهلاكهم لانهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرئ بعدت بالضم على الاصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والانفس ومنهم من جعلهما آية واحدة وعد منها اظلال الجبل وليس كذلك فانه لقبول أحكام التوراة حين أباه بنو اسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتا لمصدره المؤكد أى أرسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا أو أرسلناه ارسالا ملتبسا بها ﴿وسلطان مبين﴾ هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والافراد بالذكر لاظهار شرفها لكونها أبهرها أو المراد بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شئ واحد أى أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا له على نبوته واضحا فى نفسه أو موضحا اياها من أبان لازما ومتعديا أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما فما بال القرون الأولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التوراة أو ادراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل ﴿الى فرعون وملئه﴾ فان نزولها انما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو اسرائيل فيما يأتون وما يذرون وأما فرعون وقومه فانما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى اسرائيل من الأسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم فى الرأى وتدبير الأمور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهما كه فيما كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أى أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكأن كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج الى الذكر صريحا وانما المحتاج الى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم وايراد الفاء فى اتباعهم المترتب على أمر فرعون المبنى على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم فى الاتباع ومسارعة فرعون الى الكفر وأمرهم به فكان ذلك كله لم يتراخ عن الارسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك فى وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل ما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى عليه السلام من أول الأمر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم فى الفساد والافساد والضلال والاضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ الرشد ضد الغى وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الأول

بمعنى المرشد أو ذى الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والاسناد حقيقى ﴿يقدم قومه﴾ جميعا من الأشراف وغيرهم ﴿يوم القيامة﴾ أى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله فى الآخرة أى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته ﴿فأوردهم النار﴾ أى يوردهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة الى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل ﴿وبئس الورد المورود﴾ أى بئس الورد الذى يردونه النار لأن الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك ﴿وأتبعوا﴾ أى الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون ﴿فى هذه﴾ أى فى الدنيا ﴿لعنة﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم الى يوم القيامة ﴿ويوم القيامة﴾ أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حيثما ساروا دائرة معهم أينما داروا فى الموقف فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون اذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم فقيل ﴿بئس الرفد المرفود﴾ أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله ما يضاف الى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث أن كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبتها ومؤيدة لها ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما قص من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ﴿من أنباء القرى﴾ المهلكة بما جنته أيدى أهلها ﴿نقصه عليك﴾ خبر بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك ﴿منها﴾ أى من تلك القرى ﴿قائم وحصيد﴾ أى ومنها حصيد حذف لدلالة الأول عليه شبه ما بقى منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب ﴿وما ظلمناهم﴾ بأن أهلكناهم ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه ﴿فما أغنت عنهم﴾ فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم ﴿آلهتهم التى يدعون﴾ أى يعبدونها ﴿من دون الله﴾ أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها ﴿من شىء﴾ فى موضع المصدر أى شيأ من الاغناء ﴿لما جاء أمر ربك﴾ أى حين مجىء عذابه وهو منصوب بأغنت وقرىء آلهتهم اللاتى ويدعون على البناء للمجهول ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ أى اهلاك وتخسير فانهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها ﴿وكذلك﴾ أى ومثل ذلك الأخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله ﴿أخذ ربك﴾ وقرىء أخذ ربك فمحل الكاف النصب على أنه مصدر مؤكد ﴿اذا أخذ القرى﴾ أى أهلها وانما أسند اليها للاشعار بسريان أثره اليها حسبما ذكر وقرىء اذ أخذ ﴿وهى ظالمة﴾ حال من القرى وهى فى الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامهم فى الأخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بانهم انما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم ﴿ان أخذه أليم شديد﴾ وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى أخذه تعالى للامم المهلكة أو فى قصصهم ﴿لآية﴾ لعبرة ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾ فانه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة وأما من أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شىء من أحواله مستندا الى الفاعل المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فانما يقع لأسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق فى بعض الأوقات لا لما ذكر من المعاصى التى يقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبا لهم ولما لهم من

الأفكار ﴿ذلك﴾ اشارة الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿يوم مجموع له الناس﴾ أى يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴿وذلك﴾ أى يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له ﴿يوم مشهود﴾ أى مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما فى قوله فى محفل من نواصى الناس مشهود أى كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهودا لفات ما هو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فان سائر الأيام أيضا كذلك ﴿وما نؤخره﴾ أى ذلك اليوم الملحوظ بعنوانى الجمع والشهود ﴿الا لأجل معدود﴾ الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة ﴿يوم يأت﴾ أى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله تعالى أن تأتيهم الساعة وقيل يوم يأتى الجزاء الواقع فيه وقيل أى الله عز وجل فان المقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرىء باثبات الياء على الأصل ﴿لا تكلم نفس﴾ أى لا تتكلم بما ينفع وينجى من جواب أو شفاعة وهو العامل فى الظرف أو الانتهاء المحذوف فى قوله تعالى الا لأجل معدود أى ينتهى الأجل يوم يأتى أو المضمر المعهود أعنى اذكر ﴿الا باذنه﴾ عز سلطانه فى التكلم كقوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وهذا فى موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون فى موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها فى آخر منها أو المأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضا لاظهار بطلانها كما فى قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظائره ﴿فمنهم شقى﴾ وجبت له النار بموجب الوعيد ﴿وسعيد﴾ أى ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الأول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لأهل الموقف المدلول عليهم بقوله لا تكلم نفس أو للناس وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام التحذير والانذار ﴿فأما الذين شقوا﴾ أى سبقت لهم الشقاوة ﴿ففى النار﴾ أى مستقرون فيها ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ الزفير اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى أول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج

والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرىء شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ما شأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير فى الجار والمجرور كقوله عز اسمه ﴿خالدين فيها﴾ خلا أنه ان أريد حدوث كونهم فى النار فالحال مقدرة ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ أى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأييد ونفى الانقطاع بناء على منهاج قول العرب ما دام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأييد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض فان النصوص القاطعة دالة على تأييد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الأرض والسموات وقوله تعالى وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل أحد بأن أهل الآخرة لا بد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما ﴿الا ما شاء ربك﴾ استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط غير أن استحالة الامور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعنى أنهم

مستقرون فى النار فى جميع الأزمنة الا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها واذ لا امكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ماعسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال ﴿ان ربك فعال لما يريد﴾ يعنى انه فى تخليد الأشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب ارادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الأجزية على أفعال العباد والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة وزيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فانهم لايخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أخر من العذاب وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم واهانته اياهم وأنت تدرى أنا وان سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الأنواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق فى ذلك للاستثناء ولك أن تقول انهم ليسوا بمخلدين فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب مالا يعلمه الا الله سبحانه وهى العقوبات والآلام الروحانية التى لايقف عليها فى هذه الحياة الدنيا المنغمسون فى أحكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ما ألفوا من الأحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقى ما وراء ذلك من الأحوال الروحانية اذا ألقى اليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وان كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الا بمعنى سوى وهو أوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على ارادة معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا فى النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين ﴿وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض﴾ الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكرهنا أن لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى أهل النار من أنه لهم فيها زفير وشهيق لأن المقام مقام التحذير والانذار ﴿الا ما شاء ربك﴾ ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ نصب على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله تعالى ففى الجنة خالدين فيها يقتضى اعطاء وانعاما فكانه قيل يعطيهم عطاء وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الأرض نباتا وان حمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة أو تمييز فان نسبة مشيئة الخروج الى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة عطاء غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لأهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لأهل النار ويجوز أن يتعلق بكلا النعيمين أو بالأول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه ﴿فلا تك فى مرية﴾ أى فى شك والفاء لترتيب النهى على ماقص من القصص وبين فى تضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ أى من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها أو من حال مايعبدونه من الاوثان فى عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من أنباء الامم السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم مايتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه فى شك من مصير أمر هؤلاء المشركين فى العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل ﴿مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم﴾ الذين قصت عليك قصصهم ﴿من قبل﴾ أى هم وآباؤهم

سواء فى الشرك مايعبدون عبادة الا كعبادتهم أو مايعبدون شيئاً الا مثل ماعبدوه من الاوثان والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ما كانوا يعبدونه فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك مالحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فان تماثل الاسباب يقتضى تماثل المسببات ﴿وانا لموفوهم﴾ أى هؤلاء الكفرة ﴿نصيبهم﴾ أى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم أنصباءهم المقدرة لهم أو من الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق مايوجبه ﴿غير منقوص﴾ حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم وليتم مدبرين وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أى التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ أى فى شأنه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وزعمهم انك افتريته ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهى كلمة القضاء بانظارهم الى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية الى ذلك ﴿لقضى بينهم﴾ أى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين وقيل بين قوم موسى وليس بذاك ﴿وانهم﴾ أى وان كفار قومك أريد به بعض من رجع اليهم ضمير بينهم للأمن من الالباس ﴿لفى شك﴾ عظيم ﴿منه﴾ أى من القرآن وان لم يجر له ذكر فان ذكر ايتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لاسيما بصدد التسلية ينادى به نداء غير خفى ﴿مريب﴾ موقع فى الريبة ﴿وان كلا﴾ التنوين عوض عن المضاف اليه أى وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الأعمال اعتباراً للأصل ﴿لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أى أجزية أعمالهم واللام الأولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن ما فقلبت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهن والمعنى لمن الذى أو لمن خلق أو لمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرىء لما بالتخفيف على أن ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرىء لما بالتنوين أى جميعا كقوله سبحانه أكلا لما وقرأ أبى وان كل لما ليوفينهم على أن ان نافية ولما بمعنى الا وقد قرىء به ﴿انه بما يعملون﴾ أى بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر ﴿خبير﴾ بحيث لايخفى عليه شىء من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه ان خيراً فخير وان شراً فشر ﴿فاستقم كما أمرت﴾ لما بين فى تضاعيف القصص المحكية عن الأمم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير الى أن حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وأنه لولم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة الى يوم القيامة لفعل بهم مافعل بآبائهم من قبل وأنهم يوفون نصيبهم غير منقوص وأن كل واحد من المؤمنين والكافرين يوفى جزاء عمله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به فى العقائد والاعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولا سيما الاعمال الخاصة به عليه السلام من تبليغ الأحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك الآية وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج من عهدته فى غاية مايكون من الصعوبة ولذلك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتنى سورة هود ﴿ومن تاب معك﴾ أى تاب من الشرك والكفر وشاركك فى الايمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن فى قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفاصل القائم مقامه وفى الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة اذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك ﴿ولا تطغوا﴾ ولا تنحرفوا عما حد لكم بافراط أو تفريط فان كلا طرفى قصد الأمور ذميم وانما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام ﴿انه بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهى وفى الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فانه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد ﴿ولا تركنوا﴾ أى لا تميلوا أدنى ميل ﴿الى الذين ظلموا﴾ أى الى الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة فى النهى من حيث أن كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم انما يتم أن لو كان المراد النهى عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك ﴿فتمسكم﴾ بسبب ذلك ﴿النار﴾ واذا كان حال الميل فى الجملة الى من وجد منه ظلم ما فى الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقى شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيى بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو فى الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التى هى العدل فان الميل الى أحد طرفى الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرىء تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ أى من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفى الأولياء ليس بطريق نفى أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولى بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفى استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفى أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام ﴿ثم لا تنصرون﴾ من جهة الله سبحانه اذ قد سبق فى حكمه أن يعذبكم بركونكم اليهم ولا يبقى عليكم وثم لتراخى رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج أنهم لا ينصرون أصلا ﴿وأقم الصلوة طرفى النهار﴾ أى غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا الى الوقت ﴿وزلفا من الليل﴾ أى ساعات منه قريبة من النهار فانه من أزلفه اذا قربه جمع زلفة عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتيهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لأن ما بعد الزوال عشى وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرىء زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة ﴿ان الحسنات﴾ التى من جملتها بل عمدتها ما أمرت به من الصلوات ﴿يذهبن السيئات﴾ التى قلما يخلو منها البشر أى يكفرنها وفى الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت فى أبى اليسر الانصارى اذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه السلام أنتظر أمر ربى فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿ذلك﴾ اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القرآن ﴿ذكرى للذاكرين﴾ أى عظة للمتعظين

﴿واصبر﴾ على مشاق ما أمرت به فى تضاعيف الأوامر السابقة وأما ما نهى عنه من الطغيان والركون الى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم الا أن يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى ﴿فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أى يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا وانما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع أن عدم اعطاء الأجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه وانما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه ايماء الى أن الصبر على ما ذكر من باب الاحسان ﴿فلولا كان﴾ فهلا كان ﴿من القرون﴾ الكائنة ﴿من قبلكم﴾ على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم ﴿أولو بقية﴾ من الرأى والعقل أو أولو فضل وخير وسميا بها لأن الرجل انما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه ما قيل فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية من التقوى أى فهلا كان منهم ذوو ابقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده أنه قرىء أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره أى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم ﴿ينهون عن الفساد فى الأرض﴾ الواقع منهم حسب ما حكى عنهم ﴿الا قليلا ممن أنجينا منهم﴾ استثناء منقطع أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لأن جميع الناجين ناهون ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلام لأنه يكون تحضيضا لأولى البقية على النهى المذكور الا للقليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم مريداً لاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك ان جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية الا قليلا منهم لكن الرفع هو الأفصح حينئذ على البدلية ﴿واتبع الذين ظلموا﴾ بمباشرة الفساد وترك النهى عنه ﴿ما أترفوا فيه﴾ أى أنعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها أما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم فى ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهى وأنت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد فى الظلم والاجرام عبارة ﴿وكانوا مجرمين﴾ أى كافرين فهو بيان لسبب استئصال الأمم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام أى لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم فى الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله الا قليلا أى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشرى الفساد وتاركى النهى عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالاجرام اغفالهم للشكر أو على اتبع أى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرىء وأتبع أى أتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء ﴿وما كان ربك ليهلك القرى﴾ أى ما صح وما استقام بل استحال فى الحكمة أن يهلك القرى التى أهلكها حسب ما بلغك أنباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفى وقوله ﴿بظلم﴾ أى ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل أى ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم

عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة وقد مر تفصيله فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى ﴿وأهلها مصلحون﴾ حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقيده بما وقع حالا من فاعله أعنى بظلم لدلالته على تقيد نفى الاهلاك ظلما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب فى فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أى لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغنى الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدرى أن مقام النهى عن المنكرات التى أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل فى الفساد فى الأرض دخولا أوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصى التى كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصى وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ فى الحق أى مخالفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ﴿الا من رحم ربك﴾ الا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور ﴿ولذلك﴾ أى ولما ذكر من الاختلاف ﴿خلقهم﴾ أى الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام فى معناها أو لهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازى عام لكلا المعنيين ﴿وتمت كلمة ربك﴾ أى وعيده أو قوله للملائكة ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أى من عصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما ﴿وكلا﴾ أى وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه ﴿نقص عليك﴾ نخبرك به وقوله تعالى ﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكلا وقوله تعالى ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ بدل منه والأظهر أن يكون المضاف اليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص أى كل اقتصاص أى كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله تعالى ما نثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة فى تماديهم فى الضلال وما لقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق ﴿وجاءك فى هذه﴾ السورة أو الأنباء المقصوصة عليك ﴿الحق﴾ الذى لا محيد عنه ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أى الجامع بين كونه حقا فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الأول حالا له فى نفسه حلى باللام دونما هو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف أعنى فى هذه على الفاعل لأن المقصود بيان منافع السورة أو الأنباء المقصوصة فيها واشتمالها على ما ذكر من المنافع المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا فى غيرها ولأن عند تأخير ما حقه التقديم تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولأن فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به ولا يتذكرون ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ على حالكم وجهتكم التى هى عدم الايمان ﴿انا عاملون﴾ على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به ﴿وانتظروا﴾ بنا الدوائر

﴿انا منتظرون﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة ﴿ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله﴾ فيرجع لا محالة أمرك وأمرهم اليه وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى الله تعالى وفى تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بأنه لا ينفع دونها ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ فيجازيهم بموجبه وقرئ تعملون على تغليب المخاطب أى أنت وهم فيجازى كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق . عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الانبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة والسلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى

سورة يوسف عليه السلام

(وهى مائة واحدى عشرة آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ الكلام فيه وفى محله وفيما أريد بالاشارة والآيات والكتاب فى قوله تعالى ﴿تلك آيات الكتاب﴾ عين ما سلف فى مطلع سورة يونس ﴿المبين﴾ من أبان بمعنى بان أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله تعالى وفى اعجازه بنوعيه لا سيما الاخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بين أى المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين فى الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فابانته انباؤه عن قصة يوسف عليه السلام فانه قد روى أن أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لماذا انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالابانة من قبيل براعة الاستهلال لما سيأتى ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى عقب ذلك بما يدل على الشرف الاضافى فقيل ﴿انا أنزلناه﴾ أى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فان كان عبارة عن الكل وهو الاظهر الأنسب بقوله تعالى ﴿قرآنا عربيا﴾ اذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع الى الفهم عند اطلاقهما فالأمر ظاهر وان جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآنا لما عرفته فيما سلف والسر فى ذلك أنه اسم جنس فى الأصل يقع على الكل والبعض كالكتاب أو لانه مصدر بمعنى المفعول أى أنزلناه حال كونه مقروءا بلغتكم ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى لكى تفهموا معانيه طرا وتحيطوا بما فيه من البدائع خبرا وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر ﴿نحن نقص عليك﴾ أى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره اذا اتبعه لان من يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيأ فشيأ كما يقال تلا القرآن لانه يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿أحسن القصص﴾ أى أحسن الاقتصاص فنصبه على المصدرية وفيه مع بيان الواقع ايهام لما فى اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل وترك المفعول اما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل ﴿بما أوحينا﴾ أى بايحائنا ﴿اليك هذا القرآن﴾ أى هذه السورة فان كونها موحاة منبئ عن كون ما فى ضمنها مقصوصا والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الالهام أو الوحى غير المتلو واما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود وأحسنيته لأنه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الاساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الأولين والآخرين وان كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال

واليمين وفى كلمة هذا ايماء الى مغايرة هذا القرآن لما فى قوله تعالى قرآنا عربيا بأن يكون المراد بذلك المجموع فتأمل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الأنباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنبأ والخبر أو مصدر سمى به المفعول كالخلق والصيد ونصب أحسن على المفعولية وأحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كال حسنه ﴿وان كنت﴾ ان مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الواقع اسمها محذوف واللام فارقة والجملة خبر والمعنى وان الشأن كنت ﴿من قبله﴾ من قبل ايحائنا اليك هذه السورة ﴿لمن الغافلين﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم الغفلة لاجلال شأن النبى عليه السلام وان غفل عنه بعض الغافلين ﴿اذ قال يوسف﴾ نصب باضمار اذكر وشروع فى القصة انجازا للوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص ويوسف اسم عبرى لا عربى لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراءات بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته ﴿لأبيه﴾ يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ﴿ياأبت﴾ أصله ياأبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة فلذلك قلبت هاء فى الوقف على قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وكسرتها لانها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر فى كل القرآن لانها حركة أصلها أو لان الاصل ياأبتا فحذف الالف وبقى الفتحة وانما لم يجز ياأبتى لانه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كاصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب ﴿انى رأيت﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله لاتقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولان الظاهر أن وقوع مثل هذه الامور البديعة فى عالم الشهادة لايختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس ﴿أحد عشر كوكبا والشمس والقمر﴾ روى عن جابر رضى الله عنه أن يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنى يامحمد عن النجوم التى رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبى عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرع ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودى اى والله انها لاسماؤها وقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب اخوته وانما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك اشارة الى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته وعن وهب ان يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الأرض كهيئة الدارة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لاتقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون ﴿رأيتهم لى ساجدين﴾ استئناف ببيان حالهم التى رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك وانما أجريت مجرى العقلاء فى الضمير لوصفها بوصف

العقلاء أعنى السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع ما فى ضمنه من رعاية الفاصلة ﴿قال يابنى﴾ صغره للشفقة أولها ولصغر السن وهو أيضا استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الاخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الاحزان وان كان واثقا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لامحالة وطمعا فى حصوله بلا مشقة ﴿لاتقصص رؤياك﴾ هى ما فى المنام كما أن الرؤية ما فى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه ﴿على اخوتك فيكيدوا﴾ نصب باضمار أن أى فيفعلوا ﴿لك﴾ أى لاجلك ولاهلاكك ﴿كيدا﴾ متينا راسخا لاتقدر على التفصى عنه أو خفيا عن فهمك لاتتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الايقاع وقد قيل انما جئ باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد أى فيحتالوا لك ولاهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم بنو علاته الاحد عشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الاحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أوفى حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك محرما فليس بداخل تحت هذا النهى اذ لايتوهم مضرته ولايخشى معرته ولم يكن معدودا معهم فى الرؤيا اذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا ﴿ان الشيطان للانسان عدو مبين﴾ ظاهر العداوة فلا يألو جهدا فى اغواء اخوتك واضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن اخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وحذره اشاعتها المؤدية الى أن يحول اخوته بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أو يوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه اجمالى فقال ﴿وكذلك﴾ أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه ﴿يجتبيك ربك﴾ يختارك لجناب كبريائه ويستنبؤك افتعال من جباه اذا جمعه ويصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسب ما عاينته من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال وبين ما وقعت هى صورا وأشباحا له من الكائنات الظاهرة بحسبها فى عالم الشهادة أى كما سخرت لك تلك الاجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة أبويه واخوته له لكنه انما لم يصرح به حذرا من اذاعته ﴿ويعلمك﴾ كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته

وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك ﴿من تأويل الأحاديث﴾ أى ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا منه فتطلع على حقية ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقى ما سيأتى بالقبول والمراد بتأويل الاحاديث تعبير الرؤيا اذ هى أحاديث الملك ان كانت صادقة أو أحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام والأول هو الأظهر وتسمية التعبير تأويلا لانه جعل المرئى آئلا الى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك الى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة الى ما يبلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها باتمام النعمة وانما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخايل بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ماهو آفاقى منها مما هو أنفسى كيف لا وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لابد أن يكون انموذجا لظهور أمر من اتصف به ومدارا لجريان أحكامه فان لكل نبى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجرى أحكامه ﴿ويتم نعمته عليك﴾ بأن يضم الى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجى ولما أشرنا اليه من كون أثره وسيلة الى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم أهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم الى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لامحالة وأما اذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال ﴿كما أتمها على أبويك﴾ نصب على المصدرية أى ويتم نعمته عليك اتماما كائنا كاتمام نعمته على أبويك وهى نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب فى تحقيق التشبيه كون ذلك فى جانب المشبه به مثل ما وقع فى جانب المشبه من كل وجه ﴿من قبل﴾ أى من قبل هذا الوقت أو من قبلك ﴿ابراهيم واسحق﴾ عطف بيان لابويك والتعبير عنهما بالاب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به فى ضمن التعبير الاجمالى لرؤياه والاقتصار فى المشبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضى سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لامحالة ﴿ان ربك﴾ استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أى يفعل ما ذكر لانه ﴿عليم﴾ بكل شىء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور ﴿حكيم﴾ فاعل لكل شىء حسبما تقتضيه

الحكمة والمصلحة فيفعل ما يفعل كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين لتربية تحقق وقوع ما ذكر من الافاعيل هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة أى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك للنبوة والملك أو لأمور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلا فى الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادى ﴿لقد كان فى يوسف واخوته﴾ أى فى قصتهم والمراد بهم ههنا اما جميعهم فان لبنيامين أيضا حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون فيما سلف اذ عليهم يدور رحاها ﴿آيات﴾ علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة ﴿للسائلين﴾ لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فأخبرهم بذلك على ما هى عليه من غير سماع من أحد ولا ممارسة شىء من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية فى الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ما ذكر فى قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لما قيل من أنه لتعدد جهة الاعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفى بعض المصاحف عبرة وقيل انما قص الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغى اخوته عليه لما رأى من بغى قومه عليه ليتأسى به ﴿اذ قالوا ليوسف وأخوه﴾ أى شقيقه بنيامين وانما لم يذكر باسمه تلويحا بأن مدار المحبة أخوته ليوسف من الطرفين ألا يرى الى أنهم كيف اكتفوا باخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف ﴿أحب الى أبينا منا﴾ وحد الخبر مع تعدد المبتدا لأن أفعل من كذا لايفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم اذا عرف وجب الفرق واذا أضيف جاز الامران وفائدة لام الابتداء فى يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده ﴿ونحن عصبة﴾ أى والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم ﴿ان أبانا﴾ فى ترجيحهما علينا فى المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الأمور بالصغر والقلة ﴿لفى ضلال﴾ أى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته ﴿مبين﴾ ظاهر الحال . روى أنه كان أحب اليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ما قص عنهم ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا﴾ من جملة ما حكى بعد قوله اذ قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطبا للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما يروى أن القائل شمعون أو دان والباقون كانوا راضين الا من قال لا تقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وأدرجوا تحت القول المسند الى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطبا للبقية وهو أدل على مسارعتهم الى ذلك القول وتنكير أرضا واخلاؤها من الوصف للابهام أى أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يخل﴾ بالجزم جواب للأمر أى يخلص ﴿لكم وجه أبيكم﴾ فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا يساهمكم فى محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم ﴿وتكونوا﴾ بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على اضمار أن أو الواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وايثار الخطاب فى لكم وما بعده للمبالغة فى حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل ﴿من بعده﴾ من بعد يوسف أى من بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه ﴿قوما صالحين﴾ تائبين الى الله تعالى

عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم باصلاح ماينكم و بينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم ﴿قال قائل منهم﴾ هو يهوذا و كان أحسنهم فيه رأياً وهو الذى قال فلن أبرح الأرض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى على سؤال من سأل وقال أنفقوا على ماعرض عليهم من خصلتى الضيع أم خالفهم فى ذلك أحد فقيل قال قائل منهم ﴿لاتقتلوا يوسف﴾ أظهره فى مقام الاضمار استجلابا لشفقتهم عليه أو استعظاما لقتله وهو هو فانه يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الأخرى وأحاله على أولوية ماعرضه عليهم بقوله ﴿وألقوه فى غيابة الجب﴾ أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد لأنها أرض جبت جبا من غير أن يزاد على ذلك شئ وقرأ نافع فى غيابات الجب فى الموضعين كأن لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس أى فى بعض غيابات الجب وقرئ غيابات وغيبة ﴿يلتقطه﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شئ مشرف على الضياع ﴿بعض السيارة﴾ أى بعض طائفة تسير فى الارض واللام فى السيارة كما فى الجب ومافيهما وفى البعض من الابهام لتحقيق مايتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذى هو تنائى يوسف عنهم بحيث لايدرى أثره ولايروى خبره وقرئ تلتقطه على التأنيث لأن بعض السيارة سيارة كقوله

كما شرقت صدر القناة من الدم ومنه قطعت بعض أصابعه ﴿ان كنتم فاعلين﴾ بمشورتى لم يبت القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلبهم وتوجيها لهم الى رأيه وحذرا من نسبتهم له الى التحكم والافتيات أو ان كنتم فاعلين ماأزمعتم عليه من ازالته من عند أبيه لامحالة ولما كان هنا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد ذلك هل قبلوا ذلك منه أولا أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج فى تضاعيفه قبولهم له بما سيجئ من قوله وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب فقيل ﴿قالوا ياأبانا﴾ خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه و بينهم وتذكيراً لرابطة الاخوة بينهم و بين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك الى استنزاله عليه السلام عن رأيه فى حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغى فكأنهم قالوا ﴿مالك﴾ أى أى شئ لك ﴿لاتأمنا﴾ أى لاتجعلنا أمناء ﴿على يوسف﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿وانا له لناصحون﴾ مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا مايخل بالنصيحة والمقة قط والقراءة المشهورة بالادغام والاشمام وعن نافع رضى الله عنه ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام ﴿أرسله معنا غدا﴾ الى الصحراء ﴿يرتع﴾ أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع فى الملاذ ﴿ويلعب﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وانما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة مايلائم حاله عليه السلام وقرئ نرتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفى يلعب وقرئ يرتع من أرتع ماشيته ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء ﴿وانا له لحافظون﴾ من أن يناله مكروه أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بأن واللام واسناد الحفظ الى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا فى تحصيل مقصدهم ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال ﴿انى ليحزننى﴾ اللام للابتداء كما فى قوله عز وجل ان ربك ليحكم بينهم ﴿أن تذهبوا به﴾ لشدة مفارقته على وقلة صبرى عنه ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أخاف أن يأكله الذئب﴾ لأن الارض كانت مذأبة والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الاول الى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثانى الى مايتوقع نزوله من أكل الذئب وقيل رأى فى المنام أن قد شد عليه عليه السلام ذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة ان البلاء موكل بالمنطق وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية

البزى بالهمز على الاصل وأبو عمرو به وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا هاجت من كل جانب وقال الاصمعى الامر بالعكس وهو أظهر لفظا ومعنى ﴿وأنتم عنه غافلون﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الأمور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله ﴿انا اذاً لخاسرون﴾ جواب مجزئ عن الجزاء أى لهالكون ضعفا وخورا وعجزا أو مستحقون للهلاك اذ لاغناء عندنا ولا جدوى فى حياتنا أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار و يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو أعز شئ عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لأنه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا﴾ أى أزمعوا ﴿أن يجعلوه﴾ مفعول لاجمعوا يقال أجمع الامر ومنه فأجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك الا فى الافعال التى قويت الدواعى الى فعلها ﴿فى غيابة الجب﴾ قيل هى بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الاردن كما أن مدين كذلك وأما مايقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام و بين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره واشعارا بأن تفصيله مما لايحويه فلك العبارة ومجمله فعلوا به من الاذية مافعلوا . يروى أنهم لما برزوا الى الصحراء أخذوا يؤذونه و يضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح و يستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمونى أن لاتقتلوه فأتوا به الى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لأبيه فقال ياأخوتاه ردوا على قميصى أتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى فنادوه وظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا وكان يأتيه بالطعام كل يوم ويروى أن ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه اياه ﴿وأوحينا اليه﴾ عند ذلك تبشيراً له بما يؤول اليه أمره وازالة لوحشته وايناسا له قيل كان ذلك قبل ادراكه كما أوحى الى يحيى وعيسى وقيل كان اذ ذاك مدركا قال الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة ﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾ أى لتتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك ﴿وهم لايشعرون﴾ بأنك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك و كبرياء سلطانك و بعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيئات المغير للاشكال والاول أدخل فى التسلية روى أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابة الجب وقلتم لابيكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس و يجوز أن يتعلق وهم لايشعرون بالايحاء على معنى أنا آنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة التى أورثوه وهم لايشعرون بذلك ويحسبون أنه مرهق ومستوحش لا أنيس له وقرئ لننبئنهم بالنون على أنه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لايشعرون متعلق بأوحينا لاغير ﴿وجاؤا أباهم عشاء﴾ آخر النهار وقرئ عشيا وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع أعشى أى عشوا من البكاء ﴿يبكون﴾

متباكين. روى أنه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال مالكم يابنى وأين يوسف ﴿قالوا ياأبانا انا ذهبنا نستبق﴾ أى متسابقين فى العدو والرمى وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أى ماتمتع به من الثياب والازواد وغيرهما ﴿فأكله الذئب﴾ عقيب ذلك من غير مضى زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لايكاد يطرح المتاع عادة الافى مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لاسيما اذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه فكأنهم قالوا انالم نقصر فى محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه فى مأمننا ومجمعنا بمرأى منا لأن ميدان السباق لا يكون عادة الابحيث يتراءى غايتاه ومافارقناه الاساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان ﴿وماأنت بمؤمن لنا﴾ بمصدق لنا فى هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا فى أمره ﴿ولو كنا﴾ عندك و فى اعتقادك ﴿صادقين﴾ موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا وكلمة لوفى أمثال هـذه المواقع لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معـه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الاولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لايذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله فى سورة البقرة عند قوله تعالى أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى أو لو كنا كارهين ﴿وجاؤا على قميصه﴾ محله النصب على الظرفيـة من قوله ﴿بدم﴾ أى جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحمال أو على الحالية منه والخلاف فى تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا ﴿كذب﴾ مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه أو بمعنى ذى كذب أى ملابس لكذب وقرىء كذبا على أنه حال من الضمير أى جاؤا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله تعالى عنها بغير المعجمة أى كدر وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكدب وهو الفوف البياض الذى يخرج على أظفار الاحداث كأنه دم قد أثر فى قميصه. روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله مارأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليـلا على براءة يوسف عليه السلام حين قدمن دبر ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ماقال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك ﴿بل سولت لكم أنفسكم﴾ أى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شيء فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الازهرى كأن التسويل تفعيل من سؤل الانسان وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز وقيل من السول وهو الاسترخاء ﴿أمرا﴾ من الامور منكرا لايوصف ولا يعرف ﴿فصبر جميل﴾ أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لاشكوى فيه أى الى الخلق والافقد قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ماهذا قال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله عز وجل اليه يايعقوب أتشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبرا جميلا ﴿والله المستعان﴾ أى المطلوب منه العون وهو انشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة ﴿على ماتصفون﴾ على اظهار حال ماتصفون وبيان كونه كذبا واظهار سلامته

فانه علم فى الكذب قال سبحانه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو الاليق بما سيجيء من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا وتفسير المستعان عليه باحتمال مايصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم فى ذلك ولا تساعده الصيغة فانها قد غلبت فى وصف الشيء بما ليس فيه كما أشير اليه ﴿وجاءت﴾ شروع فى بيان ماجرى على يوسف فى الجب بعد الفراغ من ذكر ماوقع بين اخوته وبين أبيه والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصرى من مدين بل الى مكان يوسف وفى ايثاره على المرور أو الاتيان أونحوهما ايماء الى كونه عليه السلام فى الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر أن الجب كان فى الامم المتناء فان المتبادر من اسناد المجيء الى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل وجاءت ﴿سيارة﴾ أى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل انه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تكن الا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه عليه السلام ﴿فأرسلوا واردهم﴾ الذى يرد الماء ويستقى لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وانما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجيء أعنى الجب للايذان بأن ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحا ﴿فأدلى دلوه﴾ أى أرسلها الى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال ﴿يابشرى هذا غلام﴾ كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة باردة وأى نعمة مكان مايوجد مباحا من الماء وقيل هو اسم صاحب له ناداه ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يابشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين وقرىء يابشرى بالادغام وهى لغة وبشراى على قصد الوقف ﴿وأسروه﴾ أى أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى مافيه من البعد ﴿بضاعة﴾ نصب على الحالية أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاعا للتجارة فانها قطعة من المال بضعت عنه أى قطعت للتجارة ﴿والله عليم بما يعملون﴾ وعيد لهم على ماصنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو هو عرضة للابتذال بالبيع والشراء ومادبروا فى ذلك من الحيل ﴿وشروه﴾ أى باعوه والضمير للوارد وأصحابه ﴿بثمن بخس﴾ زيف ناقص العيار ﴿دراهم﴾ بدل من ثمن أى لادنانير ﴿معدودة﴾ أى غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه فى نفسه اذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العد دون الوزن فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدى رضى الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما ﴿وكانوا﴾ أى البائعون ﴿فيه﴾ فى يوسف ﴿من الزاهدين﴾ من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ماحكى وهم غير راغبين فى شراه خشية ذهاب مالهم لما ظن فى آذانهم من الاباق والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذهم انما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه ان جعلت موصولة كأنه قيل فى أى شيء زهدوا فقيل زهدوا فيه لأن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول ﴿وقال الذى اشتراه من مصر﴾ وهو العزيز الذى كان على خزائنه واسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه من مصر لتربية مايتفرع عليه من الأمور مع الاشعار بكونه غير

من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقي ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه الى الاسلام فأبى وقيل كان الملك في أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه في السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه اذ ذاك سبع عشرة سنة وأقام في منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه في السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ﴿لامرأته﴾ راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الأول والثاني لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه ﴿أكرمي مثواه﴾ اجعلي محل اقامته كريما مرضيا والمعنى أحسني تعهده ﴿عسى أن ينفعنا﴾ في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا ﴿أو نتخذه ولدا﴾ أي نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التي قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما ﴿وكذلك﴾ نصب على المصدرية وذلك اشارة الى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿مكنا ليوسف في الأرض﴾ أي جعلنا له فيها مكانا يقال مكنه فيه أي اثبته فيه ومكن له فيه أي جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما في محل الآخر قال عز وجل وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم أي ما لم نمكنكم فيها أو مكنا لهم في الأرض الخ والمعنى كما جعلنا له مثوى كريما في منزل العزيز أو مكانا عليا في قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه باكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين أهلها ومحببا في قلوبهم كافة كما في قلب العزيز لأنه الذي يؤدي الى الغاية المذكورة في قوله تعالى ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات التي عمدتها رؤيا الملك وصاحبي السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمني ربي سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف في الارض وجعلنا قلوب أهلها كافة محال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الأحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدي ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لمعلل محذوف كأنه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذي عليه تدور هذه الأمور انما هو التمكين في جانب العزيز وأما التمكين في جانب الناس كافة فتأديته الى ذلك انما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق أن يكون ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكين في قلب العزيز أو في منزله وكون ذلك تمكينا في الأرض بملابسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا من أن ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده لا الى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغي أن يحقق المقام وأما التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف في أرض مصر بالامر والنهي فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل

وقوعها عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك في أمر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم الا أن يراد بتعليم تأويل الاحاديث ما سبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكناله في أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معاني كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيقضي بها فيما بين أهلها والتعليم الاجمالي لتلك المعاني والاحكام وان كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى الا أن تعليم كل معنى شخصي يتفق في ضمن الحوادث والارشاد الى الحق في كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له ﴿والله غالب على أمره﴾ لا يستعصي عليه أمر ولا يمانعه شيء بل انما أمره لشيء اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فيدخل في ذلك شؤونه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متول على أمر يوسف لا يكله الى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غب مرة فلم يكن الا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم أن لهم من الأمر شيئا وأنى لهم ذلك وان الأمر كله لله عز وجل أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ﴿ولما بلغ أشده﴾ أي منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين الى الأربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والأول هو الأظهر لقوله تعالى ﴿آتيناه حكما﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس وفقها أو نبوة ﴿وعلما﴾ أي تفقها في الدين وتنكيرهما للتفخيم أي حكما وعلما لا يكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أو غيرهما كيف لا وقد جعل ايتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل ﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نجزي المحسنين﴾ أي كل من يحسن في عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التي من جملتها معاناة الاحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الأحاديث ولا صحة له الا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فان ذلك حيث كان عند تناهي أيام البلاء صح أن يعد ايتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضع سنين وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين اشعار بعلية الاحسان له وتنبيه على أنه سبحانه انما آتاه ما آتاه لكونه محسنا في أعماله متقيا في عنفوان أمره هل جزاء الاحسان الا الاحسان ﴿وراودته التي هو في بيتها﴾ رجوع الى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته باكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف الى هنا اعتراض جيء به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الامر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن في جميع أعماله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى أن مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فادراج الانجاء السابق تحت الاشارة بذلك في قوله تعالى وكذلك مكنا كما فعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمراودة المطالبة من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد لطالب الماء والكلا وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الأفعال وان كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان أي كما تجزي تجزى فان فعل البادي وان لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة

عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للماطلة التي هي من جانب الغريم وهي منه للمطالبة التي هي من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التي هي تلك الافعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بأن أسند الفعل الى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته ﴿عن نفسه﴾ أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد اخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهي عبارة عن التمحل في مواقعته اياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره وايراد الموصول لتقرير المراودة فان كونه في بيتها مما يدعو الى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة ﴿وغلقت الأبواب﴾ قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة في الايثاق والاحكام ﴿وقالت هيت لك﴾ قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء أين وعيط وهيت بجير وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أي لك أقول هذا كما في هلم لك وقرئ هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهيء كجاء يجيء اذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل ﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله معاذا مما تدعينني اليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه واشارة الى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك الا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل ﴿انه ربي أحسن مثواى﴾ تعليل للامتناع ببعض الاسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها الى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي لا تكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي العزيز أحسن مثواى أي أحسن تعهدي حيث أمرك باكرامي فكيف يمكن أن أسيء اليه بالخيانة في حرمه وفيه ارشاد لها الى رعاية حق العزيز بألطف وجه وقيل الضمير لله عز وجل وربي خبر ان وأحسن مثواى خبر ثان أو هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عما دعته اليه ايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى ﴿انه لا يفلح الظالمون﴾ تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء في الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل في ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لانهم ظالمون لانفسهم وللمزني بأهله ﴿ولقد همت به﴾ بمخالطته اذ الهم لا يتعلق بالاعيان أي قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لا يلويها عنه صارف بعد ما باشرت مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الأبواب ودعوته عليه السلام الى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لافعال أخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام الى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع

ما عسى يتوهم من احتمال اقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر ﴿وهم بها﴾ بمخالطتها أي مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لا انه قصدها قصدا اختياريا ألا يرى الى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح الظالمين وهل هو الا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير الى تباينهما حيث لم يلزا في قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ أي حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذي تتجلى هناك حقائق الاشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أي لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلي ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على أن لولا في أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما في مثل قوله تعالى ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم أصلا وقد جوز أن يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقي فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث ثم وثم الى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل ان كل ذلك الا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها ﴿كذلك﴾ الكاف منصوب المحل وذلك اشارة الى الاراءة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه أي مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أو الى التثبيت اللازم له أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿لنصرف عنه السوء﴾ على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا ﴿والفحشاء﴾ والزنى لانه مفرط في القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرئ ليصرف على اسناد الصرف الى ضمير الرب ﴿انه من عبادنا المخلصين﴾ تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته

بأن عصمتهم عما هو قادح فيها وقرئ على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم فى سلكهم داخل فى زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية ﴿واستبقا الباب﴾ متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك الى آخره اعتراض جئ به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أى تسابقا الى الباب البرانى الذى هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل الى المجرور نحو واذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتدار واسناد السبق فى ضمن الاستباق اليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الانتهاء الى الباب لانها لما رأته يسرع الى الباب ليتخلص منها أسرعت هى أيضا لتسبقه اليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن اسراعها أثره بذلك مبالغة ﴿وقدت قميصه من دبر﴾ اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل فى وصف على رضى الله عنه انه كان اذا اعتلى قد واذا اعترض قط واسناد القد اليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضا دخلا فيه اما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها فى منعه عن الخروج وبذل مجهودها فى ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح ﴿وألفيا سيدها﴾ أى صادفا زوجها واذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم للمرأة ﴿لدى الباب﴾ أى البرانى كما مر. روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿قالت﴾ استئناف مبنى على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءا﴾ من الزنى ونحوه ﴿الا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ ما نافيه أى ليس جزاؤه الا السجن أو العذاب الأليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أى أى شئ جزاؤه غير ذلك أو ذلك ولقد أتت فى تلك الحالة التى تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بالقاء الرعب فى قلبه من مكرها طمعا فى مواقعته لها كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم انها جعلت صدور الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وأن ما هى عليه من الأفاعيل لاجل تحقيق جزائها فهى تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة وفى ابهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل أحد كائنا من كان وفى ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية ﴿قال﴾ استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف حينئذ فقيل قال ﴿هى راودتنى عن نفسى﴾ أى طالبتنى للمواتاة لا انى أردت بها سوءا كما قالت وانما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسند اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الأمرين الأمرين وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الاشارة مراعاة لحسن الأدب مع الايماء الى الاعراض عنها ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان جالسا مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وانما ألقى الله سبحانه الشهادة الى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى أن النبى صلى الله

عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع اذ لا يختلف الحال فى هذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم ﴿ان كان قميصه قد من قبل﴾ أى ان علم أنه قد من قبل ونظيره ان أحسنت الى فقد أحسنت اليك فيما قبل فان معناه ان تعتد باحسانك الى فأعتد باحسانى السابق اليك ﴿فصدقت﴾ بتقدير قد لانها تقرب الماضى الى الحال أى فقد صدقت وكذا الحال فى قوله فكذبت وهى وان لم تصرح بأنه عليه السلام أراد بها سوءا الا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعترضان للانشاءات ﴿وهو من الكاذبين﴾ وهذه الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة فى شئ وانما ذكرت توسيعا للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى يحتمله الحال فى الجملة بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود باقامة الشهادة أعنى مضمون الشرطية الثانية التى هى قوله عز وجل ﴿وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ الى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب الى الوقوع وأدل على المطلوب وان لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الأقوال أو بتقدير القول أى شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع أنه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها بل لانها شهادة على الحقيقة وحكم بصدقه وكذبها أما على تقدير كون الشاهد هو الصبى فظاهر اذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للايذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضا وأما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هى عليه اما مشاهدة أو اخبارا فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الاولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالى الاولى وبوقوع تالى الثانية فاذن هو اخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لأن الشرطية الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محقق البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة زوجينى نفسك فقالت لى زوج فكذبها فى ذلك فقالت ان لم يكن لى زوج فقد زوجتك نفسى فقبل الرجل فاذا لا زوج لها فهو نكاح اذ تعليق الشئ بأمر مقرر تنجيز له وقرئ من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف للتأنيث والعلمية وقرئ بسكون العين ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال ﴿قال انه﴾ أى الأمر الذى وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن ارادة السوء التى أسندت الى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الى آخره لكن لا من حيث صدور تلك الارادة والاسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى ﴿من كيدكن﴾ أى من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يمكن تجريده عن الاضافة اليها الا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق

ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

ورجع الضمير الى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن ارادة

السوء من هى الى البحث عن شعبة من شعبه وجعل للسوء أو للامر المعبر به عن طمعها فى يوسف عليه السلام يأباه الخبر فان الكيد يستدعى أن يعتبر مع ذلك هنات أخر من قبلها كما أشرنا اليه ﴿ان كيدكن عظيم﴾ فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا فى النفس. وعن بعض العلماء انى أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم و لان الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال ﴿يوسف﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله ﴿أعرض عن هذا﴾ أى عن هذا الأمر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك ﴿واستغفرى﴾ أنت ياهذه ﴿لذنبك﴾ الذى صدر عنك وثبت عليك ﴿انك كنت﴾ بسبب ذلك ﴿من الخاطئين﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطئ اذا أذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة ﴿وقال نسوة﴾ أى جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث اللمة وهى اسم لجماعة النساء والثبة وهى اسم لجماعة الرجال و لذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ﴿فى المدينة﴾ ظرف لقال أى أشعن الأمر فى مصر أو صفة لنسوة ﴿امرأة العزيز﴾ أى الملك يردن قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة فى اشاعة الخبر بحكم أن النفوس الى سماع أخبار ذوى الاخطار أميل كما قيل اذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هى لقصد الاشباع فى لومها بقولهن ﴿تراود فتاها﴾ أى تطالبه بمواقعته لها وتتمحل فى ذلك وتخادعه ﴿عن نفسه﴾ وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب وأصله فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان و يستعار للملوك وهو المراد هنا وفى الحديث لايقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليها لا الى العزيز الذى لا تستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لابانة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والاشباع فى اللوم فان من لا زوج لها من النساء أو لها زوج دنئ قد تعذر فى مراودة الأخدان لا سيما اذا كان فيهم علو الجناب وأما التى لها زوج وأى زوج عزيز مصر فمراودتها لغيره لاسيما لعبدها الذى لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها فى ذلك غاية الغى ونهاية الضلال ﴿قد شغفها حبا﴾ أى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير اذا هنأه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبى يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأيا ما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الانية مصير الى الاستدلال على الأجلى بالأخفى ومن حيث اللمية ميل الى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية اذ الأصل قد شغفها حبه كما أشير اليه ﴿انا لنراها﴾ أى نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة ﴿فى ضلال﴾ عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل ﴿مبين﴾ واضح لا يخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لأمرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم وانما لم يقلن انها لفى ضلال مبين اشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن

أمثال ما هى عليه ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام ﴿أرسلت اليهن﴾ تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ﴿وأعتدت﴾ أى أحضرت وهيأت ﴿لهن متكأ﴾ أى ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد أو رتبت لهن مجلس طعام وشراب لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أى طعمنا قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا ... وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين وقرئ بغير همز وقرئ بالمد باشباع حركة الكاف كمنتزاح فى منتزح و ينباع فى ينبع وقرأ متكا وهو الاترج وأنشدوا

وأهدت متكة لبنى أبيها ... تخب بها العثمثمة الوقاح

أو ما يقطع من متك الشئ اذا بتكه ومتكأ من تكى اذا اتكى ﴿وآتت كل واحدة منهن سكينا﴾ لتستعمله فى قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿وقالت﴾ ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وأعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو ربما يشير الى أن قولها ﴿اخرج عليهن﴾ أى ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من استغفالهن ﴿فلما رأينه﴾ عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج و ينسحب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وانما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وفيه ايذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل ﴿أكبرنه﴾ عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فان فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع الى يوسف عليه السلام على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ... فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

﴿وقطعن أيديهن﴾ أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن ما فعلن وفى التعبير عن الجرح بالقطع مالا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به ﴿وقلن حاش لله﴾ تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشا كما قرأه أبو عمرو فى الدرج فحذفت ألفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به الا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما فى سقيالك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبى السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبى عمرو بحذف الالف الأخيرة وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما فى قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الالف الى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين اتباعا للفتحة الالف فى الإسقاط وحاش الاله وقيل حاشا

فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أى صار فى ناحية من أن يقارف مارمته به لله أى لطاعته أو لمكانه أوجانب المعصية لأجل الله ﴿ماهذا بشرا﴾ على اعمال مابمعنى ليس وهى لغة أهل الحجاز لمشاركتهما فى نفى الحال وقرىء بشر على لغة تميم و بشرى أى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لماشاهدن فيه من الجمال العبقرى الذى لم يعهد مثاله فى البشر وقصرنه على الملكية بقولهن ﴿ان هذا الاملك كريم﴾ بناء على ماركز فى العقول من أن لاحى أحسن من الملك كما ركب فيها أن لاأقبح من الشيطان ولذلك لايزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال ﴿قالت فذلكن﴾ الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والاشارة الى يوسف بالعنوان الذى وصفنه به الآن من الخروج فى الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى ان كان الأمر كما قلتن فذلكن الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية هو ﴿الذى لمتننى فيه﴾ أى عيرتننى فى الافتتان به حيث رأيتن بمحلى بنسبتى الى العزيز و وضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالعنوان الذى وصفنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدا محذوف أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن وقلتن فيه و فى ماقلتن فالآن قدعلمتن من هو وماقولكن فينا وأما مايقال تعنى أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فان مرادها بدعوتهن وتمهيد مامهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ماصدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه وماذكر من المقال لحق المعتذر قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل الملكية أن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضا لايلائم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فان عنوان العصمة مما ينافى تمشية مرامها ثم بعدما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ماأصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت ﴿ولقد راودته عن نفسه﴾ حسبما قلتن وسمعتن ﴿فاستعصم﴾ امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على أنه لم يصدر عنه عليه السلام شىء مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن أو لا بما كن يسمعنه من مراودتها له وأكدته اظهارا لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ مايكون ولم يمل اليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها مستمرة على ماكانت عليه غير مرعوية عنه لابلوم العواذل و لاباعراض الحبيب فقالت ﴿ولئن لم يفعل ما آمره﴾ أى آمر به فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير كما فى أمرتك الخير فالضمير للموصول أو أمرى اياه أى موجب أمرى ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالأمر اظهارا لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بأمرها ﴿ليسجنن﴾ بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جريا على رسم الملوك أو ايهاما لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لامرها كأنه لايدخل بينهما فعل فاعل ﴿وليكونا﴾ بالمخففة ﴿من الصاغرين﴾ أى الاذلاء فى السجن وقد قرىء الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لأن النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه سادمسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام أنها ليست فى أمرها على خفية و لاخيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل و ينصحن له و يرشدنه الى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل ﴿قال﴾ مناجيا لربه عز سلطانه ﴿رب السجن﴾ الذى أوعدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر ﴿أحب الى﴾ أى آثر عندى لانه مشقة قليلة نافدة أثرها راحات جليلة أبدية

﴿مما يدعوننى اليه﴾ من مؤاتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الأليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على ما مر من انكشاف الحقائق لديه و بروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذليس له شائبة محبة لمادعته اليه وانما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما الى الايثار السجن والتعبير عن الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبته فى مطاوعتها وخوفته من مخالفتها وقيل دعونه الى أنفسهن وقيل انما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الأولى به أن يسأل الله تعالى العافية و لذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر ﴿والا تصرف﴾ أى ان لم تصرف ﴿عنى كيدهن﴾ فى تحبيب ذلك الى وتحسينه لدى بأن تثبتنى على ماأنا عليه من العصمة والعفة ﴿أصب اليهن﴾ أى أمل الى اجابتهن أو الى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام الى ألطاف الله تعالى جريا على سنن الأنبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن باظهار أن لاطاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى والاهلكت لاانه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة و فى نفسه داعية تدعوه الى هواهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها و روحها وقرىء أصب اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق ﴿وأكن من الجاهلين﴾ الذين لايعملون بما يعلمون لأن من لاجدوى لعلمه فهو والجاهل سواء أومن السفهاء بارتكاب مايدعوننى اليه من القبائح لأن الحكيم لايفعل القبيح ﴿فاستجاب له ربه﴾ دعاءه الذى تضمنه قوله والا تصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كما مر و فى اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام مالايخفى من اظهار اللطف ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة ﴿انه هو السميع﴾ لدعاء المتضرعين اليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم ومايصلحهم ﴿ثم بدا لهم﴾ أى ظهر للعزيز وأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والاعراض عن ذلك ﴿من بعدمارأوا الآيات﴾ الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا امامصدره أو الرأى المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله ﴿ليسجننه﴾ والمعنى بدا لهم بداء أو رأى أوسجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البداء الاباستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب و كان مطواعة لها تقوده حيث شاءت قال السدى انها قالت للعزيز ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بأنى راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر الى الناس واما أن تحبسه فحبسه ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها و بأعوانها وقرىء لتسجننه على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس ﴿حتى حين﴾ الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه وأما عندها فحتى يذلله السجن و يسخره لها و يحسب الناس أنه المجرم وقرىء عتى حين بلغة هذيل ﴿ودخل معه﴾ أى فى صحبته ﴿السجن فتيان﴾ من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه والآخر خبازه. روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فاجاباهم الى ذلك ثم ان الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لاتأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لاتشرب أيها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه

فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لايهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدا وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل ﴿قال أحدهما﴾ استئناف مبنى على سؤال من يقول ماصنعا بعدما دخلا معه السجن فأجيب بانه قال أحدهما وهو الشرابى ﴿انى أرانى﴾ أى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية ﴿أعصر خمرا﴾ أى عنبا سماه بما يؤول اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنبا ﴿وقال الآخر﴾ وهو الخباز ﴿انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا﴾ تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله ﴿تأكل الطير منه﴾ أى تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبنى على السؤال ﴿نبئنا بتأويله﴾ بتأويل ماذكر من الرؤيين أو مارئى باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد كما فى قوله

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك والسر فى المصير الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع أنه لاحاجة اليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بمارئى أن الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى اسم الاشارة الذى يدل على المشار اليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا اذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا وأما اذا قاله كل منهما اثر ماقص مارآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع بل عبارة كل منهما نبئنى بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل ياأيها الرسل كلوا من الطيبات فانهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة مفردة خاصة به ﴿انا نراك﴾ تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها منه عليه السلام ﴿من المحسنين﴾ من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس مايدل على علمه وفضله أو من المحسنين الى أهل السجن أى فأحسن الينا بكشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك . روى أنه عليه السلام كان اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه أوسع له واذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ماأحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى فقال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وعن الشعبى أنهما تحالماله ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز انى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الاطعمة واذا سباع الطير تنهس منها ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ فى مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة ﴿الا نبأتكما بتأويله﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال الا حال ما نبأتكما به بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿قبل أن يأتيكما﴾ واطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى مارئى فى المنام وشبيه له واما بطريق المشاكلة حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشئ الآئل لا المآل فانه فى الأصل جعل شئ آئلا

الى شئ آخر فكما يجوز أن يراد به الثانى يجوز أن يراد به الأول فالمعنى الا نبأتكما بما يؤول اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدنه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل مايهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا فى ذلك بحسب الحال مع مافيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما الا أخبرتكما بتأويل ماقصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الاخبار بالاستعجال فى التنبئة وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر فى تعدد اتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وأن المقام مقام اظهار فضله فى فنون العلوم بحيث يدخل فى ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وانما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام فى سمط المحسنين وانهما قد علما ذلك حيث قالا انا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فأراد أن يخرج آثر ذى أثير عما فى عهدته من دعوة الخلق الى الحق فمهد قبل الخوض فى ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه وثقة بأمره ووقوفا على علو طبقته فى بدائع العلوم توسلا بذلك الى تحقيق مايتوخاه وقد تخلص اليها من كلامهما فكأنه قال تأويل ماقصصتماه على فى طرف الثمام حيث رأيتما مثاله فى المنام وانى أبين لكما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة وان لم يكن هناك مقدمة المنام حتى ان الطعام الموظف الذى يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل اتيانه ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهى يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال ﴿ذلكما﴾ أى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات ومعنى البعد فى ذلك للاشارة الى علو درجته وبعد منزلته ﴿مما علمنى ربى﴾ بالوحى والالهام أى بعض منه أو من ذلك الجنس الذى لايحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على أن له علوما جمة ماسمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال ﴿انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمنى ربى وتعليلا له لا للتعليم الواقع صلة للموصول لتأديته الى معنى أنه مما علمنى ربى لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لأن ماذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ماعلمه فكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لأنى تركت ملة الكفرة أى دينهم الذى اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ لا تركها بعد ملابستها وانما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بايمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على مامر فى قوله تعالى انه عمل غير صالح ﴿وهم بالآخرة﴾ ومافيها من الجزاء ﴿هم كافرون﴾ على الخصوص دون غيرهم لافراطهم فى الكفر ﴿واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب﴾ يعنى أنه انما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه فى الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية متقدمة على التحلية ﴿ما كان﴾ أى ماصح وما استقام فضلا عن الوقوع ﴿لنا﴾ معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ﴿أن نشرك بالله من شئ﴾ أى شئ كان من ملك أوجنى أو انسى فضلا عن الجماد البحت ﴿ذلك﴾ أى التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ﴿من فضل الله علينا﴾ أى

ناشئ من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الأمة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات ﴿وعلى الناس﴾ كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذى يوجبه بالشكر فقيل ﴿ولكن أكثر الناس لايشكرون﴾ أى لايوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ماذكر من التأييد شكر لله عز وجل على تلك النعمة وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لاينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لأهوائهم فيبقون كافرين غيرشاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولا ومشاعر نستعملها فى دلائل التوحيد التى مهدها فى الأنفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضا مثلها ولكن أكثرهم لايشكرون أى لايصرفون تلك القوى والمشاعر الى ماخلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والأنفسية والعقلية والنقلية ﴿ياصاحبى السجن﴾ أى ياصاحبى فى السجن كما تقول ياسارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة فى مدار الأشجان ودار الأحزان التى تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال ﴿أأرباب متفرقون﴾ لاارتباط بينهم ولا اتفاق يستعبدكما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله ﴿خير﴾ لكما ﴿أم الله﴾ المعبود بالحق ﴿الواحد﴾ المتفرد بالألوهية ﴿القهار﴾ الغالب الذى لايغالبه أحد وبعد مانبههما على فساد تعدد الأرباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الألوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما ﴿ماتعبدون من دونه﴾ أى من دون الله شيأ ﴿الا أسماء﴾ فارغة لامطابق لها فى الخارج لأن ماليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لاوجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط ﴿سميتموها﴾ جعلتموها أسماء وانما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من اسقاطها عن مرتبة الوجود وايذانا بأن تسميتهم فى البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود ﴿أنتم وآباؤكم﴾ بمحض جهلكم وضلالتكم ﴿ماأنزل الله بها﴾ أى بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿ان الحكم﴾ فى أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية ﴿الا لله﴾ عز سلطانه لأنه المستحق لها بالذات اذهو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لأمره ﴿أمر﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشئ من قوله ان الحكم الا لله فكأنه قيل فماذا حكم الله فى هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام ﴿ألا تعبدوا﴾ أى بأن لاتعبدوا ﴿الا اياه﴾ حسبما تقضى به قضية العقل أيضا ﴿ذلك﴾ أى تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿الدين القيم﴾ الثابت المستقيم الذى تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا ﴿ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين أو لايعلمون شيأ أصلا فيعبدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلى والسلطان النقلى وبعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع فى تفسير مااستفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال ﴿ياصاحبى السجن أما أحدكما﴾ وهو الشرابى وانما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلا بذلك الى ابهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه ﴿فيسقى ربه﴾ أى سيده ﴿خمرا﴾ روى انه عليه السلام قال له مارأيت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على البناء للمفعول أى يسقى مايروى به ﴿وأما الآخر﴾

وهو الخباز ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ روى أنه عليه السلام قال له مارأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتقتل ﴿قضى﴾ أى أتم وأحكم ﴿الأمر الذى فيه تستفتيان﴾ وهو مارأياه من الرؤيين قطعا لامآله الذى هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه اسناد القضاء اليه اذ الاستفتاء انما يكون فى الحادثة لافى حكمها يقال استفتى الفقيه فى الحادثة أى طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه فى حكمها وكذا الافتاء فانه يقال أفتى فلان فى الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال أفتى فى حكمها أو جوابها بكذا ومما هو علم فى ذلك قوله تعالى ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما نبئنا بتأويله وانما عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا لأمره وتفخيما لشأنه اذ الاستفتاء انما يكون فى النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب وايثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك لما أنهما بصدده الى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره واسناد القضاء اليه مع انه من أحوال مآله لانه فى الحقيقة عين ذلك المآل وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ماوحداه فى قولهما نبئنا بتأويله لا لان الأمر مااتهما به وسجنا لاجله من سم الملك فانهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل وانما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيدا له وقيل لما عبر رؤياهما جحدا وقالا مارأينا شيئا فأخبرهما ان ذلك كائن صدقتما أو كذبتما ولعل الجحود من الخباز اذ لاداعى الى جحود الشرابى الا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه ﴿وقال﴾ أى يوسف عليه السلام ﴿للذى ظن أنه ناج﴾ أوثر على صيغة المضارع مبالغة فى الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى قضى الأمر الذى فيه تستفتيان وهو السر فى ايثار ماعليه النظم الكريم على أن يقال للذى ظنه ناجيا ﴿منهما﴾ من صاحبيه وانما ذكر بوصف النجاة تمهيد المناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وان كان أدخل فى ذلك وأدعى الى تحقيق ماوصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو يوسف عليه السلام لاصاحبه لان التوصية المذكورة لاتدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى ظننت أنى ملاق حسابيه فالتعبير بالوحى كما ينبئ عنه قوله تعالى قضى الأمر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضا اجتهادى ﴿اذكرنى﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿عند ربك﴾ سيدك وصفنى له بصفتى التى شاهدتها ﴿فأنساه الشيطان﴾ أى أنسى الشرابى بوسوسته والقائه فى قلبه أشغالا تعوقه عن الذكر والا فالانساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فان توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الانساء ﴿ذكر ربه﴾ أى ذكر الشرابى له عليه السلام عند الملك والاضافة لادنى ملابسة أو ذكر اخبار ربه ﴿فلبث﴾ أى يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء أو القول ﴿فى السجن بضع سنين﴾ البضع مابين الثلاث الى التسع من البضع وهو القطع وأكثر الاقاويل انه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبى عليه السلام رحم الله أخى يوسف لولم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وان كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الانبياء عليهم السلام الاخذ بالعزائم ﴿وقال الملك﴾ أى الريان ﴿انى أرى﴾ أى رأيت وايثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿سبع بقرات سمان﴾ جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام ﴿يأكلهن﴾ أى أكلهن والعدول الى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا والجملة حال من البقرات أو صفة لها ﴿سبع عجاف﴾ أى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لان فعلاء وأفعل لايجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وانما لم يقل سبع عجاف بالاضافة لان التميز موضوع لبيان الجنس والصفة

ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الاسماء روى أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان ﴿وسبع سنبلات خضر﴾ قد انعقدحبها ﴿وأخر يابسات﴾ أى وسبعا أخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها على ما روى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ﴿ياأيها الملأ﴾ خطاب للاشراف من العلماء والحكماء ﴿أفتونى فى رؤياى﴾ هذه أى عبروها و بينوا حكمها وماتؤل اليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه ﴿ان كنتم للرؤيا تعبرون﴾ أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام الى ماهى صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الانفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر اذا قطعته وجاوزته ونحوه أولتها أى ذكرت مآلها وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا والجمع بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير اليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل ان كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الأمر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الملأ للملك فقيل قالوا هى ﴿أضغاث أحلام﴾ أى تخاليطها جمع ضغث وهو فى الاصل ماجمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها فى المنام والاحلام جمع حلم وهى الرؤيا الكاذبة التى لاحقيقة لها والاضافة بمعنى من أى هى أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تؤول اليها و يعتنى بامرها وجمعوها وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل و يلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات فتأمل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل ﴿وما نحن بتأويل الاحلام﴾ أى المنامات الباطلة التى لا أصل لها ﴿بعالمين﴾ لا لأن لها تأويلا ولكن لانعلمه بل لأنه لاتأويل لها وانما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير فى تأويل الاحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال الى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الاحلام أو عبارتها الى التأويل المنبئ عن التصرف والتكلف فى ذلك لما بين الآئل والمآل من البعد و يؤيده قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله ﴿وقال الذى نجا منهما﴾ أى من صاحبى يوسف وهو الشرابى ﴿وادكر﴾ بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أى تذكر يوسف عليه السلام وشئونه التى شاهدها و وصيته بتقريب رؤيا الملك واشكال تأويلها على الملأ ﴿بعد أمة﴾ أى مدة طويلة وقرئ امة بالكسر وهى النعمة أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمه أى نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لأن حق كل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدرى أن تذكره بعد أمة انما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لا من تلقاء نفسى ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله ﴿فأرسلون﴾ أى الى يوسف وانما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله ﴿يوسف أيها الصديق﴾ أى أرسل اليه فأتاه فقال يا يوسف و وصفه بالمبالغة فى الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه

بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال ﴿أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ أى فى رؤيا ذلك وانما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا امكان لوقوعه فى عالم الشهادة أى بين لنا مآلها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام فى الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفى قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده اشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه فى ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال ﴿لعلى أرجع الى الناس﴾ أى الى الملك ومن عنده أو الى أهل البلد ان كان السجن فى الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك ﴿لعلهم يعلمون﴾ ذلك و يعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلص منه وانما لم يبت القول فى ذلك مجاراة معه على نهج الادب واحترازا عن المجازفة اذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه لعل المنايا دون ما تعدانى ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام فى التأويل فقيل قال ﴿تزرعون سبع سنين دأبا﴾ قرئ بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب فى العمل اذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أى دائبين أو تدأبون دأبا على انه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة و يبالغون فيها اذ بذلك يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم فى تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال ﴿فما حصدتم﴾ أى فى كل سنة ﴿فذروه فى سنبله﴾ ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخضر وانما أمرهم بذلك اذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محقق الوقوع وتأويلا للرؤيا مصداقا لما فيها من البقرات السمان ﴿الا قليلا مما تأكلون﴾ فى تلك السنين وفيه ارشاد منه عليه السلام لهم الى التقليل فى الأكل والاقتصار على استثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد اتمام ما أمرهم به شرع فى بيان بقية التأويل التى يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال ﴿ثم يأتى﴾ وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثا لهم على الجد والمبالغة فى الزراعة على أنه يحصل بالاخبار بذلك أيضا ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد السنين السبع المذكورات وانما لم يقل من بعدهن قصدا الى الاشارة الى وصفهن فان الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية ﴿سبع شداد﴾ أى سبع سنين صعاب على الناس ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ من الحبوب المتروكة فى سنابلها وفيه تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة واسناد الأكل اليهن مع أنه حال الناس فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السمان واللام فى لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر فى السنابل من الحبوب شئ قد هيئ وقدم لهن كالذى يقدم للنازل والا فهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن ﴿الا قليلا مما تحصنون﴾ تحرزون لبذور الزراعة ﴿ثم يأتى من بعد ذلك﴾ أى من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿عام﴾ لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن المدلول الأصلى لها من عام القحط وتنبيها من أول الأمر على اختلاف الحال بينه و بين السوابق ﴿فيه يغاث الناس﴾ من الغيث أى يمطرون يقال غيثت البلاد اذا مطرت فى وقت الحاجة أو من الغوث يقال أغاثنا الله تعالى أى أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا ﴿وفيه يعصرون﴾ أى ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب

اما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب اذ المذكورات يتوقف صلاحها على مباد أخرى غير المطر واما المراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس فى القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكرير فيه اما للاشعار باختلاف أوقات مايقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس واما لأن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام و لأجله قدم فى الموضعين على الفعلين فان المقصود الأصلى بيان أنه يقع فى ذلك العام هذا النفع وذاك النفع لابيان أنهما يقعان فى ذلك العام كما يفيده التأخير ويجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيثهم وعصرهم فى سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة الى عامهم ذلك وأن يكون ذلك فى الأخير لمراعاة الفواصل و فى الأول لرعاية حاله وقرئ يعصرون على البناء للمفعول من عصره اذا أنجاه وهو المناسب للاغاثة ويجوز أن يكون المبنى للفاعل أيضا منه كأنه قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أى يغيثهم الله و يغيث بعضهم بعضا وقيل معنى يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة اما بتضمين أعصرت معنى مطرت وتعديته واما بحذف الجار وايصال الفعل على أن الأصل أعصرت عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وانما تلقاها عليه السلام من جهة الوحى فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق فى شأنه ابانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه فى الفضل وأنه محيط بما لم يخطر ببال أحد فضلا عما يرى صورته فى المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما فى منامهما لايأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله وانما اما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام فى العلم بوقوعها أحد ولو برؤية مايدل عليها فى المنام ﴿وقال الملك﴾ بعد ماجاءه السفير بالتعبير وسمع منه ماسمع من نقير وقطمير ﴿ائتونى به﴾ لما علم من علمه وفضله ﴿فلما جاءه﴾ أى يوسف ﴿الرسول﴾ واستدعاه الى الملك ﴿قال ارجع الى ربك﴾ أى سيدك ﴿فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن﴾ أى ففتشه عن شأنهن وانما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثا للملك على الجد فى التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته اذ السؤال مما يهيج الانسان على الاهتمام فى البحث للتفصى عما توجه اليه وأما الطلب فمما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالى به وانما لم يتعرض لامرأة العزيز مع مالقى منها مالقى من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة العداوة وأما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق وشهادتهن باقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك واكتفى بالايماء الى ذلك بقوله ﴿ان ربى بكيدهن عليم﴾ مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهن عند الملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن الى الفساد ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك اثر مابلغه الرسول الخبر وأحضرهن ﴿ماخطبكن﴾ أى شأنكن وهو الأمر الذى يحق لعظمه أن يخاطب المرء فيه صاحبه ﴿اذ راودتن يوسف﴾ وخادعتنه ﴿عن نفسه﴾ ورغبتنه فى اطاعة مولاته هل وجدتن فيه شيئا من سوء وريبة ﴿قلن حاش لله﴾ تنزيها له وتعجبا من نزاهته وعفته ﴿ماعلمنا عليه من سوء﴾ بالغن فى نفى جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من ﴿قالت امرأة العزيز﴾ وكانت حاضرة فى المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة ﴿الآن حصحص الحق﴾ أى ثبت واستقر أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصة وهى القطعة من الجملة أى تبين حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الاراضى وغيرها وقيل بان وظهر من حص شعره اذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرئ على البناء للمفعول من حصحص البعير مباركه أى

ألقاها فى الارض للاناخة قال

فحصحص فى صم الصفا ثفناته ... وناء بسلمى نوأة ثم صمما

والمعنى أقر الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ماظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وماصنعت فى ذلك بل أرادت ظهور ماهو متحقق فى نفس الأمر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع وخيانتها فقالت ﴿أنا راودته عن نفسه﴾ لا أنه راودنى عن نفسى ﴿وانه لمن الصادقين﴾ أى فى قوله حين افتريت عليه هى راودتنى عن نفسى وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لازمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها والفضل ماشهدت به الخصماء وانما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته مما قذف به لاسيما عند العزيز قبل أن يحل ماعقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع اليه الرسول وأخبره بكلامهن ﴿ذلك﴾ أى ذلك التثبيت المؤدى الى ظهور حقيقة الحال ﴿ليعلم﴾ أى العزيز ﴿أنى لم أخنه﴾ فى حرمته كما زعمه لاعلما مطلقا فان ذلك لايستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ماذكر من نقض ماأبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لأن المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ماجعله سببا له وان كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك لئلا يتمكن من تقبيح أمره عند الملك تمحلا لامضاء ماقضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام فى الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله ﴿بالغيب﴾ أى بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أى لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنى أو ظرف أى بمكان الغيب وراء الاستار والأبواب المغلقة وأيا ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها ﴿وأن الله﴾ أى وليعلم أنه تعالى ﴿لايهدى كيد الخائنين﴾ أى لاينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه أو لايهديهم فى كيدهم ايقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما فى قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا أى يضاهئونهم فى قولهم وفيه تعريض بامرأته فى خيانتها أمانته وبه فى خيانته أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد مارأوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته ﴿وما أبرئ نفسى﴾ أى لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء وربأ بمكانها عن التزكية والاعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر أو تحديثا بنعمة الله عز وجل عليه وابرازا لسره المكنون فى شأن أفعال العباد أى لا أنزهها عن السوء من حيث هى هى ولا أسند هذه الفضيلة اليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وعلا ﴿ان النفس﴾ البشرية التى من جملتها نفسى فى حد ذاتها ﴿لأمارة بالسوء﴾ مائلة الى الشهوات مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها بل انما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله ﴿الا ما رحم ربى﴾ من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المهالك ومن جملتها نفسى أو هى أمارة بالسوء فى كل وقت الا وقت رحمة ربى وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع أى لكن رحمة ربى هى التى تصرف عنها السوء كما فى قوله تعالى ولا هم ينقذون الا رحمة ﴿ان ربى غفور رحيم﴾ عظيم المغفرة لما يعترى النفوس بموجب طباعها ومبالغ فى الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وايثار الاظهار فى مقام الاضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادى المغفرة والرحمة وقيل الى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف عليه السلام انى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرئ نفسى مع ذلك من الخيانة حيث قلت فى حقه ماقلت وفعلت به مافعلت ان كل نفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى أى الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف

ان ربى غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام فى الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وأمره بين بين فقعل مافعل حتى يتبين نزاهته وأنه انما سجن بظلم عظيم مع ماله من الفضل ونباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال وقد وقع ﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه﴾ أجعله خالصا ﴿لنفسى﴾ وخاصابى ﴿فلما كلمه﴾ أى فأتوا به فحذف للايذان بسرعة الاتيان به فكأنه لم يكن بين الأمر باحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير المستكن فى كلمه ليوسف والبارز للملك أى فلما كلمه يوسف اثر ماأتاه فاستنطقه وشاهد منه ماشاهد ﴿قال انك اليوم لدينا مكين﴾ ذومكانة ومنزلة رفيعة ﴿أمين﴾ مؤتمن على كل شىء واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين . روى أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لأهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعاله بالعبرانية فقال ماهذا اللسان قال لسان آبائى و كان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياى فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على مارآها فأجلسه على السرير وفوض اليه أمره وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه و زوجه راعيل فوجدها عذراء و ولدت له افرايم وميشا ولعل ذلك انما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزائن كما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿قال اجعلنى على خزائن الأرض﴾ أى أرض مصر أى ولنى أمرها من الايراد والصرف ﴿انى حفيظ﴾ لها ممن لايستحقها ﴿عليم﴾ بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء أحكام الشريعة وان كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام ولعل ايثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة انما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة اذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل فى التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لالمجرد عموم الفائدة وجوم العائدة كما قيل وانما لم يذكر اجابة الملك الى ماسأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرض ايذانا بأن ذلك أمر لامرد له غنى عن التصريح به لاسيما بعد تقديم مايندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها من قوله انك اليوم لدينا مكين أمين وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل وانما الملك آلة فى ذلك قيل ﴿وكذلك﴾ أى مثل ذلك التمكين البليغ ﴿مكنا ليوسف﴾ أى جعلنا له مكانا ﴿فى الأرض﴾ أى أرض مصر . روى أنها كانت أربعين فرسخا فى أربعين و فى التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين فى الأرض مسندا الى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة فى كمال ولايته والاشارة الى حصول ذلك من أول الأمر لأنه حصل بعد السؤال مالا يخفى ﴿يتبوأ منها﴾ ينزل من بلادها ﴿حيث يشاء﴾ ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله وقرأ ابن كثير بالنون . روى أن الملك توجه وختمه بخاتمه و رداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى فقال قد وضعته اجلالا لك واقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء و باع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام فى السنة الأولى بالدنانير والدراهم وفى الثانية بالحلى والجواهر وفى الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا مارأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه ثم أعتقهم ورد اليهم أموالهم وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس ﴿نصيب برحمتنا﴾ بعطائنا فى

الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿من نشاء﴾ بمقتضى الحكمة الداعية الى المشيئة ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ بل نوفيه بكماله وفيه اشعار بأن مدار المشيئة المذكورة احسان من تصيبه الرحمة المرقومة وأنها أجر له ولدفع توهم انحصار ثمرات الاحسان فيما ذكر من الأجر العاجل قيل على سبيل التوكيد ﴿ولأجر الآخرة﴾ أى أجرهم فى الآخرة فالاضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذى لانفاد له ﴿خير﴾ لهم أى للمحسنين المذكورين وانما وضع موضعه الموصول فقيل ﴿للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ تنبيها على أن المراد بالاحسان انما هو الايمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتى الماضى والمستقبل ﴿وجاء اخوة يوسف﴾ ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين ﴿فدخلوا عليه﴾ أى على يوسف وهو فى مجلس ولايته ﴿فعرفهم﴾ لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته اياهم وهم رجال وتشابه هيآتهم وزيهم فى الحالين ولكون همته معقودة بهم و بمعرفة أحوالهم لاسيما فى زمن القحط وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له ﴿وهم له منكرون﴾ أى والحال أنهم منكرون له لطول العهد وتباين ما بين حاليه عليه السلام فى نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم أنه هلك وحيث كان انكارهم له أمرا مستمرا فى حالتى المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام اياهم ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أى أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج اليه المسافر وأوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة وقرىء بكسر الجيم ﴿قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة فى اظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام انما قاله لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فانى أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فأين الحادى عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده اذ لا يساعده ورود الأمر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان فى الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم فى رحالهم لاجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال ﴿ألا ترون انى أوفى الكيل﴾ أتمه لكم وايثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة ﴿وأنا خير المنزلين﴾ جملة حالية أى ألا ترون أنى أوفى الكيل لكم ايفاء مستمرا والحال انى فى غاية الاحسان فى انزالكم وضيافتكم وقد كان الأمر كذلك وتخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب فى أثنائه وأما الاحسان فى الانزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ماأمرهم به والاقتصار فى الكيل على ذكر الايفاء لان معاملته عليه السلام معهم فى ذلك كمعاملته مع غيرهم فى مراعاة مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم فى ذلك بما شاء ﴿فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى﴾ من بعد فضلا عن ايفائه ﴿ولا تقربون﴾ بدخول بلادى فضلا عن الاحسان فى الانزال والضيافة وهو اما نهى أو نفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم

كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أى سنخادعه عنه ونحتال فى انتزاعه من يده ونجتهد فى ذلك وفيـه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وانا لفاعلون﴾ ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أولقادرون عليه لانتعانى به ﴿وقال﴾ يوسف ﴿لفتيانه﴾ غلمانه الكيالين جمع فتى وقرى• لفتيته وهى جمع قلة له ﴿اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم﴾ فانه وكل بكل رحل رجلا يعبى فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدماوانمـا فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لايكون عند أبيه مايرجعون به مرة أخرى و كل ذلك لتحقيق مايتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يؤذن به قوله ﴿لعلهم يعرفونها﴾ أى يعرفون حق ردها والتكرم فى ذلك أو لكى يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله ﴿اذا انقلبوا الى أهلهم﴾ فان معرفتهم لهـا مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعا وأما معرفة حق التكرم فى ردها فهى وان كانت فى ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لمـا كان ابتداؤها حينئذ قيدت به ﴿لعلهم يرجعون﴾ حسبما أمرتهم به فان التفضل عليهم باعطاء البدلين ولاسيما عند اعواز البضاعة من أقوى الدواعى الى الرجوع وماقيل انمـا فعله عليه السلام لمـا لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه واخوته ثمنا فكلام حق فى نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما أن علية الجعل المذكور للرجوع من حيث ان ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لأنهم لا يستحلون امسـا كهم فداره حسبانهم أنها بقيت فى رحالهم نسيانا وظاهر أن ذلك ممـا لايخطر ببال أحد أصلا فان هيئة التعبية تنادى بأن ذلك بطريق التفضل ألا يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبرا ﴿فلما رجعوا الى أبيهم قالوا﴾ قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿ياأبانا منع منا الكيل﴾ أى فيما بعد وفيه مالايخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد مرة معهودا فيما بينهم و بينه عليه السلام ﴿فأرسل معنا أخانا﴾ بنيامين الى مصر وفيه ايذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم ﴿نكتل﴾ بسببه من الطعام مانشاء وقرأ حمزة والكسائى بالياء على اسناده الى الأخ لكونه سببا للاكتيال أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا ﴿وانا له لحافظون﴾ من أن يصيبه مكروه ﴿قال هل آمنكم عليـه الا كما أمنتكم على أخيه﴾ يوسف ﴿من قبل﴾ وقد قلتم فى حقه أيضا ماقلتم ثم فعلتم به مافعلتم فلا أثق بكم و لا بحفظكم وانمـا أفوض الأمر الى الله ﴿فالله خير حافظا﴾ وقرى• حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الأولى توهم تقيد الخيرية بتلك الحالة ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام الى الاذن والارسال لمـا رأى فيه من المصلحة ﴿ولمـا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم﴾ أى تفضلا وقد علموا ذلك بمـا مر من دلالة الحال وقرى• بنقل حركة الدال المدغمة الى الراء كما قيل فى قيل و كيل ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لابيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح ﴿ياأبانا مانبغى﴾ اذا فسر البغى بالطلب فـما اما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغى و راء ماوصفنا لك من احسان الملك الينا و كرمه الداعى الى امتثال أمره والمراجعة اليه فى الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لوكان رجلا من آل يعقوب ماأكرمنا كرامته وقوله تعالى ﴿هذه بضاعتنا ردت الينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لمـا دل عليه الانكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها الينا تفضلا من حيث لاندرى بعدما من علينا من المنن العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقا أوالتقاعد عن طلب نظائره بل أرادوا الاكتفاء به فى استيجاب الامتثال لامره والالتجاء اليـه فى استجلاب المزيد كما أشرنا اليه وقوله تعالى ردت الينا حال من بضاعتنا والعامل معنى الاشارة وايثار صيغة البناء للمفعول للايذان بكمال الاحسان الناشئ عن كمال الاخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به و لا بفاعله وقوله عز وجل ﴿ونمير أهلنا﴾ أى نجلب اليهم الطعام

من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليـه رد البضاعة أى فنستظهر بهـا ونمير أهلنا ﴿ونحفظ أخانا﴾ من المكاره حسبما وعدنا فمـا يصيبه من مكروه ﴿ونزداد﴾ أى بواسطته ولذلك وسط الاخبار بحفظه بين الاصل والمزيد ﴿كيل بعير﴾ أى وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا على قضيـة التقسيط ﴿ذلك﴾ أى مايحمله أباعرنا ﴿كيل يسير﴾ أى مكيل قليـل لايقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لمـا سبق كانه قيل أى حاجة الى الازدياد فقيل ماقيل أو ذلك الكيل الزائد شئ قليل لا يضايقنا فيه الملك أوسهل عليه لايتعاظمه أوأى مطلب نطلب من مهماتنا والجملة الواقعة بعده توضيح و بيان لمـا يشعر به الانكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أومتمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بهـا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا فمـا يصيبه شئ من المكاره ونزداد بسببه غير مانكتاله لأنفسنا كيل بعير فأى شئ نبتغى وراء هذه المباغى وقرى• ماتبغى على خطاب يعقوب عليه السلام أى أى شئ تبغى وراء هذه المباغى المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء مافعل بنا الملك من الاحسان داعيا الى التوجه اليه والجملة الاستئنافية موضحة لذلك أو أى شئ تبغى شاهدا على صدقنا فيما وصفنا لك من احسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الانكار واما نافية فالمعنى مانبغى شيأ غير مارأينا من احسان الملك فى وجوب المراجعة اليه أو مانبغى غير هذه المباغى وقيل مانطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما اذا فسر البغى بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى مانبغى فى القول وما نتزيد فيما وصفنالك من احسان الملك الينا وكرمه الموجب لمـا ذكر والجملة المستأنفة لبيان ماادعوا من عدم البغى وقوله ونمير أهلنا عطف على مانبغى أى مانبغى فيما ذكرنا من احسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا وحفظ أخينا فان ذلك أهون شئ بواسطة احسانه وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأ أى جملة اعتراضية تذييلية على معنى و ينبغى أن نمير أهلنا وشبه ذلك بقولك سعيت فى حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خبير بأن شأن الجمـل التذييلية أن تكون مؤكدة لمضمون الصدر ومقررة له كما فى المثال المـذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق أبلج وان قوله ونمير الخ وان ساعدنا فى حمـله على معنى ينبغى أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو مانبغى فى الرأى ومانعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من ارسال أخينا معنا والجمل الى آخرها تفصيل وبيان لعـدم بغيهم واصابة رأيهم أى بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت فتأمل ﴿قال لن أرسله معكم﴾ بعـد ماعاينت منكم ماعاينت ﴿حتى تؤتونى موثقا من الله﴾ أى ماأتوثق به من جهة الله عز وجل وانمـا جعله موثقا منه تعالى لأن تأكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو اذن منه عز وجل ﴿لتأتننى به﴾ جواب القسم اذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به ﴿الا أن يحاط بكم﴾ أى الا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أوالا أن تهلكوا وأصله من احاطة العدو فان من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الأحوال أوأعم العلل على تأويل الكلام بالنفى الذى ينساق اليه أى لتأتننى به و لا تمتنعن منه فى حال من الأحوال أولعـلة من العلل الاحال الاحاطة بكم أولعلة الاحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لمـا فعلت والا فعلت أى ماأريد منك الا فعلك وقد جوز الأول بلاتأويل أيضا أى لتأتننى به على كل حال الاحال الاحاطة بكم وأنت تدرى أنه حيث لم يكن الاتيان به من الأفعال الممتدة الشاملة للاحوال على سبيل المعية كما فى قولك لألزمنك الا أن تعطينى حقى ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لمـا عدا الحال المستثناة كما اذا قلت صل الا أن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير اخلال به كما فى قولك لأحجن العام الا أن أحصر فان مرادك انمـا هو الاخبار بعدم منع ماسوى حال الاحصار عن الحج الا الاخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادك فى مثال الصلاة كان اعتبار الأحوال معه

من حيث عدم منعها منه فآل المعنى الى التأويل المذكور ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام ﴿قال الله على مانقول﴾ أى على ماقلنا فى أثناء طلب الموثق وايتائه من الجانبين وايثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدى الى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته ﴿وكيل﴾ مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم ﴿وقال﴾ ناصحا لهم لما أزمع على ارسالهم جميعا ﴿يابنى لاتدخلوا﴾ مصر ﴿من باب واحد﴾ نهاهم عن ذلك حذارا من اصابة العين فانهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا فى هذه الكرة أكثر مما فى المرة الأولى وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الأولى فكانوا مئنة لدنو كل ناظر وطموح كل طامح واصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد عنه عليه السلام ان العين حق وعنه عليه السلام ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وقد كان عليه السلام يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان أبوكما يعوذ بها اسمعيل واسحق عليهم السلام رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان فى دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض مافى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ بيانا لما هو المراد بالنهى وانما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزما له اظهارا لكمال العناية وايذانا بأنه المراد بالأمر المذكور لا تحقيق لشىء آخر ﴿وما أغنى عنكم﴾ أى لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيرى ﴿من الله من شىء﴾ أى شيأ مما قضى عليكم فان الحذر لايمنع القدر ولم يرد به عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلا ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقال خذوا حذركم بل أراد بيان ان ماوصاهم به ليس مما يستوجب المراد لامحالة بل هو تدبير فى الجملة وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه ﴿ان الحكم﴾ مطلقا ﴿الا لله﴾ لايشاركه أحد ولا يمانعه شىء ﴿عليه﴾ لا على أحد سواه ﴿توكلت﴾ فى كل ما آتى وأذر وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير مخل بالتوكل ﴿وعليه﴾ دون غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ جمع بين الحرفين فى عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مقيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أوليا وفيه مالا يخفى من حسن هدايتهم وارشادهم الى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غير مغترين بما وصاهم به من التدبير ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وانما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه ﴿ما كان﴾ ذلك الدخول ﴿يغنى﴾ فيما سيأتى عند وقوع ما وقع ﴿عنهم﴾ عن الداخلين لان المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فان عدم الاغناء بالفعل انما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وانما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتى فتأمل ﴿من الله﴾ من جهته ﴿من شىء﴾ أى شيأ مما قضاه عليهم مع كونه مظنة لذلك فى بادى الرأى حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الاغناء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا فان مجىء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة فى بادى الرأى كما فى قولك حلف أن يعطينى حقى عند حلول الاجل فلما حل لم يعطنى شيئا فان المراد بيان عدم سببية حلول الاجل للاعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببيته لعدم

الاعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ماذكره عليه السلام فى تضاعيف وصيته من أنه لايغنى عنهم من الله شيأ فكأنه قيل ولما فعلوا ماوصاهم به لم يفد ذلك شيأ ووقع الامر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل ﴿الا حاجة﴾ استثناء منقطع أى ولكن حاجة وحرازة كائنة ﴿فى نفس يعقوب قضاها﴾ أى أظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيرا فى تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل فى قضاها للدخول على معنى ان ذلك الدخول قضى حاجة فى نفس يعقوب وهى ارادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغنى عنهم من جهة الله تعالى شيأ ولكن قضى حاجة حاصلة فى نفس يعقوب بوقوعه حسب ارادته فالاستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة وأما اصابة العين فانما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لا لانها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم ﴿وانه لذو علم﴾ جليل ﴿لما علمناه﴾ لتعليمنا اياه بالوحى ونصب الادلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل فى رأيه عند تخلف الاثر أو حيث بت القول بأنه لا يغنى عنهم من الله شيأ فكان الحال كما قال وفى تأكيد الجملة بأن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته مالا يخفى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغنى عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون ايجاب الحذر مع أنه لا يغنى شيأ من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادى ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه﴾ بنيامين أى ضمه اليه فى الطعام أو فى المنزل أو فيهما . روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندى فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم فريدا وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فقال هذا لا ثانى معه فيكون معى فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك ﴿قال انى أنا أخوك﴾ يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ أى فلا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ بنا فيما مضى فان الله تعالى قد أحسن الينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلمتك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن وهب انه لم يتعرف اليه بل قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم وروى أنه قال له فأنا لا أفارقك قال قد علمت باغتمام والدى بى فاذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا أن أنسبك الى مالا يجمل قال لا أبالى فافعل ما بدا لك قال أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية﴾ أى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت اناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الأعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر ﴿فى رحل أخيه﴾ بنيامين وقرىء وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثم أذن مؤذن﴾ نادى مناد ﴿أيتها العير﴾ وهى الابل التى عليها الأحمال لأنها تعير أى تذهب وتجىء وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف ففعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد أصحابها كما فى قوله عليه السلام ياخيل الله اركبى روى أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأدركوا ونودوا ﴿انكم

لسارقون﴾ هذا الخطاب ان كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب والا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والأول هو الأظهر الأوفق للسياق وقرأ اليمانى سارقون بلا لام ﴿قالوا﴾ أى الاخوة ﴿وأقبلوا عليهم﴾ جملة حالية من ضمير قالوا جئ بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم ﴿ماذا تفقدون﴾ أى تعدمون تقول فقدت الشئ اذا عدمته بأن ضل عنك لا بفعلك والمآل لماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرئ تفقدون من أفقدته اذا وجدته فقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم باظهار أنه لم يسرق منهم شئ فضلا أن يكونوا هم السارقين له وانما الممكن أن يضيع منهم شئ فيسألونهم أنه ماذا وفيه ارشاد لهم الى مراعاة حسن الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء الى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث ﴿قالوا﴾ فى جوابهم ﴿نفقد صواع الملك﴾ ولم يقولوا سرقتموه أو سرق وقرئ صاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها و باهمال العين واعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وارائة لاعتقاد أنه انما بقى فى رحلهم اتفاقا ﴿ولمن جاء به﴾ من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش ﴿حمل بعير﴾ من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد فى رحله ﴿وأنا به زعيم﴾ كفيل أؤديه اليه وهو قول المؤذن ﴿قالوا تالله﴾ الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل الا على الجلالة المعظمة أو الرب المضاف الى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأيا ما كان ففيه تعجب ﴿لقد علمتم﴾ علما جازما مطابقا للواقع ﴿ما جئنا لنفسد فى الأرض﴾ أى لنسرق فانه من أعظم أنواع الافساد أو لنفسد فيها أى افساد كان مما عز أو هان فضلا عما نسبتمونا اليه من السرقة ونفى المجئ للافساد وان لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقام من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجئ الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الافساد مفعولا لاجله ادعاء اظهارا لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل فى قوله تعالى ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى اذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا فى الظلم فكأنهم قالوا ان صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله واظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون أنه قد شاع بينكم فى كرتى مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكمومة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لأحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لا يصدر عنا افساد ﴿وما كنا سارقين﴾ أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وانما حكموا بعلمهم ذلك لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وانما لم يكتفوا بنفى الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم ﴿قالوا﴾ أى أصحاب يوسف عليه السلام ﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع على حذف المضاف أى فما جزاء سرقته عندكم وفى شريعتكم ﴿ان كنتم كاذبين﴾ لا فى دعوى البراءة عن السرقة فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل ﴿قالوا جزاؤه من وجد﴾ أى أخذ من وجد الصواع ﴿فى رحله﴾ حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وان كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فان الأخذ والاسترقاق سنة انما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على ما لا يزاحم رأيه فانه أقرب الى معنى الكيد وأبعد من الافتراء وقوله تعالى ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير لذلك الحكم أى فأخذه جزاؤه

كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على اقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على أن الأول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿نجزى الظالمين﴾ بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون ﴿فبدأ﴾ يوسف بعد ما رجعوا اليه للتفتيش ﴿بأوعيتهم﴾ بأوعية الاخوة العشرة أى بتفتيشها ﴿قبل﴾ تفتيش ﴿وعاء أخيه﴾ بنيامين لنفى التهمة. روى أنه لما بلغت النوبة الى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيئا فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا ﴿ثم استخرجها﴾ أى السقاية أو الصواع فانه يذكر ويؤنث ﴿من وعاء أخيه﴾ لم يقل منه على رجع الضمير الى الوعاء أو من وعائه على رجعه الى أخيه قصدا الى زيادة كشف وبيان وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة كما فى اشاح فى وشاح ﴿كذلك﴾ نصب على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار اليه وكذا ما فى ذلك من معنى البعد أى مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن ارشاد الاخوة الى الافتاء المذكور باجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل ﴿كدنا ليوسف﴾ صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست كما فى قوله فيكيدوا لك كيدا فانها داخلة على المتضرر على ما هو الاستعمال الشائع وقوله تعالى ﴿ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك﴾ استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير وبيان له كما قيل كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل لانه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله فى دين الملك فى أمر السارق أى فى سلطانه قاله ابن عباس أو فى حكمه وقضائه قاله قتادة الا به لأن جزاء السارق فى دينه انما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التى نسبها اليه فى حال من الأحوال ﴿الا أن يشاء الله﴾ أى الا حال مشيئته التى هى عبارة عن ارادته لذلك الكيد أو الا حال مشيئته للأخذ بذلك الوجه ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية اليه جميعا من ارشاد يوسف وقومه الى ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتبا لكن لا على أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة الى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر اذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عن أخذ أخيه فى دين الملك فى شأن السارق قطعا اذ لا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك فى أمر السارق أصلا بل بالنسبة الى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ الى هذا الحد كدناه ولم نكتف ببعض من ذلك لانه لم يكن يأخذ أخاه فى دين الملك به الا حال مشيئتنا له بايجاد ما يجرى مجرى الجزء الصورى من العلة التامة وهو ارشاد اخوته الى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغى أن يحمل القصر فى تفسير من فسر قوله تعالى كدنا ليوسف بقوله علمناه اياه وأوحينا به اليه أى مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من أعم الأحوال كما أشير اليه ويجوز أن يكون من أعم العلل والأسباب أى لم يكن يأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الأسباب الا لعلة مشيئته تعالى أو الا بسبب مشيئته تعالى وأيا ما كان فهو متصل لأن أخذ السارق اذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينا لا سيما عند رضاه وافتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء الا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدرى أن المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره مخل بالاتصال وارادة مطلق ما يتدين به أعم منه ومما يحدث تفضى الى كون الاستثناء من قبيل التطبيق بالمحال اذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور اذ ذاك وارادة عجزه مطلقا تؤدى الى خلاف المراد فان استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة الى الكيد

المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع أى لكن أخذه بمشيئة الله تعالى واذنه فى دين غير دين الملك ﴿نرفع درجات﴾ أى رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية أوالظرفية أو على نزع الخافض أى الى درجات والمفعول قوله تعالى ﴿من نشاء﴾ أى نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب ﴿وفوق كل ذى علم﴾ من أولئك المرفوعين ﴿عليم﴾ لاينالون شأوه واعلم أنه ان جعل الكيد عبارة عن المعنيين الأولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطرية من ارشاده عليه السلام الى دس الصواع فى رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه مما يتم من قبله والمعنى أرشدنا اخوته الى الافتاء المذكور لانه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بدونه أوأرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه الى ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لأنه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى نرفع درجات الى قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لا يوجب تمام مرامه اذ ليس ذلك بحيث لا يعزب عن علمه شئ بل انما نرفع كل من نرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لايقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهه يرفع كلا منهم الى ما يليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف الى مايليق به من الدرجات العالية وعلم أن ماحواه دائرة علمه لايفى بمرامه فأرشد اخوته الى الافتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الافتاء المذكور عن اخوته وان كان على طمع منه فان ذلك الى الله عز وجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات الى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز وعلا وجلالة مقدار علمه المحيط مالا يخفى وأما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وان لم يكن داخلا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة الوحى والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ الى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ماعدا الافتاء الذى سيصدر عن اخوته اذلم يكن متمكنا من أخذ أخيه الابذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كدنا وبيان لأن ذلك من باب الرفع الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله وفوق كل ذى علم عليم تذييل له أى نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى والمعنى ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء الا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرئ درجات من نشاء بالاضافة والأول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لا الى درجته ويجوز أن يكون العليم فى هذا التفسير أيضا عبارة عن الله عز وجل أى وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم الى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم ﴿قالوا ان يسرق﴾ يعنون بنيامين ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يريدون به يوسف عليه السلام وماجرى عليه من جهة عمته على ما قيل من أنها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لاتصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها اسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت الى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم أفعل به ماأشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ فى صباه صنما لابى أمه فكسره وألقاه فى الجيف وقيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه ﴿فأسرها يوسف﴾ أى أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا ﴿فى نفسه﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما فى قوله تعالى وأسررت لهم اسرارا ﴿ولم يبدها لهم﴾

لاقولا ولافعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق ﴿قال﴾ أى فى نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بالاسرار المذكور كأنه قيل فماذا قال فى نفسه فى تضاعيف ذلك الاسرار فقيل قال ﴿أنتم شر مكانا﴾ أى منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البرئ وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكانا ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ أى عالم علما بالغا الى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل انما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم ﴿قالوا﴾ عند ما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين ﴿يا أيها العزيز ان له أبا﴾ لم يريدوا بذلك الاخبار بأن له أبا فان ذلك معلوم مما سبق وانما أرادوا الاخبار بأن له أبا ﴿شيخا كبيرا﴾ فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿انا نراك من المحسنين﴾ الينا فأتمم احسانك بهذه التتمة أو المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك ﴿قال معاذ الله﴾ أى نعوذ بالله معاذا من ﴿أن نأخذ﴾ فحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافا الى المفعول به بعد حذف الجار ﴿الا من وجدنا متاعنا عنده﴾ لأن أخذنا له انما هو بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها وايثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب اخوته على التوحيد من باب السلوك الى سنن الملوك أو للاشعار بأن الأخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أولى الحل والعقد وايثار من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب فى الكلام مع تمام المرام فانهم لايحملون وجدان الصواع فى الرحل على محمل غير السرقة ﴿انا اذا﴾ أى اذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿لظالمون﴾ فى مذهبكم ومالنا ذلك وهذا المعنى هو الذى أريد بالكلام فى أثناء الحوار وله معنى باطن هو أن الله عز وجل انما أمرنى بالوحى أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله فى ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحى ﴿فلما استيأسوا منه﴾ أى يئسوا من يوسف واجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وانما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله انا اذا لظالمون ﴿خلصوا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس ﴿نجيا﴾ أى ذوى نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجى أو فوجا نجيا على أن يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا ويجوز أن يقال هم نجى كما يقال هم صديق لأنه بزنة المصادر من الزفير والزئير ﴿قال كبيرهم﴾ فى السن وهو روبيل أو فى العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون ﴿ألم تعلموا﴾ كأنهم أجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم ألم تعلموا ﴿أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله﴾ عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لاذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم ﴿ومن قبل﴾ أى ومن قبل هذا ﴿ما فرطتم فى يوسف﴾ قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم وانا له لناصحون وانا له لحافظون وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام ولا ضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا على اسم أن والخبر فى يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا أن تفريطكم السابق وقع فى شأن يوسف عليه السلام أوأن تفريطكم الكائن أو كائنا فى شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه ان مقتضى المقام انما هو الاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق واقعا فى شأن يوسف كما هو مفاد الأول ولا بكون تفريطهم الكائن فى شأنه واقعا من قبل

كما هو مفاد الثانى على أن الظرف المقطوع عن الاضافة لايقع خبرا ولا صفة ولا صلة ولا حالا عند البعض كما تقرر فى موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه مافيه وقيل ماموصولة أو موصوفة ومحلها النصب أو الرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا أى مافرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه من الخيانة واما النصب عطفا على اسم أن أوالرفع على الابتداء فقد عرفت حاله ﴿فلن أبرح الارض﴾ متفرع على ماذكره وذكرهم اياهم من ميثاق أبيه وقوله لتأتننى به الا أن يحاط بكم أى فلن أفارق أرض مصر جاريا على قضية الميثاق ﴿حتى يأذن لى أبى﴾ فى البراح بالانصراف اليه وكان أيمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير اذن يعقوب عليه السلام ﴿أو يحكم الله لى﴾ بالخروج منها على وجه لايؤدى الى نقض الميثاق أو بخلاص أخى بسبب من الاسباب. روى أنهم كلموا العزيز فى اطلاقه فقال روبيل أيها الملك لتردن الينا أخانا أو لأصيحن صيحة لاتبقى بمصر حامل الا ألقت ولدها ووقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لايطاقون خلا انه اذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم الى جنبه فمسه فقال روبيل من هذا ان فى هذا البلد بذرا من بذر يعقوب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ اذ لايحكم الا بالحق والعدل ﴿ارجعوا﴾ أنتم ﴿الى أبيكم فقولوا ياأبانا ان ابنك سرق﴾ على ظاهر الحال وقرئ سرق أى نسب الى السرقة ﴿وماشهدنا﴾ عليه ﴿الا بما علمنا﴾ وشاهدنا أن الصواع استخرجت من وعائه ﴿وما كنا للغيب﴾ أى باطن الحال ﴿حافظين﴾ فما ندرى أن حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه أو وما كنا عالمين حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق أو أنا نلاقى هذا الأمر أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ﴿واسأل القرية التى كنا فيها﴾ أى مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادى عندها أى أرسل الى أهلها واسألهم عن القصة ﴿والعير التى أقبلنا فيها﴾ أى أصحابها فان القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء ﴿وانا لصادقون﴾ تأكيد فى محل القسم ﴿قال﴾ أى يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ مما سبق فكأنه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لاخوته ماقال فقيل قال يعقوب عند مارجعوا اليه فقالوا له ماقالوا وانما حذف للايذان بأن مسارعتهم الى قبوله ورجوعهم به الى أبيهم أمر مسلم غنى عن البيان وانما المحتاج اليه جواب أبيهم ﴿بل سولت﴾ أى زينت وسهلت وهو اضراب لاعن صريح كلامهم فانهم صادقون فى ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم مايؤدى الى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل لم يكن الأمر كذلك بل زينت ﴿لكم أنفسكم أمرا﴾ من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته ﴿فصبر جميل﴾ أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل ﴿عسى الله أن يأتينى بهم جميعا﴾ بيوسف وأخيه والمتوقف بمصر ﴿انه هو العليم﴾ بحالى وحالهم ﴿الحكيم﴾ الذى لم يبتلنى الا لحكمة بالغة ﴿وتولى﴾ أى أعرض ﴿عنهم﴾ كراهة لما سمع منهم ﴿وقال ياأسفا على يوسف﴾ الاسف أشد الحزن والحسرة أضافه الى نفسه والالف بدل من الياء فناداه أى ياأسفى تعالى فهذا أوانك وانما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لان رزأه كان قاعدة الارزاء غضا عنده وان تقادم عهده آخذا بمجامع قلبه لاينساه ولانه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا فى ايابهما وأما يوسف فلم يكن فى شأنه مايحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفى الخبر لم تعط أمة من الأمم انا لله وانا اليه راجعون الا أمة محمد عليه الصلاة والسلام ألا يرى الى يعقوب حين أصابه ماأصابه لم يسترجع بل قال ماقال والتجانس بين لفظى الاسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما فى قوله عز وجل وهم ينهون عنه وينأون عنه وقوله اثاقلتم الى الارض أرضيتم وقوله ثم كلى من كل الثمرات وجئتك من سبأ بنبأ يقين ونظائرها ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ الموجب للبكاء فان العبرة اذا كثرت محقت سواد

العين وقلبته الى بياض كدر قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا. روى انه ماجفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض أكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام مابلغ من وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الاجر قال أجر مائة شهيد وماساء ظنه بالله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فان الكف عن ذلك مما لايدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول مايسخط الرب وانا عليك ياابراهيم لمحزونون وانما الذى لايجوز مايفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعن النبى عليه السلام انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يارسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال مانهيتكم عن البكاء وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح ﴿فهو كظيم﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له فى قلبه لايظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ اذا اجترعه وأصله كظم البعير جرته اذا ردها فى جوفه ﴿قالوا تالله تفتأ﴾ أى لاتفتأ ولاتزال ﴿تذكر يوسف﴾ تفجعا عليه فحذف حرف النفى كما فى قوله فقلت يمين الله أبرح قاعدا لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات يكون على النفى البتة ﴿حتى تكون حرضا﴾ مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض وهو فى الأصل مصدر ولذلك لايؤنث ولايثنى ولايجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرئ به وبضمتين كجنب وغرب ﴿أو تكون من الهالكين﴾ أى الميتين ﴿قال انما أشكو بثى﴾ البث أصعب الهم الذى لايصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أى ينشره فكأنهم قالوا له ماقالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم انى لا أشكو مابى اليكم أو الى غيركم حتى تتصدوا لتسليتى وانما أشكو همى ﴿وحزنى الى الله﴾ تعالى ملتجئا الى جنابه متضرعا لدى بابه فى دفعه وقرئ بفتحتين وضمتين ﴿وأعلم من الله مالاتعلمون﴾ من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمنى ويلطف بى ولا يخيب رجائى أو أعلم وحيا أو الهاما من جهته مالاتعلمون من حياة يوسف. قيل رأى ملك الموت فى المنام فسأله عنه فقال هو حى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام انه يسخر له أبواه واخوته سجدا ﴿يابنى اذهبوا فتحسسوا﴾ أى تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرئ بالجيم من الجس وهو الطلب أى تطلبوا ﴿من يوسف وأخيه﴾ أى من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية لايعسر ازالتها ﴿ولاتيأسوا من روح الله﴾ لاتقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرئ بضم الراء أى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا ارشاد لهم الى بعض ماأبهم فى قوله وأعلم من الله مالاتعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله ﴿انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون﴾ لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فان العارف لايقنط فى حال من الاحوال ﴿فلما دخلوا عليه﴾ أى على يوسف بعد مارجعوا الى مصر بموجب أمر أبيهم وانما لم يذكر ذلك ايذانا بمسارعتهم الى ماأمروا به واشعارا بأن ذلك أمر محقق لايفتقر الى الذكر والبيان ﴿قالوا ياأيها العزيز﴾ أى الملك القادر المتمنع ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾ الهزال من شدة الجوع ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته اذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الاعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لاتؤخذ الا بوضيعة وانما قدموا ذلك ليكون ذريعة الى اسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة ثم قالوا ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أى أتممه لنا ﴿وتصدق علينا﴾ برد أخينا الينا قاله الضحاك وابن جريج وهو الانسب بحالهم

نظرا الى أمر أبيهم أو بالايفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على مايساويها تفضلا وانما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصدق فوق مايعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وانما لم يبدؤا بما أمروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ماساقوه كلام ذو وجهين فان قولهم وتصدق علينا ﴿ان الله يجزى المتصدقين﴾ يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الأول ولذلك ﴿قال﴾ مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيهم ﴿هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه﴾ وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وانما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما فى وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك افرادهم له عن يوسف واذلاله بذلك حتى كان لايستطيع أن يكلمهم الا بعجز وذلة أى هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه ﴿اذ أنتم جاهلون﴾ بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وانما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمسكنهم لامعاتبة وتثريبا ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ماهو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتمحض فى طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحى أو الالهام على وصية أبيه وارساله اياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ماقال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه كتاب من يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يداه ورجلاه فرمى به فى النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته وانا أهل بيت لانسرق ولا نلد سارقا فان رددته على والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام . فلما قرأه لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ماقال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا ﴿قالوا أئنك لأنت يوسف﴾ استفهام تقرير ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرىء انك بالايجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرىء أئنك أو أنت يوسف على معنى أئنك يوسف أو أنت يوسف فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وفيه زيادة استغراب ﴿قال أنا يوسف﴾ جوابا عن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله ﴿وهذا أخى﴾ أى من أبوى مبالغة فى تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه حسبما يفيده قوله ﴿قد من الله علينا﴾ فكأنه قال هل علمتم مافعلتم بنا من التفريق والاذلال فانا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والانس بعد الوحشة ولايبعد أن يكون فيه اشارة الى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخى لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلى بقوله ﴿انه من يتق﴾ أى يفعل التقوى فى جميع أحواله أو يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه ﴿ويصبر﴾ على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصى التى تستلذها النفس ﴿فان الله لايضيع أجر المحسنين﴾ أى أجرهم وانما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة ﴿وان كنا﴾ وان الشأن كنا ﴿لخاطئين﴾ لمتعمدين للذنب اذ فعلنا بك مافعلنا ولذلك أعزك وأذلنا وفيه اشعار بالتوبة والاستغفار

ولذلك ﴿قال لاتثريب﴾ أى لاعتب ولاتأنيب ﴿عليكم﴾ وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشى للكرش ومعناه ازالته كما أن التجليد ازالة الجلد والتقريع ازالة القرع لانه اذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذى يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا ﴿اليوم﴾ منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبرا للا أى لا أثربكم أو لاتثريب مستقر عليكم اليوم الذى هو مظنة له فما ظنكم بسائر الايام أو بقوله ﴿يغفر الله لكم﴾ لانه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن اخوته أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحيى منك بما فرطنا فيك فقال عليه الصلاة والسلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم كانوا ينظرون الى بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما مابلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم اخوتى وأنى من حفدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿اذهبوا بقميصى هذا﴾ قيل هو الذى كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذى كان فى التعويذ أمره جبريل بارساله اليه وأوحى اليه أن فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى الا عوفى ﴿فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا﴾ يكن بصيرا أو يأت الى بصيرا وينصره قوله ﴿وائتونى بأهلكم أجمعين﴾ أى بأبى وغيره ممن ينتظمه لفظ الأهل جميعا من النساء والذرارى . قيل انما حمل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فأفرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا ﴿ولما فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انفصل العير ﴿قال أبوهم﴾ يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده ﴿انى لأجد ريح يوسف﴾ أوجده الله سبحانه ماعبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به يهوذا ﴿لولا أن تفندون﴾ أى تنسبونى الى الفند وهو الخرف وانكار العقل وفساد الرأى من هرم يقال شيخ مفند ولايقال عجوز مفندة اذ لم تكن فى شبيبتها ذات رأى فتفند فى كبرها وجواب لولا محذوف أى لصدقتمونى ﴿قالوا﴾ أى الحاضرون عنده ﴿تالله انك لفى ضلالك القديم﴾ لفى ذهابك عن الصواب قدما فى افراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه وكان عندهم أنه قدمات ﴿فلما أن جاء البشير﴾ وهو يهوذا ﴿ألقاه﴾ أى ألقى البشير القميص ﴿على وجهه﴾ أى وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فارتد﴾ عاد ﴿بصيرا﴾ لما انتعش فيه من القوة ﴿قال ألم أقل لكم﴾ يعنى قوله انى لاجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان أو قوله ولاتيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الأنسب بقوله ﴿انى أعلم من الله مالاتعلمون﴾ فان مدار النهى المذكور انما هو العلم الذى أوتى يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول أى ألم أقل لكم حين أرسلتكم الى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله مالاتعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام . روى أنه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ماأصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة ﴿قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين﴾ ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك فى الاستغفار ﴿قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم﴾ وهذا مشعر بعفوه قيل أخر الاستغفار الى وقت السحر وقيل الى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الاجابة وقيل أخره الى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فان عفو المظلوم شرط المغفرة ويعضده أنه روى عنه أنه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا

خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم و ظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله قد أجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة فان صح ثبتت نبوتهم وان ماصدر عنهم انما صدر قبل الاستنباء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان يستغفر كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل قام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ماأتوا الى أخيهم فأوحى الله اليه ان الله قد غفر لك ولهم أجمعين ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ روى أنه وجه يوسف الى أبيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشى متوكئا على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يايهوذا أهذا فرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يامذهب الأحزان وقيل قال له يوسف ياأبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكنى خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف ﴿اوى اليه أبويه﴾ أى أباه وخالته وتنزيلها منزلة الام كتنزيل العم منزلة الأب فى قوله عز وجل واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق أو لان يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال الحسن وابن اسحق كانت أمه فى الحياة فلا حاجة الى التأويل ومعنى آوى اليه ضمهما اليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب فى الملتقى مضربا فنزل فيه فدخلوا عليه فآواهما اليه ﴿وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين﴾ من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الأمن ﴿ورفع أبويه﴾ عند نزولهم بمصر ﴿على العرش﴾ على السرير تكرمة لهما فوق مافعله لاخوته ﴿وخروا له﴾ أى أبواه واخوته ﴿سجدا﴾ تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك الا انحناء دون تعفير الجباه ويأباه الخرور وقيل خروا لاجله سجدا لله شكرا ويرده قوله تعالى ﴿وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى﴾ التى رأيتها وقصصتها عليك ﴿من قبل﴾ فى زمن الصبا ﴿قد جعلها ربى حقا﴾ صدقا واقعا بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما فى قوله أليس أول من صلى لقبلتكم تعسف لايخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص فى ذلك لأن الترتيب الذكرى لايجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخيره عنه ليصل به ذكر كونه تعبيرا لرؤياه وما يتصل به من قوله ﴿وقد أحسن بى﴾ المشهور استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل بالباء أيضا كما فى قوله عز اسمه وبالوالدين احسانا وقيل هذا بتضمين لطف وهو الاحسان الخفى كما يؤذن به قوله تعالى ان ربى لطيف لما يشاء وفيه فائدة لاتخفى أى لطف بى محسنا الى غير هذا الاحسان ﴿اذ أخرجنى من السجن﴾ بعدما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب حذارا من تثريب اخوته لان الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خرورهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى ﴿وجاء بكم من البدو﴾ اى البادية ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى﴾ أى أفسد بيننا بالاغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام فى الاحسان حيث أسند ذلك الى الشيطان ﴿ان ربى لطيف لما يشاء﴾ أى لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجئ على وجه الحكمة والصواب مامن صعب الا وهو بالنسبة الى تدبيره سهل ﴿انه هو العليم﴾ بوجوه المصالح ﴿الحكيم﴾ الذى يفعل كل شئ على قضية الحكمة روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به فى خزائنه فأدخله فى خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح

وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يابنى ماأعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانى مراحل قال أمرنى جبريل قال أو ماتسأله قال أنت أبسط اليه منى فسأله قال جبريل الله تعالى أمرنى بذلك لقولك أخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام الى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لايدوم له تاقت نفسه الى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال ﴿رب قد آتيتنى من الملك﴾ أى بعضا منه عظيما وهو ملك مصر ﴿وعلمتنى من تأويل الاحاديث﴾ أى بعضا من ذلك كذلك ان أريد بتعليم تأويل الاحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما ان أريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم ايتاء الملك عليه فى الذكر لانه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق فى كونه نعمة من التعليم المذكور وان كان ذلك أيضا نعمة جليلة فى نفسه ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبق لان التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التمليك لزم تأخره عنه وأما الواقع ههنا فمجرد التأخير فى الذكر والعطف بحرف الواو ولا يستدعى ذلك الترتيب فى الوجود ﴿فاطر السموات والأرض﴾ مبدعهما وخالقهما نصب على أنه صفة للمنادى أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة فى ترتيب مبادى مايعقبه من قوله ﴿أنت وليى﴾ مالك أمورى ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ أو الذى يتولانى بالنعمة فيهما واذ قد أتممت على نعمة الدنيا ﴿توفنى﴾ اقبضنى ﴿مسلما وألحقنى بالصالحين﴾ من آبائى أو بعامة الصالحين فى الرتبة والكرامة فانما تتم النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه وتشاحوا فى ذلك حتى هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتا من مرمر فجعلوه فيه ودفنوه فى النيل ليمر عليه ثم يصل الى مصر ليكونوا شرعا واحدا فى التبرك به وولد له أفرايم وميشا ولافرايم نون ولنون يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه الى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماسبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد منزلته أو كونه بالانقضاء فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ﴿من أنباء الغيب﴾ الذى لايحوم حوله أحد وقوله ﴿نوحيه اليك﴾ خبر بعد خبر أو حال من الضمير فى الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسما موصولا ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه اليك ﴿وما كنت لديهم﴾ يريد اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿اذ أجمعوا أمرهم﴾ وهو جعلهم اياه فى غيابة الجب ﴿وهم يمكرون﴾ به ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه الصلاة والسلام فى مشهد اجماعهم ومكرهم فقط بل فى سائر المشاهد أيضا وانما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى أحوالها كما ينبئ عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك اذ لا سبيل الى معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب أمر لايشك فيه المكذبون أيضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الامر حتى تعرفه كما هو فتبلغه اليهم وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم وفيه أيضا ايذان بأن ماذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على ماهو عليه يعنى أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لايتصور الا بالحضور والمشاهدة واذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم

وقوله وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر ﴿وما أكثر الناس﴾ يريد به العموم أو أهل مكة ﴿ولو حرصت﴾ أى على ايمانهم و بالغت فى اظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك ﴿بمؤمنين﴾ لتصميمهم على الكفر واصرارهم على العناد روى أن اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك ﴿وما تسألهم عليه﴾ أى على الانباء أو على القرآن ﴿من أجر﴾ من جعل كما يفعله حملة الاخبار ﴿ان هو الاذكر﴾ عظة من الله تعالى ﴿للعالمين﴾ كافة لا أن ذلك مختص بهم ﴿وكأين من آية﴾ أى كأى عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع و وحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جئت بها ﴿فى السموات والارض﴾ أى كائنة فيهما من الاجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر مافى الارض من العجائب الفائتة للحصر ﴿يمرون عليها﴾ أى يشاهدونها ولا يعبؤن بها وقرئ برفع الارض على الابتداء ويمرون خبره وقرئ بنصبها على معنى و يطؤن الارض يمرون عليها و فى مصحف عبدالله والارض يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبر ﴿وهم عنها معرضون﴾ غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله﴾ فى اقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿الا وهم مشركون﴾ بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا أو بالنور والظلمة وهى جملة حالية أى لا يؤمن أكثرهم الا فى حال شركهم قيل نزلت الآية فى أهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى أهل الكتاب ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ أى عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿وهم لا يشعرون﴾ باتيانها غير مستعدين لها ﴿قل هذه سبيلى﴾ وهى الدعوة الى التوحيد والايمان بالاخلاص وفسرها بقوله ﴿أدعو الى الله على بصيرة﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء أو هى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الاشارة ﴿أنا﴾ تأكيد للمستكن فى أدعو أو على بصيرة لانه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة ﴿ومن اتبعنى﴾ عطف عليه ﴿وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ مؤكد لما سبق من الدعوة الى الله ﴿وما أرسلنا من قبلك الارجالا﴾ رد لقولهم لوشاء الله لأنزل ملائكة ﴿نوحى اليهم﴾ كما أوحينا اليك وقرئ بالياء ﴿من أهل القرى﴾ لانهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ﴿ولدار الآخرة﴾ أى الساعة أو الحياة الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ الشرك والمعاصى ﴿أفلا تعقلون﴾ فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرئ بالياء على أنه غير داخل تحت قل ﴿حتى اذا استيأس الرسل﴾ غاية لمحذوف دل عليه السياق أى لايغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا أو عن ايمانهم لانهما كهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم فانه يوصف بالصدق والكذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لانصر لهم فى الدنيا ﴿جاءهم نصرنا﴾ فجأة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أخلفوا ماوعدهم الله من النصر فان صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن مايخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وانما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأما الظن الذى هو ترجح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الامة فما ظنك بالانبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتهم فى معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم وقيل

الضميران للمرسل اليهم وقيل الاول لهم والثانى للرسل وقرئ بالتشديد أى ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما وعدوهم وقرئ بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل أى ظنوا أنهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له أثرا أو على أن الاول لقومهم ﴿فنجى من نشاء﴾ هم الرسل والمؤمنون بهم وقرئ فننجى على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرئ فنجا ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ اذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة ﴿لقد كان فى قصصهم﴾ أى قصص الانبياء وأممهم و ينصره قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسف واخوته ﴿عبرة لأولى الالباب﴾ لذوى العقول المبرأة عن شوائب أحكام الحس ﴿ما كان﴾ أى القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة ﴿حديثا يفترى ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذى بين يديه﴾ من الكتب السماوية وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى ولكن هو تصديق الذى بين يديه ﴿وتفصيل كل شئ﴾ مما يحتاج اليه فى الدين اذ ما من أمر دينى الا وهو يستند الى القرآن بالذات أو بوسط ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ ينال بها خير الدارين ﴿لقوم يؤمنون﴾ أى يصدقونه لانهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وماملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لايحسد مسلما

سورة الرعد

(مدنية وقيل مكية الا قوله ويقول الذين كفروا الآية وآيها خمس وأربعون)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿المر﴾ اسم للسورة ومحله اما الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء اذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى ﴿تلك﴾ على الوجه الأول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان أو بدل من الأول أشير به اليه ايذانا بفخامته واما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ أو اذكر فتلك مبتدأ كما اذا جعل المر مسرودا على نمط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى ﴿آيات الكتاب﴾ أى الكتاب العجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطلع سورة يونس اذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت و به يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت اليه من نعوت الكمال بخلاف ما اذا جعل عبارة عن السورة فانها ليست بتلك المثابة من الشهرة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه مالايخفى من التعسف الذى مر تفصيله فى سورة يونس ﴿والذى أنزل اليك من ربك﴾ أى الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها ﴿الحق﴾ الثابت المطابق للواقع فى كل مانطق به الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه مايدل على أن ماعداه ليس بحق أصلا على أن حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه و فى التعبير عنه بالموصول واسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا الى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء الى وجه بناء الخبر مالايخفى ﴿ولكن أكثر الناس لايؤمنون﴾ بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم ايمانهم متعلق بعنوان حقيته

لانه المرجع للتصديق والتكذيب لابعنوان كونه منزلا كما قيل و لانه وارد على طريقة الوصف دون الاخبار ﴿الله الذى رفع السموات﴾ أى خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لاأنه رفعها بعدأن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله وهو الذى مد الارض ﴿بغير عمد﴾ أى بغير دعائم جمع عماد كاهاب واهب وهو مايعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط أى أدعمته وقرئ عمد على جمع عمود بمعنى عماد كرسل و رسول وايراد صيغة الجمع لجمع السموات لا لان المنفى عن كل واحدة منها عمد لاعماد ﴿ترونها﴾ استئناف استشهد به على ماذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة لعمد جئ بها إيهاماً لان لها عمدا غير مرئية هى قدرة الله تعالى ﴿ثم استوى﴾ أى استولى ﴿على العرش﴾ بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله عزوجل بلا كيف وأياًما كان فليس المراد به القصد الى ايجاد العرش وخلقه فلاحاجة الى جعل كلمة ثم للتراخى فى الرتبة ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها ﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجرى﴾ حسبما أريد منها ﴿لأجل مسمى﴾ لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فان كلا منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهى فيها حركاتهما ويخرج جميع ما أريد منهما من القوة الى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما ﴿يدبر﴾ بما صنع من الرفع والاستواء والتسخير أى يقضى و يقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿الأمر﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوته وربوبيته ﴿يفصل الآيات﴾ الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أى يأتى بها مفصلة وهى ماذكر من الافعال العجيبة ومايتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيئاً فشيئاً المستتبعة للآثار الغريبة فى السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان اما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تتمة الاستواء واما مفسرتان له أو الأولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر الافعال المذكورة وقوله كل يجرى لأجل مسمى من تتمة التسخير أو خبران عن قوله الله خبرا بعد خبر والموصول صفة للمبتدا جئ به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول الفرزدق

ان الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

﴿لعلكم﴾ عندمعاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها ﴿بلقاء ربكم﴾ بملاقاته للجزاء ﴿توقنون﴾ فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شئ قدير وأن لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لابد من وصولها وقد بينت على ألسنة الأنبياء عليهم السلام أن ذلك ابتلاء المكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم فاذن لابد من الايقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال ﴿وهو الذى مد الارض﴾ أى بسطها طولا وعرضا قال الأصم المد هو البسط الى مالايدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها ﴿وجعل فيها رواسى﴾ أى جبالا ثوابت فى أحيازها من الرسو وهو ثبات الاجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك وانحصار مجئ فواعل جمعا لفاعل فى فوارس وهوالك ونواكس انما هو فى صفات العقلاء وأما فى غيرهم فلا يراعى ذلك أصلا كما فى قوله تعالى أياماً معدودات وقوله الحج أشهر معلومات الى غير ذلك فلا حاجة الى أن يجعل مفردها صفة لجمع القلة أعنى أجبلا و يعتبر فى جمع الكثرة أعنى جبالا انتظامها لطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفردها كما قيل على أنه لامجال لذلك فان جمعية كل من صيغتى الجمعين انما هى باعتبار الافراد التى تحتها لا باعتبار انتظام جمع القلة للافراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالا جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة ولا الى أن يلتجأ الى جعل الوصف المذكور بالغلبة فى عداد الاسماء التى تجمع على فواعل كما ظن على أنه لاوجه

لما أن الغلبة انما هى فى الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرار الارض على ثباتها ﴿وأنهارا﴾ مجارى واسعة والمراد مايجرى فيها من المياه و فى نظمها مع الجبال فى معمولية فعل واحد اشارة الى أن الجبال منشأ للانهار وبيان لفائدة أخرى للجبال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخل بثبات الاقدام وتقلب الحيوان متفرعة على تمكنه وتقلبه وهى تعيشه بالماء والكلأ ﴿ومن كل الثمرات﴾ متعلق بجعل فى قوله تعالى ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ أى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية أى جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة فى الدنيا ضربين وصنفين اما فى اللون كالابيض والاسود أو فى الطعم كالحلو والحامض أو فى القدر كالصغير والكبير أو فى الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك و يجوز أن يتعلق بجعل الأول و يكون الثانى استئنافا لبيان كيفية ذلك الجعل ﴿يغشى الليل النهار﴾ استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه ازالة نور الجو بالظلمة بتغطية الاشياء الظاهرة بالاغطية أى يستر النهار بالليل والتركيب وان احتمل العكس أيضا بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الأول فان ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل الا أن الانسب بالليل أن يكون هو الغاشى وعد هذا فى تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار أن ظهوره فى الارض فان الليل انما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لاليل أصلا و لان الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على انهما أيضا زوجان متقابلان مثلها وقرئ يغشى من التغشية ﴿ان فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من مد الارض و إيتادها بالرواسى واجراء الانهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار و فى الاشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار اليه فى بابه ﴿لآيات﴾ باهرة وهى آثار تلك الافاعيل البديعة جلت حكمة صانعها فهى على معناها فان تلك الآثار مستقرة فى تلك الأفاعيل منوطة بها و يجوز أن يشار بذلك الى تلك الآثار المدلول عليهما بتلك الأفاعيل فهى تجريدية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فان التفكر فيها يؤدى الى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لابد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء و يختار ما يريد لامعقب لحكمه وهو الحميد المجيد ﴿وفى الأرض قطع﴾ جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أى بقاع كثيرة مختلفة فى الاوصاف فمن طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة الى غير ذلك ﴿متجاورات﴾ أى متلاصقات و فى بعض المصاحف قطعا متجاورات أى جعل فى الارض قطعا ﴿وجنات من أعناب﴾ أى بساتين كثيرة منها ﴿وزرع﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب وافراده لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها فى اختلافها ومباينتها لسائرها و رسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى ﴿ونخيل﴾ لئلا يقع بينها و بين صفتها وهى قوله تعالى ﴿صنوان وغير صنوان﴾ فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهى النخلة التى لها رأسان وأصلها واحد وقرئ بضم الصاد على لغة بنى تميم وقيس وقرئ جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى و فى الارض قطع متجاورات فى هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الاحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الارض ودحاها للايماء الى كون تلك الاحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرئ وزرع ونخيل بالجر عطفا على أعناب أو جنات ﴿يسقى﴾ أى ماذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرئ بالتأنيث مراعاة للفظ والاول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل فى حالة السقى ﴿بماء واحد﴾ لااختلاف فى طبعه سواء كان السقى بماء الامطار أو بماء الانهار ﴿ونفضل﴾ مع تأخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا ﴿بعضها على بعض﴾ آخر منها ﴿فى الأكل﴾ فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرئ بالياء

على بناء الفاعل رداعلى يدبر و يفصل و يغشى وعلى بناء المفعول وفيه مالايخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استناد الفعل الى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل للفاعل ﴿ان فى ذلك﴾ الذى فصل من أحوال القطع والجنات ﴿لآيات﴾ كثيرة عظيمة ظاهرة ﴿لقوم يعقلون﴾ يعلمون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لايتلعثم فى الجزم بأن من قدر على ابداع هذه البدائع و خلق تلك الثمار المختلفة فى الاشكال والالوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على اعادة ماأبداه بل هى أهون فى القياس وهذه الاحوال وان كانت هى الآيات أنفسها لانها فيها الا أنه قد جردت عنها أمثالها مبالغة فى كونها آية فى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد أو المشار اليه الاحوال الكلية والآيات أفرادها الحادثة شيئا فشيئا فى الازمنة وآحادها الواقعة فى الاقطار والامكنة المشاهدة لاهلها فى على معناها وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق كونها آيات بمحض التعقل و لذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض فى الأكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك فى الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لاحاجة فى ذلك الى التفكر أيضا وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين ﴿وان تعجب﴾ يا محمد من شئ ﴿فعجب﴾ لاأعجب منه حقيق بأن يقصر عليه التعجب ﴿قولهم﴾ بعد مشاهدة ماعدد لك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شئ قدير ﴿أئذا كنا ترابا﴾ على طريقة الاستفهام الانكارى المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار وهو فى محل الرفع على البدلية من قولهم على انه بمعنى المقول أو فى محل النصب على المفعولية منه على أنه مصدر فالعجب على الأول كلامهم وعلى الثانى تكلمهم بذلك والعامل فى اذا مادل عليه قوله ﴿أئنا لفى خلق جديد﴾ وهو نبعث أو نعاد وتقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد الانكار وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بعريضة ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم فى النكير مالا يخفى وقيل وان تعجب من قولهم فى انكار البعث فعجب قولهم والمآل وان تعجب فقد تعجبت فى موضع التعجب وقيل وان تعجب من انكارهم البعث فعجب قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوز كون الخطاب لكل من يصلح له أى ان تعجب يامن ينظر فى هذه الآيات من قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو أهون من هذه والأنسب بقوله و يستعجلونك بالسيئة هو الاول وقوله تعالى فعجب خبر قدم على المبتدا للقصر والتسجيل من أول الامر بكون قولهم ذاك أمرا عجيبا و يجوز أن يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما أشير اليه فالمعنى وان تعجب فالعجب الذى لاعجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الأول وان تعجب فقولهم هـذا عجب لاعجب فوقه ﴿أولئك﴾ مبتدأ والموصول خبره أى أولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا مافصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم الى الايمان لوكانوا يبصرون ﴿الذين كفروا بربهم﴾ وتمادوا فى ذلك فان انكارهم لقدرته عز وجل كفر به وأى كفر ﴿وأولئك﴾ مبتدأ خبره قوله ﴿الأغلال فى أعناقهم﴾ أى مقيدون بقيود الضلال لايرجى خلاصهم أو مغلولون يوم القيامة ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات ﴿أصحاب النارهم فيها خالدون﴾ لاينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكرى البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى أولئك الذين كفروا بربهم ﴿و يستعجلونك بالسيئة﴾ بالعقوبة التى أنذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بانذاره ﴿قبل الحسنة﴾ أى العافية والاحسان اليهم بالامهال ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أى عقوبات أمثالهم من المكذبين فمالهم لايعتبرون بها ولا يحترزون حلول مثلها بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم

فى الاستعجال بطريق الاستهزاء أى يستعجلونك بها مستهزئين بانذارك منكرين لوقوع ماأنذرتهم اياه والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص وقرئ المثلات بضمتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثلة كركبة وركبات ﴿وان ربك لذو مغفرة﴾ عظيمة ﴿للناس على ظلمهم﴾ أنفسهم بالذنوب والمعاصى ومحله النصب على الحالية أى ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى ان ربك لغفور للناس لايعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿وان ربك لشديد العقاب﴾ يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير مااستعجلوه ليس للاهمال وعنه عليه الصلاة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ لاحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد ﴿ويقول الذين كفروا﴾ وهم المستعجلون أيضا وانما عدل عن الاضمار الى الموصول ذما لهم ونعيا عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التى تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة والافى أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولى الالباب ﴿انما أنت منذر﴾ مرسل للانذار من سوء عاقبة مايأتون و يذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك الا الاتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لامزيد عليه و لاحاجة الى الزامهم و القامهم الحجر بالاتيان بما اقترحوا من الآيات ﴿ولكل قوم هاد﴾ معين لابالذات بل بعنوان الهداية يعنى لكل قوم نبى مخصوص له هداية مخصوصة يقتضى اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لايعلمها الا الله أو لكل قوم هاد عظيم الشأن قادر على ذلك هو الله سبحانه وماعليك الا انذارهم فلا يهمنك عنادهم وانكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبيها على أن تخصيص كل قوم بنبى و كل نبى بجنس معين من الآيات انما هو للحكم الداعية الى ذلك اظهارا لكمال قدرته على هدايتهم لكن لايهدى الا من تعلق بهدايته مشيئته التابعة لحكم استأثر بعلمها فقال ﴿الله يعلم ماتحمل كل أنثى﴾ أى تحمله فما موصولة أريد بها مافى بطنها من حين العلوق الى زمن الولادة لابعد تكامل الخلق فقط والعلم متعد الى واحد أو أى شئ تحمل وعلى أى حال هو من الاحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهى استفهامية معلقة للعلم أو حملها فهى مصدرية ﴿وماتغيض الأرحام وماتزداد﴾ أى تنقصه وتزداده فى الجثة كالخديج والتام و فى المدة كالمولود فى أقل مدة الحمل والمولود فى أكثرها وفيما بينهما قيل ان الضحاك ولد فى سنتين وهرم بن حيان فى أربع ومن ذلك سمى هرما وفى العدد كالواحد فمافوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة أو يعلم نقصها وازديادها لما فيها فالفعلان متعديان كما فى قوله تعالى وغيض الماء وقوله تعالى وازدادوا تسعا وقوله ونزداد كيل بعير أو لازمان قد أسندا الى الارحام مجازا وهما لما فيها ﴿وكل شئ﴾ من الأشياء ﴿عنده بمقدار﴾ بقدر لايمكن تجاوزه عنه كقوله انا كل شئ خلقناه بقدر فان كل حادث من الأعيان والأعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لايكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمى بل العلم الحضورى فان تحقق الأشياء فى أنفسها فى أى مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة الى الله عز وجل ﴿عالم الغيب﴾ أى الغائب عن الحس ﴿والشهادة﴾ أى الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدا محذوف أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ماقبله من قوله تعالى الله يعلم الخ ﴿الكبير﴾ العظيم الشأن الذى كل شئ دونه ﴿المتعال﴾ المستعلى على كل شئ بقدرته أو المنزه

عن نعوت المخلوقات و بعد مابين سبحانه أنه عالم بجميع أحوال الانسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة بين أنه تعالى عالم بجميع مايأتون وما يذرون من الأفعال والأقوال وأنه لافرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال ﴿سواء منكم من أسر القول﴾ فى نفسه ﴿ومن جهر به﴾ أظهره لغيره ﴿ومن هو مستخف﴾ مبالغ فى الاختفاء كأنه مختف ﴿بالليل﴾ وطالب للزيادة ﴿وسارب﴾ بارز يراه كل أحد ﴿بالنهار﴾ من سرب سروبا أى برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف ومن عبارة عن الاثنين كما فى قوله

تعال فان عاهدتنى لاتخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان

كأنه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان أسند الى من أسر ومن جهر والى المستخفى والسارب لكنه فى الحقيقة مسند الى ماأسره وماجهر به أو الى الفاعل من حيث هو فاعل كما فى الاخيرين وتقديم الاسرار والاستخفاء لاظهار كمال علمه تعالى فكأنه فى التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر والافنسبته الى الكل سواء لما عرفته آنفا ﴿له﴾ أى لكل ممن أسر أوجهر والمستخفى أوالسارب ﴿معقبات﴾ ملائكة تعتقب فى حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه اذا جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضا أولانهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أواعتقب فادغمت التاء فى القاف والتاء للمبالغة أوالمراد بالمعقبات الجماعات وقرىء معاقيب جمع معقب أومعقبة على تعويض الياء من احدى القافين ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ من جميع جوانبه أومن الأعمال ماقدم وأخر ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ من بأسه حين اذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى وقد قرىء به وقيل من بمعنى الباء وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه فى توهمه من قضاء الله تعالى ﴿ان الله لايغير مابقوم﴾ من النعمة والعافية ﴿حتى يغيروا مابأنفسهم﴾ من الأعمال الصالحة أوملكاتها التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها الى أضدادها ﴿واذا أراد الله بقوم سوءا﴾ لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك ﴿فلا مرد له﴾ فلا رد له والعامل فى اذا مادل عليه الجواب ﴿ومالهم من دونه من وال﴾ يلى أمرهم ويدفع عنهم السوء الذى أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير مابهم وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال وايذان بأنهم بما باشروه من انكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قدغيروا مابأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه ﴿هو الذى يريكم البرق خوفا﴾ من الصاعقة ﴿وطمعا﴾ فى المطر فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن المخوف عليه النفس أوالرزق العتيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل الخوف أيضا من المطر لكن الخائف منه غير الطامع فيه كالخزاف والحراث ويأباه الترتيب اللهم الاأن يتكلف ماأشير اليه من أن المخوف عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما اماعلى المصدرية أى فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أوعلى الحالية من البرق أوالمخاطبين باضمار ذوى أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أوالفاعل مبالغة أوعلى العلية بتقدير المضاف أى ارادة خوف وطمع أو بتأويل الاخافة والاطماع ليتحد فاعل العلة والفعل المعلل وأما جعل المعلل هى الرؤية التى تتضمنها الاراءة على طريقة قول النابغة

وحلت بيوتى فى يفاع ممنع تخال به راعى الحمولة طائرا

حذارا على أن لاينال معاونى ولانسوتى حتى يمتن حرائرا

أى أحللت بيوتى حذارا فلا سبيل اليه لان ماوقع فى معرض العلة الغائية لاسيما الخوف لايصلح علة لرؤيتهم ﴿وينشىء السحاب﴾ الغمام المنسحب فى الجو ﴿الثقال﴾ بالماء وهى جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونها اسم جنس فى معنى

الجمع والواحدة سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام ﴿ويسبح الرعد﴾ أى سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين ﴿بحمده﴾ أى يضجون بسبحان الله والحمد لله واسناده الى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول سبحان من يسبح الرعد بحمده واذا اشتد يقول اللهم لاتقتلنا بغضبك ولاتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن على رضى الله عنه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان اليهود سألت النبى عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك ﴿والملائكة﴾ أى يسبح الملائكة ﴿من خيفته﴾ من هيبته واجلاله جل جلاله وقيل الضمير للرعد ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ فيهلكه بذلك ﴿وهم﴾ أى الكفرة المخاطبون فى قوله تعالى هو الذى يريكم البرق وقد التفت الى الغيبة ايذانا باسقاطهم عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديدا لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كأنه قيل هو الذى يفعل أمثال هذه الافاعيل العجيبة من اراءة البرق وانشاء السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته و يعقلها من يعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه أوالملك الموكل به والملائكة و يعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم أى الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم ﴿يجادلون فى الله﴾ أى فى شأنه تعالى حيث يفعلون مايفعلون من انكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات فالواو لعطف الجملة على ماقبلها من قوله تعالى هو الذى يريكم البرق الخ أوعلى قوله الله يعلم ماتحمل الخ وأما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لان قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب وانكار البعث قاطع لعطف مابعده على ماقبله وقيل للحال أى فيصيب بالصواعق من يشاء وهم فى الجدال وقد أريد به ماأصاب أربد بن ربيعة أخا لبيد فانه أقبل مع عامر بن الطفيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس فى نفر من الأصحاب رضى الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من أجمل الناس وقد كان أوصى الى أربد انه اذا رأيتنى أكلم محمدا عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومىء اليه فرأى النبى عليه الصلاة والسلام الحال فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله عز وجل على أربد صاعقة فى يوم صحو صائف فأحرقته وولى عامر هاربا فنزل فى بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز ياملك الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن أصحر لى محمد وصاحبه يعنى ملك الموت لانفذتهما برمحى فأرسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه فى التراب فخرجت على ركبته فى الوقت غدة عظيمة فعاد الى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل أريد به ماروى عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبى عليه الصلاة والسلام نفرا من أصحابه يدعونه الى الله عز وجل فقال لهم أخبرونى عما تدعوننى اليه ماهو ومم هو من ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا مارأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فمازاد الا مقالته الأولى وأخبث فرجعوا اليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما صنع فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده ينازعونه اذ ارتفعت سحابة و رعدت و برقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاؤا يسعون

ليخبروه عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم قالوا أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وهو شديد المحال﴾ أى والحال أنه شديد المماحلة والمكايدة والمماكرة لاعدائه من محله اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل اذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرئ بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول اذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا فى القوة والقدرة كقولهم فساعد الله أشد وموساه أحد ﴿له دعوة الحق﴾ أى الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها والاضافة للايذان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل له دعوة الله سبحانه أى الدعوة اللائقة بحضرته كما فى قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والاولى هو الاول لقوله تعالى وما دعاء الكافرين الا فى ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث ان اهلاك أربد وعامر محال من الله تعالى واجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما ان كانت الآية نزلت فى شأنهما أو من حيث انه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم ﴿والذين يدعون﴾ أى الاصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف العائد ﴿من دونه﴾ من دون الله عز وجل ﴿لا يستجيبون لهم بشىء﴾ من طلباتهم ﴿الا كباسط كفيه الى الماء﴾ أى الا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فالاستجابة مصدر من المبنى للفاعل على مايقتضيه الفعل الظاهر أعنى لا يستجيبون ويجوز أن يكون من المبنى للمفعول ويضاف الى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجودا وعدما فكانه قيل لا يستجيبون لهم بشىء فلا يستجاب لهم الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه الى الماء كما فى قوله

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال الى مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق الا مسحت أو مجلف ﴿ليبلغ﴾ أى الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشىء من اناء ونحوه ﴿فاه وما هو﴾ أى الماء ﴿ببالغه﴾ ببالغ فيه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا ببسط يديه اليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ الى فيه شبه حال المشركين فى عدم حصولهم فى دعاء آلهتهم على شىء أصلا وركاكة رأيهم فى ذلك بحال عطشان هائم لايدرى مايفعل قد بسط كفيه من بعيد الى الماء يبغى وصوله الى فيه من غير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات الاطراف فان الماء فى نفسه شىء نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفى الاستجابة رأسا الا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة الا استجابة كائنة فى هذه الصورة التى ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرئ تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين ﴿وما دعاء الكافرين الا فى ضلال﴾ أى ذهاب وضياع وخسار ﴿ولله﴾ وحده ﴿يسجد﴾ يخضع وينقاد لالشىء غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد ﴿من فى السموات والارض﴾ من الملائكة والثقلين ﴿طوعا وكرها﴾ أى طائعين وكارهين او انقياد طوع وكره أو حال طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادهم لاحداث ماأراده فيهم من أحكام التكوين والاعدام شاؤا أو أبوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى فى تلك الشؤون مما لا يخفى على أحد ﴿وظلالهم﴾ أى وتنقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم أعنى الانس حيث تتصرف على مشيئته وتتأتى لارادته فى الامتداد والتقلص والفىء والزوال ﴿بالغدو والآصال﴾ ظرف للسجود المقدر أو حال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحقق فى جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما والغدو جمع غداة كقنى

فى جمع قناة والآصال جمع أصيل وقيل جمع أصل وهو جمع أصيل وهو مابين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده انه قرئ والايصال أى الدخول فى الاصيل هذا وقد قيل ان المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخصون السجود به سبحانه قال تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى كما قاله ابن الانبارى ويجوز أن يراد بسجودها مايشاهد فيها من هيئة السجود تبعا لاصحابها وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لايجدى فان سجودهم لاصنامهم حالة الرخاء مخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولان تحقيق انقياد الكل فى الابداع والاعدام له تعالى أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لانهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل ﴿قل من رب السموات والارض﴾ فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع مافيهما على الاطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى ﴿قل الله﴾ أمر بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام اشعارا بأنه متعين للجوابية فهو والخصم فى تقريره سواء أو أمر بحكاية اعترافهم ايذانا بأنه أمر لابد لهم من ذلك كانه قيل احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة وألقمهم الحجر أو أمر بتلقينهم ذلك ان تلعثموا فى الجواب حذرا من الالزام فانهم لايتمالكون اذ ذاك ولا يقدرون على انكاره ﴿قل﴾ الزاما لهم وتبكيتا ﴿أفاتخذتم﴾ لانفسكم والهمزة لانكار الواقع كما فى قولك أضربت أباك لا لانكار الوقوع كما فى قولك أضربت أبى والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة أى أعلمتم أن ربهما هو الله الذى ينقاد لامره من فيهما كافة فاتخذتم عقيبه ﴿من دونه أولياء﴾ عاجزين ﴿لايملكون لانفسهم نفعا﴾ يستجلبونه ﴿ولا ضرا﴾ يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع الضرر عنه لاعلى أن يكون الانكار متوجها الى المعطوفين معا كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون اذا قدر المعطوف عليه ألا تسمعون بل الى ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما اذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزة والحال ان قضية العلم بذلك انما هو الاقتصار على توليه فعكستم الأمر كما فى قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ووصف الاولياء ههنا بعدم المالكية للنفع والضر فى ترشيح الانكار وتأكيده كتقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية أعنى قوله تعالى وهم لكم عدو فان كلا منهما مما ينفى الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره ﴿قل﴾ تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿هل يستوى الأعمى﴾ الذى هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها ﴿والبصير﴾ الذى هو الموحد العالم بذلك أو الاول عبارة عن المعبود الغافل والثانى اشارة الى المعبود العالم بكل شىء ﴿أم هل تستوى الظلمات﴾ التى هى عبارة عن الكفر والضلال ﴿والنور﴾ الذى هو عبارة عن التوحيد والايمان وقرئ بالياء ولما دل النظم الكريم على أن الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه فى الضلال المحض والخطا البحت بحيث لايخفى بطلانه على أحد وأنهم فى ذلك كالاعمى الذى لايهتدى الى شىء أصلا وليس لهم فى ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقيل ﴿أم جعلوا لله﴾ أى بل أجعلوا له ﴿شركاء خلقوا كخلقه﴾ سبحانه والهمزة لانكار الوقوع لا لانكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذى يتوجه اليه الانكار وأما نفس الجعل فهو واقع لايتعلق به الانكار بهذا المعنى والمعنى انهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه ﴿فتشابه الخلق عليهم﴾ بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل انما جعلوا له شركاء

ماهو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه مالايخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم ﴿قل﴾ تحقيقا للحق وارشاداً لهم اليه ﴿الله خالق كل شئ﴾ كافة لاخالق سواه فيشاركه فى استحقاق العبادة ﴿وهو الواحد﴾ المتوحد بالالوهية المتفرد بالربوبية ﴿القهار﴾ لكل ماسواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد مامثل المشرك والشرك بالاعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذى هو القرآن العظيم فى فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفى جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الالسنة مذاكرة وتلاوة وفى ثباته فيهما مع كونه ممدا لحياتها الروحانية ومايتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل فى أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلانا مقدرا بمقدار اقتضته الحكمة فى احياء الأرض وماعليها الباقى فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفى كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل الى البهجة الابدية ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفائهما من الزبد الرابى فوقهما المضمحل سريعا فقيل ﴿أنزل من السماء﴾ أى من جهتها ﴿ماء﴾ أى كثيرا أو نوعا منه وهو ماء المطر ﴿فسالت﴾ بذلك ﴿أودية﴾ واقعة فى مواقعه لاجميع الاودية اذ الامطار لاتستوعب الاقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجئ بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كجريب وأجربة جمع فاعل أيضا على أفعلة فان أريد بها مايسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقى وان أريد معناها الحقيقى فالاسناد مجازى كما فى جرى النهر وايثار التمثيل بها على الانهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن مامثل بها كما أشير اليه ﴿بقدرها﴾ أى سالت ملتبسة بمقدارها الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته فى نفع الناس أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لابكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعى لكثرة الموارد فان مورد السيل الجارى فى الوادى الصغير أقل من مورد السيل الجارى فى الوادى الكبير هذا ان أريد بالاودية مايسيل فيها أما ان أريد بها معناها الحقيقى فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الاودية على نحو ماعرفته آنفا أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ماذكر أولا من المعنيين ﴿فاحتمل السيل﴾ الجارى فى تلك الاودية أى حمل معه ﴿زبدا﴾ أى غثاء ورغوة وانما وصف ذلك بقوله تعالى ﴿رابيا﴾ أى عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون الحميل غير طاف كالاشجار الثقيلة وانما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للايذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لامن جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين مامثل به من الباطل الذى شأنه الظهور فى بادى الرأى من غير مداخلة فى الحق ﴿ومما يوقدون عليه فى النار﴾ أى يفعلون الايقاد عليه كائنا فى النار والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره وقرئ بالخطاب ﴿ابتغاء حلية أو متاع﴾ أى لطلب اتخاذ حلية وهى مايتزين ويتجمل به كالحلى المتخذة من الذهب والفضة أو اتخاذ متاع وهو مايتمتع به من الاوانى والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات ﴿زبد﴾ خبث ﴿مثله﴾ مثل ماذكر من زبد الماء فى كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لاتبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لاخلال ذلك بالتمثيل وفى التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما فى حيز الصلة من ايقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كما فى قوله تعالى فأوقد لى ياهامان على الطين واشارة الى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه

وفى زيادة فى النار اشعار بالمبالغة فى الاعتمال للاذابة وحصول الزبد كما أشير اليه وعدم التعرض لاخراجه من الارض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل كما أن لعنوان انزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف بل له اخلال بذلك ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة ﴿يضرب الله الحق والباطل﴾ أى مثل الحق ومثل الباطل والحذف للانباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كأن المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الايماء فى تضاعيف ذلك الى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وآنقها حسبما أشير اليه فى مواقعها بين عاقبة كل من الممثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض مابه المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقيل ﴿فأما الزبد﴾ من كل منهما ﴿فيذهب جفاء﴾ أى مرميا به وقرئ جفالا والمعنى واحد ﴿وأما ماينفع الناس﴾ منهما كالماء الصافى والفلز الخالص ﴿فيمكث فى الأرض﴾ أما الماء فيثبت بعضه فى مناقعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض الى العيون والقنا والآبار وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث فى الارض ماهو أعم من المكث فى نفسها ومن البقاء فى أيدى المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع فى الفذلكة الموافق للترتيب الواقع فى التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتى الذهاب والبقاء وبين ذكريهما فان المعتبر انما هو بقاء الباقى بعد ذهاب الذاهب لاقبله ﴿كذلك يضرب الله﴾ أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب ﴿الأمثال﴾ فى كل باب اظهاراً لكمال اللطف والعناية فى الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول أو بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا وبعد مابين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا أكمل بيان شرع فى بيان حال أهل كل منهما مآلا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فقيل ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ اذ دعاهم الى الحق بفنون الدعوة التى من جملتها ضرب الأمثال فانه ألطف ذريعة الى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة الى تسخير النفوس الأبية كيف لاوهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وابراز لأوابد المعانى فى هيئة المأنوس فأى دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول ﴿الحسنى﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ وعاندوا الحق الجلى ﴿لو أن لهم مافى الأرض﴾ من أصناف الأموال ﴿جميعا﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ فى أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الازمان ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾ أى بما فى الأرض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل مايلقاهم مالايحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هى خبره لكن لاعلى أنها وضعت موضع السوءى فوقعت فى مقابلة الحسنى الواقعة فى القرينة الاولى لمراعاة حسن المقابلة فصار كأنه قيل وللذين لم يستجيبوا له السوءى كما يوهم فان الشرطية وان دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوءى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول أو ضميره وعليه يدور حصول المرام وانما الواقع فى تلك المقابلة سوء الحساب فى قوله تعالى ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ وحيث كان اسم الاشارة الواقع مبتدأ فى هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتدأ فى الجملة السابقة كان خبرها أعنى الجملة الظرفية خبرا عن الموصول فى الحقيقة ومبينا لابهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك فى قوة أن يقال وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل ﴿ومأواهم﴾ أى مرجعهم ﴿جهنم﴾ وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة ﴿وبئس المهاد﴾ أى المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام فى قوله تعالى للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الأمثال أى الأمثال

السالفة وقوله الحسنى صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول الأول وقوله لو أن لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ماأعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أى هما مثلا الفريقين وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لامناسبة بينه و بين مايدو رعليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل فى هذا المعنى أيضا كما فى قوله سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره على أن بعض الأمثال المضروبة لاسيما المثل الاخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل و لا مساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل فى حكم أن يقال كذلك يضرب الله الأمثال للناس اذلا وجه حينئذ لتنويعهم الى المستجيبين وغير المستجيبين فتأمل ﴿أفمن يعلم أن ماأنزل اليك من ربك﴾ من القرآن الذى مثل بالماء المنزل من السماء والابريز الخالص فى المنفعة والجدوى ﴿الحق﴾ الذى لاحق وراءه أوالحق الذى أشير اليه بالأمثال المضروبة فيستجيب له ﴿كمن هو أعمى﴾ عمى القلب لا يشاهده وهو نارعلى علم و لا يقدر قدره وهو فى أقصى مراتب العلو والعظم فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلال أو لا يتذكر بما ضرب من الأمثال أى كمن لا يعلم ذلك الا انه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالأعمى وايراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الأمثال و بين المصير والمآل كأنه قيل أبعد مابين حال كل من الفريقين ومآلها يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقيل ﴿انما يتذكر﴾ بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائى ﴿أولو الالباب﴾ أى العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الالف ومعارضة الوهم ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أو ماعهد الله عليهم فى كتبه ﴿و لاينقضون الميثاق﴾ ماوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم و بين الله و بين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل ﴿والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم و يندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل مايتعلق بهم من الهر والدجاج ﴿ويخشون ربهم﴾ خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل ﴿والذين صبروا﴾ على كل ماتكرهه النفس من الافعال والتروك ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ طلبا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا الى جانب الخلق رياء وسمعة و لا الى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الامر فى كل ماذكر من الصلات السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضى اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فان ذلك ممالابد منه اما فى أنفس الصلات كما فيما عدا الاولى والرابعة والخامسة أو فى اظهار أحكامها كما فى الصلات الثلاث المذكورات فانها وان استغنت عن الصبر فى أنفسها حيث لامشقة على النفس فى الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن اظهار أحكامها والجرى على موجبها غير خال عن الاحتياج اليه ﴿وأقاموا الصلوة﴾ المفروضة ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ أى بعضه الذى يجب عليهم انفاقه ﴿سرا﴾ لمن لم يعرف بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاة أو عند انفاقه واعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهرا ﴿وعلانية﴾ لمن لم يكن كما ذكر أو الاول فى التطوع والثانى فى الفرض ﴿ويدرؤن بالحسنة السيئة﴾ أى يجازون الاساءة بالاحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها . عن ابن عباس رضى الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام مايرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب

لاظهار كمال العناية بالحسنة ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعنى قوله تعالى ﴿لهم عقبى الدار﴾ أى عاقبة الدنيا وما ينبغى أن يكون مآل أمر أهلها وهى الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لاولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأياما كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض مافى حيز الصلة ليس من العزائم التى يخل اخلالها بالموصول الى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة أو استئناف لبيان مااستوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لاولى الالباب على طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخل فى التذكر ﴿جنات عدن﴾ بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره ﴿يدخلونها﴾ والعدن الاقامة ثم صار علما لجنة من الجنات أى جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة ﴿ومن صلح من آبائهم﴾ جمع أبوى كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم ﴿وأزواجهم وذرياتهم﴾ وهو عطف على المرفوع فى يدخلون وانما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى انه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وأن الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم و فى التقييد بالصلاح قطع للاطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الانساب ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين ﴿سلام عليكم﴾ بشارة لهم بدوام السلامة ﴿بما صبرتم﴾ متعلق بعليكم أو بمحذوف أى هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أى بسبب صبركم أو بدل مااحتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم فى الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بما ذكر من بين الصلات السابقة لما قدمناه من أن له دخلا فى كل منها ومزية زائدة من حيث انه ملاك الامر فى كل منها وان شيئا منها لايعتد به الا بأن يكون لابتغاء وجه الرب تعالى وتقدس ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أى فنعم عقبى الدار الجنة وقرىء بفتح النون والاصل نعم فسكن العين بنقل حركتها الى النون تارة و بدونه أخرى وعن النبى عليه السلام انه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين ﴿والذين ينقضون عهد الله﴾ أريد بهم من يقابل الاولين و يعاندهم فى الاتصاف بنقائض صفاتهم ﴿من بعد ميثاقه﴾ من بعدما أوثقوه من الاعتراف والقبول ﴿و يقطعون ماأمر الله به أن يوصل﴾ من الايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لايراعون حقوقه من الأمور المعدودة فيما سلف وانما لم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفى الصبر المذكور فلانه انما اعتبر تحققه فى ضمن الحسنات المعدودة ليقع معتدا بهن فلا وجه لنفيه عمن بينه و بين الحسنات بعد المشرقين كما لاوجه لنفى الصلاة والزكاة ممن لايحوم حول أصل الايمان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرائع وان أريد بالانفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ماأمر الله تعالى بوصله وأما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق فان من يجازى احسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الامر و يباشر الفساد بدأ حسبما يحكيه قوله عز وعلا ﴿و يفسدون فى الارض﴾ أى بالظلم وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالاحسان على أن ذلك يشعر بأن له دخلا فى الافضاء الى العقوبة التى ينبىء عنها قوله تعالى ﴿أولئك﴾ الخ أى أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿لهم﴾ بسبب ذلك ﴿اللعنة﴾ أى الابعاد من رحمة الله تعالى ﴿ولهم﴾ مع ذلك ﴿سوء الدار﴾ أى سوء عاقبة الدنيا أو عذاب جهنم فانها دارهم لان ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى أنه لادخل له فى ذلك على أكثر التفاسير فان مجازاة السيئة

بمثلها مأذون فيها ودفع الكلام السيء بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما مااعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير فى ذلك لان اعتباره من حيث انه من مستتبعات الاخلال بالعزائم بالكفر ببعض الانبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكرير لهم للتأكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما فى الثبوت ﴿الله يبسط الرزق﴾ أى يوسعه ﴿لمن يشاء﴾ من عباده ﴿ويقدر﴾ أى يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لاحد مدخل فى ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر املاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لاجره فلا يغتر ببسطه الكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن ﴿وفرحوا﴾ أى أهل مكة فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى ﴿بالحيوة الدنيا﴾ وما بسط لهم فيها من نعيمها ﴿وما الحيوة الدنيا﴾ وما يتبعها من النعيم ﴿فى الآخرة﴾ أى فى جنب نعيم الآخرة ﴿الامتاع﴾ الاشيء نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعى والمعنى انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أن ما أشروا به فى جنب ما أعرضوا عنه شيء قليل النفع سريع النفاد ﴿ويقول الذين كفروا﴾ أى أهل مكة وايثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور ارادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ فان ذلك فى أقصى مراتب المكابرة والعناد كان ما أنزل عليه عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا مالا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يبقى لاحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر فى الجواب بقوله تعالى ﴿قل ان الله يضل من يشاء﴾ اضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره الى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الارشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو فى الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء ولو جاءته كل آية ﴿ويهدى اليه﴾ أى الى جنابه العلى الكبير هداية موصلة اليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل اليه فان ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم مالا يوصف ﴿من أناب﴾ أقبل الى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الانابة الدخول فى نوبة الخير وايثار ايرادها فى الصلة على ايراد المشيئة كما فى الصلة الأولى للتنبيه على الداعى الى الهداية بل الى مشيئتها والاشعار بما دعا الى المشيئة الاولى من المكابرة وفيه حث للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وايثار صيغة الماضى للايماء الى استدعاء الهداية لسابقة الانابة كما أن ايثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ﴿الذين آمنوا﴾ بدل عن أناب فان أريد بالهداية الهداية المستمرة فالامر ظاهر لظهور كون الايمان مؤديا اليها وان أريد احداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرهم الى الايمان كما فى قوله تعالى هدى للمتقين أى الصائرين الى التقوى والا فالايمان لا يؤدى الى الهداية نفسها أو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح ﴿وتطمئن قلوبهم﴾ أى تستقر وتسكن ﴿بذكر الله﴾ بكلامه المعجز الذى لا ريب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ويعلمون أن لا آية أعظم منه فيقترحوها والعدول الى صيغة المضارع لافادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها ﴿ألا بذكر الله﴾ وحده ﴿تطمئن القلوب﴾ دون غيره من الامور التى تميل اليها النفوس من الدنياويات وهذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث انها ليست فى افادة الطمأنينة بالنسبة الى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فانه معجزة باقية الى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه اشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب

من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أنسا به وتبتلا اليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه أى قلوب الذين آمنوا وفيه ايماء الى أن الانسان انما هو القلب أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعنى قوله ﴿طوبى لهم﴾ أو خبر مبتدا مضمر أو نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الاعرابى طيبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك أو الرفع على الابتداء وان كانت نكرة لكونها فى معنى الدعاء كسلام عليك يدل على ذلك القراءة فى قوله تعالى ﴿وحسن مآب﴾ بالنصب والرفع واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيالك ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة ﴿أرسلناك فى أمة قد خلت﴾ أى مضت ﴿من قبلها أمم﴾ كثيرة قد أرسل اليهم رسل ﴿لتتلو﴾ لتقرأ ﴿عليهم الذى أوحينا اليك﴾ من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم الى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما فى قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه مالا يخفى من ترقب النفس الى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها ﴿وهم﴾ أى والحال أنهم ﴿يكفرون بالرحمن﴾ بالبليغ الرحمة الذى وسعت كل شيء رحمته وأحاطت به نعمته والعدول الى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث ان الارسال ناشىء منها كما قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لا سيما ما أنعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وانزال القرآن الذى هو مدار المنافع الدينية والدنياوية عليهم وقيل نزلت فى مشركى مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن ﴿قل هو﴾ أى الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿ربى﴾ الرب فى الاصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشيء الى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أى خالقى ومبلغى الى مراتب الكمال وايراده قبل قوله ﴿لا اله الا هو﴾ أى لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل ان أباجهل سمع النبى عليه السلام يقول يا الله يارحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية ﴿عليه توكلت﴾ فى جميع أمورى لا سيما فى النصرة عليكم لا على أحد سواه ﴿واليه﴾ خاصة ﴿متاب﴾ أى توبتى كقوله تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك ابانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الانبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه فانه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وان قل فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى مما لا بد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعى ومرجعكم وزيد فيحكم بينى وبينكم وقد قيل فيثيبنى على مصابرتكم فتأمل ﴿ولو أن قرآنا﴾ أى قرآنا ما وهو اسم أن والخبر قوله تعالى ﴿سيرت به الجبال﴾ وجواب لو محذوف لانسياق الكلام اليه بحيث يتلقفه السامع من التالى والمقصود اما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام واما بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد فالمعنى على الأول لو أن قرآنا سيرت به الجبال أى بانزاله أو بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿أو قطعت به الارض﴾ أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعا متصدعة ﴿أو كلم به الموتى﴾ أى بعد أن أحيى بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى فى الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية

الله لا فى الاعجاز اذ لا مدخل له فى هذه الآثار و لا فى التذكير والانذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا علاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول اليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور فى المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لأن بتقديم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة الى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وان كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الافاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله فى زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة فى بيان اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون مصدراً لكل خارق وابانة لركاكة رأيهم فى شأنه الرفيع كأنه قيل لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذى لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز و وصفهم بركاكة العقل ما لا يخفى ﴿بل لله الامر جميعا﴾ أى له الامر الذى عليه يدور فلك الاكوان وجودا وعدما يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد لما يدعو اليه من الحكم البالغة وهو اضراب عما تضمنه الشرطية من معنى النفى لا بحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أى لو أن قرآنا فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن لان الامر كله له وحده فالاضراب ليس بمتوجه الى كون الامر لله سبحانه بل الى ما يؤدى اليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختبار ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أى أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على استعمال اليأس فى معنى العلم لتضمنه له و يؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقدر أى أغفلوا عن كون الامر جميعا لله تعالى فلم يعلموا ﴿أن لو يشاء الله﴾ على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن ﴿لهدى الناس جميعا﴾ باظهار أمثال تلك الآثار العظيمة فالانكار متوجه الى المعطوفين جميعا أو أعلموا كون الامر جميعا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه الى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أى تخلف العلم الثانى عن العلم الاول وعلى التقديرين فالانكار انكار الوقوع كما فى قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعدا حسناً لا انكار الواقع كما فى قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم ان مناط الانكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وأنه لم يشأها وذلك لانهم كانوا يودون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الايمان وعلى الثانى لو أن قرآنا فعل به ما فصل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى و لو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فالاضراب حينئذ متوجه الى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم فى العناد على ما شرح أى فليس لهم ذلك بل لله الامر جميعا ان شاء أتى بما اقترحوا وان شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح واليأس بمعنى القنوط أى ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من ايمانهم حتى أحبوا ظهور مقترحاتهم فالانكار متوجه الى المعطوفين أو أعلموا ذلك فلم يقنطوا من ايمانهم فهو متوجه الى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أى الى تخلف القنوط عن العلم المذكور والانكار على التقديرين انكار الواقع كما فى قوله تعالى أفلا تتقون ونظائره لا انكار الوقوع فان عدم قنوطهم منه مما لا مرد له وقوله تعالى أن لو يشاء الله الخ متعلق بمحذوف أى أفلم ييأسوا من ايمانهم علما منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وأنه لم يشأ ذلك أو بآمنوا أى أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على معنى أفلم ييأس من ايمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية و بعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعى انكار يأسهم وقيل ان أبا جهل

وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا وتتخذ فيها البساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه ان كنت نبيا كما زعمت أو سخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها الى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الارض حينئذ قطعها بالسير و لا حاجة حينئذ الى الاعتذار فى اسناد الافاعيل المذكورة الى القرآن كما احتيج اليه فى الوجهين الأولين وعن الفراء أنه متعلق بما قبله من قوله وهم يكفرون بالرحمن وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير فى كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾ من أهل مكة ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ أى بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادى فيه وعدم بيانه اما للقصد الى تهويله أو استهجانه وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما فى صيغة الصنع من الايذان برسوخهم فى ذلك ﴿قارعة﴾ داهية تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لما مر مرارا من ارادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الاصابة من جهتهم آثر ذى أثير ﴿أو تحل﴾ تلك القارعة ﴿قريبا﴾ أى مكانا قريبا ﴿من دارهم﴾ فيفزعون منها و يتطاير اليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم فاسند اليها الاصابة تارة والحلول أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح ﴿حتى يأتى وعد الله﴾ أى موتهم أو القيامة فان كلا منهما وعد محتوم لا مرد له وفيه دلالة على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب فى غاية الشدة وأن ما ذكر سابقة نفحة يسيرة بالنسبة اليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى ﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾ أى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين اغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم فى ديارهم فالاصابة والحلول حينئذ من أحوالهم و يجوز على هذا أن يكون قوله تعالى أو تحل قريبا من دارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة ﴿ولقد استهزئ برسل﴾ كثيرة خلت ﴿من قبلك فأمليت للذين كفروا﴾ أى تركتهم ملاوة من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به و وعيد لهم والمعنى ان ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم والعدول فى الصلة الى وصف الكفر ليس لان المملى لهم غير المستهزئين بل لارادة الجمع بين الوصفين أى فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط ﴿ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾ أى عقابى اياهم وفيه من الدلالة على تناهى كيفيته فى الشدة والفظاعة ما لا يخفى ﴿أفمن هو قائم﴾ أى رقيب مهيمن ﴿على كل نفس﴾ كائنة من كانت ﴿بما كسبت﴾ من خير أو شر لا يخفى عليه شىء من ذلك بل يجازى كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أى كمن ليس كذلك انكارا لذلك وادخال الفاء لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب ما علم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والأخذ الشديد ومن كون الأمر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة الى أن يأتى وعد الله كأنه قيل أألامر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس فى عداد الاشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه الى ترتب المعطوف أعنى توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعنى كون الأمر كما ذكر كما فى قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لا الى المعطوفين جميعا كما اذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ جملة مستقلة جىء بها للدلالة على الخبر أو حالية أى أفمن هذه

صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لاشريكا واحدا أو معطوفة على الخبر ان قدرمايصلح لذلك أى أفن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الابهام بايراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى ﴿قل سموهم﴾ تبكيت لهم اثر تبكيت أى سموهم من هم وماذا أسماؤهم أوصفوهم وانظر واهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ﴿أم تنبئونه﴾ أى بل أتنبئون الله ﴿بما لا يعلم فى الارض﴾ أى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والارض وقرئ بالتخفيف ﴿أم بظاهر من القول﴾ أى بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجى كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم وهاتيك الاساليب البديعة التى ورد عليها الآية الكريمة منادية على أنها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين ﴿بل زين للذين كفروا﴾ وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر ﴿مكرهم﴾ تمويههم الاباطيل أو كيدهم للاسلام بشركهم ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أى سبيل الحق من صده صدا وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرئ بفتحها أى صدوا الناس أومن صد صدودا ﴿ومن يضلل الله﴾ أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله ﴿فما له من هاد﴾ يوفقه للهدى ﴿لهم عذاب﴾ شاق ﴿فى الحيوة الدنيا﴾ بالقتل والاسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فانها انما تصيبهم عقوبة على كفرهم ﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿ومالهم من الله﴾ من عذابه المذكور ﴿من واق﴾ من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الأولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد ﴿مثل الجنة﴾ أى صفتها العجيبة الشان التى فى الغرابة كالمثل ﴿التى وعد المتقون﴾ عن الكفر والمعاصى وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أى فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ تفسير لذلك المثل على أنه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد الى الجنة أى وعدها وهو الخبر عند غيره كقولك شان زيد يأتيه الناس ويعظمونه أو على حذف موصوف أى مثل الجنة جنة تجرى الخ ﴿أكلها﴾ ثمرها ﴿دائم﴾ لا ينقطع ﴿وظلها﴾ أيضا كذلك لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا ﴿تلك﴾ الجنة المنعوتة بما ذكر ﴿عقبى الذين اتقوا﴾ الكفر والمعاصى أى مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ لاغير وفيه ما لا يخفى من اطماع المتقين واقناط الكافرين ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة ﴿يفرحون بما أنزل اليك﴾ اذ هو الكتاب الموعود فى التوراة والانجيل ﴿ومن الأحزاب﴾ أى من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الاشرف والسيد والعاقب اسقفى نجران وأتباعهما ﴿من ينكر بعضه﴾ وهو الشرائع الحادثة انشاء أو نسخا الاما يوافق ما حرفوه والا النعى عليهم من أول الأمر أن مدار ذلك انما هو جنايات أيديهم وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وان لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الأول عامتهم فانهم أيضا يفرحون به لكونه مصداقا لكتبهم فى الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن الأحزاب الخ تتمة بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه ﴿قل﴾ الزاما لهم وردا لانكارهم ﴿انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أى شيئا من الاشياء أو لا أفعل الاشراك به والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى لاقصر الأمر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أى قل لهم انما أمرت فيما أنزل الى بعبادة الله وتوحيده وظاهر أن لا سبيل لكم الى انكاره لاطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا فمالكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرئ ولا أشرك به بالرفع

على الاستئناف أى وأنا لا أشرك به ﴿اليه﴾ الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو الى ما أمرت به من التوحيد ﴿أدعو﴾ الناس لا الى غيره أو لا الى شئ آخر مما لم يطبق عليه الكتب الالهية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه انكاركم ﴿واليه﴾ الى الله تعالى وحده ﴿مآب﴾ مرجعى للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك الزاما وتبكيتا لهم ثم شرع فى رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة فى ذلك فقيل ﴿وكذلك أنزلناه﴾ أى ما أنزل اليك وذلك اشارة الى مصدر أنزلناه أو أنزل اليك ومحله النصب على المصدرية أى مثل ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع متشعبة الى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه ﴿حكما﴾ حاكما يحكم فى القضايا والواقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه ﴿عربيا﴾ مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للاشارة الى أن ذلك احدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة اذ بذلك يسهل فهمه وادراك اعجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل انما أمرت أن أعبد الله الخ يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والاثبات وان لكل أجل كتاب فان المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والاتباع ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ التى يدعونك اليها من تقرير الامور المخالفة لما أنزل اليك من الحق كالصلاة الى بيت المقدس بعد التحويل ﴿بعدما جاءك من العلم﴾ العظيم الشأن الفائض من ذلك الحكم العربى أو العلم بمضمونه ﴿مالك من الله﴾ من جنابه العزيز والالتفات من التكلم الى الغيبة وايراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الأزهرى لا يكون الها حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا ﴿من ولى﴾ يلى أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿ولا واق﴾ يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفى الناصر على العدو نفى الواقى من نكايته أدخل على المعطوف حرف النفى للتأكيد كقولك مالى دينار ولا درهم أومالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم وأمثال هاتيك القوارع انما هى لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين واللام فى لئن موطئة ومالك ساد مسد جوابى الشرط والقسم ﴿ولقد أرسلنا رسلا﴾ كثيرة كائنة ﴿من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية﴾ نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والاولاد كما كانوا يقولون مالهذا الرسول يأكل الطعام الخ ﴿وما كان لرسول﴾ منهم أى ماصح وما استقام ولم يكن فى وسعه ﴿أن يأتى بآية﴾ مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه ﴿الا باذن الله﴾ ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات لاسيما مثل هذه الامور العظام والالتفات لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالايماء الى العلة ﴿لكل أجل﴾ أى لكل مدة ووقت من المدد والأوقات ﴿كتاب﴾ حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فان الشرائع كلها لاصلاح أحوالهم فى المبدأ والمعاد ومن قضية ذلك أنه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الاوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الاوقات ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ أى ينسخ ما يشاء نسخه من الاحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ويثبت﴾ بدله ما فيه المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما شاء اثباته مطلقا أعم منهما ومن الانشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتب كل قول وعمل ما لا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقى أو يمحو سيئات التائب ويثبت مكانها الحسنة أو يمحو قرنا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العالم الجسمانى ويثبت الكائنات أو يمحو الرزق ويزيد فيه أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهم والقائلون به يتضرعون الى الله تعالى أن يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبى عليه الصلاة والسلام والأنسب

تعميم كل من المحو والاثبات ليشمل الكل و يدخـل فى ذلك مواد الانكار دخولا أوليا وقرى بالتشديد ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أى أصله وهو اللوح المحفوظ اذمامن شئ من الذاهب والثابت الاوهو مكتوب فيه كماهو ﴿واما نرينك﴾ أصله ان نرك ومامزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل ﴿بعض الذى نعدهم﴾ أى وعدناهم من انزال العذاب عليهم والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أونعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار و فى ايراد البعض رمز الى اراءة بعض الموعود ﴿أونتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فانما عليك البلاغ﴾ أى تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لاتحقيق مضمون مابلغته من الوعيد الذى هو من جملتها ﴿وعلينا﴾ لاعليك ﴿الحساب﴾ محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ماوعدناهم من العذاب الدنيوى أولم نركه فعلينا ذلك وماعليك الاتبليغ الرسالة فلاتهتم بماوراء ذلك فنحن نكفيكه وتم ماوعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال ﴿أولم يروا﴾ استفهام انكارى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أأنكروا نزول ماوعدناهم أوأشكوا أوألم ينظروا فى ذلك ولم يروا ﴿أنا نأتى الأرض﴾ أى أرض الكفر ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيأفشيأ ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتى أومن مفعوله وقرى ننقصها بالتشديد وفى لفظ الاتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من الفخامة مالايخفى كما فى قوله عز وجل وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴿والله يحكم﴾ مايشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفر بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفى الالتفات من التكلم الى الغيبة و بناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة مالايخفى وهى جملة اعتراضية جئ بها لتأكيد فحوى ماتقدمها وقوله تعالى ﴿لامعقب لحكمه﴾ اعتراض فى اعتراض لبيان علوشأن حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لاعمامة على رأسه أى حاسرا والمعقب من يكر على الشئ فيبطله وحقيقته من يعقبه و يقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب ﴿وهو سريع الحساب﴾ فعما قليل يحاسبهم و يجازيهم فى الآخرة بأفانين العذاب غب ما عذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما سريع الانتقام ﴿وقد مكر﴾ الكفار ﴿الذين﴾ خلوا ﴿من قبلهم﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرة بمكرهم ولا تأثير بل لا وجود له فى الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله أعنى قوله تعالى ﴿فلله المكر﴾ أى جنس المكر ﴿جميعا﴾ لا وجود لمكرهم أصلا اذ هو عبارة عن ايصال المكروه الى الغير من حيث لا يشعر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرته وانما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما يبينه قوله عز وجل ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ ومن قضيته عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ما تكسبه ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة الى من مكروا بهم عين ولا أثر وأن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصى التى من جملتها مكرهم من حيث لا يحتسبون أولله المكر الذى باشروه جميعا لالهم على معنى أن ذلك ليس مكرا منهم بالأنبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لايحيق المكر السيئ الا بأهله ﴿وسيعلم الكفار﴾ حين يقضى بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ما تكسبه ﴿لمن عقبى

الدار﴾ أى العاقبة الحميدة من الفريقين وان جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرى سيعلم الكافر على ارادة الجنس والكافرون والكفر أى أهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من الاعلام أى سيخبر ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا﴾ قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبا منها أوللدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ﴿قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم﴾ فانه قد أظهر على رسالتى من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ أى علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام فى كتبهم والآية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أى كفى به شاهدا بيننا بالذى يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة الى عبادته وأيدنى بأنواع التأييد و بالذى يختص بعلم ما فى اللوح من الأشياء الكائنة الثابتة التى من جملتها رسالتى وقرى من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الاول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول أو مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثانى ومن عنده علم الكتاب بالكسر و بناء المفعول و رفع الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة و بعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب

سـورة ابراهيم عليه السلام

(مكية وهى احدى وخمسون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ مر الكلام فيه وفى محله غير مرة وقوله تعالى ﴿كتاب﴾ خبر له على تقدير كونه مبتدأ أولمبتدا مضمر على تقدير كونه خبرا لمبتدأ محذوف أو مسرودا على نمط التعديد و يجوز أن يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدا المحذوف وقوله تعالى ﴿أنزلناه اليك﴾ صفة له وقوله تعالى ﴿لتخرج الناس﴾ متعلق بأنزلناه أى لتخرجهم كافة بما فى تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفة عن العقائد الحقة وقرى ليخرج الناس ﴿من الظلمات﴾ أى ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التى كلها ظلمات محضة وجهالات صرفة ﴿الى النور﴾ الى الحق الذى هو نور بحت لكن لا كيفما كان فانك لاتهدى من أحببت بل ﴿باذن ربهم﴾ أى بتيسيره وتوفيقه وللانباء عن كون ذلك منوطا باقبالهم الى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى و يهدى اليه من أناب استعير له الاذن الذى هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف الى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التى هى عبارة عن تبليغ الشئ الى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الانزال لاخراجهم جميعا وعدم تحقق الاذن بالفعل فى بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند الى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج أو بمضمر وقع حالا من مفعوله أى ملتبسين باذن ربهم وجعله حالا من فاعله يأباه اضافة الرب اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحه فى نفسه وايضاحه لغيره موصلا الى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل ﴿الى صراط العزيز الحميد﴾ على وجه الابدال بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم واخلال البدل والبيان بالاستعارة انما هو فى الحقيقة لافى المجاز كما فى قوله سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وقيل هو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل الى أى نور فقيل الى صراط العزيز الحميد واضافة الصراط اليه تعالى لانه مقصده أو المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب فى سلوكه ببيان

مافيه من الامن والعاقبة الحميدة ﴿الله﴾ بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الاعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم فى الثريا وقرئ بالرفع على هو الله أى العزيز الحميد الذى أضيف اليه الصراط الله ﴿الذى له﴾ ملكا وملكا ﴿مافى السموات ومافى الأرض﴾ أى ماوجد فيهما داخلا فيهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر فى آية الكرسى ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط واظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه الغفول عن هذه النكتة وقوله عز وجل ﴿وويل للكافرين﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات الى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك ﴿من عذاب شديد﴾ متعلق بويل على معنى يولولون و يضجون منه قائلين ياويلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا ﴿الذين يستحبون الحيوة الدنيا﴾ أى يؤثرونها استفعال من المحبة فان المؤثر للشئ على غيره كانه يطلب من نفسه أن يكون أحب اليها وأفضل عندها من غيره ﴿على الآخرة﴾ أى الحياة الآخرة الابدية ﴿ويصدون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾ التى بين شأنها والاقتصار على الاضافة الى الاسم الجليل المنطوى على كل وصف جميل لروم الاختصار وهو من صده صدا وقرئ يصدون من أصد المنقول من صد صدودا اذا نكب وهو غير فصيح كاوقف فان فى صده وقفه لمندوحة عن تكلف النقل ﴿ويبغونها﴾ أى يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير أى يطلبون لها ﴿عوجا﴾ أى زيغا واعوجاجا وهى أبعد شئ من ذلك أى يقولون لمن يريدون صده واضلاله انها سبيل ناكبة و زائغة غير مستقيمة ومحل موصول هذه الصلات الجر على أنه بدل من الكافرين أو صفة له فيعتبر كل وصف من أوصافهم بازاء مايناسبه من المعانى المعتبرة فى الصراط فالكفر المنبئ عن الستر بازاء كونه نورا واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة والصد عنه بازاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تماديهم فى الغى مالا يخفى أو النصب على الذم أو الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿أولئك فى ضلال بعيد﴾ وعلى الاول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدا لما أشعر به بناء الحكم على الموصول أى أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهى منه بنزه فى ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ فى ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وان كان من أحوال الضال الا أنه قد وصف به وصفه مجازا للمبالغة كجد جده وداهية دهياء ويجوز أن يكون المعنى فى ضلال ذى بعد أو فيه بعد فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفى جعل الضلال محيطا بهم احاطة الظرف بما فيه مالا يخفى من المبالغة ﴿وما أرسلنا﴾ أى فى الامم الخالية من قبلك كاسيذكر اجمالا ﴿من رسول الا﴾ ملتبسا ﴿بلسان قومه﴾ متكلما بلغة من أرسل اليهم من الامم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أولا وقرئ بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد ﴿ليبين لهم﴾ ما أمروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة و يعملوا بموجبه من غير حاجة الى الترجمة ممن لم يؤمر به وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة فى شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد ألسنة الامم أدعى الى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف مع أن استقلال بعض من ذلك بالاعجاز دون غيره مئنة لقدح القادحين واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الالجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبئ عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على أن الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند التعدد اذ لابد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو فى خصلة فذة وانما

يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعددا وفيه من التعذر مايتاخم الامتناع ثم لما كان أشرف الاقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربى مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الامم أجمعين وقيل الضمير فى قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من الأنبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم و يرده قوله تعالى ليبين لهم فانه ضمير القوم وظاهر أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفى رجعه الى قوم كل نبى كأنه قيل وماأرسلنا من رسول الا بلسان قوم محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين أرسل اليهم ما لايخفى من التكلف ﴿فيضل الله من يشاء﴾ اضلاله أى يخلق فيه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدية اليه أو يخذله ولا يلطف به لما يعلم أنه لاينجع فيه الالطاف ﴿ويهدى﴾ بالتوفيق ومنح الالطاف ﴿من يشاء﴾ هدايته لما فيه من الانابة والاقبال الى الحق والالتفات باسناد الفعلين الى الاسم الجليل المنطوى على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق كأنه قيل فبينوه لهم فأضل الله منهم من شاء اضلاله لما لايليق الا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بأن مسارعة كل رسول الى ماأمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته أمر محقق غنى عن الذكر والبيان والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الاضلال على الهداية اما لانه ابقاء ماكان على ماكان والهداية انشاء مالم يكن أو للمبالغة فى بيان أن لاتأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الامر انما هو مشيئته تعالى بايهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى النور باذن الله تعالى ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغالب فى مشيئته ﴿الحكيم﴾ الذى لا يفعل شيئا من الاضلال والهداية الا لحكمة بالغة وفيه أن مافوض الى الرسل انما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل مايشاء ويحكم مايريد ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ شروع فى تفصيل ماأجمل فى قوله عز وجل وماأرسلنا من رسول الابلسان قومه ليبين لهم الآية ﴿بآياتنا﴾ أى ملتبسا بها وهى معجزاته التى أظهرها لبنى اسرائيل ﴿أن أخرج قومك﴾ بمعنى أى أخرج لان الارسال فيه معنى القول أو بأن أخرج كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك فان صيغ الافعال فى الدلالة على المصدر سواء وهو المدار فى صحة الوصل والمراد بذلك اخراج بنى اسرائيل بعد مهلك فرعون ﴿من الظلمات﴾ من الكفر والجهالات التى أدتهم الى أن يقولوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ﴿الى النور﴾ الى الايمان بالله وتوحيده وسائر ماأمروا به ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أى بنعمائه و بلائه كما ينبئ عنه قوله اذكروا نعمة الله عليكم لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الامم فى الأيام الخالية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم الآيات أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى اذ أنجاكم والالتفات من التكلم الى الغيبة باضافة الايام الى الاسم الجليل للايذان بفخامة شأنها والاشعار بعدم اختصاص مافيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الاضافة الى ضمير المتكلم أى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل أيام الله وقائعه التى وقعت على الامم قبلهم وأيام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أى أنذرهم وقائعه التى دهمت الامم الدارجة ويرده ماتصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى التذكير بها أو فى مجموع تلك النعماء والبلاء أو فى أيامها ﴿لآيات﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهى على الأول عبارة عن الأيام سواء أريد بها أنفسها أو مافيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية

ظاهر وأما على الثانى وهو كونه اشارة الى مجموع النعماء فعن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع أوكلمة فى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد ﴿لكل صبار﴾ على بلائه ﴿شكور﴾ لنعمائه وقيل لكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للاشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن أى لكل من يليق بكمال الصبر والشكر أوالايمان و يصير أمره اليها لا لمن اتصف بها بالفعل لأنه تعليل للامر بالتذكير المذكور السابق على التذكر المؤدى الى تلك المرتبة فان من تذكر مافاض أونزل عليه أوعلى من قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر أوالايمان لايكاد يفارقها وتخصيص الآيات بهم لأنهم المنتفعون بها لالأنها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل بالنسبة الى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعنى البلاء على متعلق الشكر أعنى النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر ﴿واذ قال موسى لقومه﴾ شروع فى بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمربه من التذكير للاخراج المذكور واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قدمر سره غير مرة أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبل وهى اليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها ان جعلت اسما أى اذكروا انعامه عليكم أواذكروا نعمته كائنة عليكم و كذلك كلمة اذ فى قوله تعالى ﴿اذ أنجاكم من آل فرعون﴾ أى اذكروا انعامه عليكم وقت انجائه اياكم من آل فرعون أواذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت انجائه اياكم منهم أو بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام أوالعطية ﴿يسومونكم﴾ يبغونكم من سامه خسفا اذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب فى طلب الشيء ﴿سوء العذاب﴾ السوء مصدر ساء يسوء والمراد به جنس العذاب السيء أو استعبادهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لايحصر ونصبه على أنه مفعول ليسومونكم ﴿ويذبحون أبناءكم﴾ المولودين وانما عطفه على يسومونكم اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد وانما فعلوا ذلك لأن فرعون رأى فى المنام أوقال له الكهنة انه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا فى ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيئا ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أى يبقونهن فى الحياة مع الذل والصغار ولذلك عد من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون أومن ضمير المخاطبين أومنهما جميعا لأن فيها ضمير كل منهما ﴿وفى ذلكم﴾ أى فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة ﴿بلاء من ربكم﴾ أى ابتلاء منه لا لأن البلاء عين تلك الأفعال اللهم الا أن تجعل فى تجريدية فنسبته الى الله تعالى اما من حيث الخلق أوالاقدار والتمكين ﴿عظيم﴾ لايطاق ويجوز أن يكون المشار اليه الانجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الأنسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الانجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له ﴿واذ تأذن ربكم﴾ من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أى آذن ايذانا بليغا لاتبقى معه شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل هو معطوف على قوله تعالى اذ أنجاكم أى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فان هذا التأذن أيضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه واذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ماأصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ماجرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الاوقات تذكير ماوقع فيها من الحوادث مفصلة اذ هي محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر مافيها كانه مشاهد معاين ﴿لئن شكرتم﴾ يابنى اسرائيل ماخولتكم

من نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالايمان والطاعة ﴿لأزيدنكم﴾ نعمة الى نعمة ﴿ولئن كفرتم﴾ ذلك وغمصتموه ﴿ان عذابى لشديد﴾ فعسى يصيبكم منه مايصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الأكرمين ويجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أى لأعذبنكم واللام فى الموضعين موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابى الشرط والقسم والجملة اما مفعول لتأذن لأنه ضرب من القول أو لقول مقدر بعده كأنه قيل واذ تأذن ربكم فقال الخ ﴿وقال موسى ان تكفروا﴾ نعمه تعالى ولم تشكروها ﴿أنتم﴾ يابنى اسرائيل ﴿ومن فى الأرض﴾ من الخلائق ﴿جميعا فان الله لغنى﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حميد﴾ مستوجب للحمد بذاته لكثرة مايوجبه من أياديه وان لم يحمده أحد أومحمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب ان أى ان تكفروا لم يرجع وباله الا عليكم فان الله تعالى لغنى عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام انما قاله عند ماعاين منهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لاينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب أوقاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع فى الترهيب بتذكير ماجرى على الامم الخالية فقال ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم﴾ ليتدبروا ماأصاب كل واحد من حزبى المؤمن والكافر فيقلعوا عماهم عليه من الشر وينيبوا الى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببنى اسرائيل من السراء والضراء والأيام بالأيام الجارية عليهم فقط وفيه مالايخفى من البعد وأيضا لايظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين فى عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم فى الخلو قبل هؤلاء ﴿قوم نوح﴾ بدل من الموصول أوعطف بيان ﴿وعاد﴾ معطوف على قوم نوح ﴿وثمود والذين من بعدهم﴾ أى من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وماعطف عليه وقوله تعالى ﴿لايعلمهم الا الله﴾ اعتراض أوالموصول مبتدأ ولايعلمهم الى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لايعلم عددهم الا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لايعرفون وكان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد ﴿جاءتهم رسلهم﴾ استئناف لبيان نبئهم ﴿بالبينات﴾ بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لأمته طريق الحق وهداهم اليه ليخرجهم من الظلمات الى النور ﴿فردوا أيديهم فى أفواههم﴾ مشيرين بذلك الى ألسنتهم ومايصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها واقناطا لهم عن التصديق والايمان باعلام أن لاجواب لهم سواه ﴿وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أى على زعمكم وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالاتهم كقوله تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالاتهم أوفعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك أواسكاتا للانبياء عليهم السلام وأمرا لهم باطباق الأفواه أو ردوها فى أفواه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا أوتمثيلا أوجعلوا أيدى الأنبياء فى أفواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبيء عنه تعجبهم بقولهم أفى الله شك الخ وقيل الأيدى بمعنى الأيادى عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التى هى مدار النعم الدينية والدنيوية لأنهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردوها الى حيث جاءت منه ﴿وانا لفى شك﴾ عظيم

﴿مما تدعوننا اليه﴾ من الايمان بالله والتوحيد فلا ينافى شكهم فى ذلك كفرهم القطعى بما أرسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات و لذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرئ تدعون بالادغام ﴿مريب﴾ موقع فى الريبة من أرابه أوذى ريبة من أراب الرجل وهى قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشئ ﴿قالت رسلهم﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء ﴿أفى الله شك﴾ بادخال الهمزة على الظرف للايذان بأن مدار الانكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا منقادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا أأنتم فى شك مريب من الله تعالى مبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بسخافة العقول أى أفى شأنه سبحانه من وجوده و وحدته و وجوب الايمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلى حتى تكونوا من قبله فى شك مريب وحيث كان مقصدهم الاقصى الدعوة الى الايمان والتوحيد و كان اظهار البينات وسيلة الى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة انا كفرنا بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ماهو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الانكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا ﴿فاطر السموات والارض﴾ أى مبدعهما ومافيهما من المصنوعات على نظام انيق شاهد بتحقق ما أنتم منه فى شك وهو صفة للاسم الجليل أو بدل منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على أن الظرف خبره يفضى الى الفصل بين الموصوف والصفة بالاجنبى أعنى المبتدأ والفاعل ليس بأجنبى من رافعه وقد جوز ذلك أيضا ﴿يدعوكم﴾ الى الايمان بارساله ايانا لا أنا ندعوكم اليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه ﴿ليغفر لكم﴾ بسببه أو يدعوكم لاجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معى ﴿من ذنوبكم﴾ أى بعضها وهو ما عدا المظالم مما بينهم و بينه تعالى فان الاسلام يجبه قيل هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض الايمان و فى شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم ﴿و يؤخركم الى أجل مسمى﴾ الى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الايمان ﴿قالوا استئناف﴾ كما سبق ﴿ان أنتم﴾ أى ما أنتم ﴿الا بشر مثلنا﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة ﴿تريدون﴾ صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا أو كلام مستأنف أى تريدون بما تتصدون له من الدعوة والارشاد ﴿أن تصدونا﴾ بتخصيص العبادة بالله سبحانه ﴿عما كان يعبد آباؤنا﴾ اى عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته من غير شئ يوجبه والا ﴿فأتونا﴾ أى وان لم يكن الأمر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا ﴿بسلطان مبين﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة أو على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك ما لم نزل نعبده أبا عن جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهره ما تخر له صم الجبال ولكنهم انما يقولون ما يقولون من العظائم مكابرة وعنادا واراءة لمن وراءهم أن ذلك ليس من جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين ﴿قالت لهم رسلهم﴾ مجاراة معهم فى أول مقالتهم وانما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد الزامهم بخلاف ماسلف من انكار وقوع الشك فى الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم ما يعقبه ﴿ان نحن الا بشر مثلكم﴾ كما تقولون ﴿ولكن الله يمن﴾ بالنبوة ﴿على من يشاء من عباده﴾ يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم فى الصورة أو فى الدخول تحت

الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك الا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هى التى يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوة ﴿وما كان﴾ وما صح وما استقام ﴿لنا أن نأتيكم بسلطان﴾ أى بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشئ من الاشياء وسبب من الاسباب ﴿الا باذن الله﴾ فانه أمر يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا ﴿وعلى الله﴾ وحده دون ما عداه مطلقا ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثر ذى أثير ألا يرى الى قوله عز وجل ﴿ومالنا﴾ أى أى عذر لنا ﴿أن لا نتوكل على الله﴾ أى فى أن لا نتوكل عليه والاظهار لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل ﴿وقد هدانا﴾ أى والحال أنه قد فعل بنا ما يوجبه و يستدعيه حيث هدانا ﴿سبلنا﴾ أى أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذى شرع له وأوجب عليه سلوكه فى الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمى مظهرين لكمال العزيمة ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿وعلى الله﴾ خاصة ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ أى فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو المراد مما سبق من ايجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به و يجوز أن يراد وعليه فليتوكل من توكل دون غيره ﴿وقال الذين كفروا﴾ لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين فى الكفر من أولئك الامم الكافرة التى نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم و لذلك لم يقل وقالوا ﴿لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا﴾ لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد ما رأوا البينات الفائتة للحصر حتى اجترؤا على مثل هاتيك العظيمة التى لا يكاد يحيط بها دائرة الامكان فحلفوا على أن يكون أحد الحالين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر فى الاعراف وسيأتى فى الكهف ﴿فأوحى اليهم﴾ أى الى الرسل ﴿ربهم﴾ مالك أمرهم عند تناهى كفر الكفرة وبلوغهم من العتو الى غاية لا مطمع بعدها فى ايمانهم ﴿لنهلكن الظالمين﴾ على اضمار القول أو على اجراء الايحاء مجراه لكونه ضربا منه ﴿ولنسكننكم الارض﴾ أى أرضهم و ديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من أرضنا كقوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها ﴿من بعدهم﴾ أى من بعد اهلاكهم وقرئ ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا لأوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا ﴿ذلك﴾ اشارة الى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم أى ذلك الامر محقق ثابت ﴿لمن خاف مقامى﴾ موقفى وهو الموقف الذى يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين أوقيامى عليه وحفظى لاعماله وقيل لفظ المقام مقحم ﴿وخاف وعيد﴾ وعيدى بالعذاب أوعذابى الموعود للكفار والمعنى ان ذلك حق للمتقين كقوله والعاقبة للمتقين ﴿واستفتحوا﴾ أى استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى اليهم وقرئ بلفظ الامر عطفا على لنهلكن الظالمين أى أوحى اليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا ﴿وخاب﴾ أى خسر وهلك ﴿كل جبار عنيد﴾ متصف بضد ما اتصف به المتقون أى فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وانما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد

لا أن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم يصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجزلهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفى اسناد الخيبة الى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة ﴿من ورائه جهنم﴾ أى بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث اليها فى الآخرة وقيل من وراء حياته وحقيقته ماتوارى عنك ﴿ويسقى﴾ معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون اذن فقيل يلقى فيها ويسقى ﴿من ماء﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صديد﴾ وهو قيح أو دم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره هو ما يسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما أبهم أولا ثم بين بالصديد تهويلا لأمره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه ﴿يتجرعه﴾ قيل هو صفة لماء أو حال منه والأظهر أنه استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه أى يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أى لا يقارب أن يسيغه فضلا عن الاساغة بل يغص به فيشرب بعد اللتيا والتى جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحال فان السوغ انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفى ما ذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله فى جوفه وعبر عنه بالاساغة لما أنها المعهودة فى الأشربة وهو حال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعا ﴿ويأتيه الموت﴾ أى أسبابه من الشدائد ﴿من كل مكان﴾ ويحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله ﴿وما هو بميت﴾ أى والحال أنه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجىء أسبابه لاسيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشيه من أصناف الموبقات ﴿ومن ورائه﴾ من بين يديه ﴿عذاب غليظ﴾ يستقبل كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان قبله ففيه دفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما فى عذاب الدنيا وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو حبس الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء أهل مكة فى سنيهم التى أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم فى ذلك وقد وعد لهم بدل ذلك صديد أهل النار ﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التى هى كالمثل فى الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿أعمالهم كرماد﴾ كقولك صفة زيد عرضه مهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبنى على سؤال من قال ما بال أعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم الى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد ﴿اشتدت به الريح﴾ حملته وأسرعت الذهاب به ﴿فى يوم عاصف﴾ العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وانما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والايمان به والتوجه بها اليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان اعمالهم للاصنام أو مبتدا خبره محذوف كما هو رأى سيبويه أى فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كيت وكيت سواء أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم وقيل أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره ﴿لا يقدرون﴾ أى يوم القيامة ﴿مما كسبوا﴾ من تلك الاعمال ﴿على شىء﴾ ما أى لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الاثر لاعمالهم للأصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم انها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم ﴿ذلك﴾ أى ما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شىء ﴿هو الضلال البعيد﴾ عن طريق الصواب أو عن نيل الثواب ﴿ألم تر﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب وقوله تعالى ﴿أن الله خلق

السموات والارض﴾ ساد مسد مفعوليها أى ألم تعلم أنه تعالى خلقهما ﴿بالحق﴾ ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذى يحق أن تخلق عليه وقرىء خالق السموات والارض ﴿ان يشأ يذهبكم﴾ يعدمكم بالمرة ﴿ويأت بخلق جديد﴾ أى يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لاعلاقة بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والارض على هذا النمط البديع ارشاداً الى طريق الاستدلال فان من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر ولذلك قال ﴿وما ذلك﴾ أى اذهابكم والاتيان بخلق جديد مكانكم ﴿على الله بعزيز﴾ بمتعذر أو متعسر فانه قادر لذاته على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه ﴿وبرزوا لله جميعا﴾ أى يبرزون يوم القيامة وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه كما فى قوله سبحانه ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أو لانه لا مضى ولا استقبال بالنسبة اليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لامر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فانهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرا أنها تخفى على الله سبحانه فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم ﴿فقال الضعفاء﴾ الأتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأى وانما كتب بالواو على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة ﴿للذين استكبروا﴾ لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم ﴿انا كنا﴾ فى الدنيا ﴿لكم تبعا﴾ فى تكذيب الرسل عليهم السلام والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب فى جمع غائب أو مصدر نعت به مبالغة أو على اضمار أى ذوى تبع ﴿فهل أنتم مغنون﴾ دافعون ﴿عنا﴾ والفاء للدلالة على سببية الاتباع للاغناء والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت ﴿من عذاب الله من شىء﴾ من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أى بعض الشىء الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أى بعض شىء هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق ويجوز أن تكون الاولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الاغناء ويعضد الاول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ﴿قالوا﴾ أى المستكبرون جوابا عن معاتبة الأتباع واعتذارا عما فعلوا بهم ﴿لو هدانا الله﴾ أى للايمان ووفقنا له ﴿لهديناكم﴾ ولكن ضللنا فأضللناكم أى اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرضناكم له ولكن سد دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص ﴿سواء علينا أجزعنا﴾ مما لقينا ﴿أم صبرنا﴾ على ذلك أى مستو علينا الجزع والصبر فى عدم الانجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وانما أسندوهما ونسبوا استواءهما الى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ باعلام أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز أن يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم انى لم أخنه ويؤيده ما روى أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى فى ذلك فقالوا ﴿ما لنا من محيص﴾ من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار اذا عدل بالفرار وهو اما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهى جملة مفسرة لاجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الاعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه ﴿وقال الشيطان﴾ الذى أضل كلا الفريقين واستتبعهما عندما عتباه بما قاله الأتباع للمستكبرين ﴿لما قضى الامر﴾ أى أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا فى محفل الاشقياء من الثقلين ﴿ان الله وعدكم وعد الحق﴾ أى وعدا من حقه أن ينجز فأنجزه أو وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء ﴿ووعدتكم﴾ أى وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالاصنام شفعاؤكم

ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله ﴿فأخلفتكم﴾ أى موعدى على حذف المفعول الثانى أى نقضته جعل خلف وعده كالاخلاف منه كأنه كان قادرا على انجازه وأنى له ذلك ﴿وما كان لى عليكم من سلطان﴾ أى تسلط أو حجة تدل على صدق ﴿الا أن دعوتكم﴾ الا دعائى اياكم اليه وتسويله وهو وان لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه فى مبرزه على طريقة تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة فى نفى السلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لى عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا ﴿فاستجبتم لى﴾ فأسرعتم اجابتى ﴿فلا تلومونى﴾ بوعدى اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرئ بالياء على وجه الالتفات كما فى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ﴿ولوموا أنفسكم﴾ حيث استجبتم لى باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا ربكم اذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبيناب والحجج وليس مراده التنصل عن توجه اللائمة اليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد فى افعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفى فى ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التى عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فانه سبحانه انما يخلق أفعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من أنه يستدعى أن يقال فلا تلومونى ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبنى على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق وبين مسلك الجبرية ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أى بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ﴿وما أنتم بمصرخى﴾ مما أنا فيه وانما تعرض لذلك مع أنه لم يكن فى حيز الاحتمال مبالغة فى بيان عدم اصراخه اياهم وايذانا بأنه أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج الى الاصراخ فكيف من اصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكان مامضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به فى استدفاع مادهمهم من العذاب وقرئ بكسر الياء ﴿انى كفرت﴾ اليوم ﴿بما أشركتمونى من قبل﴾ أى باشراككم اياى بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم يعنى أن اشراككم لى بالله سبحانه هو الذى يطمعكم فى نصرتى لكم بأن كان لكم على حق حيث جعلتمونى معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله تعالى كما فى قوله سبحان ما سخركن لنا فيكون تعليلا لعدم اصراخه فان الكافر بالله سبحانه بمعزل من الاغاثة والاعانة سواء كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة وأما جعله تعليلا لعدم اصراخهم اياه فلا وجه له اذ لا احتمال له حتى يحتاج الى التعليل ولان تعليل عدم اصراخهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته ﴿ان الظالمين لهم عذاب أليم﴾ تتمة كلامه أو ابتداء كلام من جهة الله عز وجل وفى حكاية أمثاله لطف للسامعين وايقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم﴾ أى بأمره أو بتوفيقه وهدايته وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرئ على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى باذن ربهم متعلقا بقوله تعالى ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ أى يحييهم الملائكة بالسلام باذن ربهم ﴿ألم تر﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى ﴿كيف ضرب الله مثلا﴾ أى كيف اعتمده ووضعه فى موضعه اللائق به ﴿كلمة طيبة﴾ منصوب بمضمر أى جعل كلمة طيبة هى كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة ﴿كشجرة طيبة﴾ أى حكم بأنها مثلها لا أنه تعالى صيرها مثلها فى الخارج وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا كقولك شرف الأمير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى كشجرة وأن يكون أول

مفعولى ضرب اجراء له مجرى جعل قد أخر عن ثانيهما أعنى مثلا لئلا يبعد عن صفته التى هى كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء ﴿أصلها ثابت﴾ أى ضارب بعروقه فى الارض وقرأ أنس بن مالك رضى الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقراءة الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينته أعنى قوله تعالى ﴿وفرعها﴾ أى أعلاها ﴿فى السماء﴾ فى جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع ﴿تؤتى أكلها﴾ تعطى ثمرها ﴿كل حين﴾ وقته الله تعالى لاثمارها ﴿باذن ربها﴾ بارادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة اما النخلة كما روى مرفوعا أو شجرة فى الجنة ﴿ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ لان فى ضربها زيادة افهام وتذكير فانه تصوير للمعانى بصور المحسوسات ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ هى كلمة الكفر والدعاء اليه أو تكذيب الحق أو ما يعم الكل أو كل كلمة قبيحة ﴿كشجرة خبيثة﴾ أى كمثل شجرة خبيثة قيل هى كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الاسلوب للايذان بأن ذلك غير مقصود الضرب والبيان وانما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد ﴿اجتثت﴾ استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية ﴿من فوق الارض﴾ لكون عروقها قريبة منه ﴿مالها من قرار﴾ استقرار عليها ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الذى ثبت بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة ﴿فى الحيوة الدنيا﴾ فلا يزالون عنه اذا افتتنوا فى دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الأخدود ﴿وفى الآخرة﴾ فلا يتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم فى الموقف ولا تدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال القبر . روى أنه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره فيقولان من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيى محمد عليه الصلاة والسلام فينادى مناد من السماء انه صدق عبدى فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا مثال ايتاء الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبى فى تفسيره أخبرنى أبو القاسم بن حبيب فى سنة ست وثمانين وثلثمائة قال سمعت أبا الطيب محمد بن على الخياط يقول سمعت سهل ابن عمار العملى يقول رأيت يزيد بن هرون فى منامى بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال أتانى فى قبرى ملكان فظان فقالا من ربك ومادينك ومن نبيك فأخذت بلحيتى البيضاء فقلت لهما أمثلى يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا ﴿ويضل الله الظالمين﴾ أى يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين عليه حسب ارادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل ما يقابله ووصفهم بالظلم اما باعتبار وضعهم للشئ فى غير موضعه واما باعتبار ظلمهم لانفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها فلم يهتدوا الى القول الثابت أو كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والاعراض عن البينات الواضحة فلا يتثبت فى مواقف الفتن ولا يهتدى الى الحق فالمراد بالذين آمنوا حينئذ المخلصون فى الايمان الراسخون فى الايقان كما ينبئ عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد اذا كانت لا عن ايقان داخلة تحت ما لا قرار له من الشجرة المضروبة مثلا ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ من تثبيت بعض واضلال آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك وفى اظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة ما لا يخفى مع ما فيه من الايذان بالتفاوت فى مبدأ التثبيت والاضلال فان مبدأ صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ما هو مبدأ صدور الآخر ﴿ألم تر﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الاباطيل التى لا تكاد تصدر عمن له أدنى ادراك أى ألم تنظر ﴿الى الذين بدلوا نعمة الله﴾ أى شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه ﴿كفرا﴾ عظيما وغمطا لها أو بدلوا نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها سلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمه الآمن الذى يجبى اليه ثمرات كل شئ وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام

فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبى النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلى رضى الله عنهما هم الافجران من قريش بنو المغيرة و بنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فتعوا الى حين كأنهما يتأولان ماسيتلى من قوله عز وجل قل تمتعوا الآية ﴿وأحلوا﴾ أى أنزلوا ﴿قومهم﴾ بارشادهم اياهم الى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه اذهو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴿دار البوار﴾ دار الهلاك الذى لاهلاك وراءه ﴿جهنم﴾ عطف بيان لها وفى الابهام ثم البيان مالايخفى من التهويل ﴿يصلونها﴾ حال منها أو من قومهم أى داخلين فيها مقاسين لحرها أو استئناف لبيان كيفية الحلول أو مفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والاسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار أنسب بالتفسير الأول ﴿وبئس القرار﴾ على حذف المخصوص بالذم أى بئس المقر جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على وجه الدوام والاستمرار ﴿وجعلوا﴾ عطف على أحلوا وما عطف عليه داخل معهما فى حيز الصلة وحكم التعجيب أى جعلوا فى اعتقادهم وحكمهم ﴿لله﴾ الفرد الصمد الذى ليس كمثله شىء وهو الواحد القهار ﴿أندادا﴾ أشباها فى التسمية أو فى العبادة ﴿ليضلوا﴾ قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ﴿عن سبيله﴾ القويم الذى هو التوحيد ويوقعوهم فى ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد ثم اضلالهم لقومهم المؤدى الى احلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والايذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للاضلال أمر يقضى منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما فى قصة البقرة وقرىء ليضلوا بالفتح وأياما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الأنداد لكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية ﴿قل﴾ تهديدا لأولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وايذانا بأنهم لشدة ابائهم قبول الحق وفرط انهماكهم فى الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال أحقاء بأن يضرب عنهم صفحا و يعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولاينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته مبالغة فى التخلية والخذلان ومسارعة الى بيان عاقبته الوخيمة و يقال لهم ﴿تمتعوا﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التى من جملتها كفران النعم العظام واستتباع الناس فى عبادة الاصنام ﴿فان مصيركم الى النار﴾ ليس الا فلابد لكم من تعاطى ما يوجب ذلك و يقتضيه من أحوالكم بل هى فى الحقيقة صورة لدخولها ومثال له حسبما يلوح به قوله سبحانه وأحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليل للامر المأمور وفيه من التهديد الشديد والوعيد الأكيد مالا يوصف أوقل لهم تصويرا لحالهم وتعبيرا عما يلجئهم الى ذلك تمتعوا ايذانا بأنهم لفرط انغماسهم فى التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم ولاعاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لأمره كدأب مأمور ساع فى خدمة آمر مطاع فليس قوله تعالى فان مصيركم الى النار حينئذ تعليلا للامر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان مصيركم الى النار وفيه التهديد والوعيد لافى الأمر ﴿قل لعبادى الذين آمنوا﴾ خصهم بالاضافة اليه تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العاطف بين الأمرين للايذان بتباين حالهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب أى قل لهم أقيموا وأنفقوا ﴿يقيموا الصلوة و ينفقوا مما رزقناهم﴾ أى يداوموا على ذلك وفيه ايذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم الى الامتثال بأوامره وقد جوزوا أن يكون المقول يقيموا و ينفقوا بحذف لام الأمر عنهما وانما حسن ذلك دون الحذف فى قوله

محمد تفد نفسك كل نفس اذا ما خفت من أمر تبالا

لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيموا وأنفقوا قد أقيما مقامهما وليس بذاك ﴿سرا وعلانية﴾ منتصبان على المصدرية من الأمر المقدر لامن جواب الأمر المذكور أى أنفقوا انفاق سر وعلانية والأحب فى الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية و ترك التمتع بمتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة ﴿من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه﴾ فيبتاع المقصر مايتلافى به تقصيره أو يفتدى به نفسه والمقصود نفى عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة فى نفى العقد اذا نتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه بما يتصور مع تحقق الايجاب من قبل البائع ﴿ولا خلال﴾ ولا مخالة فيشفع له خليل أو يسامحه بمال يفتدى به نفسه أومن قبل أن يأتى يوم لا اثر فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وانما الانتفاع والارتفاق فيه بالانفاق لوجه الله سبحانه والظاهر أن من متعلقة بأنفقوا وتذكير اتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما فى سورة البقرة من حيث ان كلا من فقدان الشفاعة ومايتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعى الى الاتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الانفاق فى سبيل الله عز وجل أومن حيث ان ادخار المال وترك انفاقه انما يقع غالبا للتجارات والمهاداة فحيث لايمكن ذلك فى الآخرة فلاوجه لادخاره الى وقت الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع الى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولايبعد أن يكون تأكيداً لمضمون الأمر باقامة الصلاة أيضا من حيث ان تركها كثيرا ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمخالات كما فى قوله تعالى واذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا اليها وقرىء بالفتح فيهما على ارادة النفى العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابى هو وقوعه فى جواب هل فيه بيع أوخلال ﴿الله﴾ مبتدأ خبره ﴿الذى خلق السموات﴾ ومافيها من الأجرام العلوية ﴿والأرض﴾ ومافيها من أنواع المخلوقات لما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى وأمر المؤمنين باقامة مراسم الطاعة شكراً لنعمه شرع فى تفصيل مايستوجب على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمؤمنين عليها وتقريعا للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصى وفى جعل المبتدا الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الأفاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظام وانزال الأمطار واخراج الثمرات ومايتلوها من الآثار العجيبة مالايخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان ﴿وأنزل من السماء﴾ أى السحاب فان كل ماعلاك سماء أو من الفلك فان المطر منه يبتدىء الى السحاب ومنه الى الأرض على مادلت عليه ظواهر النصوص أومن أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض الى الجو فينعقد سحابا ماطرا وأياما كان فمن ابتدائية ﴿ماء﴾ أى نوعا منه هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ لنزوله أولتشريفه كما فى قولك أعطاه السلطان من خزائنه مالا أولما مر مرارا من التشويق الى المؤخر ﴿فأخرج به﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ الفائتة للحصر اما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض واما لانه أريد بمفردها جماعة الثمرة التى فى قولك أدركت ثمرة بستان فلان ﴿رزقا لكم﴾ تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس مفعول لأخرج ومن للتبيين كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا و رزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج بمعنى رزق أوللتبعيض بدليل قوله تعالى فأخرجنا به ثمرات كأنه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم اذلم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولاجعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وان كان بمشيئته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب

أوأودع فى الماء قوة فاعلة و فى الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على ايجاد الأشياء بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب كذلك لما أن له تعالى فى انشائها مدرجا من طور الى طور صنائع وحكما يجدد فيها لأولى الأبصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك فى ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا ان أريد به المرزوق ومفعول به ان أريد به المصدر كأنه قيل رزقا اياكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿لتجرى فى البحر﴾ جريا تابعا لارادتكم ﴿بأمره﴾ بمشيئته التى نيط بها كل شىء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال ﴿وسخر لكم الانهار﴾ ان أريد بها المياه العظيمة الجارية فى الانهار العظام كما يومىء اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجناتهم وما أشبه ذلك وان أريد بها نفس الأنهار فتسخيرها تيسيرها لهم ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ يدأبان فى سيرهما وانارتهما أصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها فى جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر و فى التعبير عن التصريف المتعلق بما ذكر من الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال مالا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ماتقدمه من الامور المعدودة مع ما بينه و بين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها لذكر الأرض المستدعى لذكر انزال الماء منها اليها الموجب لذكر اخراج الرزق الذى من جملته مايحصل بواسطة الفلك والأنهار أوللتفادى عن توهم كون الكل أعنى خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر فى قصة البقرة ﴿وآتاكم من كل ماسألتموه﴾ أى أعطاكم بعض جميع ماسألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد أو آتاكم من كل ذلك مااحتجتم اليه ونيط به انتظام أحوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه أو كل ماطلبتموه بلسان الاستعداد أو كل ماسألتموه على أن من للبيان و كلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شىء وأتاه كل الناس وعليه قوله عز وجل فتحنا عليهم أبواب كل شىء وقيل الأصل وآتاكم من كل ماسألتموه ومالم تسألوه فحذف الثانى لدلالة ماأبقى على ماألقى وقرىء بتنوين كل على أن ما نافية ومحل ماسألتموه النصب على الحالية أى آتاكم من كل غير سائليه ﴿وان تعدوا نعمة الله﴾ التى أنعم بها عليكم ﴿لاتحصوها﴾ لاتطيقوا بحصرها و لو اجمالا فانها غير متناهية وأصل الاحصاء أن الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها ففيه ايذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها من مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لا ومامن فرد من أفراد الناس وان كان فى أقصى مراتب الفقر والافلاس ممنوا بأصناف العنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لوتأملته ألفيته متقلبا فى نعم لاتحد ومنن لاتحصى ولاتعد كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ماحواه حيطة الامكان وان كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الامم وأذعنت لطاعته السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع مافى الدنيا من أصناف الأموال من غير ند يزاحمه و لاشريك يساهمه بل قدر أن جميع مافيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ثم قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أومطعوم فى حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رواه أوشربة ترويه من ظماه أم يختار الهلاك

فتذهب الأموال والأملاك بغير بدل يبقى عليه ولانفع يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ماتحويه اليدان كائنا ما كان وليس فى صفقته شائبة الخسران فاذن تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة مع أنهما فى طرف الثمام ينالهما متى شاء من الليالى والأيام أوقدر أنه قد احتبس عليه النفس فلادخل منه ماخرج ولاخرج منه ماولج والحين قد حان وأتاه الموت من كل مكان أمايعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامد فاذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والأيام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء وان رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ما جل من السر ودق فاعلم أن الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لوانقطع مابينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولااطمأنت به الدار الا فى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر و ينقضى من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته و وجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه الا العليم الخبير وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدأ الأول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الاصلى لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء لان الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى وأنت خبير بأن مايتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التى هى علله وشرائطه وان وجب كونها متناهية لوجوب تناهى مادخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التى لها دخل فى وجوده ليست كذلك اذ لا استحالة فى أن يكون لشىء واحد موانع غير متناهية وانما الاستحالة فى دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التى لاتتناهى أعنى بقاءها على العدم مع امكان وجودها فى أنفسها فى كل آن من آنات وجوده نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاء وكذا الحال فى وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء و بقاء وكذا فى كمالاته التابعة لوجوده فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعم لاتتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لاتلاحظك العيون بأنظارها ولاتطالعك العقول بافكارها شأنك لايضاهى واحسانك لايتناهى ونحن فى معرفتك حائرون وفى اقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لانحصى ثناء عليك لااله الا أنت نستغفرك ونتوب اليك ﴿ان الانسان لظلوم﴾ يظلم النعمة باغفال شكرها أو بوضعه اياها فى غير موضعها أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان ﴿كفار﴾ شديد الكفران وقيل ظلوم فى الشدة يشكو و يجزع كفار فى النعمة يجمع و يمنع واللام فى الانسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجدا فيه من أفراده ويدخل فى ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ دخولا أوليا ﴿واذ قال ابراهيم﴾ أى واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ماوقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ماسلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم ابراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لاقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الاصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى أن يجعله بلدا آمنا و يرزقهم من الثمرات وتهوى قلوب الناس اليهم من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادا وفعلوا مافعلوا ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ يعنى مكة شرفها الله سبحانه ﴿آمنا﴾ أى ذا أمن أو آمنا أهله بحيث لايخاف فيه على مامر فى سورة البقرة

والفرق بينه و بين مافيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا أن المسؤل هناك البلدية والامن معا وهنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثانى للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الاول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الامرين فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أوكان المسؤل أولا مجرد الأمن المصحح للسكن كما فى سائر البلاد وقد أجيب اليه وثانيا الامن المعهود أوكان هو المسؤل فيهما وقد أجيب اليه أيضا لكن السؤال الثانى للاستدامة والاقتصار على ذلك لانه المقصود الاصلى أو لان المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الامن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسؤل كلا الامرين وقد حكى أولا واقتصر هنا على حكاية سؤال الامن لالمجرد أن نعمة الامن أدخل فى استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على اغفاله كما قيل بل لان سؤال البلدية قد حكى بقوله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم اذ المسؤل هويتها اليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية قد حكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ماقدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول الى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لايرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذا لايضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال ربنا انى أسكنت الآية وانما فصل مابينهما تثنية للامتنان وايذانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستتبعة لشكر كثير كما فى قصة البقرة ﴿واجنبنى و بنى﴾ بعدنى واياهم ﴿أن نعبد الاصنام﴾ واجعلنا منها فى جانب بعيد أى ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الاسلام والبعد عن عبادة الاصنام وقرىء واجنبنى من الافعال وهما لغة أهل نجد يقولون جنبنى شره وأجنبنى شره وأما أهل الحجاز فيقولون جنبنى شره وفيه دليل على أن عصمة الانبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر أن المراد بنيه أولاده الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضى الله عنه على أن أحدا من أولاد اسمعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وانما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به و يسمونه الدوار فاستحب أن يقال طاف بالبيت و لايقال دار بالبيت وليت شعرى كيف ذهب عليه مافى القرآن العظيم من قوارع تنعى على قريش عبادة الاصنام على ان فيما ذكره كرا على مافر منه ﴿رب انهن﴾ أى الاصنام ﴿أضللن كثيرا من الناس﴾ أى تسببن له كقوله تعالى وغرتهم الحيوة الدنيا وهو تعليل لدعائه وانما صدره بالنداء اظهارا لاعتنائه به و رغبة فى استجابته ﴿فمن تبعنى﴾ منهم فيما أدعو اليه من التوحيد وملة الاسلام ﴿فانه منى﴾ أى بعضى قاله عليه السلام مبالغة فى بيان اختصاصه به أو متصل بى لاينفك عنى فى أمر الدين ﴿ومن عصانى﴾ أى لم يتبعنى والتعبير عنه بالعصيان للايذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه انما هو لعصيانه لا لانه لم يبلغه الدعوة ﴿فانك غفور رحيم﴾ قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره ﴿ربنا﴾ آثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه والالراعاه فى قوله رب انهن الخ بل لان الدعاء المصدر به وما أورده بصدد تمهيد مبادى اجابته من قوله ﴿انى أسكنت﴾ الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل فى القبول واجابة المسؤل ﴿من ذريتى﴾ أى بعضهم أو ذرية من ذريتى لحذف المفعول وهو اسمعيل عليه السلام وما سيولد له فان اسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم روى أن هاجر أم اسمعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من ابراهيم عليه السلام فلما ولدت له اسمعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما

من عندها فأخرجهما الى أرض مكة فأظهر الله تعالى عين زمزم ﴿بواد غير ذى زرع﴾ لايكون فيه زرع أصلا وهو وادى مكة شرفها الله تعالى ﴿عند بيتك﴾ ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لا انه صفة لواد أو بدل منه اذ المقصود اظهار كون ذلك الاسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب الى الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره فى قوله تعالى ﴿المحرم﴾ حيث حرم التعرض له والتهاون به أولم يزل معظما ممنعا يهابه الجبابرة فى كل عصر أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمى عتيقا وتسميته اذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وانما كان نشزا مثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ماسيؤل اليه الامر من بنائه عليه السلام فانه ينزع الى اعتبار عنوان الحرمة أيضا كذلك بل انما هى باعتبار ما كان من قبل فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لاريب فيه وانما الاختلاف فى كمية عدده وقد ذكرناها فى سورة البقرة بفضل الله تعالى ﴿ربنا ليقيموا الصلوة﴾ متوجهين اليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلاة والاهتمام بعرض أن الغرض من اسكانهم بذلك الوادى البلقع ذلك المقصد الاقصى والمطلب الاسنى وكل ذلك لتمهيد مبادى اجابة دعائه واعطاء مسؤله الذى لايتسنى ذلك المرام الا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال ﴿فاجعل أفئدة من الناس﴾ أى أفئدة من أفئدتهم فمن للتبعيض و لذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما مازيد عليه من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام اذ المسؤل توجيه القلوب اليهم للمساكنة معهم لاتوجيهها الى البيت للحج والا لقيل تهوى اليه فانه عين الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة أخرى كما مر أو لابتداء الغاية كقولك القلب منى سقيم أى أفئدة ناس وقرىء آفدة على القلب كآدر فى أدؤر أو على أنه اسم فاعل من أفدت الرحلة أى عجلت أى جماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الافئدة أو على النعت من أفد ﴿تهوى اليهم﴾ تسرع اليهم شوقا و ودادا وقرىء على البناء للمفعول من أهواه غيره وتهوى من باب علم أى تحب وتعديته بالى لتضمنه معنى الشوق والنزوع وأول آثار هذه الدعوة ماروى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فاذاهم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك و آنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم و كانوا معها الى أن شب اسمعيل عليه السلام وماتت هاجر فتزوج اسمعيل منهم كما هو المشهور ﴿وارزقهم﴾ أى ذريتى الذين أسكنتهم هناك أو مع من ينحاز اليهم من الناس وانما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما فى قوله وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر اقامة الصلاة ﴿من الثمرات﴾ من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى و وضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام ﴿لعلهم يشكرون﴾ تلك النعمة باقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية وقيل اللام فى ليقيموا لام الامر والمراد أمرهم باقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها و لا يناسبه الفاء فى قوله تعالى فاجعل الخ و فى دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الادب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة مالايخفى فانه عليه السلام بذكر كون الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم الى المسؤل و بذكر كون اسكانهم عند البيت المحرم أشار الى أن جوار الكريم يستوجب افاضة النعيم و بعرض كون ذلك الاسكان مع كمال اعوازمرافق

المعاش لمحض اقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهد جميع مبادى اجابة السؤال و لذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول ﴿ربنا انك تعلم ماتخفى وما نعلن﴾ من الحاجات وغيرها والمراد بما نخفى ما يقابل مانعلن سواء تعلق به الاخفاء أولا أى تعلم مانظهره ومالا نظهره فان علمه تعالى متعلق بما لا يخطر بالهما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم مانخفى على مانعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أولان مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن اذ مامن شئ يعلن الا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام أن اظهار هذه الحاجات وماهو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل انما هو لاظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار الى ماعندك والاستعجال لنيل أياديك وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لان المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض ﴿وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء﴾ لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائنا ما كان فى زمان من الازمان الا ووجوده فى ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وانما قال وما يخفى على الله الخ دون أن يقول ويعلم مافى السموات والارض تحقيقا لما عناه بقوله تعلم مانخفى من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ أى من شئ كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما أو بيخفى وتقديم الارض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علومنا والالتفات من الخطاب الى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والايذان بعمومه لانه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الاشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر﴾ أى مع كبرى ويأسى عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها ﴿اسمعيل واسحق﴾ روى أنه ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة ﴿ان ربى﴾ ومالك أمرى ﴿لسميع الدعاء﴾ لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه اذا اعتد به وهى من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف الى مفعوله أو فاعله باسناد السماع الى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر اذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة وفيه ايذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله رب هب لى من الصالحين فاقترنت الهبة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وان كان عقيب ذكر هبتهما لما أن نعمة الهبة فائضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم ﴿رب اجعلنى مقيم الصلوة﴾ مثابرا عليها معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال ﴿ومن ذريتى﴾ أى بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من أولادهما للاشعار بأنه المقتدى فى ذلك وذريته أتباع له وان ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما فى قوله ربنا انى أسكنت الخ فان اسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه انما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذى هو مخصوص بذريته وانما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أى دعائى هذا المتعلق بجعلى وجعل بعض ذريتى مقيمى الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الاصنام ولذلك جئ

بضمير الجماعة ﴿ربنا اغفرلى﴾ أى مافرط منى من ترك الاولى فى باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر ﴿ولوالدى﴾ وقرئ بالتوحيد ولأبوى وهذا الاستغفار منه عليه السلام انما كان قبل تبين الامر له عليه السلام وقيل أراد بوالديه آدم وحواء وقيل بشرط الاسلام ويرده قوله تعالى الا قول ابراهيم الآية وقد مر فى سورة التوبة نوع تحقيق للمقام وسيأتى تمامه فى سورة مريم بفضل الله تعالى ﴿وللمؤمنين﴾ كافة من ذريته وغيرهم وللايذان باشتراك الكل فى الدعاء بالمغفرة جئ بضمير الجماعة ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أى يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل استعير له من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد تهويله وقيل أسند اليه قيام أهله مجازا أو حذف المضاف كما فى واسأل القرية واعلم أن ماحكى عنه عليه السلام من الادعية والاذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكى ولا على وجه المعية بل صدر عنه فى أزمنة متفرقة حكى مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره فى الملة وارشاد الناس اليها والتضرع الى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنياوية ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك نحو قوله ولا تكونن من المشركين ونظائره مع مافيه من الايذان بكونه واجب الاحتراز عنه فى الغاية حتى نهى عنه من لا يمكن تعاطيه أو نهيه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو والتعبير عنه بذلك للمبالغة فى النهى والايذان بأن ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم اذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة فتركه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم اهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله وقيل معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفرا واحلال قومهم دار البوار واتخاذ الانداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبئ عنه قوله تعالى قل تمتعوا الآية أو جنس الظالمين وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا ﴿انما يؤخرهم﴾ يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنياوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع تعليلا للنهى السابق أى دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم ولا تحزن بتأخير ماتستوجبه من العذاب الاليم اذ تأخيره للتشديد والتغليظ أو لا تحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها انما ذلك لأجل هذا أو لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير انما هو لهذه الحكمة وقرئ بالنون وايقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر انما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون الى العذاب مرصدون لامر ما لا أنهم باقون باختيارهم وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وأن لا يبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر وللايذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه ولو قيل انما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك ﴿ليوم﴾ هائل ﴿تشخص فيه الأبصار﴾ ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل فى زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا أى تبقى مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول مايرونه واعتبار عدم قرارها فى أماكنها اما باعتبار الارتفاع الحسى فى جرم العين واما بجعل الصيغة من شخص من بلد الى بلد وسار فى ارتفاع ﴿مهطعين﴾ مسرعين الى الداعى مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أو مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه ولا يطرفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر ههنا بالنظر الى الداعى قيل ﴿مقنعى رؤسهم﴾ أى رافعيها مع ادامة النظر من غير التفات الى شئ قاله العتبى وابن عرفة أو ناكسيها ويقال

أقنع رأسه أى طأطأها ونكسها فهو من الاضداد وهما حالان بمادل عليه الابصار من أصحابها أوالثانى حال متداخلة من الضمير فى الأول واضافته غير حقيقية فلاينافى الحالية ﴿لايرتد اليهم طرفهم﴾ أى لايرجع اليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع اليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لاتطرف أو لاترجع اليهم أجفانهم التى هى آلة الطرف فيكون اسناد الرجوع الى الطرف مجازيا أوهو نفس الجفن قال الفيروزابادى الطرف العين لايجمع لأنه مصدر فى الأصل أواسم جامع للعين أو لايرجع نظرهم الى أنفسهم فضلا عن أن يرجع الى شىء آخر فيبقون مبهوتين وهو أيضا حال أو بدل من مقنعى الخ أواستئناف والمعنى لايزول مااعتراهم من شخوص الأبصار وتأخيره عمن هو من تتمته من الاهطاع والاقناع مع مابينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى ﴿وأفئدتهم هواء﴾ خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالى من كل شاغل ومنه قيل للجبان والاحمق قلبه هواء أى لاقوة و لارأى فيه واعتبار خلوها عن كل خير لايناسب المقام وهو اماحال عاملها لايرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلافهم ولا اختيار أوجملة مستقلة ﴿وأنذر الناس﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعلامه أن تأخيرهم لماذا وأمرله بانذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه من الاضمار للاشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والايذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم أوالناس جميعا فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر والاتيان يعمهما من حيث كونهما فى الموقف وان كان لحوقه بالكفار خاصة أى أنذرهم وخوفهم ﴿يوم يأتيهم العذاب﴾ المعهود وهو اليوم الذى وصف بما لايوصف من الأوصاف الهائلة أعنى يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلابشرى أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل و يأباه القصر السابق ﴿فيقول الذين ظلموا﴾ أى فيقولون والعدول عنه الى ماعليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بأن مالقوه من الشدة انما هو لظلمهم وايثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للايذان بأن الظلم فى الجملة كاف فى الافضاء الى ماذكر من الأهوال من غير حاجة الى الاستمرار عليه كما ينبىء عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الامم الخالية فان اتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل ﴿ربنا أخرنا﴾ ردنا الى الدنيا وأمهلنا ﴿الى أجل قريب﴾ الى أمد وحد من الزمان قريب ﴿نجب دعوتك﴾ أى الدعوة اليك والى توحيدك أودعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه ايماء الى أنهم صدقوهم فى أنهم مرسلون من عند الله تعالى ﴿ونتبع الرسل﴾ فيما جاؤنا به أى نتدارك مافرطنا فيه من اجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع اما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد و كون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا واما باعتبار أن المحكى كلام ظالمى الامم جميعا والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل﴾ على اضمار القول معطوفا على فيقول أى فيقال لهم توبيخا وتبكيتا ألم تؤخروا فى الدنيا ولم تكونوا أقسمتم اذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وجهلا وسفها ﴿مالكم من زوال﴾ مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها الى هذه الحالة وفيه اشعار بامتداد زمان التأخير و بعد مداه أو مالكم من زوال من هذه الدار الى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت وصيغة الخطاب فى جواب القسم لمراعاة حال الخطاب فى أقسمتم كما فى قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل فى التوبيخ من أن يقال مالنا مراعاة لحال المقسم ذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال لأهل النار

خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا الآية ثم يقولون ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم الآية ثم يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوما ضالين فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها و لاتكلمون فلا يتكلمون بعدها أبدا ان هو الازفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم اللهم انا بك نعوذ و بكنفك نلوذ عز جارك وجل ثناؤك و لا اله غيرك ﴿وسكنتم﴾ من السكنى بمعنى التبوؤ والايطان وانما استعمل بكلمة فى حيث قيل ﴿فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ جريا على الأصل لأنه منقول عن مطلق السكون الذى حقه التعدية بها أومن السكون واللبث أى قررتم فى مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر والمعاصى غير محدثين لأنفسكم بما لقوا بسبب مااجترحوا من الموبقات و فى ايقاع الظلم على أنفسهم بعد اطلاقه فيما سلف ايذان بأن غائلة الظلم آئلة الى صاحبه والمراد بهم اما جميع من تقدم من الامم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين واما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكل وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم ﴿وتبين لكم﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الاخبار ﴿كيف فعلنا بهم﴾ من الاهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد و كيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله مادلت هى عليه دلالة واضحة أى فعلنا العجيب بهم وفيه من المبالغة ماليس فى أن يقال مافعلنا بهم كما مر فى قوله تعالى ليسجننه وقرىء و بين ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أى بينا لكم فى القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أوعلى ألسنة الأنبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات مافعلوا ومافعل بهم من الامور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل الى حلول العذاب الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصى أو بينا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب والجمل الثلاث فى موقع الحال من ضمير أقسمتم أى أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم فى مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثال وقوله عز وجل ﴿وقد مكروا مكرهم﴾ حال من الضمير الأول فى فعلنا بهم أومن الثانى أومنهما جميعا وانما قدم عليه قوله تعالى وضربنا لكم الأمثال لشدة ارتباطه بما قبله أى فعلنا بهم مافعلنا والحال أنهم قد مكروا فى ابطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذى استفرغوا فى عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لايقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم فى استحقاق مافعل بهم أوقد مكروا مكرهم المذكور فى ترتيب مبادى البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود اظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى ﴿وعند الله مكرهم﴾ أى جزاء مكرهم الذى فعلوه على أن المكر مضاف الى فاعله أوأخذه تعالى بهم على أنه مضاف الى مفعوله وتسميته مكرا لكونه بمقابلة مكرهم وجودا وذكرا أولكونه فى صورة المكر فى الاتيان من حيث لايشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ماأفاده قوله عز وجل كيف فعلنا بهم لا انه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير فى مكروا أى مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه أو ماهو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق مايوجب تركه ﴿وان كان مكرهم﴾ فى العظم والشدة ﴿لتزول منه الجبال﴾

أى وان كان مكرهم فى غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لازالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا فى ذلك والجملة المصدرة بأن الوصلية معطوفة على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاء مكرهم أو المكر الذى يحيق بهم ان لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وان كان الخ وقد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشىء اذا تحقق عند وجود المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور مافى ان الوصلية من التأكيد المعنوى والجواب محذوف دل عليه ماسبق وهو قوله تعالى وعند الله مكرهم وقيل ان نافية واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم و ينصره قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير فى مكروا لامن قوله تعالى وعند الله مكرهم أى مكروا مكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدى الرسل السالفة عليهم السلام التى هى بمنزلة الجبال الراسيات فى الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له اذ الماكرون هم المهلكون لا الساكنون فى مساكنهم من المخاطبين وان خص الخطاب بالمنذرين وقيل هى مخففة من ان والمعنى انه كان مكرهم ليزول منه ماهو كالجبال فى الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هى حال من ضمير مكروا أى مكروا مكرهم المعهود وان الشان كان مكرهم لازالة الآيات والشرائع على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر لازالته وقد قرأ الكسائى لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم أى عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أى فى غايه الشدة وقرىء بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كى وقرىء وان كاد مكرهم هذا هو الذى يقتضيه النظم الكريم و ينساق اليه الطبع السليم وقد قيل ان الضمير فى مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر أى فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الاقسام المذكور مع ماينافيه من السكون فى مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الامثال قد مكروا مكرهم العظيم أى لم يكن الصادر عنهم مجرد الاقسام الذى و بخوا به بل اجترؤا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى وعند الله مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال فى تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا أو ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون ان نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم أى وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التى هى فى القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك لما أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم كما ذكرنا من قبل فليتأمل ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ لم يرد به والله سبحانه أعلم ماوعده بقوله تعالى انا لننصر رسلنا الآية وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلى كما قيل فانه لا اختصاص له بالتعذيب لاسيما الاخروى بل ماسلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى انما يؤخرهم الآية كما يفصح عنه الفاء الداخلة على النهى الذى أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالامر بانذارهم يوم اتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الامم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ماوعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم فى القرآن العظيم فكأنه قيل واذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من

الشدائد و بما يسألونه من الرد الى الدنيا و بما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم فى أحوال من سبقهم من الامم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ماوعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا ﴿ان الله عزيز﴾ غالب لايماكر وقادر لايقادر ﴿ذو انتقام﴾ لاوليائه من أعدائه والجملة تعليل للنهى المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال ان الله لايخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير اليه بالفعل وعبر عنه بالمكر ﴿يوم تبدل الارض غير الارض﴾ ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهى المذكور أى ينجزه يوم الخ أو معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الارض غير الارض أو لانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له أحوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه للاوقات كلها للافصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر الى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر أو باضمار لايخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضا مافى الوجه الثالث من الحاجة الى الاعتذار و لايجوز أن ينتصب بقوله مخلف وعده لان ماقبل ان لايعمل فيما بعده وقيل هو غير مانع لان قوله تعالى ان الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلا يبالى بها فاصلا واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها وقد يكون فى الصفات كما فى قولك بدلت الحلقة خاتما اذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض الاقوال والآية الكريمة ليست بنص فى أحد الوجهين فعن على رضى الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود رضى الله عنه تبدل الارض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض وانما تغير صفاتها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التى كنت تعلم

وتبدل السموات بانتثار كواكبها و كسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها و كونها أبوابا و يدل عليه ماروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الارض غير الارض فتبسط وتمدمد الاديم العكاظى لاترى فيها عوجا ولا أمتا ﴿والسموات﴾ أى وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الارض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أثرا بالنسبة الينا ﴿وبرزوا﴾ أى الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق والمراد بروزهم من أجداثهم التى فى بطون الارض أو ظهورهم بأعمالهم التى كانوا يعملونها سرا و يزعمون أنها لاتظهر أو يعملون عمل من يزعم ذلك ولعل اسناد البروز اليهم مع أنه لاعمالهم للايذان بتشكلهم بأشكال تناسبها وهو معطوف على تبدل والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه أو حال من الارض بتقدير قد والرابط بينها و بين صاحبها الواو ﴿لله الواحد القهار﴾ للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق اتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فان الأمر اذا كان لواحد غلاب لايغار وقادر لايضار و لايغار كان فى غاية مايكون من الشدة والصعوبة ﴿وترى المجرمين﴾ عطف على برزوا والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار وأما البروز فهو دفعى لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل و يجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه ﴿يومئذ﴾ يوم اذ برزوا له عز وجل أو يوم اذ تبدل الارض أو يوم اذ ينجز وعده ﴿مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والجرائر أو قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الردية والاعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلهما بما يناسبها من الصور الموحشة والاشكال الهائلة أو قرنت

أيديهم وأرجلهم الى رقابهم وهو حال من المجرمين ﴿فى الأصفاد﴾ فى القيود أو الاغلال وهو اما متعلق بقوله تعالى مقرنين أو حال من ضميره أى مصفدين ﴿سرابيلهم﴾ أى قمصانهم ﴿من قطران﴾ جملة من مبتدا وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم فى مقرنين رابطتها الضمير فقط كما فى كلمته فوه الى فى أو مستأنفة والقطران ما يتحلب من الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته الى الجوف وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤهم كالسراويل ليجتمع عليهم الالوان الاربعة من العذاب لذعه وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الموحش والنتن على أن التفاوت بينه و بين ما نشاهده و بين النارين لا يكاد يقادر قدره فكأن ما نشاهده منهما أسماء مسمياتها فى الآخرة فبكرمه العميم نعوذ و بكنفه الواسع نلوذ ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الردية والهنات الوحشية فتجاب اليها الآلام والغموم بل وان يكون القطران المذكور عين ما لابسوه فى هذه النشأة وجعلوه شعارا لهم من العقائد الباطلة والاعمال السيئة المستجابة لفنون العذاب قد تجسدت فى النشأة الآخرة بتلك الصورة المستبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولطفه وقرىء من قطرآن أى نحاس مذاب متناه حره ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ أى تعلوها وتحيط بها النار التى تمس جسدهم المسربل بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الاعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب الخ ولكونها مجمع المشاعر والحواس التى خلقت لادراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها فى تدبره كما أن الفؤاد أشرف الاعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الافئدة أو لخلوها عن القطران المغنى عن ذكر غشيان النار لها ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانا و يتضاعف عذابهم بالخزى على رؤس الاشهاد وقرىء تغشى أى تتغشى بحذف احدى التاءين والجملة نصب على الحالية لا على أن الواو حالية لانه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء ﴿ليجزي الله﴾ متعلق بمضمر أى يفعل بهم ذلك ليجزى ﴿كل نفس﴾ مجرمة ﴿ما كسبت﴾ من أنواع الكفر والمعاصى جزاء موافقا لعملها وفيه ايذان بأن جزاءهم مناسب لاعمالهم أو بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به أى برزوا للحساب ليجزى الله كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لا سيما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة ﴿ان الله سريع الحساب﴾ اذ لا يشغله شأن عن شأن فيتمه فى أعجل ما يكون من الزمان فيوفى الجزاء بحسبه أو سريع المجىء يأتى عن قريب أو سريع الانتقام كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى وهو سريع الحساب ﴿هذا﴾ أى ما ذكر من قوله سبحانه و لا تحسبن الله غافلا الى قوله سريع الحساب ﴿بلاغ﴾ كفاية فى العظة والتذكير من غير حاجة الى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع ﴿للناس﴾ للكفار خاصة على تقدير اختصاص الانذار بهم فى قوله تعالى وأنذر الناس أولهم وللمؤمنين كافة على تقدير شموله لهم أيضا وان كان ما شرح مختصا بالظالمين ﴿ولينذروا به﴾ عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أى كفاية لهم فى أن ينصحوا و ينذروا به أو هذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الابلاغ كما فى قوله تعالى ما على الرسول الا البلاغ أو متعلقة بمحذوف أى ولينذروا به أنزل أو تلى وقرىء لينذروا به من نذر بالشىء اذا علمه وحذره واستعد له ﴿وليعلموا﴾ بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التى هى اهلاك الامم واسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مما سبق ولحق ﴿أنما هو اله واحد﴾ لا شريك له وتقديم الانذار لانه الداعى الى التأمل المؤدى الى ما هو غايته

من العلم المذكور والتذكر فى قوله تعالى ﴿وليذكر أولوا الالباب﴾ أى ليتذكروا ما كانوا يعملونه من قبل من التوحيد وغيره من شئون الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التى يتصف بها الكفار و يتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والاعمال الصالحة و فى تخصيص التذكر بأولى الالباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار اليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضا فان فيه ما يفيدهم فائدة جديدة وحيث كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الاحكام بالنسبة الى الكفرة أمرا حادثا و بالنسبة الى أولى الألباب الثبات على ذلك حسبما أشير اليه عبر عن الأول بالعلم وعن الثانى بالتذكر و روعى ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم بالحسنى والله سبحانه أعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى و رزقنا الفوز بمرضاته فى الاولى والعقبى آمين . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من عبد الاصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده

سورة الحجر

(مكية وهى تسع وتسعون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ قد مر الكلام فيه و فى محله فى مطلع سورة الرعد وأخواتها ﴿تلك﴾ اشارة اليه أى تلك السورة العظيمة الشان ﴿آيات الكتاب﴾ الكامل المعهود الغنى عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الاطلاق أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل اذ ذاك اذ هو المتسارع الى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة اذ هى فى الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه من التكلف ما لا يخفى كما ذكر فى سورة الرعد ﴿وقرآن﴾ أى قرآن عظيم الشأن ﴿مبين﴾ مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ما جمع فيه من وصفى الكتابية والقرآنية على الطريقتين احداهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الالهية فكانه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا فى بابه خارجا عن دائرة البيان وأخرت الطريقة الثانية لما أن الاشارة الى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل فى المدح كيلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهكذا الكلام فى فاتحة سورة النمل خلا أنه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة بعضا من الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين الى حسن تلقى ما فيها من الاحكام والقصص والمواعظ شرع فى بيان ما تتضمنه فقيل ﴿ربما﴾ بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرىء بالتشديد و بفتح الراء مخففا وبزيادة التاء مشددا وفيه ثمانى لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضا مشددا ومخففا ورب حرف جر لا يدخل الا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضى ودخوله على قوله تعالى ﴿يود الذين كفروا﴾ لما أن المترقب فى أخباره تعالى كالماضى المقطوع فى تحقق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن و بكونه من عند الله تعالى

﴿لو كانوا مسلمين﴾ منقادين لحكمه ومذعنين لامره وفيه ايذان بأن كفرهم انما كان بالجحود بعد ماعلموا كونه من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار روى أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه أنه قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا الى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لايزال الرب يرحم و يشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فعند ذلك يتمنون الاسلام والحق أن ذلك محمول على شدة ودادتهم وأما نفس الودادة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هى مقررة مستمرة فى كل آن يمر عليهم وأن المراد بيان ذلك على ماهو عليه من الكثرة وانما جىء بصيغة التقليل جريا على سنن العرب فيما يقصدون به الافراط فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى أولا تعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده فى ذلك التمارى فى تكثير فرسانه ولكنه يريد اظهار براءته من التزيد وابراز أنه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ماعنده فضلا عن تكثير القليل وهذه طريقة انما تسلك اذا كان الأمر من الوضوح بحيث لايحوم حوله شائبة ريب فيصار اليه هضما للحق فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للاسلام فى كل آن من آنات اليوم الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لايشتبه على أحد ولوجىء بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى ذرهم يأكلوا الآية أوذهابا الى الاشعار بأن من شأن العاقل اذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أوقليلا مايكون كذلك أن لايفارقه ولايقارف ضده فكيف اذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على مافعلت وربما ندم الانسان على مافعل فان المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا تيقن به أوقليل الوقوع بل التنبيه على أن العاقل لا يباشر مايرجى فيه الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى الوقوع وأنه يكفى قليل الندم فى كونه حاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة اظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لايفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استنزالهم عما هم عليه من الكفر وهذان طريقان متمايزان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد نأى عن توفية المقام حقه ﴿ذرهم﴾ دعهم عن النهى عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة اذ لاسبيل الى ارعوائهم عن ذلك و بالغ فى تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطى مايتعاطونه ﴿يأكلوا ويتمتعوا﴾ بدنياهم وفى تقديم الاكل ايذان بأن تمتعهم انما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب والمراد دوامهم على ذلك لا احداثه فانهم كانوا كذلك أو تمتعهم بلا استماع ماينغص عيشهم من القوارع والزواجر فان التمتع على ذلك الوجه أمر حادث يصلح أن يكون مترتبا على تخليتهم وشأنهم ﴿ويلههم﴾ و يشغلهم عن اتباعك أوعن التفكر فيما هم يصيرون اليه أوعن الايمان والطاعة فان الأكل والتمتع يفضيان الى ذلك ﴿الأمل﴾ والتوقع لطول الاعمار و بلوغ الاوطار واستقامة الاحوال وأن لايلقوا فى العاقبة والمآل الاخيرا فالافعال الثلاثة مجزومة على الجوابية للامر حسبما عرفت من تضمن الامر بالترك للامر بها على طريقة المجاز أو على أن يكون المراد بالافعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها أصلا ولاريب فى ترتب ذلك على الامر بالترك فان النهى عما هم

عليه من ارتكاب القبائح مما يشوش عليهم تمتعهم و ينغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام بتركه ليتمرغوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدهمهم مايدهمهم وهم عنه غافلون ﴿فسوف يعلمون﴾ سوء صنيعهم أو وخامة عاقبته أو حقيقة الحال التى ألجأتهم الى التمنى المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيدا أيما وعيد وتهديدا أغب تهديد تعليل للامر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهى والنصيحة لهم وفيه الزام للحجة ومبالغة فى الانذار اذ لا يتحقق الامر بالضد الا بعد تكرر الانذار وتقرر الجحود والانكار وكذلك ماترتب عليه من الأكل والتمتع والالهاء ﴿وما أهلكنا﴾ شروع فى بيان سر تأخير عذابهم الى يوم القيامة وعدم نظمهم فى سلك الامم الدارجة فى تعجيل العذاب أى ما أهلكنا ﴿من قرية﴾ من القرى بالخسف بها و بأهلها كما فعل ببعضها أو باخلائها عن أهلها غب اهلاكهم كما فعل بآخرين ﴿الا ولها﴾ فى ذلك الشأن ﴿كتاب﴾ أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح واجب المراعاة بحيث لايمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له ﴿معلوم﴾ لاينسى ولايغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر فكتاب مبتدأ خبره الظرف والجملة حال من قرية فانها لعمومها لاسيما بعد تأكده بكلمة من فى حكم الموصوفة كما أشير اليه والمعنى ما أهلكنا قرية من القرى فى حال من الاحوال الاحال أن يكون لها كتاب أى أجل موقت لمهلكها قد كتبناه لانهلكها قبل بلوغه معلوم لايغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتأخر أو مرتفع بالظرف والجملة كما هى حال أى ما أهلكنا قرية من القرى فى حال من الاحوال الا وقد كان لها فى حق هلاكها كتاب أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح معلوم لايغفل عنه أو صفة لكن لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التى هى بدل من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة أى ما أهلكنا قرية من القرى الا قرية لها كتاب معلوم كما فى قوله تعالى ليس لهم طعام الا من ضريع لايسمن فان قوله تعالى لايسمن صفة لكن لا للطعام المذكور لانه انما يدل على انحصار طعامهم الذى لايسمن فى الضريع وليس المراد ذلك بل للطعام المقدر بعد الا أى ليس لهم طعام من شىء من الاشياء الا طعام لايسمن فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة الا كما توهم وأما توسيط الواو بينهما وان كان القياس عدمه فللايذان بكمال الالتصاق بينهما من حيث ان الواو شأنها الجمع والربط فان مانحن فيه من الصفة أقوى لصوقا بالموصوف منها به فى قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون فان امتناع انفكاك الاهلاك عن الاجل المقدر عقلى وعن الانذار عادى جرى عليه السنة الالهية ولما بين أن الامم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وأن هلاكهم لم يكن الا حسبما كان مكتوبا فى اللوح بين أن كل أمة من الامم منهم ومن غيرهم لها كتاب لايمكن التقدم عليه و لا التأخر عنه فقيل ﴿ماتسبق من أمة﴾ من الامم المهلكة وغيرهم ﴿أجلها﴾ المكتوب فى كتابها أى لايجىء هلاكها قبل مجىء كتابها أو لاتمضى أمة قبل مضى أجلها فان السبق اذا كان واقعا على زمانى فمعناه المجاوزة والتخليف فاذا قلت سبق زيد عمرا فمعناه أنه جاوزه وخلفه وراءه واذا كان واقعا على زمان كان الامر بالعكس والسر فى ذلك أن الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه الى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه وأما الزمانى فانما يعتبر فيه الحركة والتوجه الى ماسيأتى من الزمان فالسابق ماتقدم الى المقصد وايراده بعنوان الاجل باعتبار مايقتضيه من السبق كما أن ايراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار مايوجبه من الاهلاك ﴿ومايستأخرون﴾ أى ومايتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له وايثار صيغة المضارع فى الفعلين بعد ماذكر نفى الاهلاك بصيغة الماضى لان المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الامم الماضية والباقية واسنادهما الى الامة بعد اسناد الاهلاك الى القرية لما أن السبق والاستئخار حال الامة دون القرية مع مافى الامة من العموم لاهل تلك القرى وغيرهم ممن أخرت عقوباتهم الى الآخرة وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم مع كون المقام مقام

المبالغة فى بيان تحقق عذابهم اما باعتبار تقدم السبق فى الوجود واما باعتبار أن المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل و لذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لما سبق والمعنى أن تأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أشير اليه ببيان ودادتهم للاسلام اذذاك و بالامر بتركهم وشأنهم الى أن يعلموا حقيقة الحال انما هو لتأخر أجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم البالغة ومن جملتها ما علم الله تعالى من ايمان بعض من يخرج منهم الى يوم القيامة ﴿وقالوا﴾ شروع فى بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ومايؤول اليه حالهم والقائلون مشركو مكة لغاية تماديهم فى العتو والغى ﴿يا أيها الذى نزل عليه الذكر﴾ خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام واشعارا بعلة حكمهم الباطل فى قولهم ﴿انك لمجنون﴾ كدأب فرعون اذ قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون يعنون يا من يدعى مثل هذا الامر البديع الخارق للعادات انك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة ما يعتريك عندما تدعى أنه ينزل عليك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لان انكارهم متوجه الى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا الى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما فى قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فان الانكار هناك متوجه الى كون المنزل عليه رسول الله تعالى وايراد الفعل على صيغة المجهول لايهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل أو لتوجيه الانكار الى كون التنزيل عليه لا الى استناده الى الفاعل ﴿لوما تأتينا﴾ كلمة لو عند تركبها مع ما تفيد ما تفيده عند تركبها مع لا من معنى امتناع الشىء لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا أنه عند ارادته لا يليها الا فعل ظاهر أو مضمر وعند ارادة المعنى الاول لا يليها الا اسم ظاهر أو مقدر عند البصريين والمراد ههنا هو الثانى أى هلا تأتينا ﴿بالملائكة﴾ يشهدون بصحة نبوتك و يعضدونك فى الانذار كقوله تعالى لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا أو يعاقبوننا على التكذيب كما تأتى الامم المكذبة لرسلهم ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فى دعواك فان قدرة الله تعالى على ذلك مما لا ريب فيه و كذا احتياجك اليه فى تمشية أمرك فانا لا نصدقك بدون ذلك أوان كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم ﴿ما ننزل الملائكة﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل وقرىء من الانزال وقرىء تنزل مضارعا من التنزيل على صيغة البناء للمفعول ومن التنزل بحذف احدى التاءين وماضيا منه ومن التنزيل ومن الثلاثى وهو كلام مسوق الى النبى صلى الله عليه وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية و ردا لاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ما هو جواب عن أولها أعنى قوله انا نحن نزلنا الذكر الآية كما فعل فى قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله فانه مع كونه جوابا عن قولهم فأتنا بما تعدنا قدم على قوله و لا ينفعكم نصحى الآية مع كونه جوابا عن أول كلامهم الذى هو قولهم يا نوح قد جادلتنا لما ذكر من شدة اقتضائه للجواب وليكون أحد الجوابين متصلا بالسؤال و فى العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهو أن يقال ما نأتيهم بهم للايذان بأنهم قد أخطؤا فى التعبير حسبما أخطؤا فى الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلى من أن ينسب اليهم مطلق الاتيان الشامل للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية الى الآخر منها بل من الأسفل الى الأعلى وأن يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وأن يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر وانما الذى يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالى و كون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل ﴿الا بالحق﴾ أى ملتبسا بالوجه الذى يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجرى به السنة الالهية كقوله سبحانه وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق والذى اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم فى الحقارة والهوان منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلا فان ذلك من باب

التنزيل بالوحى الذى لا يكاد يفتح على غير الأنبياء الكرام من أفراد كمل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وانما الذى يدخل فى حقهم تحت الحكمة فى الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل بأضرابهم من الامم السالفة ، ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة ﴿وما كانوا اذاً منظرين﴾ جزاء الشرط مقدر وفيه ايذان بانتاج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما فى قوله تعالى واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا قال صاحب النظم لفظة اذن مركبة من اذ وهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك اذ جئتنى أى حين جئتنى ثم ضم اليه أن فصار اذأن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجىء لفظة أن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا اذ أن كان ما طلبوه منظرين والمعنى لو نزلناهم ما كانوا مؤخرين كدأب سائر الامم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أجمل فى قوله تعالى ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الأمل الخ وحال حائل الحكمة بينهم و بين استئصالهم لتعلق العلم والارادة بازديادهم عذابا و بايمان بعض ذراريهم وأما نظم ايمان بعضهم فى سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم فى الكفر والفساد ولجاجهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه اعجاز التنزيل الجليل وأما ما قيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أو أنه لا حكمة فى أن تأتيكم بصور تشاهدونها فانه لا يزيدكم الا لبسا أو أن انزال الملائكة لا يكون الا بالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا و لا يكون حقا فمع اخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لا يلزم من فرض وقوع شىء من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله تعالى وما كانوا اذاً منظرين هذا على تقدير كون اقتراحهم لاتيان الملائكة لأجل الشهادة أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى انا ما ننزل الملائكة للتعذيب الا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم الى يوم القيامة لا رفقا بهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث كان فى نسبة تنزيلهم للتعذيب الى عدم موافقته الحكمة نوع ايهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر الى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحى وقيل العذاب فتدبر ﴿انا نحن نزلنا الذكر﴾ رد لانكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وتسلية له أى نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك الى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول ايماء الى أنه أمر لا مصدر له وفعل لا فاعل له ﴿وانا له لحافظون﴾ من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا فيكون وعيدا للمستهزئين وأما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة فى حقيته و يجوز أن يراد حفظه بالاعجاز دليلا على التنزيل من عنده تعالى اذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف و فى سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى و فى ايراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه أعلم وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى والله يعصمك من الناس وتأخير هذا الكلام وان كان جوابا عن أول كلامهم الباطل ردا له لما ذكر آنفا ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا﴾ أى رسلا وانما لم يذكر لدلالة ما بعده عليه ﴿من قبلك﴾ متعلق بأرسلنا أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف أى رسلا كائنة من قبلك ﴿فى شيع الأولين﴾ أى فرقهم وأحزابهم جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب من شاعه اذا تبعه واضافته الى

الأولين من اضافة الموصوف الى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين أى شيع الامم الأولين ومعنى ارسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفة منهم ليتابعوه فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين ﴿وما يأتيهم من رسول﴾ المراد نفى اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفى اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا أو على سبيل البدل وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل فى الاغلب على مضارع الاوهو فى معنى الحال و لا على ماض الاوهو قريب من الحال أى ما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها ﴿الا كانوا به يستهزؤن﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة فى محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول فى يأتيهم اذا كان المراد بالاتيان حدوثه أو فى محل الرفع على أنها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية أى الارسول كانوا به يستهزؤن وأما الجر على أنها صفة باعتبار لفظه فيفضى الى زيادة من الاستغراقية فى الاثبات ويجوز أن يكون منصوبا على الوصفية بأن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الأنبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل ﴿كذلك﴾ اشارة الى مادل عليه الكلام السابق من القاء الوحى مقرونا بالاستهزاء أى مثل ذلك السلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤا به من الكتب ﴿نسلكه﴾ أى الذكر ﴿فى قلوب المجرمين﴾ أى أهل مكة أوجنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا أوليا ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أوحال منه أى نسلكه سلكا مثل ذلك السلك أونسلك السلك حال كونه مثله أى مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة فانهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحق وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما فى الوجود وهو السلك الواقع فى الامم السالفة أوللدلالة على استحضار الصورة والسلك ادخال الشئ فى آخر يقال سلكت الخيط فى الابرة والرمح فى المطعون ﴿لا يؤمنون به﴾ أى بالذكر حال من ضمير نسلكه أى غير مؤمن به أو بيان للجملة السابقة فلا محل لها وقد جعل الضمير للاستهزاء فيتعين البيانية الا أن يجعل الضمير المجرور أيضا له على أن الباء للملابسة أى نسلك الاستهزاء فى قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بملابسته والحال اما مقدرة أو مقارنة للايذان بأن كفرهم مقارن للالقاء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ أى قد مضت طريقتهم التى سنها الله تعالى فى اهلاكهم حين فعلوا مافعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استئناف جئ به تكملة للتسلية وتصريحا بالوعيد والتهديد ﴿ولو فتحنا عليهم﴾ أى على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿بابا من السماء﴾ أى بابا ما لا بابا من أبوابها المعهودة كما قيل ويسر لهم الرقى والصعود اليه ﴿فظلوا فيه﴾ فى ذلك الباب ﴿يعرجون﴾ بآلة أو بغيرها ويرون مافيها من العجائب عيانا كما يفيده الظلول أو فظل الملائكة الذين اقترحوا اتيانهم يعرجون فى ذلك الباب وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم ﴿لقالوا﴾ لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق ﴿انما سكرت أبصارنا﴾ أى سدت من الاحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف أوحيرت كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أى حارت ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة وفى كلمتى الحصر والاضراب دلالة على أنهم يبتون القول بذلك وأن مايرونه لا حقيقة له وانما هو أمر خيل اليهم بالسحر وفى اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وايرادها بعد تسكير الابصار لبيان انكارهم لغير مايرونه فان عروج كل منهم الى السماء وان كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الابصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الابصار ﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجا﴾ قصورا ينزلها السيارات وهى البروج

الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيئات والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء والجعل ان جعل بمعنى الخلق والابداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف أى جعلنا بروجا كائنة فى السماء ﴿وزيناها﴾ أى السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب سيارات كانت أو ثوابت ﴿للناظرين﴾ اليها فمعنى التزيين ظاهر أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ مرمى بالنجوم فلا يقدر أن يصعد اليها ويوسوس فى أهلها ويتصرف فيها ويقف على أحوالها ﴿الا من استرق السمع﴾ محله النصب على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على مافيها فى الجملة أو المنقطع ان فسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبى صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات بما بينهم من المناسبة فى الجوهر أو بالاستدلال من الاوضاع ﴿فأتبعه﴾ أى تبعه ولحقه ﴿شهاب﴾ لهب محرق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما فيهما من البريق ﴿مبين﴾ ظاهر أمره للمبصرين قال معمر قلت لابن شهاب الزهرى أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم وان النجم ينقض ويرمى به الشيطان فيقتله أو يخبله لئلا يعود الى استراق السمع ثم يعود الى مكانه قال أفرأيت قوله تعالى وأنا كنا نقعد منها مقاعد الآية قال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن فى شدة الحراسة كما بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا يخطئ أبدا فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجنبه ويده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البوادى. قال القرطبي اختلفوا فى أن الشهاب هل يقتل أم لا قال ابن عباس رضى الله عنهما يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال والاول أصح ﴿والارض مددناها﴾ بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم يقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية أعنى قوله تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق مابعده أعنى قوله تعالى ﴿وألقينا فيها رواسى﴾ أى جبالا ثوابت وقدمر بيانه فى أول الرعد ﴿وأنبتنا فيها﴾ أى فى الارض أو فيها وفى رواسيها ﴿من كل شئ موزون﴾ بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا وقيل مايوزن من الذهب والفضة وغيرهما أو من كل شئ مستحسن مناسب أو مايوزن ويقدر من أبواب النعمة ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ ماتعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهى بياء صريحة وقرئ بالهمزة تشبيها له بالشمائل ﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما أشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم أنهم يكفون مؤناتهم ولتحقيق أن الله تعالى هو الذى يرزقهم واياهم أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين ﴿وان من شئ﴾ ان للنفى ومن مزيدة للتأكيد وشئ فى محل الرفع على الابتداء أى مامن شئ من الاشياء الممكنة فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا ﴿الا عندنا خزائنه﴾ الظرف خبر للمبتدا وخزائنه مرتفع به على أنه فاعله لاعتماده أو خبر له والجملة خبر للمبتدا الاول والخزائن جمع الخزانة وهى مايحفظ فيه نفائس الاموال لا غير غلب فى العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس شبهت مقدوراته تعالى الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته

الشاملة فى كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كمال افتقارهم اليها و رغبتهم فيها و كونها مهيأة
متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الاموال المخزونة فى الخزائن السلطانية
فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية ﴿وما ننزله﴾ أى مانوجد ومانكون شيئا من تلك الاشياء ملتبسا بشىء
من الاشياء ﴿الا بقدر معلوم﴾ أى الا ملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها لا بما تقتضيه
القدرة فان ذلك غير متناه فان تخصيص كل شىء بصفة معينة وقدر معين و وقت محدود دون ماعداذلك مع استواء الكل
فى الامكان واستحقاق تعلق القدرة به لابد له من حكمة تقتضى اختصاص كل من ذلك بما اختص به وهذا البيان سر
عدم تكوين الاشياء على وجه الكثرة حسبما هو فى خزائن القدرة وهو اما عطف على مقدر أى ننزله وما ننزله الخ أو حال
مما سبق أى عندنا خزائن كل شىء والحال أنا ماننزله الا بقدر معلوم فالأول لبيان سعة القدرة والثانى لبيان بالغ الحكمة
وحيث كان انشاء ذلك بطريق التفضل من العالم العلوى الى العالم السفلى كما فى قوله تعالى وأنزل لكم من الأنعام ثمانية
أزواج وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿وأرسلنا الرياح﴾ عطف
على جعلنا لكم فيها معايش وما بينهما اعتراض لتحقيق ماسبق وترشيح ملحق أى أرسلنا الرياح ﴿لواقح﴾ أى حوامل
شبهت الريح التى تجىء بالخير من انشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه بالعقيم مالايكون كذلك أو ملقحات بالشجر والسحاب
ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات فى قوله ومختبط مما تطيح الطوائح أى المهلكات وقرىء وأرسلنا الريح على ارادة الجنس
﴿فأنزلنا من السماء﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا ﴿ماء فأسقيناكموه﴾ أى جعلناه لكم سقيا وهو أبلغ من
سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ نفى عنهم ما أثبته
لجنابه بقوله وان من شىء الا عندنا خزائنه كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله وما أنتم على ذلك
بقادرين وقيل ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم مع أن طبيعة
الماء تقتضى الغور ﴿وانا لنحن نحيى﴾ بايجاد الحياة فى بعض الاجسام القابلة لها ﴿ونميت﴾ بازالتها عنها وقد يعمم
الاحياء والاماتة لما يشمل الحيوان والنبات وتقديم الضمير للحصر وهو اما تأكيد للاول أو مبتدأ خبره الفعل والجملة
خبر لانا ولا يجوز كونه ضمير الفصل لا لان اللام مانعة من ذلك كما قيل فان النحاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير
الفصل كما فى قوله تعالى ان هذا لهو القصص الحق بل لانه لم يقع بين اسمين ﴿ونحن الوارثون﴾ أى الباقون بعد فناء الخلق
قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى الحاكمون فى الكل أولا وآخرا وليس لهم الا التصرف الصورى
والملك المجازى وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال ﴿ولقد علمنا المستقدمين
منكم﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا ﴿ولقد علمنا المستأخرين﴾ من تأخر ولادة وموتا أو من خرج من أصلاب الآباء
ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لايخفى علينا شىء من أحوالكم وهو بيان
لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فان مايدل عليها دليل عليه و فى تكرير قوله تعالى ولقد علمنا مالا يخفى من الدلالة
على كمال التأكيد وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت وقيل ان امرأة حسناء كانت
تصلى خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليروها فنزلت والاول هو المناسب
لما سبق وما لحق من قوله تعالى ﴿وان ربك هو يحشرهم﴾ أى للجزاء وتوسيط ضمير العظمة للدلالة على أنه هو القادر على
حشرهم والمتولى له لاغير لانهم كانوا يستبعدون ذلك و يستنكرونه و يقولون من يحيى العظام وهى رميم أى هو يحشرهم لاغير
وفى الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم وفى الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالة على اللطف

به عليه الصلاة والسلام ﴿انه حكيم﴾ بالغ الحكمة متقن فى أفعاله فانها عبارة عن العلم بحقائق الاشياء على ماهى عليه
والاتيان بالافعال على ما ينبغى ﴿عليم﴾ وسع علمه كل شىء ولعل تقديم صفة الحكمة للايذان باقتضائها للحشر والجزاء
﴿ولقد خلقنا الانسان﴾ أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده
انطواء اجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الأنعام ﴿من صلصال﴾ من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أى يصوت عند
نقره قيل اذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل وان توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل اذا أنتن ﴿من
حمأ﴾ من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أى من صلصال كائن من حمأ ﴿مسنون﴾ أى
مصور من سنة الوجه وهى صورته أو مصبوب من سن الماء صبه أى مفرغ على هيئة الانسان كما تفرغ الصور من الجواهر
المذابة فى القوالب وقيل منتن فهو صفة لحمأ وعلى الأولين حقه أن يكون صفة لصلصال وانما أخر عن حمأ تنبيها على أن
ابتداء مسنونيته ليس فى حال كونه صلصالا بل فى حال كونه حمأ كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال انسان أجوف
فيبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿والجان﴾ أبا الجن وقيل ابليس ويجوز
أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان لان تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس
بأسره مخلوقا منها وقرىء بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره ﴿خلقناه﴾ وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية
﴿من قبل﴾ من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين أحد الثقلين و بالمستأخرين الآخر
والخطاب بقوله منكم للكل ﴿من نار السموم﴾ من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ولا امتناع من خلق الحياة فى الاجرام
البسيطة كما لا امتناع من خلقها فى الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التى غالب أجزائها الجزء النارى فانها أقبل
لها من التى غالب أجزائها الجزء الارضى وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب ومساق الآية
الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى و بيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها امكان الحشر
وهو قبول المواد للجمع والاحياء ﴿واذ قال ربك﴾ نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من أنه أدخل
فى تذكير ماوقع فيه من الحوادث وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشىء الى كماله اللائق به شيئا فشيئا مع
الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أى اذكر وقت قوله تعالى
﴿للملائكة انى خالق﴾ فيما سيأتى وفيه ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف
يثنيه ولا عاطف يلويه ﴿بشرا﴾ أى انسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد
قيل لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يلاقى و يباشر وقيل
خلقا بادى البشرة بلا صوف ولا شعر ﴿من صلصال﴾ متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله أى بشرا كائنا
من صلصال كائن ﴿من حمأ مسنون﴾ تقدم تفسيره ولا ينافى هذا ما فى قوله تعالى فى سورة ص من قوله بشرا من طين
فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد ولما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم
التعرض لذلك عند وقوع المحكى غايته أنه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما شرح ههنا ﴿فاذا سويته﴾ أى صورته بالصورة
الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه ﴿ونفخت فيه من روحى﴾ النفخ اجراء الريح الى تجويف
جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة مابه الحياة بالفعل على المادة
القابلة لها أى فاذا كملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التى هى من أمرى ﴿فقعوا له﴾ أمر من وقع يقع
﴿ساجدين﴾ تحية له وتعظيما أو اسجدوا لله تعالى
وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أى اسقطوا له

على أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضى الله تعالى عنه

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن

﴿فسجد الملائكة﴾ أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة ﴿كلهم﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ﴿أجمعون﴾ بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد و لا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد أيضا فان الاشتقاق الواضح يرشد الى أن فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والأصل فى الخطاب التنزيل على أكمل أحوال الشئ و لا ريب فى أن السجود معا أكمل أصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا وأقيم مقام كل فى افادة معنى الاحاطة من غير نظر الى الكمال فاذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الأصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل أكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ماحكى من الأمر التعليق كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة ص أو على الأمر التنجيزى كما يستدعيه مافى غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه فى تفسير سورة البقرة ﴿الا ابليس﴾ استثناء متصل اما لانه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقوله تعالى ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد به علم أنه مع الاباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به مابعده أى لكن ابليس أبى أن يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين الكرام ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال ﴿يا ابليس مالك﴾ أى أى سبب لك لا أى غرض لك كما قيل لقوله تعالى مامنعك ﴿ألا تكون﴾ فى أن لا تكون ﴿مع الساجدين﴾ لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم فى الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصى الثلاث المذكورة قال تعالى فى سورة الأعراف قال مامنعك ألا تسجد اذ أمرتك و فى سورة ص قال يا ابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ولكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ماذكر فيه اجتزاء بما ذكر فى موطن آخر واشعارا بأن كل واحدة من تلك المعاصى الثلاث كافية فى التوبيخ واظهار بطلان ماارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه ﴿قال﴾ أى ابليس وهو أيضا استئناف مبنى على السؤال الذى ينساق اليه الكلام ﴿لم أكن لأسجد﴾ اللام لتأكيد النفى أى ينافى حالى و لا يستقيم منى لأنى مخلوق من أشرف العناصر وأعلاها أن أسجد ﴿لبشر﴾ أى جسم كثيف ﴿خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذى هو أخس العناصر وأسفلها بل تعرض لكونه مخلوقا منه فى أخس أحواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى فى سورة الأعراف وسورة ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين و كذا فى سورة بنى اسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طينا و فى جوابه دليل على أن قوله تعالى مالك ليس استفسارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب و فى عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصى عن المناقشة وأنى له ذلك كأنه قال لم أمتنع عن امتثال الأمر و لا عن الانتظام فى سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأنى من الخضوع للمفضول ولقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم و زل عنه أن مايدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلى بالمعارف الربانية والتخلى عن الملكات الردية التى أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين

جل جلاله ﴿قال فاخرج منها﴾ أى من زمرة الملائكة المعززين لا من السماء فان وسوسته لآدم عليه الصلاة والسلام فى الجنة انما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى فاهبط منها ليس نصا فى ذلك فان الخروج من بين الملأ الأعلى هبوط وأى هبوط أو من الجنة على أن وسوسته كانت بطريق النداء من بابها كما روى عن الحسن البصرى أو بطريق المشافهة بعد أن احتال فى دخولها وتوسل اليه بالحية كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما و لا ينافى هذا طرده على رؤس الاشهاد لما يقتضيه من الحكم البالغة ﴿فانك رجيم﴾ مطرود من كل خير و كرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون ﴿وان عليك اللعنة﴾ الابعاد عن الرحمة وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وان كان جاريا على ألسنة العباد قيل فى سورة ص وان عليك لعنتى ﴿الى يوم الدين﴾ الى يوم الجزاء والعقوبة وفيه اشعار بتأخير عقابه وجزائه اليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وانما يتحقق ذلك يومئذ وفيه من التهويل مالا يوصف وجعل ذلك أقصى أمد اللعنة ليس لأنها تنقطع هنالك بل لأنه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب فتصير هى كالزائل وقيل انما حدت به لأنه أبعد غاية يضربها الناس كقوله تعالى خالدين فيها مادامت السموات والارض وحيث أمكن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر من أخرت عقوباتهم الى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكى عنه بقوله تعالى ﴿قال رب فأنظرنى﴾ أى أمهلنى وأخرنى و لا تمتنى والفاء متعلق بمحذوف ينسحب عليه الكلام أى اذ جعلتنى رجيما فأمهلنى ﴿الى يوم يبعثون﴾ أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم و يأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لاستحالة بعد يوم البعث ﴿قال فانك من المنظرين﴾ وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لا انشاء لانظار خاص به وقع اجابة لدعائه أى انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما فى قوله فان ترحم فأنت لذاك أهل فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط مافيه تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ونظمه فى ذلك فى سلك من أخرت عقوبتهم الى الآخرة فى علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة و لأن ذلك التأخير معلوم من اضافة اليوم الى الدين مع اضافته فى السؤال الى البعث كما عرفته و فى سورة الأعراف قال أنظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين بترك التوقيت والنداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر ههنا و فى سورة ص فان ايراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز فى الكتاب العزيز وأما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لابد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ماحكى من اللعين انما صدر عنه مرة و كذا جوابه لم يقع الا دفعة فمقام المحاورة ان اقتضى أحد الاساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى طبقة الاعجاز وماعداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء الى معالم الاعجاز فقد مر تحقيقه بتوفيق الله تعالى فى سورة الأعراف ﴿الى يوم الوقت المعلوم﴾ وهو وقت النفخة الاولى التى علم أنه يصعق عندها من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله تعالى ويجوز أن يكون المراد بالايام واحدا والاختلاف فى العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لأن غرض اللعين به يتحقق و بيوم الدين لما ذكر من الجزاء و بيوم الوقت المعلوم لما ذكر أو لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من هلاك الخلق جميعا و بعثهم وجزائهم فى يوم واحد يموت اللعين فى أوله و يبعث فى أواسطه و يعاقب فى بقيته

يروى أن بين موته و بعثه أربعين سنة من سنى الدنيا مقدار مابين النفختين ونقل عن الاحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه فاذا أنا بحلقة عظيمة و كعب الأحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بى عدوى ابليس اذا رآنى ميتا وهو منظر الى يوم القيامة فأجيب أن يا آدم انك سترد الى الجنة و يؤخر اللعين الى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبى فضج الناس وقالوا يا أبا اسحق كيف ذلك فأبى فألحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الاولى قد جعلت فيك قوة أهل السموات السبع وأهل الارضين السبع وانى ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبى وسطوتى على رجيمى ابليس فأذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة الأولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد امتلؤا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلاليبها وناد مالكا ليفتح أبواب النيران فينزل ملك الموت بصورة لو نظر اليها أهل السموات والارضين لماتوا بغتة من هولها فينتهى الى ابليس فيقول قف لى ياخبيث لأذيقنك الموت كم من عمر أدركت وقرون أضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيهرب اللعين الى المشرق فاذا هو بملك الموت بين عينيه فيهرب الى المغرب فاذا هو به بين عينيه فيغوص البحار فتنزمنه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب فى الأرض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم فى وسط الدنيا عند قبر آدم و يتمرغ فى التراب من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب و يبقى فى النزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى و يقال لآدم وحواء اطلعا اليوم الى عدوكما كيف يذوق الموت فيطلعان فينظران الى ماهو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أتممت علينا نعمتك ﴿قال رب بما أغويتنى﴾ الباء للقسم وما مصدرية والجواب ﴿لأزينن لهم﴾ أى أقسم باغوائك اياى لأزينن لهم المعاصى ﴿فى الأرض﴾ أى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله تعالى أخلد الى الأرض واقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لاينافى اقسامه بهذا فانه فرع من فروعها وأثر من آثارها فلعله أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك أوللسببية وقوله لأزينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسببك لاغوائى أقسم لافعلن بهم مثل مافعلت بى من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصى وتسويل الاباطيل والمعتزلة أولوا الاغواء بالنسبة الى الغى أوالتسبب له بأمره اياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن امهال الله تعالى وتسليطه له على اغواء بنى آدم بأنه تعالى قد علم منه وممن تبعه أنهم يموتون على الكفر و يصيرون الى النار أمهل أم لم يمهل وأن فى امهاله تعريضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ لاحملنهم على الغواية ﴿الاعبادك منهم المخلصين﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى وقرىء بكسر اللام أى الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى ﴿قال هذا صراط﴾ أى حق ﴿على﴾ أن أراعيه ﴿مستقيم﴾ لاعوج فيه والاشارة الى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه أوالاخلاص على معنى أنه طريق يؤدى الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال والاظهر أن ذلك لما وقع فى عبارة ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقرىء على من علو الشرف ﴿ان عبادى﴾ وهم المشار اليهم بالمخلصين ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ تسلط وتصرف بالاغواء ﴿الامن اتبعك من الغاوين﴾ وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين و بيان لمنزلتهم و لانقطاع مخالب الاغواء عنهم وأن اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان

بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم ﴿وان جهنم لموعدهم﴾ أى موعد المتبعين أوالغاوين والأول أنسب وأدخل فى الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على أن جهنم مكان الوعد وأن الموعود مما لايوصف فى الفظاعة ﴿أجمعين﴾ تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد ان جعل مصدرا على تقدير المضاف أومعنى الاضافة ان جعل اسم مكان ﴿لها سبعة أبواب﴾ يدخلونها لكثرتهم أوسبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ﴿لكل باب منهم﴾ من الاتباع أوالغواة ﴿جزء مقسوم﴾ حزب معين مفرز من غيره حسبما يقتضيه استعداده فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها فى السبع لانحصار المهلكات فى المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية وقرىء بضم الزاى و بحذف الهمزة والقاء حركتها الى ماقبلها مع تشديدها فى الوقف والوصل ومنهم حال من جزء أومن ضميره فى الظرف لافى مقسوم لأن الصفة لاتعمل فيما تقدم موصوفها ﴿ان المتقين﴾ من اتباعه فى الكفر والفواحش فان غيرها مكفر ﴿فى جنات وعيون﴾ أى مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين أو لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرىء بكسر العين حيث وقع فى القرآن العظيم ﴿ادخلوها﴾ على ارادة القول أمرا من الله تعالى لهم بالدخول وقرىء أدخلوها أمرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن أدخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضى من الادخال ﴿بسلام﴾ ملتبسين بسلام أى سالمين أومسلما عليكم ﴿آمنين﴾ من الآفات والزوال ﴿ونزعنا مافى صدورهم من غل﴾ أى حقد كان فى الدنيا وعن على رضى الله تعالى عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿اخوانا﴾ حال من الضمير فى قوله تعالى فى جنات أو من فاعل ادخلوها أو من الضمير فى آمنين أو الضمير المضاف اليه والعامل فيه معنى الاضافة وكذلك قوله تعالى ﴿على سرر متقابلين﴾ ويجوز كونهما صفتين لاخوانا أو حالين من ضميره لانه بمعنى متصافين وكون الثانى حالا من المستكن فى الاول وعن مجاهد تدور بهم الأسرة حيثما داروا فهم متقابلون فى جميع أحوالهم ﴿لايمسهم فيها نصب﴾ أى تعب بأن لايكون لهم فيها مايوجبه من الكد فى تحصيل مالا بد لهم منه لحصول كل مايريدونه من غير مزاولة عمل أصلا أو بأن لايعتريهم ذلك وان باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير فى متقابلين ﴿وماهم منها بمخرجين﴾ أبد الآباد لان تمام النعمة بالخلود ﴿نبىء عبادى﴾ وهم الذين عبر عنهم بالمتقين ﴿أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم﴾ فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له وفى ذكر المغفرة اشعار بأن ليس المراد بالمتقين من يتقى جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفى وصف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب ايذان بأنهما مما يقتضيهما الذات وأن العذاب انما يتحقق بما يوجبه من خارج ﴿ونبئهم﴾ عطف على نبىء عبادى والمقصود اعتبارهم بما جرى على ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى فى تضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه الصلاة والسلام مع أهله التابعين له فى ضمن الخوف وتنبيههم بحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بأن عذاب الله هو العذاب الاليم ﴿عن ضيف ابراهيم﴾ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انهم جبريل عليه الصلاة والسلام وملكان معه وقال محمد بن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدى كانوا أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل أنهم كانوا اثنى عشر ملكا

وانما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لانهم لم يكونوا مرسلين الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بل الى قوم لوط حسبما يأتى ذكره ﴿اذ دخلوا عليه﴾ نصب بفعل مضمر معطوف على نبئ أى واذكر وقت دخولهم عليه أو خبر مقدر مضاف الى ضيف أى خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه أو بنفس ضيف على أنه مصدر فى الاصل ﴿فقالوا﴾ عند ذلك ﴿سلاما﴾ أى نسلم سلاما أو سلمنا أو سلمت سلاما ﴿قال انا منكم وجلون﴾ أى خائفون فان الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ماقربه اليهم من العجل الحنيذ لما أن المعتاد عندهم أنه اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير لاعند ابتداء دخولهم لقوله تعالى فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولهم بغير اذن ، لا بغير وقت اذ لو كان كذلك لاجابوا حينئذ بما أجابوا حينئذ به ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام اليهم وانما لم يذكر هنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع ألا يرى الى أنه لم يذكر ههنا رده عليه الصلاة والسلام لسلامهم ﴿قالوا لا توجل﴾ لاتخف وقرئ لاتاجل و لا توجل من أوجله أى أخافه و لا تواجل من واجله بمعنى أوجله ﴿انا نبشرك﴾ استئناف لتعليل النهى عن الوجل فان المبشر به لايكاد يحوم حول ساحته خوف و لا حزن كيف لا وهو بشارة ببقائه و بقاء أهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا ﴿بغلام﴾ هو اسحق عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى فبشرناها باسحق ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام اكتفاء بما ذكر فى سورة هود ﴿عليم﴾ اذا بلغ وفى موضع آخر بغلام حليم ﴿قال أبشرتمونى﴾ بذلك ﴿على أن مسنى الكبر﴾ وأثر فى تعجب عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد فى حالة مباينة للولادة و زاد فى ذلك فقال ﴿فبم تبشرون﴾ أى بأى أعجوبة تبشرونى فان البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شئ او بأى طريقة تبشرونى وقرئ بتشديد النون المكسورة على ادغام نون الجمع فى نون الوقاية ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ أى بما يكون لامحالة أو باليقين الذى لالبس فيه أو بطريقة هى حق وهو أمر الله تعالى وقوله ﴿فلا تكن من القانطين﴾ من الآيسين من ذلك فان الله قادر على أن يخلق بشرا بغير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر وقرئ من القنطين وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه فى ضمن التعجب العادى المبنى على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده لااستبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قول الملائكة فلا تكن من القانطين دون أن يقولوا من الممترين أو نحوه ﴿قال ومن يقنط﴾ استفهام انكارى أى لايقنط ﴿من رحمة ربه الا الضالون﴾ المخطئون طريق المعرفة والصواب فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ومراده نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على وفى التعرض لوصف الربوبية والرحمة مالا يخفى من الجزالة وقرئ بضم النون وبكسرها من قنط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه الصلاة والسلام خاصة بل مع سارة أيضا حسبما شرح فى سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هذه هناك اكتفاء بما ذكر ههنا ﴿قال﴾ أى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق و بين قوله ﴿فما خطبكم﴾ أى أمركم وشأنكم الخطير الذى لاجله ارسلتم سوى البشارة ﴿أيها المرسلون﴾ صريح فى أن بينهما مقالة مطوية لهم أشير به الى مكانها كما فى قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على الآية فان قوله الاخير ليس موصولا بقوله الاول بل هو مبنى على قوله تعالى فاخرج منها فانك رجيم فان توسيط قال بين قوليه للايذان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالة

بعدما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله ارسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو فلا حاجة الى الالتجاء الى أن علمه عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوى عدد والبشارة لاتحتاج الى عدد و لذلك اكتفى بالواحد فى زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم و لا الى أنهم بشروه فى تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤا بها فتأمل ﴿قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين﴾ هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجئ بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم ﴿الا آل لوط﴾ استثناء متصل من الضمير فى مجرمين أى الى قوم أجرموا جميعا الا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى انا أرسلنا الى قوم أجرم كلهم الا آل لوط لنهلك الاولين وننجى الآخرين ويدل عليه قوله تعالى ﴿انا لمنجوهم﴾ أى لوطا وآله ﴿أجمعين﴾ أى مما يصيب القوم فانه استئناف للاخبار بنجاتهم لعدم اجرامهم أو لبيان مافهم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين أو لتعليله فان من تعلق بهم التنجية بمنجى من شمول العذاب أو منقطع من قوم وقوله تعالى انا لمنجوهم متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى ﴿الا امرأته﴾ استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الأول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم الا أن يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقرئ بالتخفيف ﴿قدرنا انها لمن الغابرين﴾ الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وقرئ قدرنا بالتخفيف وانما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لأنه بمعنى القضاء قول وأصله جعل الشئ على مقدار غيره واسنادهم له الى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ شروع فى بيان كيفية اهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أجمل فى الاستثناء ثم فصل فى التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فان ماحكى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى ﴿قال انكم قوم منكرون﴾ انما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتى حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون بهم مايريدون ماهو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتى و يذر عند تجشمه فى تخليصهم انكارا لخذلانهم له وترك نصرته فى مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لاسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأته الى أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد حسبما فصل فى سورة هود لا أنه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفا أن يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهم بجوابهم المحكى بقوله تعالى ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمترون فيه و يكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الامر فأنى يمكن أن يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع وليست كلمة بل اضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ماجئناك بما تنكرنا لاجله بل بما يسرك وتقربه عينك بل هى اضراب عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك النصرة له والمعنى ماخذلناك وماخلينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذى كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ماجرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة الى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام باهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهما وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها أشير الى ذلك اجمالا ثم ذكر مافعل القوم وما فعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعى ثقة بمراعاته فى مواقع أخر ونسبة المجئ

بالعذاب اليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره اليه لا بطريق نزوله عليه كأنهم جاءوه به وفوضوا أمره اليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به ﴿وأتيناك بالحق﴾ أى باليقين الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابهم عبر عنه بذلك تنصيصا على نفى الامتراء عنه أو المراد بالحق الاخبار بمجىء العذاب المذكور وقوله تعالى ﴿وانا لصادقون﴾ تأكيد له أى أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق أى المطابق للواقع وانا لصادقون فى ذلك الخبر أو فى كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الأول تأكيدا اثر تأكيد وقوله تعالى ﴿فأسر بأهلك﴾ شروع فى ترتيب مبادى النجاة أى اذهب بهم فى الليل وقرىء بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير فى الليل وقرىء فسر من السير ﴿بقطع من الليل﴾ بطائفة منه أو من آخره قال

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل هو بعد ما مضى منه شىء صالح ﴿واتبع أدبارهم﴾ وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ولعل ايثار الاتباع على السوق مع أنه المقصود بالامر للمبالغة فى ذلك اذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر والالتفات المنهى عنه بقوله تعالى ﴿ولا يلتفت منكم﴾ أى منك ومنهم ﴿أحد﴾ فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه أو يصيبه ما أصابهم أو ولا ينصرف منكم أحد ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة أو هو نهى عن ربط القلب بما خلفوه أو هو للاسراع فى السير فان الملتفت قلما يخلو عن أدنى وقفة وعدم ذكر استثناء المرأة من الاسراء والالتفات لا يستدعى عدم وقوعه فان ذلك لما عرفت مرارا للاكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ الى حيث أمركم الله تعالى بالمضى اليه وهو الشام أو مصر وحذف الصلتين على الاتساع المشهور وايثار المضى الى ما ذكر على الوصول اليه واللحوق به للايذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين ﴿وقضينا﴾ أى أوحينا ﴿اليه﴾ مقضيا ولذلك عدى بالى ﴿ذلك الأمر﴾ مبهم يفسره ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ على أنه بدل منه وايثار اسم الاشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التى هى مدار ثبوت الحكم أى دابر هؤلاء المجرمين وايراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها أدخل فى الدلالة على الوقوع وفى لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالأمر والاشارة اليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وابهامه أولا ثم تفسيره ثانيا من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى وقرىء بالكسر على الاستئناف والمعنى انهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿مصبحين﴾ داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء بمعنى مدبرى هؤلاء ﴿وجاء أهل المدينة﴾ شروع فى حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الاضياف من الفعل والقول وما ترتب عليه بعدما أشير الى ذلك اجمالا حسبما نبه عليه أى جاء أهل سدوم منزل لوط عليه الصلاة والسلام ﴿يستبشرون﴾ أى مستبشرين بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم ﴿قال ان هؤلاء ضيفى﴾ الضيف حيث كان مصدرا فى الأصل أطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث واطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم فى زى الضيف والتأكيد ليس لانكارهم بذلك بل لتحقيق اتصافهم به واظهار اعتنائه بشأنهم وتشمره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك قال ﴿فلا تفضحون﴾ أى عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لى عندكم قدر وحرمة أو لا تفضحون بفضيحة ضيفى فان من أسىء الى ضيفه فقد أسىء اليه يقال فضحه فضحا وفضيحة اذا أظهر من أمره ما يلزمه العار ﴿واتقوا الله﴾ فى مباشرتكم لما يسوءنى ﴿ولا تخزون﴾ أى لا تذلونى ولا تهينونى بالتعرض لمن أجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة وحيث كان التعرض لهم بعد أن نهاهم عليه الصلاة

والسلام عن ذلك بقوله فلا تفضحون أكثر تأثيرا فى جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلب للعار اليه اذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه وأما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذاك أعظم العار عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهى المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله تعالى فى ذلك وانما لم يصرح بالنهى عن نفس تلك الفاحشة لانه كان يعرف أنه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى فى ركوب الفاحشة ولا يساعده توسيطه بين النهيين عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى ﴿قالوا أولم ننهك عن العالمين﴾ أى عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر أى ألم نتقدم اليك ولم ننهك عن ذلك فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة والسلام عن أن يجير أحدا فكأنهم قالوا ما ذكرت من الفضيحة والخزى انما جاءك من قبلك لا من قبلنا اذ لولا تعرضك لما تتصدى له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه ﴿قال هؤلاء بناتى﴾ يعنى نساء القوم فان نبى كل أمة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقة أى فتزوجوهن وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك فى سورة هود ﴿ان كنتم فاعلين﴾ أى قضاء الوطر أو ما أقول لكم ﴿لعمرك﴾ قسم من الله تعالى بحياة النبى عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقدير لعمرك قسمى وهى لغة فى العمر يختص به القسم ايثارا للخفة لكثرة دورانه على الالسنة ﴿انهم لفى سكرتهم﴾ غوايتهم أو شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب ﴿يعمهون﴾ يتحيرون ويتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ أى الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿مشرقين﴾ داخلين فى وقت شروق الشمس ﴿فجعلنا عاليها﴾ عالى المدينة أو عالى قراهم وهو المفعول الاول لجعلنا وقوله تعالى ﴿سافلها﴾ مفعول ثان له وهو أدخل فى الهول والفظاعة من العكس كما مر ﴿وأمطرنا عليهم﴾ فى تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب ﴿حجارة﴾ كائنة ﴿من سجيل﴾ من طين متحجر أو طين عليه كتاب وقد فصل ذلك فى سورة هود ﴿ان فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من القصة ﴿لآيات﴾ لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق ﴿للمتوسمين﴾ أى المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بسمته ﴿وانها﴾ أى المدينة أو القرى ﴿لبسبيل مقيم﴾ أى طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها ﴿ان فى ذلك﴾ فيما ذكر من المدينة أو القرى أو فى كونها بمرأى من الناس يشاهدونها فى ذهابهم وايابهم ﴿لآية﴾ عظيمة ﴿للمؤمنين﴾ بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم العذاب الذى ترك ديارهم بلاقع انما حاق بهم لسوء صنيعهم وأما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الاوضاع الفلكية وافراد الآية بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف ﴿وان كان﴾ ان مخففة من ان وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة أى وان الشأن كان ﴿أصحاب الأيكة﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والايكة والليكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى اليهم ﴿لظالمين﴾ متجاوزين عن الحد ﴿فانتقمنا منهم﴾ بالعذاب روى ان الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤا اليها يلتمسون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فأحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة ﴿وانهما﴾ يعنى سدوم والايكة وقيل الايكة ومدين فانه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثا اليهما فذكر أحدهما منبه على الآخر ﴿لبامام مبين﴾ لبطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به سمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذى يكتب فيه لانها مما يؤتم به ﴿ولقد

﴿كذب أصحاب الحجر﴾ يعنى ثمود ﴿المرسلين﴾ أى صالحا فان من كذب واحدا من الانبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع لاتفاقهم على التوحيد والاصول التى لاتختلف باختلاف الامم والاعصار وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأصحابه والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ﴿وآتيناهم آياتنا﴾ وهى الآيات المنزلة على نبيهم أو المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها أو الادلة المنصوبة لهم ﴿فكانوا عنها معرضين﴾ اعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة مافعلوا ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها أو من العذاب لحسبانهم أن ذلك يحميهم منه . عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ وهكذا وقع فى سورة هود قيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم و فى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجا شديدا يفضى اليها كما مر فى سورة هود ﴿فما أغنى عنهم﴾ ولم يدفع عنهم مانزل بهم ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من بناء البيوت الوثيقة والاموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لاعدم الاغناء المطلق فانه أمر مستمر ﴿وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق﴾ أى الا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لايلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقى الى الصلاح أو الا بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿وان الساعة لآتية﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك ﴿فاصفح﴾ أى أعرض عنهم ﴿الصفح الجميل﴾ اعراضا جميلا وتحمل أذيتهم ولاتعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هى منسوخة بآية السيف ﴿ان ربك﴾ الذى يبلغك الى غاية الكمال ﴿هو الخلاق﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الاطلاق ﴿العليم﴾ بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه شىء مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الأمور اليه ليحكم بينكم أو هو الذى خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم أن الصفح اليوم أصلح الى أن يكون السيف أصلح فهو تعليل للامر بالصفح على التقديرين وفى مصحف عثمان وأبى رضى الله تعالى عنهما هو الخالق وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير ﴿ولقد آتيناك سبعا﴾ سبع آيات وهى الفاتحة وعليه عمر وعلى وابن مسعود وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهم والحسن وأبو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهى الطوال التى سابعتها الانفال والتوبة فانهما فى حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس أو الحواميم السبع وقيل الصحائف السبع وهى الاسباع ﴿من المثانى﴾ بيان للسبع من التثنية وهى التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها مثانى لتكرر قراءتها فى الصلاة وأما تكرر قراءتها فى غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارا للتسمية ولانها تثنى بما يقرأ بعدها فى الصلاة وأما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لانها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثانى اذ السورة مكية بالاتفاق وان كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثانى أن كلا من ذلك تكرر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه أو من الثناء لاشتماله على ما هو ثناء على الله واحدتها مثناة أو مثنية صفة للآية وأما الصحائف وهى الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء على الله تعالى كأنها تثنى عليه

سبحانه بأفعاله وصفاته الحسنى ويجوز أن يراد بالمثانى القرآن لما ذكر أو لانه مثنى عليه بالاعجاز أو كتب الله تعالى كلها فمن للتبعيض وعلى الاول للبيان ﴿والقرآن العظيم﴾ ان أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص وان أريد به الاسباع أو كل القرآن فهو عطف أحد الوصفين على الآخر كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتائب فى المزدحم

أى ولقد أتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم ﴿لاتمدن عينيك﴾ لاتطمح ببصرك طموح راغب ولاتدم نظرك ﴿الى مامتعنا به﴾ من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها ﴿أزواجا منهم﴾ أصنافا من الكفرة فان مافى الدنيا من أصناف الاموال والذخائر بالنسبة الى ماأوتيته مستحقر لايعبأ به أصلا وفى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروى أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله فقيل لهم قد أعطيتم سبع آيات وهى خير من هذه القوافل السبع ﴿ولاتحزن عليهم﴾ حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا أتباعك فى سلك ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين وقيل أو أنهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فان تمتعهم به لايكون مدارا للحزن عليهم ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أى تواضع لهم وارفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفسا من ايمان الاغنياء ﴿وقل انى أنا النذير المبين﴾ أى المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ قيل انه متعلق بقوله تعالى ولقد آتيناك الخ أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أى قسموه الى حق وباطل حيث قالوا عنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو اقتسموه لأنفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لى وبعضهم سورة آل عمران لى وهكذا أو قسموا ماقرؤا من كتبهم وحرفوه فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه وحمل توسط قوله تعالى لاتمدن عينيك على امداد ما هو المراد بالكلام من التسلية وعقب ذلك بأنه جل المقام عن التشبيه ولقد أوتى عليه الصلاة والسلام مالم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله وقيل انه متعلق بقوله انى أنا النذير المبين فانه فى قوة الأمر بالانذار كأنه قيل أنذر قريشا مثل ما أنزلنا على المقتسمين يعنى اليهود وهو ماجرى على بنى قريظة والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وأنت خبير بأن مايشبه به العذاب المنذر لابد أن يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين اذ به تتحقق فائدة التشبيه وهى تأكيد الانذار وتشديده وعذاب بنى قريظة والنضير مع عدم وقوعه اذ ذاك لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه فى غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الاعجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما فى قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ونظائره على أن تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى فى الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة وفى الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا أول لانذر أى أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر وأساطير مثل ماأنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعد كل منهم فى مدخل لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لاتغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر شاعر والآخر كذاب فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع مافيه من الاشتراك لما سبق فى عدم كون العذاب الذى شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما للمنذرين ولا موعود الوقوع أنه لاداعى الى تخصيص وصف التعضية بهم واخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوة

لهم فى ذلك فان وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو الانفس التعضية ولا الى اخراجهم من حكم الانذار على أن ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاما لكلا الفريقين وغيرهم مع أن بعض المنذرين كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر ولا الى تقديم المفعول الثانى على الأول كما ترى وقيل انه وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون فى مداخل مكة كما حرر وفيه مع مامر أن قوله تعالى كما أنزلنا صريح فى أنه من قول الله تعالى لا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب ما يقوله بعض خواص الملك أمرنا بكذا وان كان الآمر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى قدرنا انها لمن الغابرين تعسف لا يخفى وأن اعمال الوصف الموصوف مما لم يجوزه البصريون فلابد من الهرب الى مسلك الكوفيين أو المصير الى جعله مفعولا غير صريح أى أنا النذير المبين بعذاب مثل عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وأنت تدرى أن عذابهم حيث كان متحققا ومعلوما للمنذرين حسبما نطق به القرآن العظيم صالح لأن يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة للمقتسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا أول للنذير أو لما دل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان التعضية فى حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فائدة لما أن ذلك انما يكون للاشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه شبه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فان المعضين بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التى هى السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا تصحح وقوع أحدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد اذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وانما يدل عليه اقتسام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اذا عرفت هذا فاعلم أن الأقرب من الأقوال المذكورة أنه متعلق بالأول وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل والمعنى لقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ايتاء مماثلا لانزال الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لأن الغرض بيان المماثلة بين الايتاءين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما فى جانب المشبه به على ما فى جانب المشبه بأن يقال كما آتينا المقتسمين حسبما وقع فى قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على ما بين الايتاءين من التنافى فان الأول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثانى ولا يقدح ذلك فى وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو لمسلميته عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانا لا لمزية تعود الى ذاته كما فى الصلاة الخليلية فان التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتم وأكمل مما فاض على النبى عليه الصلاة والسلام وانما ذلك للتقدم فى الوجود والتنصيص عليه فى القرآن العظيم فليس فى التشبيه شائبة اشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام أفضلية ما تعلق به الأول مما تعلق به الثانى وانما ذكروا بعنوان الاقتسام انكارا لاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الانزال المذكور وايذانا بأنه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب ايمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك فى العلة والاتحاد فى الحقيقة التى هى مطلق الوحى وتوسيط قوله تعالى لا تمدن الخ لكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ما أوتى النبى عليه الصلاة والسلام

ولقد بين أولا علو شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات الى زهرة الدنيا وعبر عن ايتائها لأهلها بالتمتيع المنبئ عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم ايمان المنهمكين فيها وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وباظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل فى تضاعيف ما أوتى من القرآن العظيم ثم رجع الى كيفية ايتائه على وجه أدمج فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لا ريب لهم فى كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل انى أنا النذير المبين كما قد أنزلنا فى الكتب انك ستأتى نذيرا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى يريد أن ما فى كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب على الحالية من مفعول قل أى قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أى موافقا لذلك فالأنسب حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهى الفرقة أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية اذا جعلها أعضاء وانما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التى هى تفريق الأعضاء من ذى الروح المستلزم لازالة حياته وابطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض من المثليات للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم وقيل هى فعلة من عضهته اذا بهته وعن عكرمة العضه السحر بلسان قريش فنقصانها على الأول واو وعلى الثانى هاء ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ أى لنسألن يوم القيامة أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع ﴿عما كانوا يعملون﴾ فى الدنيا من قول وفعل وترك فيدخل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضية دخولا أوليا ولنجزينهم بذلك جزاء موفورا وفيه من التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى والفاء لترتيب الوعيد على أعمالهم التى ذكر بعضها وفى التعرض لوصف الربوبية مضافا اليه عليه الصلاة والسلام اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به من صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا أو افرق بين الحق والباطل وأصله الابانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى ما تؤمر به من الشرائع المودعة فى تضاعيف ما أوتيته من المثانى السبع والقرآن العظيم ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أى لا تلتفت الى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تتصد للانتقام منهم ﴿انا كفيناك المستهزئين﴾ بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من أشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب يبالغون فى ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال قد أمرت أن أكفيكهم فأومأ الى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لاخذه فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات وأومأ الى اخمص العاص فدخلت فيه شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى فمات وأشار الى عينى الاسود بن المطلب فعمى والى أنف الحرث فامتخط قيحا فمات والى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ﴿الذين يجعلون مع الله الها آخر﴾ وصفهم بذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهوينا للخطب عليه باعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام بل اجترؤا على العظيمة التى هى الاشراك بالله سبحانه ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة ما يأتون ويذرون ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ من كلمات الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء به وبك وتحلية الجملة بالتأكيد لافادة تحقيق ما تتضمنه من التسلية وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة ﴿فسبح بحمد ربك﴾ فافزع الى

الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده و فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام مالا يخفى من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلاة والاشعار بعلة الحكم أعنى الامر بالتسبيح والحمد ﴿وكن من الساجدين﴾ أى المصلين يكفك و يكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على أن هداك للحق المبين وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ﴿واعبد ربك﴾ دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى وإيثار الاظهار بالعنوان السالف آنفا لتأكيد ماسبق من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الامر بالعبادة ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ أى الموت فانه متيقن اللحوق بكل حى مخلوق واسناد الاتيان اليه للايذان بأنه متوجه الى الحى طالب للوصول اليه والمعنى دم على العبادة مادمت حيا من غير اخلال بها لحظة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم

سـورة النحل

(مكية الا وان عاقبتم الى آخرها . وهى مائة وثمان وعشرون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿أتى أمر الله﴾ أى الساعة أوما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللايذان بأن تحققه فى نفسه واتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب واتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع أو عن اتيان مباديه القريبة على نهج اسناد حال الاسباب الى المسببات وأياما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع واتصاله وتكميل لحسن موقع التفريع فى قوله عز وجل ﴿فلا تستعجلوه﴾ فان النهى عن استعجال الشىء وان صح تفريعه على قرب وقوعه أو على وقوع اسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه اذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسا لا بما ذكر من قرب وقوعه و وقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما يدل عليه القراءة على صيغة نهى الغائب واستعجالهم وان كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين سواء أريد بأمر الله ماذكر أو العذاب الموعود للكفرة خاصة أما الأول فلأنه لا يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أوما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهى عنه وأما الثانى فلأن استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا ينتظمهما صيغة واحدة والالتجاء الى ارادة معنى مجازى يعمهما معا من غير أن يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف لا يليق بشأن التنزيل الجليل وماروى من أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ماهو كائن فلما تأخرت قالوا مانرى شيئا فنزلت اقترب للناس حسابهم فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الايام قالوا يا محمد مانرى شيئا مما تخوفنا به فنزلت أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل فلا تستعجلوه اطمأنوا فليس فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من أن التصدير بالفاء يأباه فانه بمعزل عن ابائه حسبما تحققته بل لان مناط اطمئنانهم انما وقوفهم على أن المراد بالاتيان هو الاتيان الادعائى لا الحقيقى الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهى عنه لما أن النهى عن الشىء يقتضى امكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف انما هو النهى عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضى لعدم وقوع المستعجل بعد و لا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لأن المراد بأمر

الله انما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أمر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذى يقضى به الاعجاز التنزيلى أنه خاص بالكفرة كما ستقف عليه ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج اشراكهم المستتبع لنسبة الله عز وجل الى مالا يليق به من العجز والاحتياج الى الغير واعتقاد أن أحدا يحجزه عن انجاز وعده وامضاء وعيده وقد قالوا فى تضاعيفه ان صح مجىء العذاب فالاصنام تخلصنا عنه بشفاعتها رد ذلك فقيل بطريق الاستئناف ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أى تنزه وتقدس بذاته وجل عن اشراكهم المؤدى الى صدور أمثال هذه الاباطيل عنهم أو عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم بوجه من الوجوه وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم للاعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما يفوت ارتباط المنهى عنه بالمتنزه عنه وقرىء على صيغة الخطاب ﴿ينزل الملائكة﴾ بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها اجماليا ببيان تقدس جناب الكبرياء وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يشاركه شىء فى شىء وايذان بأنه دين أجمع عليه جمهور الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمروا بدعوة الناس اليه مع الاشارة الى سر البعثة والتشريع وكيفية القاء الوحى والتنبيه على طريق علم الرسول عليه الصلاة والسلام باتيان ما أوعدهم به وباقترابه ازاحة لاستبعادهم اختصاصه عليه الصلاة والسلام بذلك واظهارا لبطلان رأيهم فى الاستعجال والتكذيب وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك عادة مستمرة له سبحانه والمراد بالملائكة اما جبريل عليه السلام قال الواحدى يسمى الواحد بالجمع اذا كان رئيسا أوهو ومن معه من حفظة الوحى بأمر الله تعالى وقرىء ينزل من الانزال وتنزل بحذف احدى التاءين وعلى صيغة المبنى للمفعول من التنزيل ﴿بالروح﴾ أى بالوحى الذى من جملته القرآن على نهج الاستعارة فانه يحيى القلوب الميتة بالجهل أو يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حال من مفعوله أى ملتبسين بالروح ﴿من أمره﴾ بيان للروح الذى أريد به الوحى فانه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئا ومبتدأ منه أو صفة له على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى بالروح الكائن من أمره الناشىء منه أو متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل مافى قوله تعالى مما خطيئاتهم أى ينزلهم بأمره ﴿على من يشاء من عباده﴾ أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك ﴿أن أنذروا﴾ بدل من الروح أى ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أى بهذا القول والمخاطبون به الانبياء الذين نزلت الملائكة عليهم والآمر هو الله سبحانه والملائكة نقلة للامر كما يشعر به الباء فى المبدل منه وأن اما مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى ينزلهم ملتبسين بأن الشأن أقول لكم أنذروا أو مفسرة على أن تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول كأنه قيل يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أنذروا فلا محل لها من الاعراب أو مصدرية لجواز كون صلتها انشائية كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك حسبما ذكر فى أوائل سورة هود فمحلها الجر على البدلية أيضا والانذار الاعلام خلا أنه مختص باعلام المحذور من نذر بالشىء اذا علمه فحذره وأنذره بالأمر انذارا أى أعلمه وحذره وخوفه فى ابلاغه كذا فى القاموس أى أعلموا الناس ﴿أنه لا اله الا أنا﴾ فالضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من أول الامر بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريرله فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه ابتداء الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن كأنه قيل أنذروا أن الشأن الخطير هذا وانباء مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده من الاشراك وذلك كاف فى كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه ﴿فاتقون﴾ خطاب للمستعجلين على طريقة

الالتفات والفاء فصيحة أى اذا كان الامر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لاشريك له فى الالوهية فاتقون فى الاخلال بمضمونه ومباشرة ماينافيه من الاشراك وفروعه التى من جملتها الاستعجال والاستهزاء وبعد تمهيد الدليل السمعى للتوحيد شرع فى تحرير الادلة العقلية فقيل ﴿خلق السموات والارض بالحق﴾ أى أوجدهما على ماهما عليه من الوجه الفائق والنمط اللائق ﴿تعالى﴾ وتقدس بذاته لاسيما بأفعاله التى من جملتها ابداع هذين المخلوقين ﴿عما يشركون﴾ عن اشراكهم المعهود أو عن شركة مايشركونه به من الباطل الذى لايبدئ ولا يعيد وبعد مانبه على صنعه الكلى المنطوى على تفاصيل مخلوقاته شرع فى تعداد مافيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالانفس فقال ﴿خلق الانسان﴾ أى هذا النوع غير الفرد الاول منه ﴿من نطفة﴾ جماد لاحس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا ﴿فاذا هو﴾ بعد الخلق ﴿خصيم﴾ منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم ﴿مبين﴾ لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته أو مخاصم لخالقه منكر له قائل من يحيى العظام وهى رميم وهذا أنسب بمقام تعداد هنات الكفرة روى أن أبى بن خلف الجمحى أتى النبى عليه السلام بعظم رميم فقال يامحمد أترى الله تعالى يحيى هذا بعدما قدرم فنزلت ﴿والأنعام﴾ وهى الازواج الثمانية من الابل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿خلقها﴾ أو بالعطف على الانسان وما بعده بيان ما خلق لاجله والذى بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى ﴿لكم﴾ اما متعلق بخلقها وقوله ﴿فيها﴾ خبر مقدم وقوله ﴿دفء﴾ مبتدأ وهو مايدفأ به فيقى من البرد والجملة حال من المفعول أو الظرف الاول خبر للمبتدأ المذكور وفيها حال من دفء اذلو تأخر لكان صفة ﴿ومنافع﴾ هى درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وانما عبر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الانسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقى الى الاعلى ﴿ومنها تأكلون﴾ أى تأكلون مايؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للايماء الى أنها لاتبقى عند الاكل كما فى السابق واللاحق فان الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهى باقية على حالها ولذلك جعلت محالا لها بخلاف الاكل وتقديم الظرف للايذان بأن الاكل منها هو المعتاد المعتمد فى المعاش لان الاكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الاكل منها أكل مايحصل بسببها فان الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكراء الابل وبأثمان نتاجها وألبانها وجلودها ﴿ولكم فيها﴾ مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية ﴿جمال﴾ أى زينة فى أعين الناس ووجاهة عندهم ﴿حين تريحون﴾ تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى ﴿وحين تسرحون﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها الى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لان مايدور عليه أمر الجمال من تزين الأفنية والاكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها انما هو عند ورودها وصدورها فى ذينك الوقتين وأما عند كونها فى المراعى فينقطع اضافتها الحسية الى أربابها وعند كونها فى الحظائر لايراها راء ولاينظر اليها ناظر وتقديم الاراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها أظهر منه فى استتباع ماذكر من الجمال وأتم فى استجلاب الانس والبهجة اذ فيها حضور بعد غيبة واقبال بعد ادبار على أحسن ما يكون ملأى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع وقرئ حينا تريحون وحينا تسرحون على أن كلا الفعلين وصف لحينا بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه ﴿وتحمل أثقالكم﴾ جمع ثقل وهو متاع المسافر وقيل أثقالكم أجرامكم ﴿الى بلد﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر الى انها متاجر أهل مكة وقال عكرمة أريد به مكة ولعله نظر الى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم الى الحمولة

أمس والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ واصلين اليه بانفسكم مجردين عن الاثقال لولا الابل ﴿الابشق الانفس﴾ فضلا عن استصحابها معكم وقرئ بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكلفة والمشقة وقيل المفتوح مصدر من شق الأمر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذى هو الصدع والمكسور النصف كأنه يذهب نصف القوة لما يناله من الجهد فالاضافة الى الانفس مجازية أو على تقدير مضاف أى الا بشق قوى الانفس وهو استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى لم تكونوا بالغيه بشئ من الاشياء الابشق الانفس ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدارا للنعم السابقة الى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بأن هذه النعمة ليست فى العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفى الشمول للاوقات والاطراد فى الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فانها بحسب المنشأ وخاصة بالابل وبحسب المتعلق بالضاربين فى الارض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها فى أحايين غير مطردة وأما سائر النعم المعدودة فموجودة فى جميع أصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو فى عامة الأوقات ﴿ان ربكم لرؤف رحيم﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة ﴿والخيل﴾ هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالابل وهو عطف على الأنعام أى خلق الخيل ﴿والبغال والحمير لتركبوها﴾ تعليل بمعظم منافعها والا فالانتفاع بها بالحمل أيضا مما لاريب فى تحققه ﴿وزينة﴾ عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الأول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف أى وتتزينوا بها زينة وقرئ بغير واو أى خلقها زينة لتركبوها ويجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أو مفعوله أى متزينين بها أو متزينا بها ﴿ويخلق مالا تعلمون﴾ أى يخلق فى الدنيا غير ماعدد من أصناف النعم فيكم ولكم مالاتعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول الى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة أو يخلق لكم فى الجنة غير ماذكر من النعم الدنيوية مالاتعلمون أى ماليس من شأنكم أن تعلموه وهو ما أشير اليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويجوز أن يكون هذا اخبارا بأنه سبحانه يخلق من الخلائق مالاعلم لنا به دلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة . عن ابن عباس رضى الله عنهما ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا الى نور وجمالا الى جمال وعظما الى عظم ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لايعودون اليه الى يوم القيامة ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج اسناد حال سالكه اليه كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لايعدل عنه أى حق عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه الى الحق الذى هو التوحيد بنصب الأدلة وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه أو مصدر بمعنى الاقامة والتعديل قاله أبو البقاء أى عليه عز وجل تقويمها وتعديلها أى جعلها بحيث يصل سالكها الى الحق لكن لابعد ما كانت فى نفسها منحرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ماذكر من نصب الأدلة وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التى كل واحد منها لاحب يهتدى بمناره وعلم يستضاء بناره وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحى الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ماجل من الاسرار ودق الهادى الى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية الى معالم الهدى المنجية

عن فيافى الضلالة ومهاوى الردى ألا يرى كيف بين أو لا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبة توهم الاشراك ثم أوضح سر القاء الوحى على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية أمرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم كر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الأفعال مرشدا الى طريقة الاستدلال فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجسمانى ومركزه بقوله تعالى خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ثم فصل أفعاله المتعلقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلق بانفس المخاطبين ثم ذكر مايتعلق بما لابد لهم منه فى معايشهم ثم بين قدرته على خلق مالايحيط به علم البشر بقوله ويخلق مالاتعلمون وكل ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد غب بيان وتعديل له أيما تعديل فالمراد بالسبيل على الأول الجنس بدليل اضافة القصد اليه وقوله تعالى ﴿ومنها﴾ فى محل الرفع على الابتداء اما باعتبار مضمونه واما بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى ومنادون ذلك وقد مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ أى بعض السبيل أو بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر ﴿جائر﴾ أى مائل عن الحق منحرف عنه لا يوصل سالكه اليه وهو طرق الضلال التى لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائر وعلى الثانى نفس السبيل المستقيم والضمير فى منها راجع اليها بتقدير المضاف أى ومن جنسها لما عرفت من أن تعديل السبيل وتقويمه ابداعه ابتداء على وجه الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه وأياما كان فليس فى النظم الكريم تغيير الاسلوب رعاية لأمر مطلوب كما قيل فان ذلك انما يكون فيما اقتضى الظاهر سبكا معينا ولكن يعدل عن ذلك لنكتة أهم منه كما فى قوله سبحانه الذى يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين فان مقتضى الظاهر أن يقال والذى يسقمنى ويشفين ولكن غير الى ماعليه النظم الكريم تفاديا عن اسناد ماتكرهه النفس اليه سبحانه وليس المراد ببيان قصد السبيل مجرد اعلام أنه مستقيم حتى يصح اسناد أنه جائر اليه تعالى فيحتاج الى الاعتذار عن عدم ذلك على أنه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الاسلوب نكتة وقد بين ذلك فى مواضع غير معدودة بل المراد مامر من نصب الأدلة لهداية الناس اليه ولا امكان لاسناد مثله اليه تعالى بالنسبة الى الطريق الجائر بأن يقال وجائرها حتى يصرف ذلك الاسناد منه تعالى الى غيره لنكتة تستدعيه ولا يتوهمه متوهم حتى يقتضى الحال دفع ذلك بأن يقال لاجائرها ثم يغير سبك النظم عن ذلك لداعية أقوى منه بل الجملة الظرفية اعتراضية جىء بها لبيان الحاجة الى البيان والتعديل واظهار جلالة قدر النعمة فى ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل الى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا الى المقصود وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل الى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعى تسوية المحسن والمسىء والمطيع والعاصى بحسب الاستعداد واليه أشير بقوله تعالى ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ أى لو شاء أن يهديكم الى ماذكر من التوحيد هداية موصلة اليه البتة مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأه لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولا حكمة فى تلك المشيئة لما أن الذى عليه يدور فلك التكليف واليه ينسحب الثواب والعقاب انما هو الاختيار الجزئى الذى عليه يترتب الأعمال التى بها نيط الجزاء هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى باتنهائه اليه على نهج الاستقامة وايثار حرف الاستعلاء على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلى من غير أن يكون هناك استعلاء لشىء عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما فى قوله تعالى هذا صراط على مستقيم فالقصد مصدر بمعنى الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى ومنها جائر معطوف على الجملة الاولى والمعنى أن قصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا الى الأول وأنت خبير

بأن هذا حق فى نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة لتوسيطه بين ماسبق من أدلة التوحيد وبين ما الحق ولما بين الطريق السمعى للتوحيد على وجه اجمالى وفصل بعض أدلته المتعلقة بأحوال الحيوانات وعقب ذلك ببيان السر الداعى اليه بعثا للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثا على حسن التلقى لما الحق أتبع ذلك ذكر مايدل عليه من أحوال النبات فقيل ﴿هو الذى أنزل﴾ بقدرته القاهرة ﴿من السماء﴾ أى من السحاب أو من جانب السماء ﴿ماء﴾ أى نوعا منه وهو المطر وتأخره عن المجرور لما مر مرارا من أن المقصود هو الاخبار بأنه أنزل من السماء شيئا هو الماء لا أنه أنزله من السماء والسر فيه ماسلف من أن عند تأخير ماحقه التقديم يبقى الذهن مترقبا له مشتاقا اليه فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن ﴿لكم منه شراب﴾ أى ماتشربونه وهو اما مرتفع بالظرف الأول أو مبتدأ وهو خبره والجملة صفة لماء والظرف الثانى نصب على الحالية من شراب ومن تبعيضية وليس فى تقديمه ايهام حصر المشروب فيه حتى يفتقر الى الاعتذار بأنه لابأس به لأن مياه العيون والابار منه لقوله تعالى فسلكه ينابيع فى الأرض وقوله تعالى فأسكناه فى الأرض وقيل الظرف الأول متعلق بأنزل والثانى خبر لشراب والجملة صفة لماء وأنت خبير بأن مافيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثانى منهما بين الماء وصفته مما لا يليق بجزالة نظم التنزيل الجليل ﴿ومنه شجر﴾ من ابتدائية أى ومنه يحصل شجر ترعاه المواشى والمراد به ماينبت من الأرض سواء كان له ساق أو لا أو تبعيضية مجازا لأنه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه منه كقوله أسنمة الآبال فى ربابه يعنى به المطر الذى ينبت به الكلأ الذى تأكله الابل فتسمن أسنمتها وفى حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ ﴿فيه تسيمون﴾ ترعون من سامت الماشية وأسامها صاحبها وأصلها السومة وهى العلامة لأنها تؤثر بالرعى علامات فى الأرض ﴿ينبت﴾ أى الله عز وجل وقرىء بالنون ﴿لكم به﴾ بما أنزل من السماء ﴿الزرع والزيتون والنخيل والأعناب﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم من الأرض بطريق الاستئناف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها سنته الجارية على مر الدهور أو لاستحضار صورة الانبات وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر آنفا مع مافى تقديم أولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء وتقديم الزرع على ماعداه لانه أصل الاغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث انه ادام من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل على الاعناب لظهور أصالتها وبقائها وجمع الاعناب للاشارة الى مافيها من الاشتمال على الاصناف المختلفة وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى ﴿ومن كل الثمرات﴾ للاشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للانعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للارشاد الى مكارم الاخلاق فان مقتضاها أن يكون اهتمام الانسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لان أكثر المخاطبين من أصحاب المواشى ليس لهم زرع ولا ثمر وقيل المراد تقديم مايسام لا تقديم غذائه فانه غذاء حيوانى للانسان وهو أشرف الاغذية وقرىء ينبت من الثلاثى مسندا الى الزرع وماعطف عليه ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى انزال الماء وانبات مافصل ﴿لآية﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة ﴿لقوم يتفكرون﴾ فان من تكفر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الارض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الارض وينشق أعلاها وان كانت منتكسة فى الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر لا الى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة الى الكل علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شىء فى شىء من صفات الكمال فضلا عن أن يشاركه أخس الاشياء فى أخص صفاته التى هى الالوهية واستحقاق

العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة الى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ﴿والشمس والقمر﴾ يدأبان فى سيرهما وانارتهما أصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات التى من جملتها ما فصل وأجمل كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاؤا كما فى قوله تعالى سبحان الذى سخر لنا هذا ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كان ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب ارادتهم وفى التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير ايماء الى ما فى المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة الى المخاطبين وايثار صيغة الماضى للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وان تجددت آثاره ﴿والنجوم مسخرات بأمره﴾ مبتدأ وخبر أى سائر النجوم فى حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى أو لما خلقن له بارادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم اليهم فى الظهور بمثابة ماقبلها من الملوين والقمرين لم ينسب تسخيرها اليهم بأداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شىء آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث الى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار وقرىء برفع الشمس والقمر أيضا وقرىء بنصب النجوم على أنه مفعول أول لفعل مقدر ينبىء عنه الفعل المذكور ومسخرات مفعول ثان له أى وجعل النجوم مسخرات بأمره أو على أنه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل ما فى سخر من معنى نفع أى نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذى خلقها ودبرها كيف شاء أو لما خلقن له بايجاده وتقديره أو لحكمه أو مصدر ميمى جمع لاختلاف الانواع أى أنواعا من التسخير وما قيل من أن فيه ايذانا بالجواب عما عسى يقال ان المؤثر فى تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها بأن ذلك ان سلم فلا ريب فى أنها أيضا أمور ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلابد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فمبناه حسبان ماذكر أدلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وأنت تدرى أن ليس الأمر كذلك فانه ليس مما ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم فى قبوله قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون وقال تعالى ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله الآية وانما ذلك أدلة التوحيد من حيث ان من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شىء فى شىء فضلا عن أن يشاركه الجماد فى الالوهية ﴿ان فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا ﴿لآيات﴾ باهرة متكاثرة ﴿لقوم يعقلون﴾ وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة الى التأمل والتفكر ويجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار اليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة فى العلويات المدلول عليها بالتسخير التى لا يتصدى لمعرفتها الا المهرة من أساطين علماء الحكمة ولا ريب فى أن احتياجها الى التفكر أكثر ﴿وماذرأ﴾ عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على أنه مفعول لجعل أى وماخلق ﴿لكم فى الأرض﴾ من حيوان ونبات حال كونه ﴿مختلفا ألوانه﴾ أى أصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف اللون مسخر لله تعالى أو لما خلق له من الخواص والأحوال والكيفيات أو جعل ذلك مختلف الألوان أى الأصناف لتتمتعوا من ذلك بأى صنف شئتم وقد عطف على ماقبله من المنصوبات وعقب بأن ذكر الخلق لهم مغن عن ذكر التسخير واعتذر بأن الأول لا يستلزم الثانى لزوما عقليا لجواز كون ماخلق لهم عزيز المرام صعب المنال وقيل هو منصوب بفعل مقدر أى خلق وأنبت على أن قوله مختلفا ألوانه حال من مفعوله ﴿ان فى ذلك﴾ الذى ذكر من التسخيرات ونحوها ﴿لآية﴾ بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد

لا ندله ولا ضد ﴿لقوم يذكرون﴾ فان ذلك غير محتاج الا الى تذكر ماعسى يغفل عنه من العلوم الضرورية وأما مايقال من أن اختلافها فى الطباع والهيآت والمناظر ليس الا بصنع صانع حكيم فمداره مالوحنا به من حسبان ماذكر دليلا على اثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان ايراد مايدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث ان ذلك من المقدمات المسلمة جىء به للاستدلال به على مايقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شىء فى الالوهية ﴿وهو الذى سخر البحر﴾ شروع فى تعداد النعم المتعلقة بالبحر اثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا أى جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد ﴿لتأكلوا منه لحما طريا﴾ هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة الى أكله كيلا يتسارع اليه الفساد كما ينبىء عنه جعل البحر مبتدأ أكله وللايذان بكمال قدرته تعالى فى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثورى أن من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله والجواب أن مبنى الأيمان العرف ولا ريب فى أنه لا يفهم من اللحم عند الاطلاق ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالأمر ألا يرى الى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة ﴿وتستخرجوا منه حلية﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿تلبسونها﴾ عبر فى مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم ﴿وترى الفلك﴾ السفن ﴿مواخر فيه﴾ جوارى فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك ﴿ولتبتغوا﴾ عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادى الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية أو على علة محذوفة أى لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الانبارى أو متعلقة بفعل محذوف أى وفعل ذلك لتبتغوا ﴿من فضله﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أى تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة فى مدة قليلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع أنها فى تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للايذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معا ﴿وألقى فى الأرض رواسى﴾ أى جبالا ثوابت وقد مر تحقيقه فى أول سورة الرعد ﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم فان الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالافلاك أو تتحرك بأدنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد وقيل لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة ماهى بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ﴿وأنهارا﴾ أى وجعل فيه أنهارا لأن فى ألقى معنى الجعل ﴿وسبلا لعلكم تهتدون﴾ بها الى مقاصدكم ﴿وعلامات﴾ معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل ومنهل وريح وقد نقل أن جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ بالليل فى البرارى والبحار حيث لا علامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدى وقرىء بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الاول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا كثيرى التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم فى أسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر

عليه ألزم لهم وأوجب عليهم ﴿أفمن يخلق﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الافاعيل البديعة أو يخلق كل شئ ﴿كمن لا يخلق﴾ شيئاً أصلا وهو تبكيت للكفرة وابطال لاشراكهم وعبادتهم للاصنام بانكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضى ذلك اقتضاء ظاهرا وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الانكار الى توهم المشابهة المذكورة على ما فصل من الامور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ماتلوناه من قوله تعالى ولئن سألتهم الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها واستتباعه اياها أو لكون كل منها خلقا مخصوصا أى أبعد ظهور اختصاصه تعالى بمبدئية هذه الشؤن الواضحة الدلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ماهو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية اشراككم ومدارها وان كان على تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمنتسبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيها على كمال قبح مافعلوه من حيث ان ذلك ليس بمجرد رفع الاصنام عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية الى مرتبة الجمادات ولا ريب فى أنه أقبح من الاول والمراد بمن لا يخلق كل ماهذا شأنه كائنا ماكان والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة أو العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم لدلالة النص فان من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد وأياما كان فدخول الاصنام فى حكم عدم المماثلة والمشابهة اما بطريق الاندراج تحت الموصول العام واما بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية لا بأنها هى المرادة بالموصول خاصة ﴿أفلا تذكرون﴾ أى ألا تلاحظون فلا تذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لا يفتقر الى شئ سوى التذكر ﴿وان تعدوا نعمة الله﴾ تذكير اجمالى لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر ايراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى ويخلق مالا تعلمون ولعل فصل ما بينهما بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون للمبادرة الى الزام الحجة والقام الحجر اثر تفصيل ما فصل من الافاعيل التى هى أدلة الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه ودلالتها عليها وان لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام أيضا لكنها حيث كانت مستتبعات الحيثية الاولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الاجمال أى ان تعدوا نعمته الفائضة عليكم مما ذكروما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا ﴿لا تحصوها﴾ أى لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو اجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه فى سورة ابراهيم بفضل الله سبحانه ﴿ان الله لغفور﴾ حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿رحيم﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من أصناف الكفر التى من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وأيما نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية ﴿والله يعلم ما تسرون﴾ تضمرونه من العقائد والاعمال ﴿وما تعلنون﴾ أى تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الالهية مالا يخفى وتقديم السر على العلن لما ذكرناه فى سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علميه المتعلقين بهما على أبلغ وجه كان علمه تعالى بالسر أقدم منه بالعلن أو لان كل شئ يعلن فهو قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية ﴿والذين يدعون﴾ شروع فى تحقيق كون الاصنام بمعزل من استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الاحوال وان كانت غنية

عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وانهم لا يعرفون ذلك الا بالتصريح أى والآلهة الذين يعبدهم الكفار ﴿من دون الله﴾ سبحانه وقرئ على صيغة المبنى للمفعول وعلى الخطاب ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ من الاشياء أصلا أى ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفى الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وان تلازما فى الصدق أثبت لهم ذلك صريحا فقيل ﴿وهم يخلقون﴾ أى شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لانها ذوات ممكنة مفتقرة فى ماهياتها ووجوداتها الى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما أثبت لهم وبين مانفى عنهم من وصفى المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الافتقار الى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله ويجوز أن يجعل الخلق الثانى عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الاول ومبالغة فى كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وايذانا بكمال ركاكة عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقهم وأما جعل الاول أيضا عبارة عن ذلك كما فعل فلا وجه له اذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة أصلا ولما أن اثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفى الحياة عنهم لما أن بعض المخلوقين أحياء صرح بذلك فقيل ﴿أموات﴾ وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل أو خبر مبتدا محذوف وحيث كان بعض الاموات مما يعتريه الحياة سابقا أو لاحقا كاجساد الحيوان والنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل ﴿غير أحياء﴾ أى لا يعتريها الحياة أصلا فهى أموات على الاطلاق وأما قوله تعالى ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أى ما يشعر أولئك الآلهة أيان يبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لان شعور الجماد بالامور الظاهرة بديهى الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه الا العليم الخبير وفيه ايذان بأن البعث من لوازم التكليف وان معرفة وقته مما لا بد منه فى الالوهية ﴿الهكم اله واحد﴾ لا يشاركه شئ فى شئ وهو تصريح بالمدعى وتمحيض للنتيجة غب اقامة الحجة ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وأحوالها التى من جملتها ماذكر من البعث وما يعقبه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلتهم ﴿قلوبهم منكرة﴾ للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها ﴿وهم مستكبرون﴾ عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها والفاء للايذان بأن اصرارهم على الانكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى أنه قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات اختصاص الالهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك اصرارهم على ماذكر من الانكار والاستكبار وبناء الحكم المذكور على الموصول للاشعار بكونه معللا بما فى حيز الصلة فان الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع الى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدى الى قصر النظر على العاجل والاعراض عن الدلائل السمعية والعقلية الموجب لانكارها وانكار مؤداها والاستكبار عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه وأما الايمان بها وبما فيها فيدعو لا محالة الى التأمل فى الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لامر الله تعالى ﴿لا جرم﴾ أى حقا وقد مر تحقيقه فى سورة هود ﴿ان الله يعلم ما يسرون﴾ من انكار قلوبهم ﴿وما يعلنون﴾ من استكبارهم وقولهم للقرآن أساطير الاولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك ﴿انه لا يحب المستكبرين﴾ تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد أى لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها أو لا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر ﴿واذا قيل لهم﴾ أى لاولئك المنكرين المستكبرين وهو بيان لاضلالهم غب بيان ضلالهم ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ القائل الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده أو مرفوع أى أى شئ أنزل أو ما الذى أنزله ﴿قالوا أساطير الاولين﴾ أى ما تدعون نزوله والمنزل بطريق السخرية أحاديث الاولين وأباطيلهم وليس من الانزال فى شئ قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل

بمكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام ﴿ليحملوا﴾ متعلق بقالوا أى قالوا ماقالوا ليحملوا ﴿أوزارهم﴾ الخاصة بهم وهى أو زار ضلالهم ﴿كاملة﴾ لم يكفر منها شئ بنكبة أصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها أوزار المؤمنين ﴿يوم القيامة﴾ ظرف ليحملوا ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾ وبعض أوزار من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لانهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر واللام للتعليل فى نفس الامر من غير أن يكون غرضا وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال أو باعتبار حال قولهم لاحال الحمل ﴿بغير علم﴾ حال من الفاعل أى يضلونهم غير عالمين بأن مايدعون اليه طريق الضلال وأما حمله على معنى غير عالمين بأنهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والاضلال على أن يكون العامل فى الحال قالوا وتأييده بما سيأتى من قوله تعالى وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون من حيث ان حمل ماذكر من أوزار الضلال والاضلال من قبيل اتيان العذاب من حيث لا يشعرون فيرده أن الحمل المذكور انما هو يوم القيامة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوى كما ستقف عليه أو حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم انهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذى لب وانما يتبعهم الاغبياء والجهلة والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذرا اذكان يجب عليهم أن يبحثوا و يميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع و بين المبطل ﴿ألا ساء مايزرون﴾ أى بئس شيأ يزرونه ماذكر ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم الى أنفسهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل أى قد سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله تعالى ﴿فأتى الله﴾ أى أمره وحكمه ﴿بنيانهم﴾ وقرئ بيتهم وبيوتهم ﴿من القواعد﴾ وهى الاساطين التى تعمده أو أساسه فضعضعت أركانه ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ أى سقط عليهم سقف بنيانهم اذلا يتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد والمنصوبات التى أرادوا بها الايقاع برسل الله سبحانه وفى ابطاله تعالى تلك الحيل والمكايد وجعله اياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا وقرئ فخر عليهم السقف بضمتين ﴿وأتاهم العذاب﴾ أى الهلاك والدمار ﴿من حيث لا يشعرون﴾ باتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون و يشتهون والمعنى أن هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ماهو أعم منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا و يوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد وأصل الخزى ذل يستحى منه وثم للايماء الى مابين الجزاءين من التفاوت مع مايدل عليه من التراخى الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لأن الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخر وياقيق النفس مترقبة الى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم أو لهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما أشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه ﴿ويقول﴾ لهم تفضيحا وتوبيخا فهو الخ بيان للاخزاء ﴿أين شركائى﴾ أضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ اثر توبيخ مع الاستهزاء بهم ﴿الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى

يعتذر بأنهم يجوز أن يحال بينهم و بين عبدتهم حينئذ ليتفقدوها فى ساعة علقوا بها الرجاء فيها أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفى فى ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذى كانوا يزعمون أنهم متصفون من عنوان الالهية فليس هناك شركاء ولا أماكنها على أن قوله ليتفقدوا ليس بسديد فانه قد تبين عندهم الامر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفقد وقرئ بكسر النون أى تشاقوننى على أن مشاقة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لاسيما فى شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ من أهل الموقف وهم الانبياء والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم فى الدنيا الى التوحيد فيجادلونهم و يتكبرون عليهم أى يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما أوعدوهم به وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد فى اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف ﴿أن الخزى﴾ الفضيحة والذل والهوان ﴿اليوم﴾ منصوب بالخزى على رأى من يرى اعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار فى الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا أنه مغتفر فى الظروف وايراده للاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك فى عزة وشقاق ﴿والسوء﴾ العذاب ﴿على الكافرين﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ بتأنيث الفعل وقرئ بتذكيره وبادغام التاء فى التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لما فيها من الهول والموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منه أو فى محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفره الى حين الموت دون من آمن منهم ولو فى آخر عمره أى على الكافرين المستمرين على الكفر الى أن يتوفاهم الملائكة ﴿ظالمى أنفسهم﴾ أى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم وأى ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا ﴿فألقوا السلم﴾ أى فيلقون والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى و يقول أين شركائى وما بينهما جملة اعتراضية جئ بها تحقيقا لما حاق بهم من الخزى على رؤس الاشهاد أى فيسالمون و يتركون المشاقة و ينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين ﴿ما كنا نعمل﴾ فى الدنيا ﴿من سوء﴾ أى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين وانما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا انكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم و يجوز أن يكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه أين شركائى كما فى سورة الانعام لا عن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزى والسوء ﴿بلى﴾ رد عليهم من قبل أولى العلم واثبات لما نفوه أى بلى كنتم تعملون ما تعملون ﴿ان الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ أى كل صنف بابه المعدله وقيل أبوابها أصناف عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة ﴿خالدين فيها﴾ ان أريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وان أريد مطلق الكون فيها فهى مقارنة ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين ذلك فى اعتقادنا روما للمحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ أى المؤمنين وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ماصدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا﴾ سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى أى أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال ولسبكا لواقع فى نفس الامر مضمونا وأما الكفرة فانهم خذلهم الله تعالى كما غيروا

الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الاساطير رومالما مر من انكار النزول روى أن أحياء العرب كانوا يعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي عليه السلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول أنا شر وافد ان رجعت الى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه فيلق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم و رضى عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا ﴿للذين أحسنوا﴾ أى أعمالهم أو فعلوا الاحسان ﴿فى هذه﴾ الدار ﴿الدنيا حسنة﴾ أى مثوبة حسنة مكافأة فيها ﴿ولدار الآخرة﴾ أى مثوبتهم فيها ﴿خير﴾ مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة أو خير على الاطلاق فيجوز اسناد الخيرية الى نفس دار الآخرة ﴿ولنعم دار المتقين﴾ أى دار الآخرة حذف لدلالة ماسبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكى من جملة احسانهم و وعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا أو تفسير له أى أنزل خيرا هو هذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل ﴿جنات عدن﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم جنات ويجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح ﴿يدخلونها﴾ صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك ﴿تجرى من تحتها الانهار﴾ أو كلاهما حال على تقدير علميته ﴿لهم فيها﴾ فى تلك الجنات ﴿مايشاؤن﴾ الظرف الاول لخبر لما والثانى حال منه والعامل مافى الاول أو متعلق به أى حاصل لهم فيها مايشاؤن من أنواع المشتهيات وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشية أو لما مر مرارا من أن تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء الاوفى ﴿يجزى الله المتقين﴾ اللام للجنس أى كل من يتق من الشرك والمعاصى ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا أوليا ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ نعت للمتقين وقوله تعالى ﴿طيبين﴾ أى طاهرين عن دنس الظلم لانفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بأن ملاك الأمر فى التقوى هو الطهارة عما ذكر الى وقت توفيهم ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبي النفوس ببشارة الملائكة اياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى جناب القدس ﴿يقولون﴾ حال من الملائكة أى قائلين لهم ﴿سلام عليكم﴾ قال القرظى رحمه الله اذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك ياولى الله الله تعالى يقرأ عليك السلام و بشره بالجنة ﴿ادخلوا الجنة﴾ اللام للعهد أى جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها فى وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخى المبشر به لادخول القبر الذى هو روضة من رياضها اذ ليس فى البشارة به مافى البشارة بدخول نفس الجنة ﴿بما كنتم تعملون﴾ بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة أو بالذى كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفى التوفى للحشر لان الأمر بالدخول حينئذ يتحقق ﴿هل ينظرون﴾ أى ما ينتظر كفار مكة المار ذكرهم ﴿الا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لا لانه يلحقهم البتة لحوق الامر المنتظر بل لمباشرتهم لاسبابه الموجبة له المؤدية اليه فكأنهم يقصدون اتيانه و يترصدون لوروده وقرىء بتذكير الفعل ﴿أو يأتى أمر ربك﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بأن اتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وان كان عذابا عليهم والمراد بالأمر العذاب الدنيوى لا القيامة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لانها ليست نصا فى العناد اذ يجوز أن يعتبر منع الخلو و يراد بايرادها كفاية كل واحد من الأمرين فى عذابهم بل لان قوله تعالى فيما سيأتى ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم الآية صريح فى أن المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوى ﴿كذلك﴾ أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم

والتكذيب والاستهزاء ﴿فعل الذين﴾ خلوا ﴿من قبلهم﴾ من الامم ﴿وماظلمهم الله﴾ بما سيتلى من عذابهم ﴿ولكن كانوا﴾ بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك ﴿أنفسهم يظلمون﴾ كان الظاهر أن يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما فى سورة الزخرف لكنه أوثر ماعليه النظم الكريم لافادة أن غائلة ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقه فى سورة يونس ﴿فأصابهم﴾ عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم ومابينهما اعتراض لبيان أن فعلهم ذلك ظلم لانفسهم ﴿سيئات ماعملوا﴾ أى أجزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم أن لهم أعمالا غير سيئاتهم ﴿وحاق بهم﴾ أى أحاط بهم من الحيق الذى هو احاطة الشر وهو أبلغ من الاصابة وأفظع ﴿ماكانوا به يستهزؤن﴾ من العذاب ﴿وقال الذين أشركوا﴾ أى أهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الاضمار الى الموصول لتقريعهم بما فى حيز الصلة وذمهم بذلك من أول الأمر ﴿لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شىء﴾ أى لوشاء عدم عبادتنا لشىء غيره كما تقول لما عبدنا ذلك ﴿نحن ولا آباؤنا﴾ الذين نقتدى بهم فى ديننا ﴿ولا حرمنا من دونه من شىء﴾ من السوائب والبحائر وغيرها وانما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرسالة رأسا متمسكين بأن ماشاء الله تعالى يجب ومالم يشأ يمتنع فلو أنه شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئا ولا نحرم مما حرمنا شيئا كما يقول الرسل و ينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الأمر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك ومايتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيئا من ذلك وانما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم فأجيب عنه بقوله عز وجل ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿فعل الذين من قبلهم﴾ من الامم أى أشركوا بالله وحرموا حله و ردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطا وهدوهم الى الحق ﴿فهل على الرسل﴾ الذين يبلغون رسالات الله وعزائم أمره ونهيه ﴿الا البلاغ المبين﴾ أى ليست وظيفتهم الا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا أو موضحا وابانة طريق الحق واظهار أحكام الوحى الذى من جملتها تحتم تعلق مشيئة الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره الى تحصيل الحق لقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأما الجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التى عليها يدور أمر التكليف فى شىء حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فان مايترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد لابد فى تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية له وصرف اختيارهم الجزئى الى تحصيله والا لكان الثواب والعقاب اضطراريين فالفاء للتعليل كأنه قيل كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شأنهم الا تبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه لا تحقيق مضمونهما واجراء موجبهما على الناس قسرا والجاء وايراد كلمة على للايذان بأنهم فى ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حق للناس عليهم ايفاؤه وبهذا ظهر أن حمل قولهم لوشاء الله الخ على الاستهزاء لايلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا﴾ تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بافعال العباد بعد بيان أن الالجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم أى بعثنا فى كل أمة من الامم الخالية رسولا خاصا بهم ﴿أن اعبدوا الله﴾ يجوز أن تكون أن مفسرة لما فى البعث من معنى القول وأن تكون مصدرية أى بعثنا بأن اعبدوا الله وحده ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ هو الشيطان وكل ما يدعو الى الضلالة ﴿فمنهم﴾ أى من تلك الامم والفاء فصيحة أى فبلغوا ما بعثوا به من الامر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فمنهم ﴿من هدى الله﴾ الى الحق الذى هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئى الى تحصيله ﴿ومنهم

من حقت عليه الضلالة ﴾ أى وجبت وثبتت الى حين الموت لعناده واصراره عليها وعدم صرف قدرته الى تحصيل الحق وتغيير الاسلوب للاشعار بأن ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها الا حسبما حصل منهم من التوجه الى الحق وعدمه الا بطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمهما على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده ﴿ فسيروا ﴾ يامعشر قريش ﴿ فى الارض فانظروا ﴾ فى أكنافها ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ من عادوثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب وترتيب الامر بالسير على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بأنه غنى عن البيان وأن ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما أنه بعده وأن ملاك الامر فى تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بأنه لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شىء ﴿ ان تحرص ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء بفتح الراء وهى لغية ﴿ على هداهم ﴾ أى ان تطلب هدايتهم بجهدك ﴿ فان الله لايهدى من يضل ﴾ أى فاعلم أنه تعالى لايخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على أنهم ممن حقت عليه الضلالة وللاشعار بعلة الحكم ويجوز أن يكون المذكور علة للجزاء المحذوف أى ان تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لان الله لا يهدى من يضله وهؤلاء من جملتهم وقرىء لا يهدى على بناء المفعول أى لايقدر أحد على هداية من يضله الله تعالى وقرىء لا يهدى بفتح الهاء وادغام تاء يهتدى فى الدال ويجوز أن يكون يهدى بمعنى يهتدى وقرىء يضل بفتح الياء وقرىء لا هادى لمن يضل ولمن أضل ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم فى الهداية أو يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع فى الناصرين باعتبار الجمعية فى الضمير فان مقابلة الجمع بالجمع يقتضى انقسام الآحاد الى الآحاد لا لأن المراد نفى طائفة من الناصرين من كل منهم ﴿ وأقسموا بالله ﴾ شروع فى بيان فن آخر من أباطيلهم وهو انكارهم البعث ﴿ جهد أيمانهم ﴾ مصدر فى موقع الحال أى جاهدين فى أيمانهم ﴿ لايبعث الله من يموت ﴾ ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله الحق ﴿ بلى ﴾ أى بلى يبعثهم ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فان ذلك موعد من الله سبحانه أو المحذوف أى وعد بذلك وعدا ﴿ عليه ﴾ صفة لوعد أى وعدا ثابتا عليه انجازه لامتناع الخلف فى وعده أو لأن البعث من مقتضيات الحكمة ﴿ حقا ﴾ صفة أخرى له أو نصب على المصدرية أى حق حقا ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه ومالايجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة التى جرت عادته سبحانه بمراعاتها ﴿ لايعلمون ﴾ أنه يبعثهم فيبتون القول بعدمه أو أنه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين ﴿ ليبين لهم ﴾ غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير لمن يموت اذ التبيين يعم المؤمنين أيضا فانهم وان كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الامر فيصل علمهم الى مرتبة عين اليقين أى يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الأحوال كما هى ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن ﴿ الذين يختلفون فيه ﴾ من الحق المنتظم لجميع ماخالفوه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا أوليا ﴿ وليعلم الذين كفروا ﴾ بالله سبحانه بالاشراك وانكار البعث وتكذيب وعده الحق ﴿ أنهم كانوا كاذبين ﴾ فى كل مايقولون لاسيما فى قولهم لايبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته وللاشعار بعلية ماذكر فى حيز الصلة للتبيين وماعطف عليه وجعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار وروده فى معرض الرد على المخالفين وابطال مقالة المعاندين المستدعى للتعرض لما يردعهم عن المخالفة

ويلجئهم الى الاذعان للحق فان الكفرة اذا علموا أن تحقيق البعث اذا كان لتبيين أنه حق وليعلموا انهم كاذبون فى انكاره كان ذلك أزجر لهم عن انكاره وأدعى الى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر أنك تصلى لأصلين رغما لانفك واظهارا لكذبك ولأن تكرر الغايات أدل على وقوع الفعل المغيا بها والا فالغاية الأصلية للبعث باعتبار ذاته انما هو الجزاء الذى هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وانما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره فى مواضع أخر وشهرته وانما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بل جىء بصيغة العلم لأن ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذى هو عبارة عن اظهار ما كان مبهما قبل ذلك بأن يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذى نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون واما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فما يتعلق به علم ضرورى حاصل لهم من قبل أنفسهم وقد مر تحقيقه فى سورة التوبة عند قوله تعالى حتى يتبين لك الذين صدقوا وانما خص الاسناد بهم حيث لم يقل وليعلموا أن الكافرين الآية لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضا ﴿ انما قولنا ﴾ استئناف لبيان كيفية التكوين على الاطلاق ابداء واعادة بعد التنبيه على انية البعث ومنه يظهر كيفيته فما كافة وقولنا مبتدأ وقوله ﴿ لشىء ﴾ أى أى شىء كان مما عز وهان متعلق به على أن اللام للتبليغ كهى فى قولك قلت له قم فقام وجعلها الزجاج سببية أى لأجل شىء وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا أنه كان شيأ قبل ذلك ﴿ اذا أردناه ﴾ ظرف لقولنا أى وقت ارادتنا لوجوده ﴿ أن نقول له كن ﴾ خبر للمبتدا ﴿ فيكون ﴾ اما عطف على مقدر يفصح عنه الفاء وينسحب عليه الكلام أى فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون واما جواب لشرط محذوف أى فاذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال انه يلزم منه أحد المحالين اما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل أو يقال انما يستدعيه انحصار قوله تعالى كن وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فان المراد بالأمر هو الشأن الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره فى كلمة كن انحصار أسبابه على الاطلاق فيه بل انما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى ذلك من طاعة المأمور المطيع لأمر الآمر المطاع فالمعنى انما إيجادنا الشىء عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده فى أسرع ما يكون ولما عبر عنه بالأمر الذى هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الايجاد بالقول المطلق فتأمل وفى الآية الكريمة من الفخامة والجزالة مايحار فيه العقول والالباب وقرىء بنصب يكون عطفا على نقول أو تشبيها له بجواب الأمر ﴿ والذين هاجروا فى الله ﴾ أى فى شأن الله تعالى ورضاه وفى حقه ولوجهه ﴿ من بعد ماظلموا ﴾ ولعلهم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا الى الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه ﴿ لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ﴾ أى مباءة حسنة أو تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الانسب بما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية وأما مانقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وعايس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام فأما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال ربح البيع ياصهيب وقال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فانما يناسب ماحكى عن الأصم من كون كل السورة مدنية ومانقل عن قتادة من كون هذه الآية الى آخر السورة مدنية فيحمل مانقلناه عنه من نزول الآية فى أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين وأما جعل

رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل وقرئ لنثوينهم ومعناه اثواءة حسنة أو لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل الشرق والغرب كافة ﴿ولأجر الآخرة﴾ أى أجر أعمالهم المذكورة فى الآخرة ﴿أكبر﴾ مما يعجل لهم فى الدنيا وعن عمر رضى الله عنه انه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر فى الآخرة أفضل ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الضمير للكفار أى لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم فى الدين وقيل للمهاجرين أى لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم من المهاجرة وشدائدها ﴿الذين صبروا﴾ على الشدائد من أذية الكفار ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ومحله النصب أو الرفع على المدح ﴿وعلى ربهم﴾ خاصة ﴿يتوكلون﴾ منقطعين اليه تعالى معرضين عما سواه مفوضين اليه الأمر كله والجملة اما معطوفة على الصلة وتقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل أو حال من ضمير صبروا ﴿وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم﴾ وقرئ بالياء مبنيا للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله أجل من أن يكون له رسول من البشر كما هو مبنى قولهم لو شاء الله ما عبدنا الخ أى جرت السنة الالهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لا يبعث للدعوة العامة الا بشرا يوحى اليهم بواسطة الملك أوامره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب اليهم فقيل ﴿فاسئلوا أهل الذكر﴾ أى أهل الكتاب أو علماء الأخبار أو كل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك ﴿ان كنتم لا تعلمون﴾ حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه وفيه دلالة على انه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا الى الملائكة أو الى الرسل ولا امرأة ولا صبيا ولا ينافيه نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو فى المهد لأنها أعم من الرسالة واشارة الى وجوب المراجعة الى العلماء فيما لا يعلم ﴿بالبينات والزبر﴾ بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمقدر وقع جوابا عن سؤال من قال بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر أو بما أرسلنا داخلا تحت الاستثناء مع رجالا عند من يجوزه أى ما أرسلنا الا رجالا بالبينات كقولك ماضربت الا زيدا بالسوط أو على نية التقديم قبل أداة الاستثناء أى ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا عند من يجوز تأخر صلة ما قبل الا الى ما بعده أو بما وقع صفة للمستثنى أى الا رجالا ملتبسين بالبينات أو بنوحى على المفعولية أو الحالية من القائم مقام فاعل يوحى وهو اليهم على أن قوله تعالى فاسئلوا اعتراض أو بقوله لا تعلمون على أن الشرط للتبكيت كقول الاجير ان كنت عملت لك فأعطنى حقى ﴿وأنزلنا اليك الذكر﴾ أى القرآن وانما سمى به لأنه تذكير وتنبيه للغافلين ﴿لتبين للناس﴾ كافة ويدخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا ﴿ما نزل اليهم﴾ فى ذلك الذكر من الأحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانا شافيا كما ينبئ عنه صيغة التفعيل فى الفعلين لاسيما بعد ورود الثانى أولا على صيغة الأفعال ولما أن التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الارشاد الى ما يدل عليه دخل تحته القياس على الاطلاق سواء كان فى الأحكام الشرعية أو غيرها ولعل قوله عز وجل ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ اشارة الى ذلك أى ارادة ان يتأملوا فيتنبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدى الى مثل ما أصاب الأولين من العذاب ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات﴾ هم أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن الايمان عليهم الرضوان لا الذين احتالوا لهلاك الأنبياء كما قيل ولا من يعم الفريقين لما أن المراد تحذير هؤلاء عن اصابة مثل ما أصاب أولئك من فنون العذاب المعدودة والسيئات نعت لمصدر محذوف أى مكروا المكرات السيئات

التى قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أى عملوا السيئات فقوله تعالى ﴿أن يخسف الله بهم الأرض﴾ مفعول لأمن أو السيئات صفة لما هو المفعول أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئة وقوله أن يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أنزلنا اليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذى من جملته أنباء الامم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا فى ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون على توجيه الانكار الى المعطوفين معا أو أتفكروا فأمنوا على توجيهه الى المعطوف على أن الامن بعد التفكر مما لا يكاد يفعله أحد وقيل هو عطف على مقدر ينبئ عنه الصلة أى أمكر فأمن الذين مكروا الخ ﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ باتيانه أى فى حالة غفلتهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون اتيان ما يشتهون كما حكى فيما سلف مما نزل بالماكرين ﴿أو يأخذهم فى تقلبهم﴾ أى فى حالة تقلبهم فى مسائرهم ومتاجرهم ﴿فما هم بمعجزين﴾ بممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير والفاء اما لتعليل الاخذ أو لترتيب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته وايراد الجملة الاسمية للدلالة على دوام النفى لا نفى الدوام ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أى مخافة وحذر عن الهلاك والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون وحيث كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة للهرب عبر عن اصابة العذاب فيهما بالاخذ وعن اصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالاتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم

تخوف الرحل منها تامكا قردا ... كما تخوف عود النبعة السفن

أى يأخذهم على أن ينقصهم شيئا بعد شئ فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا والمراد بذكر الاحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على اهلاكهم بأى وجه كان لا الحصر فيها ﴿فان ربكم لرؤف رحيم﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها ﴿أولم يروا﴾ استفهام انكارى وقرئ على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم ينظروا ولم يروا متوجهين ﴿الى ما خلق الله من شئ﴾ أى من كل شئ ﴿يتفيؤ ظلاله﴾ أى يرجع شيئا فشيئا حسبما يقتضيه ارادة الخالق تعالى فان التفيؤ مطاوع الافاءة وقرئ بتأنيث الفعل ﴿عن اليمين والشمائل﴾ أى ألم يروا الاشياء التى لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أى عن جانبى كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله ﴿سجدا لله﴾ حال من الظلال كقوله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال والمراد بسجودها تصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها لارادته تعالى فى الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقوله تعالى ﴿وهم داخرون﴾ أى صاغرون منقادون حال من الضمير فى ظلاله والجمع باعتبار المعنى وايراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب الى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فانها كل يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال أن أصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه تعالى ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به أو كلاهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظلال تلك الاجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما ولعل المراد بالموصول الجمادات من الجبال والاشجار والاحجار التى لا يظهر لظلالها أثر سوى التفيؤ بما ذكر من ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها وأما الحيوان فظله يتحرك بتحركه وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقى لان الكواكب منه تظهر آخذة فى الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربى المقابل له فان الظلال فى أول النهار تبتدئ من الشرق واقعة على الربع

الغربى من الارض وعند الزوال تبتدىء من الغرب واقعة على الربع الشرقى منها و بعد مابين سجود الظلال وأصحابها من الاجرام السفلية الثابتة فى أخبارها ودخورها لله سبحانه وتعالى شرع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة سواء كانت لها ظلال أو لا فقيل ﴿ولله يسجد﴾ أى له تعالى وحده يخضع و ينقاد لالشىء غيره استقلالا أو اشترا كا فالقصر ينتظم القلب والافراد الا أن الانسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن به قوله تعالى وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين ﴿مافى السموات﴾ قاطبة ﴿ومافى الارض﴾ كائنا ماكان ﴿من دابة﴾ بيان لما فى الارض وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين المبين والمبين فصل والافراد مع أن المراد الجمع لافادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ماأتانى من رجل مثله وماأتانى من الرجال مثله ﴿والملائكة﴾ عطف على مافى السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما واجلالا أو على أن يراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح أو يراد به ملائكة السموات و بقوله والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم ﴿وهم﴾ أى الملائكة مع علو شأنهم ﴿لا يستكبرون﴾ عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة اما حال من ضمير الفاعل فى يسجد مسند الى الملائكة او استئناف أخبر عنهم بذلك ﴿يخافون ربهم﴾ أى مالك أمرهم وفيه تربية للمهابة واشعار بعلة الحكم ﴿من فوقهم﴾ أى يخافونه جل وعلا خوف هيبة واجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده أو يخافون أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير فى لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لان من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته ﴿ويفعلون مايؤمرون﴾ أى مايؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده الى غيره سبحانه وفيه أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء و بعد مابين أن جميع الموجودات يخصون الخضوع والانقياد الطبيعى وما يجرى مجراه من عبادة الملائكة حيث لايتصور منهم عدم الانقياد أصلا لله عز وجل أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الاشراك فقيل ﴿وقال الله﴾ عطفا على قوله ولله يسجد واظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للايذان بأنه متعين الالوهية وانما المنهى عنه هو الاشراك به لا أن المنهى عنه مطلق اتخاذ الهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان أى قال تعالى لجميع المكلفين ﴿لاتتخذوا الهين اثنين﴾ وانما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك دلالة على أن مساق النهى هى الاثنينية وانها منافية للالوهية كما أن وصف الاله بالوحدة فى قوله تعالى ﴿انما هو اله واحد﴾ للدلالة على أن المقصود اثبات الوحدانية وأنها من لوازم الالهية وأما الالهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه واليه أشير حيث أسند اليه القول وفيه التفات من التكلم الى الغيبة على رأى من اكتفى فى تحقق الالتفات بكون الاسلوب الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه ﴿فاياى فارهبون﴾ التفات من الغيبة الى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة فى القلوب و لذلك قدم المفعول و كرر الفعل أى ان كنتم راهبين شيئا فاياى ارهبوا فارهبون لاغير فانى ذلك الواحد الذى يسجد له مافى السموات والارض ﴿وله مافى السموات والارض﴾ خلقا وملكا تقرير لعلة انقياد مافيها له سبحانه خاصة وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديم الظرف لتقوية مافى اللام من معنى الاختصاص وكذا فى قوله تعالى ﴿وله الدين﴾ أى الطاعة والانقياد ﴿واصبا﴾ أى واجبا ثابتا لازوال له لما تقرر أنه الاله وحده الحقيق بأن يرهب وقيل واصبا من الوصب أى وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء أى وله الجزاء الدائم بحيث لاينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر ﴿أفغير الله تتقون﴾ الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق أى أعقيب تقرر الشئون المذكورة من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى و كون ذلك كله له ونهيه

عن اتخاذ الانداد وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شأنه ماذكر تتقون فتطيعون ﴿وما بكم﴾ أى أى شىء يلابسكم ويصاحبكم ﴿من نعمة﴾ أية نعمة كانت ﴿فمن الله﴾ فهى من الله فما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول فان ملابسة النعمة بهم سبب للاخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى ﴿ثم اذا مسكم الضر﴾ مساسا يسيرا ﴿فاليه تجأرون﴾ تتضرعون فى كشفه لا الى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الاعشى

يراوح من صلوات المليك طورا سجودا وطورا جؤارا

وقرىء تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها الى ماقبلها وفى ذكر المساس المنبىء عن أدنى اصابة وايراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنى ماينطلق عليه اسم الجنس مع ايراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء الصاحبة وايراد ما المعربة عن العموم مالايخفى من الجزالة والفخامة ولعل ايراد اذا دون ان للتوسل به الى تحقق وقوع الجواب ﴿ثم اذا كشف الضر عنكم﴾ وقرىء كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادى زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل للدلالة على تراخى رتبة مايترتب عليه من مفاجأة الاشراك المدلول عليها بقوله سبحانه ﴿اذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ فان ترتبها على ذلك فى أبعد غاية من الضلال ثم ان وجه الخطاب الى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وان وجه الى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل اذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فمن تبعيضية أيضا والتعرض لوصف الربوبية للايذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الاشراك والكفران ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة وانكار كونها من الله عز وجل ﴿فتمتعوا﴾ أمر تهديد والالتفات الى الخطاب للايذان بتناهى السخط وقرىء بالياء مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على أن يكون كفران النعمة والتمتع غرضا لهم من الاشراك ويجوز أن يكون اللام لام الامر الوارد للتهديد ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة أمركم وماينزل بكم من العذاب وفيه وعيد أكيد منبىء عن أخذ شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا بأنه مما لا يوصف ﴿ويجعلون﴾ لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم أى يفعلون ما يفعلون من الجؤار الى الله تعالى عند مساس الضر ومن الاشراك به عند كشفه ويجعلون ﴿لما لا يعلمون﴾ أى لما لا يعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التى يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة وسفاهة ويزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو لما لا علم له أصلا وليس من شأنه ذلك فما موصولة أيضا والعائد اليها ما فى الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكون ما عبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء أو مصدرية واللام للتعليل أى لعدم علمهم والمجعول له محذوف للعلم بمكانه ﴿نصيبا مما رزقناهم﴾ من الزرع والأنعام وغيرهما تقربا اليها ﴿تالله لتسألن﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عما كنتم تفترون﴾ فى الدنيا بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب اليها وفى تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب المنبىء عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لايخفى ﴿ويجعلون لله البنات﴾ هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿ولهم مايشتهون﴾ من البنين وما مرفوعة المحل على أنه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض فى حاق موقعه وجعلها منصوبة بالعطف على

البنات أى يجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين يؤدى الى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم والاختيار ﴿واذا بشر أحدهم بالأنثى﴾ أى أخبر بولادتها ﴿ظل وجهه﴾ أى صار أو دام النهار كله ﴿مسودا﴾ من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش ﴿وهو كظيم﴾ ممتلئ حنقا وغيظا ﴿يتوارى﴾ أى يستخفى ﴿من القوم من سوء ما بشر به﴾ من أجل سوئه والتعبير عنها بما لاسقاطها عن درجة العقلاء ﴿أيمسكه﴾ أى مترددا فى أمره محدثا نفسه فى شأنه أيمسكه ﴿على هون﴾ ذل وقرئ هوان ﴿أم يدسه﴾ يخفيه ﴿فى التراب﴾ بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرئ بالتأنيث ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالى عن الصاحبة والولد والحال أنهم يتحاشون عنه و يختارون لانفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله سبحانه مع أبائهم اياه لاجعلهم البنين لانفسهم و لا عدم جعلهم له سبحانه و يجوز أن يكون مداره التعكيس لقوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ممن ذكرت قبائحهم ﴿مثل السوء﴾ صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة الى الولد ليقوم مقامه عند موتهم وايثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ و وضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة ﴿ولله﴾ سبحانه وتعالى ﴿المثل الأعلى﴾ أى الصفة العجيبة الشأن التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين و يدخل فيه علوه تعالى عما قالوه علوا كبيرا ﴿وهو العزيز﴾ المتفرد بكمال القدرة لاسيما على مؤاخذتهم بذنوبهم ﴿الحكيم﴾ الذى يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضا من جملة صفاته العجيبة تعالى ﴿ولو يؤاخذ الله الناس﴾ الكفار ﴿بظلمهم﴾ بكفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ماعدد من قبائحهم وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى وهو العزيز الحكيم وايذان بأن ما أتوه من القبائح قد تناهى الى أمد لاغاية وراءه ﴿ما ترك عليها﴾ على الأرض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى ﴿من دابة﴾ أى ما ترك عليها شيأ من دابة قط بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة وقيل لو أهلك الآباء لم يكن الابناء فيلزم أن لا يكون فى الأرض دابة لما أنها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴿ولكن﴾ لا يؤاخذهم بذلك بل ﴿يؤخرهم الى أجل مسمى﴾ لاعمارهم أو لعذابهم كى يتوالدوا أو يكثر عذابهم ﴿فاذا جاء أجلهم﴾ المسمى ﴿لا يستأخرون﴾ عن ذلك الاجل أى لا يتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له ﴿ساعة﴾ فذة وهى مثل فى قلة المدة ﴿ولا يستقدمون﴾ أى لا يتقدمون وانما تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجئ الاجل مبالغة فى بيان عدم الاستئخار بنظمه فى سلك ما يمتنع كما فى قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن و لا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع أنه لا توبة له رأسا قد نظم فى سمط من لم تقبل توبته للايذان بأنهما سيان فى ذلك وقد مر فى تفسير سورة يونس ﴿ويجعلون لله﴾ أى يثبتون له سبحانه و ينسبون اليه فى زعمهم ﴿ما يكرهون﴾ لانفسهم مما ذكر وهو تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ أى يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو ﴿أن لهم الحسنى﴾ العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وقرئ الكذب وهو جمع الكذوب على أنه صفة الألسنة ﴿لا جرم﴾ رد لكلامهم ذلك

واثبات لنقيضه أى حقا ﴿أن لهم﴾ مكان ما أملوا من الحسنى ﴿النار﴾ التى ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوأى ﴿وأنهم مفرطون﴾ أى مقدمون اليها من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته وقرئ بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء و بكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الاخروية كما عطف عليه ﴿تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة و وعيد لهم على ذلك أى أرسلنا اليهم رسلا فدعوهم الى الحق فلم يجيبوا الى ذلك ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ القبيحة فعكفوا عليها مصرين ﴿فهو وليهم﴾ أى قرينهم و بئس القرين ﴿اليوم﴾ أى يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية أو فى الدنيا أو يوم القيامة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر أى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز أن يكون الضمير عائدا الى مشركى قريش والمعنى زين للامم السالفة أعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم وأن يكون على حذف المضاف أى ولى أمثالهم ﴿ولهم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ هو عذاب النار ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب﴾ أى القرآن ﴿الا لتبين﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى ما أنزلناه عليك لعلة من العلل الا لتبين ﴿لهم﴾ أى للناس ﴿الذى اختلفوا فيه﴾ من التوحيد والقدر واحكام الافعال وأحوال المعاد ﴿وهدى ورحمة﴾ معطوفان على محل لتبين أى وللهداية والرحمة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وانما انتصبا لكونهما أثرى فاعل الفعل المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان شرطه ولعل تقديمه عليهما لتقدمه فى الوجود وتخصيص كونهما هدى و رحمة بالمؤمنين لانهم المغتنمون آثاره ﴿والله أنزل من السماء﴾ من السحاب أو من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير لما سبق تأكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من أدلة التوحيد ﴿ماء﴾ نوعا خاصا من الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر فأحيى به الارض بما أنبت به فيها من أنواع النباتات ﴿بعد موتها﴾ أى بعد يبسها وما يفيده الفاء من التعقيب العادى لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى انزال الماء من السماء واحياء الارض الميتة به ﴿لآية﴾ وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته ﴿لقوم يسمعون﴾ هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكأن من ليس كذلك أصم ﴿وان لكم فى الانعام لعبرة﴾ عظيمة وأى عبرة تحار فى دركها العقول وتهيم فى فهمها ألباب الفحول ﴿نسقيكم﴾ استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة ﴿مما فى بطونه﴾ أى بطون الانعام والتذكير هنا لمراعاة جانب اللفظ فانه اسم جمع و لذلك عده سيبويه فى المفردات المبنية على أفعال كأكياش وأخلاق كما أن تأنيثه فى سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن ليس لجميعها أو له على المعنى فان المراد به الجنس وقرئ بفتح النون ههنا و فى سورة المؤمنين ﴿من بين فرث ودم لبنا﴾ الفرث فضالة ما يبقى من العلف فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى فى المعاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف فى كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما ولعل المراد به أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذى يغذو البدن لان عدم تكونهما فى الكرش مما لا ريب فيه بل الكبد تجذب صفاوة الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الاعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ثم ان كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا لاجل الجنين الى

الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه الى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغذوية البيض و يلذ طعمه فيصير لبنا ومن تدبر فى بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقارها ومجاريها والاسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر الى الاعتراف بكمال علمه وقدرته وحكمته وتناهى رأفته و رحمته فمن الاولى تبعيضية لما أن اللبن بعض مافى بطونه لانه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التى فى الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كقولك سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء وهى متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ماحقه التأخير يبعث للنفس شوقا الى المؤخر موجبا لفضل تمكنه عند وروده عليها لاسيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذى نحن فيه فان بين وصفى المقدم والمؤخر تنافيا وتنائيا بحيث لايترامى ناراهما فانذلك مما يزيد الشوق والاستشراف الى المؤخر كما فى قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا أو حال من لبنا قدم عليه لتنكيره والتنبيه على أنه موضع العبرة ﴿خالصا﴾ عن شائبة مافى الدم والفرث من الاوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغى أحدهما عليه مع كونهما مكتنفين له ﴿سائغا للشاربين﴾ سهل المرور فى حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن وقرئ سيغا بالتشديد و بالتخفيف مثل هين وهين ﴿ومن ثمرات النخيل والاعناب﴾ متعلق بما يدل عليه الاسقاء من مطلق الاطعام المنتظم لاعطاء المطعوم والمشروب فان اللبن مطعوم كما أنه مشروب أى ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الاعناب أى من عصيرهما وقوله تعالى ﴿تتخذون منه سكرا﴾ استئناف لبيان كنه الاطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدا محذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف اذا كان فى الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لانه للمضاف المحذوف أعنى العصير أو لأن المراد هو الجنس والسكر مصدر سمى به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم ﴿ورزقا حسنا﴾ كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية ان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها والا فجامعة بين العتاب والمنة ﴿ان فى ذلك لآيات﴾ باهرة ﴿لقوم يعقلون﴾ يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل ﴿وأوحى ربك الى النحل﴾ أى ألهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجه لا يعلمه الا العليم الخبير وقرئ بفتحتين ﴿أن اتخذى﴾ أى بأن اتخذى على أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكر للحمل على معنى أو لأنه جمع نحلة والتأنيث لغة أهل الحجاز ﴿من الجبال بيوتا﴾ أى أوكارا مع مافيها من الخلايا وقرئ بيوتا بكسر الباء ﴿ومن الشجر ومما يعرشون﴾ أى يعرشه الناس أى يرفعه من كرم أو سقف وقيل المراد به مايرفعه الناس ويبنونه للنحل والمعنى اتخذى لنفسك بيوتا من الجبال والشجر اذا لم يكن لك أرباب والا فاتخذى مايعرشونه لك وايراد حرف التبعيض لما أنها لاتبنى فى كل جبل وكل شجر وكل عرش ولا فى كل مكان منها ﴿ثم كلى من كل الثمرات﴾ من كل ثمرة تشتهينها حلوها ومرها ﴿فاسلكى﴾ ماأكلت منها ﴿سبل ربك﴾ أى مسالكه التى برأها بحيث يحيل فيها بقدرته القاهرة النور المر عسلا من أجوافك أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل أو فاسلكى راجعة الى بيوتك سبل ربك لاتتوعر عليك ولا تلتبس ﴿ذللا﴾ جمع ذلول وهو حال من السبل أى مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك أو من الضمير فى اسلكى أى اسلكى منقادة لما أمرت به ﴿يخرج من بطونها﴾ استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان مايظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التى هى موضع العبرة بعد ماأمرت بما أمرت ﴿شراب﴾ أى عسل لانه مشروب واحتج به وبقوله تعالى كلى من زعم أن النحل تأكل

الازهار والاوراق العطرة فتستحيل فى بطنها عسلا ثم تقئ ادخارا للشتاء ومن زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الازهار والاوراق وتضعها فى بيوتها فاذا اجتمع فيها شئ كثير يكون عسلا فسر البطون بالافواه ﴿مختلف ألوانه﴾ أبيض وأسود وأصفر وأحمر حسب اختلاف سن النحل أو الفصل أو الذى أخذت منه العسل ﴿فيه شفاء للناس﴾ اما بنفسه كما فى الامراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الامراض اذ قلما يكون معجون لايكون فيه عسل مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعية ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخى يشتكى بطنه فقال عليه الصلاة والسلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرئ كأنما انشط من عقال وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله تعالى من أحوال النحل وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن ﴿ان فى ذلك﴾ الذى ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿لآية﴾ عظيمة ﴿لقوم يتفكرون﴾ فان من تفكر فى اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التى لايقدر عليها حذاق المهندسين الا بآلات رقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله ﴿والله خلقكم﴾ لما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ماذكر من الماء والنبات والانعام والنحل أشار الى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره الى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع الاولى سن النشو والنماء والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب والثالثة سن الانحطاط القليل وهى سن الكهولة والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سن الشيخوخة ﴿ثم يتوفاكم﴾ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا ﴿ومنكم من يرد﴾ قبل توفيه أى يعاد ﴿الى أرذل العمر﴾ أى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ماروى عن على رضى الله عنه وتسعون سنة على مانقل عن قتادة رضى الله عنه وقيل خمس وتسعون وايثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للايذان بأن بلوغه والوصول اليه رجوع فى الحقيقة الى الضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه فى الخلق ولا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم الذى يشبه الطفل فى نقصان العقل والقوة ﴿لكيلا يعلم بعد علم﴾ كثير ﴿شيئاً﴾ من العلم أو من المعلومات أو لكيلا يعلم شيئاً بعد علم بذلك الشئ وقيل لئلا يعقل بعد عقله الاول شيئاً ﴿ان الله عليم﴾ بمقادير أعماركم ﴿قدير﴾ على كل شئ يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ ﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾ أى جعلكم متفاوتين فيه فاعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم ﴿فما الذين فضلوا﴾ فيه على غيرهم ﴿برادى رزقهم﴾ الذى رزقهم اياه ﴿على ماملكت أيمانهم﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم فى المخلوقية والمرزوقية ﴿فهم﴾ أى الملاك والمماليك ﴿فيه﴾ أى فى الرزق ﴿سواء﴾ أى لايردونه عليهم بحيث يساوونهم فى التصرف ويشاركونهم فى التدبير والفاء للدلالة على ترتيب التساوى على الرد أى لايردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوى وانما يردون عليهم منه شيئاً يسيرا فحيث لايرضون بمساواة مماليكهم لانفسهم وهم أمثالهم فى البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه فى شئ لايختص بهم بل يعمهم واياهم من الرزق الذى هم اسوة لهم فى استحقاقه فما بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لايليق الا به من الالوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذى هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة مافعله المشركين تقريعا عليهم كقوله تعالى هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء

فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء الآية ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ حيث يفعلون مايفعلون من الاشراك فان ذلك يقتضى أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم الى شركائهم و يجحدوا كونها من عند الله تعالى أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ماأنعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء للعطف على مقدر وهى داخلة فى المعنى على الفعل أى أيشركون به فيجحدون نعمته وقرىء تجحدون على الخطاب أو ليس الموالى برادى رزقهم على مماليكهم بل أنا الذى أرزقهم واياهم فلا يحسبوا انهم يعطونهم شيئاً وانما هو رزقى أجريه على أيدهم فهم جميعا فى ذلك سواء لامزية لهم على مماليكهم ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو رد على زعم المفضلين أو على فعلهم المؤذن بذلك أو ما المفضلون برادى بعض فضلهم على مماليكهم فيتساووا فى ذلك جميعا مع أن التفضيل ليس الا ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون ألا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كأنه قيل فلم يردوه عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون فما رؤى عبده بعد ذلك الا و رداؤه رداؤه وازاره ازاره من غير تفاوت ﴿والله جعل لكم من أنفسكم﴾ أى من جنسكم ﴿أزواجا﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام ﴿وجعل لكم من أزواجكم﴾ وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بأن المراد جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره ﴿بنين﴾ وبأن نتيجة الازواج هو التوالد ﴿وحفدة﴾ جمع حافد وهو الذى يسرع فى الخدمة والطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى جعل لكم خدما يسرعون فى خدمتكم وطاعتكم فقيل المراد بهم أولاد الاولاد وقيل البنات عبر عنهن بذلك ايذانا بوجه المنة فانهن يخدمن البيوت أتم خدمة وقيل أولاد المرأة من الزوج الأول وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الاختان على البنات وتأخير المنصوب فى الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديم المجرور باللام على المجرور بمن للايذان من أول الأمر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية له أى جعل لمصلحتكم مما يناسبكم أزواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من اللذائذ أو من الحلالات ومن للتبعيض اذ المرزوق فى الدنيا أنموذج لما فى الآخرة ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو أن الاصنام تنفعهم وأن البحائر ونحوها حرام والفاء فى المعنى داخلة على الفعل وهى للعطف على مقدر أى أيكفرون بالله الذى شأنه هذا فيؤمنون بالباطل أو أبعد تحقق ماذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه ﴿وبنعمة الله﴾ تعالى الفائضة عليهم مما ذكر ومما لايحيط به دائرة البيان ﴿هم يكفرون﴾ حيث يضيفونها الى الاصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام أو لايهام الاختصاص مبالغة أو لرعاية الفواصل والالتفات الى الغيبة للايذان باستيجاب حالهم للاعراض عنهم وصرف الخطاب الى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه ﴿ويعبدون من دون الله﴾ لعله عطف على يكفرون داخل تحت الانكار التوبيخى أى أيكفرون بنعمة الله و يعبدون من دونه ﴿مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيأ﴾ ان جعل الرزق مصدرا فشيأ نصب على المفعولية منه أى مالا يقدر على أن يرزقهم شيأ لا من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وان جعل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والارض صفة لرزقا أى كائنا منهما ويجوز كونه تأكيدا للايملك أى لايملك رزقا ما شيأ من الملك ﴿ولا يستطيعون﴾ أن يملكوه اذ لا استطاعة لهم رأسا لانها موات لا حراك بها فالضمير للآلهة و يجوز أن يكون للكفرة على معنى انهم مع كونهم أحياء متصرفين فى الامور لا يستطيعون من ذلك شيأ فكيف بالجماد الذى لاحس به ﴿فلا تضربوا لله الامثال﴾

التفات الى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهى أى لاتشركوا به شيأ والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد الى النهى عن الاشراك به تعالى فى شأن من الشؤن فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أى لاتشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤن واللام مثلها فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون لامثلها فى قوله تعالى واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ونظائره والفاء للدلالة على ترتب النهى على ماعدد من النعم الفائضة عليهم من جهته سبحانه وكون مايشركون به تعالى بمعزل من أن يملك لهم من أقطار السموات والأرض شيئا من رزق ما فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل فى الرزق ونعمة الازواج والاولاد ﴿ان الله يعلم﴾ تعليل للنهى المذكور ووعيد على المنهى عنه أى أنه تعالى يعلم كنه ماتأتون وما تذرون وأنه فى غاية العظم والقبح ﴿وأنتم لاتعلمون﴾ ذلك والا لما فعلتموه أو أنه تعالى يعلم كنه الاشياء وأنتم لاتعلمونه فدعوا رأيكم وقفوا مواقف الامتثال لما ورد عليكم من الامر والنهى و يجوز أن يراد فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لاتعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوى الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الامثال فى هذا الباب فقال ﴿ضرب الله مثلا﴾ أى ذكر وأورد شيأ يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز وجل و بين ماأشركوا به وعلى تباعدهما بحيث ينادى بفساد ماارتكبوه نداء جليا ﴿عبدا مملوكا لايقدر على شىء﴾ بدل من مثلا وتفسير له والمثل فى الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام و بحسبها ضرب نفسه مثلا و وصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما فى كونهما عبدان لله سبحانه وقد أدمج فيه أن الكل عبيد له تعالى و بعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف فى الجملة وفى ابهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر مالا يخفى من الفخامة والجزالة ﴿ومن رزقناه﴾ من موصوفة معطوفة على عبدا أى رزقناه بطريق الملك والالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالى ضرب المثل والرزق ﴿منا﴾ من جنابنا الكبير المتعالى ﴿رزقا حسنا﴾ حلالا طيبا أو مستحسنا عند الناس مرضيا ﴿فهو ينفق منه﴾ تفضلا واحسانا والفاء لترتيب الانفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فأنفق وايثار ماعليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الانفاق واستمراره التجددى ﴿سرا وجهرا﴾ أى حال السر والجهر أو انفاق سر وانفاق جهر والمراد بيان عموم انفاقه للاوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة الى أصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر على الجهر للايذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرا مالكا للاموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخى تحقيق الحق بأن الأحرار أيضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وأن مالكيتهم لما يملكونه ليست الا بأن يرزقهم الله تعالى اياه من غير أن يكون لهم مدخل فى ذلك مع محاولة المبالغة فى الدلالة على ماقصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فان العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين ﴿هل يستوون﴾ جمع الضمير للايذان بأن المراد بما ذكر من اتصف بالاوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما أى هل يستوى العبيد والاحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ماينفقه الاحرار ليس مما لهم دخل فى ايجاده ولا فى تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى اياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به مالا ذليل أذل منه وهو الاصنام ﴿الحمد لله﴾ أى كله له لأنه مولى جميع النعم لايستحقه أحد غيره وان ظهرت على أيدى بعض الوسايط فضلا عن استحقاق العبادة وفيه ارشاد الى ماهو الحق من أن مايظهر على يد من ينفق مما ذكر راجع الى الله سبحانه كما لوح به قوله تعالى رزقناه ﴿بل أكثرهم لايعلمون﴾ ماذكر فيضيفون نعمه تعالى الى غيره

و يعبدونه لاجلها ونفى العلم عن أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وانما لايعلمون بموجبه عنادا كقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴿وضرب الله مثلا﴾ أى مثلا آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على وجه أوضح وأظهر و بعد ماأبهم ذلك لتنتظر النفس الى وروده وتترقبه حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ وهو من ولد أخرس ﴿لايقدر على شئ﴾ من الاشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره بحدس أوفراسة لقلة فهمه وسوء ادراكه ﴿وهو كل﴾ ثقل وعيال ﴿على مولاه﴾ على من يعوله و يلى أمره وهذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شئ مطلقا وقوله تعالى ﴿أينما يوجهه﴾ أى حيث يرسله مولاه فى أمر بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرئ على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضى من التوجه ﴿لايأت بخير﴾ بنجح وكفاية مهم البتة ﴿هل يستوى هو﴾ مع مافيه من الاوصاف المذكورة ﴿ومن يأمر بالعدل﴾ أى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية و رشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل ﴿وهو﴾ فى نفسه مع ماذكر من نفعه العام للخاص والعام ﴿على صراط مستقيم﴾ ومقابلة الصفات المذكورة بهذين الوصفين لانهما فى حاق مايقابلها فان محصل الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه و بين ماهو المقصود من بيان التباين بين القرينتين واعلم أن كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضى بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد أن يقال ان الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ماهما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين مايشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضى ﴿ولله﴾ تعالى خاصة لالاحد غيره استقلالا ولا اشتراكا ﴿غيب السموات والارض﴾ أى الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لاسبيل لهم اليها لامشاهدة ولا استدلالا ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما اما باعتبار الوقوع فيهما حالا أو مآلا واما باعتبار الغيبة عن أهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبية لامن حيث المخلوقية والمملوكية وان كان الأمر كذلك فى نفس الأمر وفيه اشعار بأن علمه سبحانه حضورى فان تحقق الغيوب فى أنفسها علم بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والارض ﴿وما أمر الساعة﴾ التى هى أعظم ماوقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتها عن أهلهما أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وان كان انيتها من الغيوب التى نصبت عليها الادلة أى ماشأنها فى سرعة المجئ ﴿الا كلمح البصر﴾ أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ﴿أوهو﴾ أى بل أمرها فيما ذكر ﴿أقرب﴾ من ذلك وأسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فان ذلك وان قصر عن حركة آنية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام الى أبعاض هى أزمنة أيضا بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو آن ابتداء تلك الحركة أو ما أمرها الا كالشئ الذى يستقرب و يقال هو كلمح البصر أو هو أقرب وأياما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالاتيان ﴿ان الله على كل شئ قدير﴾ ومن جملة الاشياء أن يجئ بها أسرع مايكون فهو قادر على ذلك أو وما أمر اقامة الساعة التى كنهها وكيفيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهى اماتة الاحياء واحياء الاموات من الأولين والآخرين وتبديل صور الاكوان أجمعين وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل مالايدخل تحت الامكان فى سرعة الوقوع وسهولة التأتى الا كلمح البصر أو هو أقرب على مامر من الوجهين ان الله على كل شئ قدير فهو قادر على ذلك لامحالة وقيل غيب السموات والارض عبارة عن

يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائب عن أهلهما فوضع الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ عطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى والله أنزل من السماء ماء وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض والامهات بضم الهمزة وقرئ بكسرها أيضا جمع الام زيدت الهاء فيه كما زيدت فى اهراق من اراق وشذت زيادتها فى الواحدة قال أمهتى خندف والياس أبى ﴿لاتعلمون شيئا﴾ فى موقع الحال أى غير عالمين شيئا أصلا ﴿وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة﴾ عطف على أخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على أن أثر ذلك الجعل لايظهر قبل الاخراج أى جعل لكم هذه الاشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الاشياء وتدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الايذان من أول الأمر بكون المجعول نافعا لهم وتشويق النفس الى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿لعلكم تشكرون﴾ كى تعرفوا ما أنعم به عليكم طورا غب طور فتشكروه وتقديم السمع على البصر لما أنه طريق تلقى الوحى أو لان ادراكه أقدم من ادراك البصر وافراده باعتبار كونه مصدرا فى الأصل ﴿ألم يروا﴾ وقرئ بالتاء ﴿الى الطير﴾ جمع طائر أى ألم ينظروا اليها ﴿مسخرات﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المساعدة له وفيه مبالغة من حيث ان معنى التسخير جعل الشئ منقادا لآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك والدواب للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿فى جو السماء﴾ أى فى الهواء المتباعد من الارض والسكاك واللوح أبعد منه واضافته الى السماء لما أنه فى جانبها من الناظر و لاظهار كمال القدرة ﴿مايمسكهن﴾ فى الجو حين قبض أجنحتهن و بسطها و وقوفهن ﴿الا الله﴾ عز وجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسدها و رقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وهو اما حال من الضمير المستتر فى مسخرات أو من الطير واما مستأنف ﴿ان فى ذلك﴾ الذى ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذنابا كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث اذا بسطت أجنحتها وأذنابها لايطيق ثقلها يخرق ماتحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق مابين يديها من الهواء لانها لاتلاقيه بحجم كبير ﴿لآيات﴾ ظاهرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ أى من شأنهم أن يؤمنوا وانما خص ذلك بهم لانهم المنتفعون به ﴿والله جعل لكم﴾ معطوف على مامر وتقديم لكم على ما سيأتى من المجرور والمنصوب لما مر من الايذان من أول الامر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس الى وروده وقوله تعالى ﴿من بيوتكم﴾ أى من بيوتكم المعهودة التى تبنونها من الحجر والمدر تبيين لذلك المجعول المبهم فى الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق ﴿سكنا﴾ فعل بمعنى مفعول أى موضعا تسكنون فيه وقت اقامتكم أو تسكنون اليه من غير أن ينتقل من مكانه أى جعل بعض بيوتكم بحيث تسكنون اليه وتطمئنون به ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ أى بيوتا أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة هى الخيام والقباب والاخبية والفساطيط ﴿تستخفونها﴾ تجدونها خفيفة سهلة المأخذ ﴿يوم ظعنكم﴾ وقت ترحالكم فى النقض والحمل والنقل وقرئ بفتح العين ﴿ويوم اقامتكم﴾ وقت نزولكم فى الضرب والبناء ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾ عطف على قوله تعالى من جلود والضمائر للأنعام على وجه التنويع أى

وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز ﴿أثاثا﴾ أى متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث ﴿ومتاعا﴾ أى شيئاً يتمتع به بفنون التمتع ﴿الى حين﴾ الى أن تقضوا منه أوطاركم أو الى أن يبلى ويفنى فانه فى معرض البلا والفناء وقيل الى أن تموتوا والكلام فى ترتيب المفاعيل مثل مامر من قبل ﴿والله جعل لكم مما خلق﴾ من غير صنع من قبلكم ﴿ظلالا﴾ أشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ مواضع تسكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام فى الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذى مر غير مرة ﴿وجعل لكم سرابيل﴾ جمع سربال وهو كل مايلبس أى جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿تقيكم الحر﴾ خصه بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر أو لان وقايته هى الأهم عندهم لما مر آنفا ﴿وسرابيل﴾ من الدروع والجواشن ﴿تقيكم بأسكم﴾ أى البأس الذى يصل الى بعضكم من بعض فى الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال وجعل لكم من جلود الأنعام الخ ثم بما يعم من لايقدر على ذلك ولا يأويه الا الظلال حيث قال وجعل لكم مما خلق ظلالا الخ ثم بما لابد منه لاحد حيث قال وجعل لكم سرابيل الخ ثم بما لاغنى عنه فى الحروب حيث قال وسرابيل تقيكم بأسكم ثم قال ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الاتمام البالغ ﴿يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ أى ارادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لامره وافراد النعمة اما لان المراد بها المصدر أو لاظهار أن ذلك بالنسبة الى جانب الكبرياء شىء قليل وقرىء تسلمون أى تسلمون من العذاب أو من الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع ﴿فان تولوا﴾ فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له أى فان أعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا منك ما ألقى اليهم من البينات والعبر والعظات ﴿فانما عليك البلاغ المبين﴾ أى فلا قصور من جهتك لان وظيفتك هى البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لامزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب ﴿يعرفون نعمة الله﴾ استئناف لبيان أن توليهم واعراضهم عن الاسلام ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى أصلا فانهم يعرفونها و يعترفون أنها من الله تعالى ﴿ثم ينكرونها﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم انها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا وقيل نعمة الله تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروها عنادا ومعنى ثم لاستبعاد الانكار بعد المعرفة لان حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الانكار واسناد المعرفة والانكار المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الاطلاق من باب اسناد حال البعض الى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ أى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لاينافى كمال الفرقة الاولى من حيث الكيفية هنا وقد قيل ذكر الاكثر اما لان بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل أو التفريط فى النظر أو لم يقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف فتدبر ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا﴾ يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها ﴿ثم لايؤذن للذين كفروا﴾ فى الاعتذار اذ لاعذر لهم وثم للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبىء عن الاقناط الكلى وهو عندما يقال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون أشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم وأطم ﴿ولاهم يستعتبون﴾ يسترضون أى

لايقال لهم أرضوا ربكم اذ الآخرة دار الجزاء لادار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر أو خوفهم يوم نبعث الخ أو يوم نبعث يحيق بهم مايحيق مما لايوصف وكذا قوله تعالى ﴿واذا رأى الذين ظلموا العذاب﴾ الذى يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم ﴿فلا يخفف عنهم﴾ ذلك ﴿ولاهم ينظرون﴾ أى يمهلون كقوله تعالى بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ﴿واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا وهم الاوثان أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر بالحمل عليه وقارنوهم فى الغى والضلال ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾ أى نعبدهم أو نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا فى توزيع العذاب بينهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿فألقوا﴾ أى شركاؤهم ﴿اليهم القول انكم لكاذبون﴾ فان تكذيبهم اياهم فيما قالوا ليس الا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه وانما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لان الاوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لانحن أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله سبحانه عن الشريك والشياطين وان كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والالجاء كما قال ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فكأنهم قالوا ماعبدتمونا حقيقة بل انما عبدتم أهواءكم ﴿وألقوا﴾ أى الذين أشركوا ﴿الى الله يومئذ السلم﴾ الاستسلام والانقياد لحكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه فى الدنيا ﴿وضل عنهم﴾ أى ضاع وبطل ﴿ماكانوا يفترون﴾ من أن لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرون ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم ﴿الذين كفروا﴾ فى أنفسهم ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ بالمنع عن الاسلام والحمل على الكفر ﴿زدناهم عذابا فوق العذاب﴾ الذى كانوا يستحقونه بكفرهم قيل فى زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع احداهن فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا وقيل يخرجون من النار الى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد الى النار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ متعلق بقوله زدناهم أى زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الافساد وهو الصد المذكور ﴿ويوم نبعث﴾ تكرير لما سبق تثنية للتهديد ﴿فى كل أمة شهيدا عليهم﴾ أى نبيا ﴿من أنفسهم﴾ من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفى قوله تعالى عليهم اشعار بأن شهادة أنبيائهم على الامم تكون بمحضر منهم ﴿وجئنا بك﴾ ايثار لفظ المجىء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ﴿شهيدا على هؤلاء﴾ الأمم وشهدائهم كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل على أمتك والعامل فى الظرف محذوف كما مر والمراد به يوم القيامة ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ الكامل فى الكتابية الحقيق بأن يخص باسم الجنس وهو اما استئناف أو حال بتقدير قد ﴿تبيانا﴾ بيانا بليغا ﴿لكل شىء﴾ يتعلق بأمور الدين ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا عليهم وكذا من جملته ماأخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداء وبعثه عليه السلام شهيدا عليهم عليهم الصلاة والسلام والتبيان كالتلقاء فى كسر أوله وكونه تبيانا لكل شىء من أمور الدين باعتبار أن فيه نصا على بعضها واحالة لبعضها على السنة حيث أمر باتباع النبى عليه السلام وطاعته وقيل فيه وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته باتباع أصحابه حيث قال أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس مستندة الى تبيان الكتاب ولم يضر مافى البعض من الخفاء فى كونه تبيانا فان المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل فى قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد انه من قولك فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه وما للظالمين من أنصار ﴿وهدى ورحمة﴾ للعالمين فان حرمان الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿وبشرى

للمسلمين﴾ خاصة أو يكون كل ذلك خاصا بهم لانهم المنتفعون بذلك ﴿ان الله يأمر﴾ أى فيما نزله تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وايثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار ﴿بالعدل﴾ بمراعاة التوسط بين طرفى الافراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجرمزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والخمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير ﴿والاحسان﴾ أى الاتيان بما أمر به على الوجه اللائق وهو اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما يشير اليه قوله صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ﴿وايتاء ذى القربى﴾ أى اعطاء الاقارب ما يحتاجون اليه وهو تخصيص اثر تعميم اهتماما بشأنه ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ الافراط فى مشايعة القوة الشهوية كالزنى مثلا ﴿والمنكر﴾ ماينكر شرعا أو عقلا من الافراط فى اظهار آثار القوة الغضبية ﴿والبغى﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية وليس فى البشر شر الا وهو مندرج فى هذه الاقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبيانا لكل شئ وهدى ﴿يعظكم﴾ بما يأمر وينهى وهو اما استئناف واما حال من الضميرين فى الفعلين ﴿لعلكم تذكرون﴾ طلبا لان تتعظوا بذلك ﴿وأوفوا بعهد الله﴾ هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ﴿اذا عاهدتم﴾ أى حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ولا تنقضوا الأيمان﴾ التى تحلفون بها عند المعاهدة ﴿بعد توكيدها﴾ حسبما هو المعهود فى أثناء العهود لا على أن يكون النهى مقيدا بالتوكيد مختصا به ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ من نقض الايمان والعهود فيجازيكم على ذلك ﴿ولا تكونوا﴾ فيما تصنعون من النقض ﴿كالتى نقضت غزلها﴾ أى ماغزلته مصدر بمعنى المفعول ﴿من بعد قوة﴾ متعلق بنقضت أى كالمرأة التى نقضت غزلها من بعد ابرامه واحكامه ﴿أنكاثا﴾ طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها أو على أنه مفعول ثان لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاء المعتوهة. قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن ﴿تتخذون أيمانكم دخلا بينكم﴾ حال من الضمير فى لا تكونوا أو فى الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أى مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم وأصل الدخل ما يدخل الشئ ولم يكن منه ﴿أن تكون أمة﴾ أى بأن تكون جماعة ﴿هى أربى﴾ أى أزيد عددا وأوفر مالا ﴿من أمة﴾ من جماعة أخرى أى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة منابذيهم وقوتهم كقريش فانهم كانوا اذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم ﴿انما يبلوكم الله به﴾ أى بأن تكون أمة أربى من أمة أى يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله عليه السلام أم تغترون بكثرة قريش

وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال ﴿وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ حين جازاكم بأعمالكم ثوابا وعقابا ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئة قسر والجاء ﴿لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على الاسلام ﴿ولكن﴾ لا يشاء ذلك لكونه مزاحما لقضية الحكمة بل ﴿يضل من يشاء﴾ إضلاله أى يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئى اليه ﴿ويهدى من يشاء﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره الى تحصيلها ﴿ولتسألن﴾ جميعا يوم القيامة ﴿عما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا وهذا اشارة الى ما لوح به من الكسب الذى عليه يدور أمر الهداية والضلال ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم﴾ تصريح بالنهى عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة فى بيان قبح المنهى عنه وتمهيدا لقوله سبحانه ﴿فتزل قدم﴾ عن محجة الحق ﴿بعد ثبوتها﴾ عليها ورسوخها فيها بالايمان وافراد القدم وتنكيرها للايذان بأن زلل قدم واحدة أى قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة ﴿وتذوقوا السوء﴾ أى العذاب الدنيوى ﴿بما صددتم﴾ بصدودكم أو بصدكم غيركم ﴿عن سبيل الله﴾ الذى ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان فان من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره ﴿ولكم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله﴾ أى لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله عليه السلام أو آياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والايمان ﴿ثمنا قليلا﴾ أى لا تستبدلوا بها عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا ﴿انما عند الله﴾ عز وجل من النصر والتغنيم والثواب الأخروى ﴿هو خير لكم﴾ مما يعدونكم ﴿ان كنتم تعلمون﴾ أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهى على طريقة التحقيق كما أن قوله تعالى ﴿ما عندكم﴾ تعليل للخيرية بطريق الاستئناف أى ما تتمتعون به من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا ومافيها جميعا ﴿ينفد﴾ وانجم عدده وينقضى وان طال أمده ﴿وما عند الله﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿باق﴾ لا نفاد له أما الأخروية فظاهرة وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالاخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت فى سمط الباقيات الصالحات وفى ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام مالا يخفى وقوله تعالى ﴿ولنجزين﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى ان ما عند الله هو خير لكم على نهج التوكيد القسمى مبالغة فى الحمل على الثبات فى الدين والالتفات عما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل الى التعرض لاعمالهم والاشعار بعليتها للجزاء أى والله لنجزين ﴿الذين صبروا﴾ على أذية المشركين ومشاق الاسلام التى من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرئ بالياء من غير التفات ﴿أجرهم﴾ مفعول ثان لنجزين أى لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على ما منوا به من الامور المذكورة ﴿بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أى لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وانما أضيف اليه الاحسن للاشعار بكمال حسنه كما فى قوله سبحانه وحسن ثواب الآخرة لا لافادة قصر الجزاء على الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لا يخطر ببال أحد لاسيما بعد قوله تعالى أجرهم أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل لا انا نعطى الاجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالاجر الحسن والاحسن بالاحسن وفيه مالا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم فى تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه فى سلك الصبر الجميل أو لنجزينهم بجزاء أحسن من أعمالهم وأما التفسير بما ترجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على أن ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوى فعله وتركه كالمباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ماهم عليه من الاعمال

الحسنة المخصوصة والترغيب فى تحصيل ثمراتها بل التعرض لاخراج بعض أعمالهم عن مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة فى مقام توسيع حماها ﴿من عمل صالحا﴾ أى عملا صالحا أى عمل كان وهذا شروع فى تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم فى الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعا لتوهم اختصاص الاجر الموفور بهم و بعملهم المذكور وقوله تعالى ﴿من ذكر أو أنثى﴾ مبالغة فى بيان شموله للكل ﴿وهو مؤمن﴾ قيد به اذ لا اعتداد باعمال الكفرة فى استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب لقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وايثار ايراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه فى سلك الصلة لافادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح ﴿فلنحيينه حيوة طيبة﴾ فى الدنيا يعيش عيشا طيبا أما ان كان موسرا فظاهر وأما ان كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقع الاجر العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فانه ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿ولنجزينهم﴾ فى الآخرة ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبة تكرار والجمع فى الضمائر العائدة الى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ و إيثار ذلك على العكس لما أن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية ووقوع ما فى حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للافراد واذ قد انتهى الأمر الى أن مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء الارشاد الى ما به يحسن العمل الصالح و يخلص عن شوب الفساد فقيل ﴿فاذا قرأت القرآن﴾ أى اذا أردت قراءته عبر بها عن ارادتها على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب ايذانا بأن المراد هى الارادة المتصلة بالقراءة ﴿فاستعذ بالله﴾ فاسأله عز جاره أن يعيذك ﴿من الشيطان الرجيم﴾ من وساوسه وخطراته كيلا يوسوسك عند القراءة فان له همة بذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته الآية وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام وفى سائر الأعمال الصالحة أهم فانه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام فيما عدا القراءة من الأعمال والأمر للندب وهذا مذهب الجمهور وعند عطاء للوجوب وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة أبو هريرة رضى الله عنه ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال عليه السلام قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ ﴿انه﴾ الضمير للشأن أو للشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ تسلط و ولاية ﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أى اليه يفوضون أمورهم و به يعوذون فى كل ما يأتون وما يذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم وإيثار صيغة الماضى فى الصلة الأولى للدلالة على التحقق كما أن اختيار صيغة الاستقبال فى الثانية لافادة الاستمرار التجددى وفى التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة باعانة المتوكلين والجملة تعليل للامر بالاستعاذة أو لجوابه المنوى أى يعذك أو نحوه ﴿انما سلطانه﴾ أى تسلطه و ولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة لا سلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقد أفصح عنه قوله تعالى ﴿على الذين يتولونه﴾ أى يتخذونه وليا و يستجيبون دعوته و يطيعونه فان المقسور بمعزل من ذلك ﴿والذين هم به﴾ سبحانه وتعالى ﴿مشركون﴾ أو بسبب الشيطان مشركون اذ هو

الذى حملهم على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أن لا واسطة فى الخارج بين التوكل على الله تعالى و بين تولى الشيطان وان كان بينهما واسطة فى المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم فى سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب اذ به يتم التعليل ففيه مبالغة فى الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله وايثار الجملة الفعلية الاستقبالية فى الصلة الأولى لما مر من افادة الاستمرار التجددى كما أن اختيار الجملة الاسمية فى الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه وتقديم الأولى على الثانية التى هى بمقابلة الصلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها و بين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعى الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها ﴿واذا بدلنا آية مكان آية﴾ أى اذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ أولا و آخرا و بأن كلا من ذلك ما نزلت حيثما نزلت الا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فان كل وقت له مقتض غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة فى وقت تنقلب فى وقت آخر مفسدة و بالعكس لانقلاب الأمور الداعية الى ذلك وما الشرائع الا مصالح للعباد فى المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح والجملة اما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم وفى الالتفات الى الغيبة مع اسناد الخبر الى الاسم الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض أو حالية وقرئ بالتخفيف من الانزال ﴿قالوا﴾ أى الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿انما أنت مفتر﴾ أى متقول على الله تعالى تأمر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم ههنا للايذان بأن ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وانه وليهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أى لا يعلمون شيئاً أصلا أو لا يعلمون أن فى النسخ حكما بالغة واسناد هذا الحكم الى الاكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وانما ينكره عنادا ﴿قل نزله﴾ أى القرآن المدلول عليه الآية ﴿روح القدس﴾ يعنى جبريل عليه السلام أى الروح المطهر من الأدناس البشرية واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم الى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة فى ذلك الوصف كأنه طبع منه وفى صيغة التفعيل فى الموضعين اشعار بأن التدريج فى الانزال مما تقتضيه الحكم البالغة ﴿من ربك﴾ فى اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق افاضة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس فى اضافته الى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض ﴿بالحق﴾ أى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها انشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ على الايمان بأنه كلامه تعالى فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرئ ليثبت من الافعال ﴿وهدى و بشرى للمسلمين﴾ المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا وهداية و بشارة وفيه تعريض بحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سواهم من الكفار ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون﴾ غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء ﴿انما يعلمه﴾ أى القرآن ﴿بشر﴾ على طريق البت مع ظهور أنه نزله روح القدس عليه الصلاة والسلام وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فانهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة يعنون بذلك جبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبرا و يسارا كانا يصنعان السيف بمكة و يقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر عليهما و يسمع ما يقرآنه وقيل عايشا غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسى وانما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخل فى ظهور كذبهم للايذان بأن مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام الى التعلم من شخص معين

بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه السلام معدنا لعلوم الأولين والآخرين ﴿لسان الذى يلحدون اليه أعجمى﴾ الالحاد الامالة من ألحد القبر اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله وألحد فى دينه أى لغة الرجل الذى يميلون اليه القول عن الاستقامة أعجمية غير بينة وقرئ بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان ﴿وهذا﴾ أى القرآن الكريم ﴿لسان عربى مبين﴾ ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لابطال طعنهم وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه فان زعمتم أن بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل الدنيا والتشبث فى أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم ﴿ان الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أى لا يصدقون أنها من عند الله بل يقولون فيها ما يقولون يسمونها تارة افتراء وأخرى أساطير معلمة من البشر ﴿لا يهديهم الله﴾ الى الحق أو الى سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب لما علم أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم ﴿ولهم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الافتراء والتعلم من البشر بعد اماطة شبهتهم ورد طعنهم وقوله تعالى ﴿انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ رد لقولهم انما أنت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وانما وسط بينهما قوله تعالى ولقد نعلم الآية لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الأول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفترى هو الذى يكذب بآيات الله ويقول انه افتراء ومعلم من البشر أى تكذيبها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة لان حقيقته الكذب والحكم بأن ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى فى كونه كذبا وافتراء كالحكم بأن ما ليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة فى بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه أعنى قوله لا يؤمنون وقيل المعنى انما يفترى الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لانه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنها وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من عدم الايمان بآيات الله ﴿هم الكاذبون﴾ على الحقيقة أو الكاملون فى الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الاباطيل والسر فى ذلك أن الكذب الساذج الذى هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ما هو واقع فى نفس الامر بخلق الله تعالى أو بوقوع ما لم يقع كذلك مدافعة لله تعالى فى فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه فى فعله وقوله المنبئ عنه معا أو الذين عادتهم الكذب لا يزعهم عنه وازع من دين أو مروءة وقيل الكاذبون فى قولهم انما أنت مفتر ﴿من كفر بالله﴾ أى تلفظ بكلمة الكفر ﴿من بعد ايمانه﴾ به تعالى وهو ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأسا ومن موصولة ومحلها الرفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر الآتى عليه أو هو خبر لهما معا أو النصب على الذم ﴿الا من أكره﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب أو الذم لان الكفر لغة يتم بالقول كما أشير اليه وقوله تعالى ﴿وقلبه مطمئن بالايمان﴾ حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالاكراه لا نفس الاكراه لان مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لا تجدى نفعا وانما المجدى مقارنته للكفر الواقع به أى الا من كفر باكراه والا من أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته وانما لم يصرح به ايماء الى أنه ليس بكفر حقيقة وفيه دليل على أن الايمان هو التصديق بالقلب ﴿ولكن من﴾ لم يكن كذلك بل ﴿شرح بالكفر صدرا﴾ أى اعتقده وطاب به نفسا ﴿فعليهم غضب﴾ عظيم لا يكتنه كنهه ﴿من الله﴾ اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ اذ لا جرم أعظم من جرمهم والجمع

فى الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فى المستكن فى الصلة لرعاية جانب اللفظ . روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة فى قبلها وقالوا انما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين فى الاسلام وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال ما لك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الاكراه الملجئ وان كان الافضل أن يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله أبواه وروى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال فأنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال أنا أصم فأعاد ثلاثا فأعاد جوابه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة وأما الثانى فقد صدع بالحق ﴿ذلك﴾ اشارة الى الكفر بعد الايمان أو الى الوعيد المذكور ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿استحبوا الحيوة الدنيا﴾ آثروها ﴿على الآخرة وأن الله لا يهدى﴾ الى الايمان والى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر والجاء ﴿القوم الكافرين﴾ فى علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدى اليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الأمرين اما ايثار الحيوة الدنيا على الآخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثانى مخالف للحكمة والاول مما لا يدخل تحت الوقوع واليه أشير بقوله تعالى ﴿أولئك﴾ أى أولئك الموصوفين بما ذكر من القبائح ﴿الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ أى الكاملون فى الغفلة اذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العواقب ﴿لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون﴾ اذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها الى ما لا يفضى الا الى العذاب المخلد ﴿ثم ان ربك للذين هاجروا﴾ الى دار الاسلام وهم عمار وأصحابه رضى الله عنهم أى لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يوجبه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور خبر لان ويجوز أن يكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الآتى عليه ويجوز أن يكون ذلك خبرا لهما وتكون ان الثانية تأكيدا للاولى وثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التى يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب بطريق الاشارة لا عن رتبة حال الكفرة ﴿من بعد ما فتنوا﴾ أى عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان وقرئ على بناء الفاعل أى عذبوا المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا ﴿ثم جاهدوا﴾ فى سبيل الله ﴿وصبروا﴾ على مشاق الجهاد ﴿ان ربك من بعدها﴾ من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم اخلال ذلك بالحكم ﴿لغفور﴾ لما فعلوا من قبل ﴿رحيم﴾ ينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا من بعد وفى التعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين ايماء الى علة الحكم وفى اضافة الرب الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه السلام واشعار بأن افاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعا له ﴿يوم تأتى كل نفس﴾ منصوب برحيم وما رتب عليه أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿تجادل عن نفسها﴾ عن ذاتها تسعى فى خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسى نفسى ﴿وتوفى كل نفس﴾ أى تعطى وافيا كاملا ﴿ما عملت﴾ أى جزاء ما عملت بطريق اطلاق اسم

السبب على المسبب اشعارا بكمال الاتصال بين الاجزية والأعمال وايثار الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان باختلاف وقتى المجادلة والتوفية وان كانتا فى يوم واحد ﴿وهم لا يظلمون﴾ لا ينقصون أجورهم أو لا يعاقبون بغير موجب ولا يزاد فى عقابهم على ذنوبهم ﴿وضرب الله مثلا قرية﴾ قيل ضرب المثل صنعه واعتماله وقد مر تحقيقه فى سورة البقرة ولا يتعدى الا الى مفعول واحد وانما عدى الى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قرية مع كونها مفعولا أول لئلا يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها اذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها ولأن تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس ترقبا لوروده وتشوقا اليه لاسيما اذا كان فى المقدم ما يدعو اليه فان المثل مما يدعو الى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن والقرية اما محققة فى الغابرين واما مقدرة أى جعلها مثلا لأهل مكة خاصة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة ودخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا ﴿كانت آمنة﴾ ذات أمن من كل مخوف ﴿مطمئنة﴾ لا يزعج أهلها مزعج ﴿يأتيها رزقها﴾ أقوات أهلها صفة ثانية لقرية وتغيير سبكها عن الصفة الاولى لما أن اتيان رزقها متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر ﴿رغدا﴾ واسعا ﴿من كل مكان﴾ من نواحيها ﴿فكفرت﴾ أى كفر أهلها ﴿بأنعم الله﴾ أى بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبؤس والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر وايثار جمع القلة للايذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة ﴿فأذاقها الله﴾ أى أذاق أهلها ﴿لباس الجوع والخوف﴾ شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشى للابس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الاذاقة المستعارة لمطلق الايصال المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة على نهج التجريد فانها لشيوع استعمالها فى ذلك وكثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة كقول كثير

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

فان الغمر مع كونه فى الحقيقة من أحوال الماء الكثير لما كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت اضافته الى الرداء المستعار للمعروف تجريدا أوشبه أثرهما وضررهما من حيث الاحاطة بهم والكراهة لديهم تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف بجامع الاحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية وأخرى بطعم المر البشع الملائم للجوع الناشئ من فقد الرزق بجامع الكراهة فأومى اليه بأن أوقع عليه الاذاقة المستعارة لايصال الضار المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشئ مما ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الأمن المقدم فيما تقدم على اتيان الرزق لكونه أنسب بالاذاقة أو لمراعاة المقارنة بينها وبين اتيان الرزق وقد قرئ بتقديم الخوف وبنصبه أيضا عطفا على المضاف أو اقامة له مقام مضاف محذوف وأصله ولباس الخوف ﴿بما كانوا يصنعون﴾ فيما قبل أو على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور أسند ذلك الى أهل القرية تحقيقا للامر بعد اسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها ارادة للمبالغة وفى صيغة الصنعة ايذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة ﴿ولقد جاءهم﴾ من تتمة المثل جئ بها لبيان أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية ﴿رسول منهم﴾ أى من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون ﴿فكذبوه﴾ فى رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر فالفاء فصيحة

وعدم ذكره للايذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم ﴿فأخذهم العذاب﴾ المستأصل لشأفتهم غب ما ذاقوا نبذة من ذلك ﴿وهم ظالمون﴾ أى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على تماديهم فى الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وبه يتم التمثيل فان حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لمن سار سيرتهم كافة محاذية لحال أهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو فى خصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وما يمر ببالهم طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شئ ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول يحار فى ادراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبول فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف ما أصابهم من جدب شديد وأزمة حصت كل شئ حتى اضطرتهم الى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعلهز وهو الوبر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام وأما ما أجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير فى قوله تعالى ولقد جاءهم لأهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعد ما ذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من الجدب ووقعة بدر فبمعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه ﴿فكلوا مما رزقكم الله﴾ مفرع على نتيجة التمثيل وصدهم عما يؤدى الى مثل عاقبته والمعنى واذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتى أولا وآخرا فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام فى أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه ﴿حلالا طيبا﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿واشكروا نعمة الله﴾ واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران والفاء فى المعنى داخلة على الأمر بالشكر وانما أدخلت على الأمر بالأكل لكون الأكل ذريعة الى الشكر فكأنه قيل فاشكروا نعمة الله غب أكلها حلالا طيبا وقد أدمج فيه النهى عن زعم الحرمة ولا ريب فى أن هذا انما يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعا بعد وقد تمهدت مباديه وبعد ما وقع ما وقع فمن ذا الذى يحذر ومن ذا الذى يؤمر بالأكل والشكر وحمل قوله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون على الأخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدى لاستصلاحهم بالأمر والنهى وتوجيه خطاب الأمر بالأكل الى المؤمنين مع أن ما يتلوه من خطاب النهى متوجه الى الكفار كما فعله الواحدى حيث قال فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل ﴿ان كنتم اياه تعبدون﴾ أى تطيعون أو ان صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى ﴿انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم أى انما حرم هذه الأشياء دون ما تزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها ﴿فمن اضطر﴾ بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئا من ذلك ﴿غير باغ﴾ أى على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ أى متجاوز قدر الضرورة ﴿فان ربك غفور رحيم﴾ (١) أى لا يؤاخذه بذلك فأقيم سببه مقامه وفى التعرض لوصف الربوبية ايماء الى علة الحكم

(١) قوله ﴿فان ربك غفور رحيم﴾ التلاوة فان الله غفور رحيم وحينئذ فلا حاجة لبيان نكتة التعبير بالربوبية المضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام بقوله (وفى التعرض لوصف الربوبية الخ)

و فى الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار لكمال اللطف به عليه السلام وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات فى الاجناس الأربعة الاماضم اليه كالسباع والحمر الاهلية ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال ﴿ و لاتقولوا لما تصف ألسنتكم ﴾ اللام صلة مثلها فى قوله تعالى و لاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات أى لاتقولوا فى شأن ماتصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلا عن استناده الى وحى أوقياس مبنى عليه ﴿ الكذب ﴾ منتصب بلاتقولوا وقوله تعالى ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ بدل منه ويجوز أن يتعلق بتصف على ارادة القول أى لاتقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون القول المقدر حالا من ألسنتهم أى قائلة هذا حلال الخ و يجوز أن ينتصب الكذب بتصف و يتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا واللام للتعليل وما مصدرية أى لاتقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أى لاتحلوا و لا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له بصورة مستحسنة وتزيينها له فى المسامع كان ألسنتهم لكونها منشأ للكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس و يعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرىء بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى بدم كذب والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرىء الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للالسنة و بالنصب على الشتم او بمعنى الكلم الكواذب أوهو جمع الكذاب من قولهم كذب كذابا ذكره ابن جنى ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ فان مدار الحل والحرمة ليس الا أمر الله تعالى فالحكم بالحل والحرمة اسناد للتحليل والتحريم الى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه واللام لام العاقبة ﴿ ان الذين يفترون على الله الكذب ﴾ فى أمر من الأمور ﴿ لايفلحون ﴾ لايفوزون بمطالبهم التى ارتكبوا الافتراء للفوز بها ﴿ متاع قليل ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ لايكتنه كنهه ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ خاصة دون غيرهم من الاولين والآخرين ﴿ حرمنا ما قصصنا عليك ﴾ أى بقوله تعالى حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية ﴿ من قبل ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال مايخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بذلك التحريم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ حيث فعلوا ماعوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم الآية ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها أن تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم و بغيهم عقوبة وتشديدا أوضح بيان وفيه تنبيه على الفرق بينهم و بين غيرهم فى التحريم ﴿ ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ أى بسبب جهالة أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله و بعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك ﴾ أى من بعد ماعملوا ماعملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة ﴿ وأصلحوا ﴾ أى أصلحوا أعمالهم أو دخلوا فى الصلاح ﴿ ان ربك من بعدها ﴾ من بعد التوبة ﴿ لغفور ﴾ لذلك السوء ﴿ رحيم ﴾ يثيب على طاعته تركا وفعلا وتكرير قوله تعالى ان ربك لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بانجازه والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه

السلام مع ظهور الاثر فى التائبين للايماء الى أن افاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من أتباعه كما أشير اليه فيما ﴿ ان ابراهيم كان أمة ﴾ على حياله لحيازته من الفضائل البشرية مالا تكاد توجد الا متفرقة فى أمة جمة حسبما قيل

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببينات باهرة لاتبق و لاتذر وأبطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أو لانه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقيل هى فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه اذا قصده أواقتدى به فان الناس كانوا يقصدونه و يقتدون بسيرته لقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما وايراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ماأحله الله تعالى للايذان بان حقية دين الاسلام و بطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لاريب فيه ﴿ قانتا لله ﴾ مطيعا له قائما بأمره ﴿ حنيفا ﴾ مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق غير زائل عنه بحال ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك مع ظهوره لاردا على كفار قريش فقط فى قولهم نحن على ملة أبينا ابراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله فى افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ماهم عليه كقوله سبحانه ما كان ابراهيم يهوديا و لا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين اذبه ينتظم أمر ايراد التحريم والسبت سابقا و لاحقا ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾ صفة ثالثة لامة وانما أوثر صيغة جمع القلة للايذان بانه عليه السلام كان لايخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ماهم عليه من الكفران بانعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل ﴿ اجتباه ﴾ للنبوة ﴿ وهداه الى صراط مستقيم ﴾ موصل اليه سبحانه وهو ملة الاسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع ارشاد الخلق أيضا بمعونة قرينة الاجتباء ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ حالة حسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى انه ليس من أهل دين الا وهم يتولونه وقيل هى الخلة والنبوة وقيل قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم والالتفات الى التكلم لاظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام ﴿ وانه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أصحاب الدرجات العالية فى الجنة حسبما سأله بقوله وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴿ ثم أوحينا اليك ﴾ مع علو طبقتك وسمو رتبتك ﴿ أن اتبع ملة ابراهيم ﴾ الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الانبياء عليهم السلام من أمللت الكتاب اذا أمليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه أن الوضع الالهى مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب الى من يقيمه و يعمل به يسمى دينا قال الراغب الفرق بينهما أن الملة لاتضاف الا الى النبى عليه السلام و لاتكاد توجد مضافة الى الله سبحانه و لا الى آحاد الامة ولاتستعمل الا فى جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته عليه السلام الاسلام الذى عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم ﴿ حنيفا ﴾ حال من المضاف اليه لما أن المضاف لشدة اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة والمأمور به الاتباع فى الاصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار وما فى ثم من التراخى فى الرتبة للايذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى ﴿ انما جعل السبت ﴾ أى فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفى الكلى وتوضيح له بابطال ما عسى يتوهم كونه قادحا فى كليته حسبما سلف فى قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الخ فان اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الاسلام وأن ابراهيم عليه السلام كان محافظا عليه أى ليس السبت من

شرائع ابراهيم وشعائر ملته التى أمرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام و بين بعض المشركين علاقة فى الجملة وانما شرع ذلك لبنى اسرائيل بعد مدة طويلة وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد الى الغير وقد قرئ على البناء للفاعل وانما عبر عن ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل انما جعل السبت ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى الى العذاب و بكونه معللا باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع ايثارا له على ما أمر الله تعالى به واختيارا للعكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفى الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر اليهود أن يجعلوا فى الاسبوع يوما واحدا للعبادة وأن يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فأذن الله تعالى لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين ﴿وان ربك ليحكم بينهم﴾ أى بين الفريقين المختلفين فيه ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أى يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه ايماء الى أن ما وقع فى الدنيا من مسخ أحد الفريقين وانجاء الآخر بالنسبة الى ما سيقع فى الآخرة شئ لا يعتد به هذا هو الذى يستدعيه الاعجاز التنزيلى وقيل المعنى انما جعل و بال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه أى أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى و كان حتما عليهم أن يتفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالاحلال تارة والتحريم أخرى و وجه ايراده ههنا بانه أريد به انذار المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لاوامره كضرب المثل بالقرية التى كفرت بأنعم الله تعالى و لا ريب فى أن كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف وأن توسيط حديث المسخ للانذار المذكور بين حكاية أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباع ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام و بين أمره صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليها من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فتأمل ﴿ادع﴾ أى من بعثت اليهم من الامة قاطبة فحذف المفعول للتعميم أوافعل الدعوة كما فى قولهم يعطى و يمنع أى يفعل الاعطاء والمنع فحذفه للقصد الى ايجاد نفس الفعل اشعارا بأن عموم الدعوة غنى عن البيان وانما المقصود الامر بايجادها على وجه مخصوص ﴿الى سبيل ربك﴾ الى الاسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة ابراهيم عليه السلام وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشئ الى كماله اللائق شيئا فشيئا مع اضافة الرب الى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام فى مقام الامر بدعوة الأمة على الوجه الحكيم وتكميلهم باحكام الشريعة الشريفة من الدلالة على اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والايماء الى وجه بناء الحكم ما لا يخفى ﴿بالحكمة﴾ أى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿والموعظة الحسنة﴾ أى الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم فالاولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم و يجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين ﴿وجادلهم﴾ أى ناظر معانديهم ﴿بالتى هى أحسن﴾ بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم واطفاء للهبهم كما فعله الخليل عليه السلام ﴿ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الذى أمرك بدعوة الخلق اليه وأعرض عن قبول الحق بعد ما عاين ما عاين من الحكم والمواعظ والعبر ﴿وهو أعلم

بالمهتدين﴾ اليه بذلك وهو تعليل لما ذكر من الامرين والمعنى والله تعالى أعلم اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب و بحال من يصير أمره الى الاهتداء لما فيه من خير جبلى فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فانه كاف فى هداية المهتدين وازالة عذر الضالين أوما عليك الاما ذكر من الدعوة والمجادلة بالاحسن وأما حصول الهداية أو الضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه اذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال و بمن يهتدى اليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم وايراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جئ به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات وتكرير هو أعلم للتأكيد والاشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب و بعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال ﴿وان عاقبتم﴾ أى ان أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحتمى ان أكلت فكل قليلا ﴿فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ أى بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب نحو كما تدين تدان أو على نهج المشاكلة والمقصود ايجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم من غير تجاوز حين ما آل الجدال الى القتال وأدى النزاع الى القراع فان الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهى موجبة لصرف الوجوه عن القبل المعبودة وادخال الاعناق فى قلادة غير معهودة قاضية عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون و بطلان دين استمرت عليه آباؤهم الاولون وقد ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وأرتجت دونهم أبواب المباحثة والمحاورة وقيل انه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة رضى الله عنه يوم أحد قد مثل به قال لئن أظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه و كف عما أراده وقرئ وان عقبتم فعقبوا أى وان قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم غير متجاوزين عنه والامر وان دل على اباحة المماثلة فى المثلة من غير تجاوز لكن فى تقييده بقوله وان عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل ﴿ولئن صبرتم﴾ أى عن المعاقبة بالمثل ﴿لهو﴾ أى لصبركم ذلك ﴿خير﴾ لكم من الانتصار بالمعاقبة وانما قيل ﴿للصابرين﴾ مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر أو وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير الى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول أنفسهم فى جنس الصابرين دخولا أوليا ثم أمر عليه الصلاة والسلام صريحا بما ندب اليه غيره تعريضا من الصبر لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشؤنه سبحانه و وفور وثوقه به فقيل ﴿واصبر﴾ أى على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية ﴿وما صبرك الا بالله﴾ استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى وما صبرك ملابسا ومصحوبا بشئ من الاشياء الا بالله أى بذكره والاستغراق فى مراقبة شؤنه والتبتل اليه بمجامع الهمة وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه مالا مزيد عليه أوالا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جميلة وقيل الا بتوفيقه ومعونته فهى من حيث تسهيله وتيسيره فقط ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أى على الكافرين بوقوع اليأس من ايمانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين وقيل على المؤمنين وما فعل بهم والاول هو الانسب بجزالة النظم الكريم ﴿ولا تك فى ضيق﴾ بالفتح وقرئ بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل أى لا تكن فى ضيق صدر وحرج و يجوز أن يكون الاول تخفيف ضيق كهين من هين أى فى

أمر ضيق ﴿مما يمكرون﴾ أى من مكرهم بك فيما يستقبل فالاول نهى عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثانى عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهى عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لاسيما على الوجه الاول لزيادة التأكيد واظهار كمال العناية بشأن التسلية والافهل يخطر ببال من توجه الى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ماسواه من الشواغل شىء من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته أو محذور فكيف عن الخوف من وقوعه ﴿ان الله مع الذين اتقوا﴾ تعليل لما سبق من الأمر والنهى والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شىء من الجزع والحزن وضيق الصدر ومايشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين انما هى من حيث انهم المباشرون للتقوى وكذا الحال فى قوله سبحانه ان الله مع الصابرين ونظائرهما كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعنى التنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيقى المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون والمعنى ان الله ولى الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شىء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما أشير اليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما فى قوله تعالى فاصبر ان العاقبة للمتقين على أحد التفسيرين كما حقق فى مقامه والا فمجرد التوقى عن المعاصى لايكون مدارا لشىء من العزائم المرخص فى تركها فكيف بالصبر المشار اليه ورديفيه وانما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل ان الله مع الذين صبروا وانما أوثر ما عليه النظم الكريم مبالغة فى الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى ﴿والذين هم محسنون﴾ للاشعار بأنه من باب الاحسان الذى يتنافس فيه المتنافسون على ما فصل ذلك حيث قيل واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان فى قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين وحقيقة الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وتكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون احداهما تتمة للاخرى وايراد الاولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن ايراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الاحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا واما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين وفيه رمز الى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الامة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية

اصبر نكن بك صابرين فانما … صبر الرعية عند صبر الراس

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوص قال انما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين

سورة بنى اسرائيل

(مائة واحدى عشرة آية . مكية الا آيات فى آخرها)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿سبحان الذى أسرى بعبده﴾ سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لاعينا وجنسا لاشخصا لم تكن اضافته من قبيل ما فى زيد المعارك أو حاتم طىء وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره اسبح الله سبحان الخ وفيه مالايخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما وهو علم يشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه فقيه مبالغة من حيث اضافة التنزه الى ذاته المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف وبين ماعطف عليه فى قوله تعالى سبحانه وتعالى كأنه قيل تنزه بذاته وتعالى والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى ﴿ليلا﴾ لافادة قلة زمان الاسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما اذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا فيكون معيارا للسير لا ظرفا له ويؤيده قراءة من الليل أى بعضه وايثار لفظ العبد للايذان بتمحضه عليه الصلاة والسلام فى عبادته سبحانه وبلوغه فى ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه واضافة التنزيه او التنزه الى الموصول المذكور للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة للمضاف فان ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين ﴿من المسجد الحرام﴾ اختلف فى مبدأ الاسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق وقيل هو دار أم هانىء بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به أو لأن الحرم كله مسجد فانه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام كان نائما فى بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليها فلما قام ليخرج الى المسجد تشبثت بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية أن يكذبه القوم قال عليه الصلاة والسلام وان كذبونى فلما خرج جلس اليه أبو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء فقال أبو جهل يامعشر كعب بن لؤى بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى أبى بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال انى اصدقه على أبعد من ذلك فسمى الصديق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس فطفق ينظر اليه وينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصابه فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر هذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون . واختلف فى وقته أيضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعثة واختلف أيضا أنه فى اليقظة أو فى المنام فعن الحسن أنه كان فى المنام وأكثر الاقاويل بخلافه والحق أنه كان فى المنام قبل البعثة وفى اليقظة بعدها واختلف أيضا أنه كان جسمانيا أو روحانيا فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت

مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية أنه قال انما عرج بروحه والحق انه كان جسمانيا على ماينبئ عنه التصدير بالتنزيه ومافى ضمنه من التعجب فان الروحانى ليس فى الاستبعاد والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش وأحالوه ولا استحالة فيه فانه قد ثبت فى الهندسة أن قطر الشمس ضعف قطر الارض مائة ونيفا وستين مرة ثم ان طرفها الاسفل يصل الى موضع طرفها الأعلى بحركة الفلك الأعظم مع معاوقة حركة فلكها لها فى أقل من ثانية وقد تقرر أن الاجسام متساوية فى قبول الاعراض التى من جملتها الحركة وأن الله سبحانه قادر على كل ما يحيط به حيطة الامكان فيقدر على أن يخلق مثل تلك الحركة بل أسرع منها فى جسد النبى صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله ولو لم يكن مستبعدا لم يكن معجزة ﴿الى المسجد الأقصى﴾ أى بيت المقدس سمى به اذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفى ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب مالا يخفى ﴿الذى باركنا حوله﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحى ومتعبد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿لنريه﴾ غاية للاسراء ﴿من آياتنا﴾ العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح فى ذلك كونه قبل الوصول الى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الانبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرئ ليريه بالياء ﴿انه هو السميع﴾ لاقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن ﴿البصير﴾ بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك وفيه ايماء الى أن الاسراء المذكور ليس الا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته والا فالاحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة الى التقريب والالتفات الى الغيبة لتربية المهابة ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ أى التوراة وفيه ايماء الى دعوته عليه الصلاة والسلام الى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعا بين الأمرين المتحدين فى المعنى ولم يذكر ههنا العروج بالنبى عليه السلام الى السماء وما كان فيه مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء الى قبول السامعين أى آتيناه التوراة بعد ما أسرينا به الى الطور ﴿وجعلناه﴾ أى ذلك الكتاب ﴿هدى لبنى اسرائيل﴾ يهتدون بما فى مطاويه ﴿أن لا تتخذوا﴾ أى لا تتخذوا نحو كتبت اليه أن افعل كذا وقرئ بالياء على أن أن مصدرية والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا يتخذوا ﴿من دونى وكيلا﴾ أى ربا تكلون اليه أموركم والافراد لما أن فعيلا مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهى والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام أو على أنه أحد مفعولى لا يتخذوا على قراءة النفى ومن دونى حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أو بدل من واو لا تتخذوا بابدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض البغاددة وقرئ ذرية بكسر الذال ﴿انه﴾ أى ان نوحا عليه الصلاة والسلام ﴿كان عبدا شكورا﴾ كثير الشكر فى مجامع حالاته وفيه ايذان بأن انجاء من معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو أعظم مراتب الكفران وقيل الضمير لموسى عليه السلام ﴿وقضينا﴾ أى أتممنا وأحكمنا منزلين ﴿الى بنى اسرائيل﴾ أو موحين اليهم ﴿فى الكتاب﴾ أى فى التوراة فان الانزال والوحى الى موسى عليه السلام انزال ووحى اليهم ﴿لتفسدن فى الارض﴾ جواب قسم محذوف ويجوز اجراء القضاء المحتوم مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن ﴿مرتين﴾ مصدر والعامل فيه من غير جنسه أولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعياء عليه الصلاة والسلام وحبس أرمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام ﴿ولتعلن علوا كبيرا﴾

لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه أو لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن فى ذلك افراطا مجاوزا للحدود ﴿فاذا جاء وعد أولاهما﴾ أى أولى كرتى الافساد أى حان وقت حلول العقاب الموعود ﴿بعثنا عليكم﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿عبادا لنا﴾ وقرئ عبيدا لنا ﴿أولى بأس شديد﴾ ذوى قوة وبطش فى الحروب هم سنجاريب من أهل نينوى وجنوده وقيل بخت نصر عامل لهراسب وقيل جالوت ﴿فجاسوا﴾ أى ترددوا لطلبكم بالفساد وقرئ بالحاء والمعنى واحد وقرئ وجوسوا ﴿خلال الديار﴾ فى أوساطها للقتل والغارة وقرئ خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا مما جرت به السنة الالهية ﴿وكان﴾ ذلك ﴿وعدا مفعولا﴾ لا محالة بحيث لا صارف عنه ولا مبدل ﴿ثم رددنا لكم الكرة﴾ أى الدولة والغلبة ﴿عليهم﴾ على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الافساد والعلو قيل هى قتل بخت نصر واستنقاذ بنى اسرائيل أساراهم وأموالهم ورجوع الملك اليهم وذلك أنه لما ورث بهمن بن اسفنديار الملك من جده كشتاسف بن لهراسب ألقى الله تعالى فى قلبه الشفقة عليهم فرد أساراهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر وقيل هى قتل داود عليه السلام لجالوت ﴿وأمددناكم بأموال﴾ كثيرة بعدما نهبت أموالكم ﴿وبنين﴾ بعدما سبيت أولادكم ﴿وجعلناكم أكثر نفيرا﴾ مما كنتم من قبل أو من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم المجتمعون للذهاب الى العدو كالعبيد والمعين ﴿ان أحسنتم﴾ أعمالكم سواء كانت لازمة لانفسكم أو متعدية الى الغير أى عملتموها على الوجه اللائق ولا يتصور ذلك الا بعد أن تكون الاعمال حسنة فى أنفسها او ان فعلتم الاحسان ﴿أحسنتم لأنفسكم﴾ لان ثوابها لها ﴿وان أسأتم﴾ أعمالكم بأن عملتموها لا على الوجه اللائق ويلزمه السوء الذاتى أو فعلتم الاساءة ﴿فلها﴾ اذ عليها وبالها وعن على كرم الله وجهه ما أحسنت الى أحد ولا أسأت اليه وتلاها ﴿فاذا جاء وعد الآخرة﴾ حان وقت ما وعد من عقوبة المرة الآخرة ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه أى بعثناهم ليسوءوا ومعنى ليسوءوا وجوهكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا وقرئ ليسوء على أن الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث ولنسوء بنون العظمة وفى قراءة على رضى الله عنه لنسوأن على أنه جواب اذا وقرئ لنسوأن بالنون الخفيفة وليسوأن واللام فى قوله عز وجل ﴿وليدخلوا المسجد﴾ عطف على ليسوءوا متعلق بما تعلق هو به ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ أى فى أول مرة ﴿وليتبروا﴾ أى يهلكوا ﴿ما علوا﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مدة علوهم ﴿تتبيرا﴾ فظيعا لا يوصف بأن سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرد وقيل جردوس وقيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لا أبقى منهم أحدا فهدأ ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرة الآخرة ان تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصى ﴿وان عدتم﴾ الى ما كنتم فيه من الفساد مرة أخرى ﴿عدنا﴾ الى عقوبتكم ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط عليهم الاكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الاتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثله ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ أى محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبد الآبدين وقيل بساطا

كما يبسط الحصير وانما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذما لهم بذلك واشعارا بعلة الحكم ﴿ان هذا القرآن﴾ الذى آتيناكه ﴿يهدى﴾ أى الناس كافة لافرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذى آتيناه موسى ﴿للتى﴾ للطريقة التى ﴿هى أقوم﴾ أى أقوم الطرائق وأسدها أعنى ملة الاسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للايذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لاسيما بعد ذكر الهداية التى هى من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى اليها من يتمسك به لاتحصيل الاهتداء بالفعل فانه مخصوص بالمؤمنين حينئذ ﴿ويبشر المؤمنين﴾ بما فى تضاعيفه من الاحكام والشرائع وقرئ بالتخفيف ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ التى شرحت فيه ﴿ان لهم﴾ أى بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أجرا كبيرا﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا ﴿وان الذين لايؤمنون بالآخرة﴾ وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء وتخصيصها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالايمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذى أنبأ عنه قوله عز وجل ﴿أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ وهو عذاب جهنم أى أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما وهو أبلغ فى الزجر لما أن اتيان العذاب من حيث لايحتسب افظع وأفجع والجملة معطوفة على جملة يبشر باضمار يخبر أو على قوله تعالى أن لهم داخلة معه تحت التبشير المراد به مجازا مطلق الاخبار المنتظم للاخبار بالخبر السار وبالنبا الضار حقيقة فيكون ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ويجوز كون التبشير بمعناه والمراد تبشير المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم وقوله تعالى ﴿ويدع الانسان بالشر﴾ بيان لحال المهدى اثر بيان حال الهادى واظهار لما بينهما من التباين والمراد بالانسان الجنس أسند اليه حال بعض أفراده أو حكى عنه حاله فى بعض أحيانه فالمعنى على الاول أن القرآن يدعو الانسان الى الخير الذى لاخير فوقه من الاجر الكبير ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الاليم وهو أى بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور اما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ومن قال فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين الى غير ذلك مما حكى عنهم واما بأعمالهم السيئة المفضية اليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم ﴿دعاءه بالخير﴾ أى مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لاتحقيقا فانه بمعزل من الدعاء به وفيه رمز الى أنه اللائق بحاله ﴿وكان الانسان﴾ أى من أسند اليه الدعاء المذكور من أفراده ﴿عجولا﴾ يسارع الى طلب ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره أو مبالغا فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لامحالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الاعمال وعلى الثانى ان القرآن يدعو الانسان الى ماهو خير وهو فى بعض أحيانه كما عند الغضب يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته عجولا ضجرا لايتأنى الى أن يزول عنه ما يعتريه روى أنه عليه الصلاة والسلام دفع الى سودة أسيرا فأرخت كتافه رحمة لأنينه بالليل من ألم القيد فهرب فلما أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام قال اللهم اقطع يديها فرفعت سودة يديها تتوقع الاجابة فقال عليه السلام انى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لايستحق من أهلى عذابا رحمة أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا وكان الانسان عجولا غير متبصر لايتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ شروع فى بيان بعض وجوه ماذكر من الهداية بالارشاد الى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التى كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لايضل من ينتحيه فان

الجعل المذكور وماعطف عليه من محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة وان كانت من الهدايات التكوينية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى اذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولو أن الليلة أضيفت الى ماقبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة أى جعلنا الملوين بهيآتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر على وتيرة عجيبة يحار فى فهمها العقول آيتين تدلان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديان الى ماهدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد ﴿فمحونا آية الليل﴾ الاضافة اما بيانية كما فى اضافة العدد الى المعدود أى محونا الآية التى هى الليل وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسته لكن لابعد أن لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أى أنشأهما كذلك والفاء تفسيرية لان المحو المذكور وماعطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته ﴿وجعلنا آية النهار﴾ أى الآية التى هى النهار على نحو مامر ﴿مبصرة﴾ أى مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفا لها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصره واما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر اما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكر واما نقص ما استفاده من الشمس شيئا فشيئا الى المحاق على ماهو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الاشياء المظلمة ﴿لتبتغوا﴾ متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير اليه أى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم فى بياض النهار ﴿فضلا من ربكم﴾ أى رزقا اذ لا يتسنى ذلك فى الليل وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيئا فشيئا دلالة على أن ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحانه لابطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية ﴿ولتعلموا﴾ متعلق بكلا الفعلين أعنى محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أى لتعلموا بتفاوت الجديدين أو نيريهما ذاتا من حيث الاظلام والاضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما ﴿عدد السنين﴾ التى يتعلق بها غرض على لاقامة مصالحكم الدينية الدنيوية ﴿والحساب﴾ أى الحساب المتعلق بما فى ضمنها من الاوقات أى الاشهر والليالى والايام وغير ذلك مما نيط به شئ من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وانما الذى تعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة يعدها أى يفنيها من غير أن يعتبر فى ذلك تحصل شئ معين وتحقيقه مامر فى سورة يونس من أن الحساب احصاء ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شئ كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف اليها العدد وعلق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتبارى لايجدى فى تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من أول الامر على أن متعلق الحساب مافى تضاعيف السنين من الاوقات أو لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل

شيء آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أو لأن العلم المتعلق بالاول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم فى مقام الامتنان والله سبحانه أعلم ﴿وكل شيء﴾ تفتقرون اليه فى المعاش والمعاد سوى ماذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى ﴿فصلناه تفصيلا﴾ أى بيناه فى القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء فظهر كونه هاديا للتى هى أقوم ظهورا بينا ﴿وكل انسان﴾ مكلف ﴿ألزمناه طائره﴾ أى عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر أو ماوقع له فى القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه فى العلم الازلى من قولهم طار له سهم كذا ﴿فى عنقه﴾ تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط أى ألزمناه عمله بحيث لايفارقه أبدا بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق لاينفك عنه بحال وقرئ بسكون النون ﴿ونخرج له﴾ بنون العظمة وقد قرئ بالياء مبنيا للفاعل على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول والضمير للطائر كما فى قراءة يخرج من الخروج ﴿يوم القيامة﴾ والبعث للحساب ﴿كتابا﴾ مسطورا فيه ماذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين الاوليين أو حال من المفعول المحذوف الراجع الى الطائر وعلى الأخريين حال من المستتر فى الفعل من ضمير الطائر ﴿يلقاه﴾ أى يلقى الانسان أو يلقاه الانسان ﴿منشورا﴾ وهما صفتان للكتاب أو الاول صفة والثانى حال منها وقرئ يلقاه من لقيته كذا أى يلقى الانسان اياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة ﴿اقرأ كتابك﴾ أى قائلين لك ذلك . عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قارئا وقيل المراد بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار أعماله فان كل عمل يصدر من الانسان خيرا أو شرا يحدث منه فى جوهر روحه أمر مخصوص الا أنه يخفى ما دام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فاذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لأن النفس كانت ساكنة مستقرة فى الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوى فيزول الغطاء وتنكشف الأحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شيء عمله فى مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ أى كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لأنه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد لأنه يكفى المدعى ما أهمه وتذكيره لأن ما ذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال أو لأنه مبنى على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريث

يانفس انك باللذات مسرور   فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير

﴿من اهتدى فانما يهتدى لنفسه﴾ فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لأقوم الطرائق ولزوم الاعمال لاصحابها أى من اهتدى بهدايته وعمل بما فى تضاعيفه من الاحكام وانتهى عمانهاه عنه فانما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه لاتتخطاه الى غيره ممن لم يهتد ﴿ومن ضل﴾ عن الطريقة التى يهديه اليها ﴿فانما يضل عليها﴾ أى فانما وبال الضلالة عليها لا على من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ تأكيد للجملة الثانية أى لاتحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل مابين العامل وعمله من التلازم بل انما تحمل كل منها وزرها وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه وأما مايدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى

ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وانما الذى يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لاجزاء أصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال لاجزاء الضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ان لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم ﴿وما كنا معذبين﴾ بيان للعناية الربانية اثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أى وما صح وما استقام منا بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمنا الماضى وقضائنا السابق أن نعذب أحدا من أهل الضلال والاوزار اكتفاء بقضية العقل ﴿حتى نبعث﴾ اليهم ﴿رسولا﴾ يهديهم الى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسبما فى تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفى اما عذاب الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدى رحمه الله وهو المناسب لما بعده أو الجنس الشامل للدنيوى والاخروى وهو من أفراده وأياما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه فى وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقا كيف لا والاخروى لايمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوى أيضا لايحصل الا بعد تحقق مايوجبه من الفسق والعصيان ألا يرى الى قوم نوح كيف تأخر عنهم ماحل بهم زهاء ألف سنة وقوله تعالى ﴿واذا أردنا أن نهلك قرية﴾ بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التى جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل اذ لا يتخلف عنها المراد ولا الارادة الأزلية المتعلقة بوقوع المراد فى وقته المقدر له اذ لا يقارنه الجزاء الآتى بل دنو وقتها كما فى قوله تعالى أتى أمر الله أى واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بأن نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذى بينا أنه لا يصح منا قبل البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعنى عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصى دنوا تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين ﴿أمرنا﴾ بواسطة الرسول المبعوث الى أهلها ﴿مترفيها﴾ متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الامر الى الكل لانهم الاصول فى الخطاب والباقى أتباع لهم ولأن توجه الامر اليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به اما لظهور أن المراد به الحق والخير لأن الله لايأمر بالفحشاء لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى اليه واما لأن المراد وجد منا الأمر كما يقال فلان يعطى ويمنع ﴿ففسقوا فيها﴾ أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿فحق عليها القول﴾ أى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب اثر ما ظهر منهم من الفسق والطغيان ﴿فدمرناها﴾ بتدمير أهلها ﴿تدميرا﴾ لايكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الامر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم الى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشيء فأمر أى كثرته فكثر وفى الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمرنا من الافعال والتفعيل وقد جعلتا من الامارة أى جعلناهم أمراء وكل ذلك لا يساعده مقام الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فان مؤدى ذلك أن طغيانهم منوط بارادة الله سبحانه وانعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقا بأن يعبر عنه بالأمر به ﴿وكم أهلكنا﴾ أى وكثيرا ما أهلكنا ﴿من القرون﴾ بيان لكم وتمييز له والقرن مدة من الزمان يخترم فيها القوم وهى عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة وقد أيد ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال عش قرنا فعاش مائة سنة أو مائة وعشرون ﴿من بعد نوح﴾ من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص وعدم نظم قومه عليه الصلاة والسلام فى تلك القرون المهلكة لظهور أمرهم على أن ذكره

عليه الصلاة والسلام رمزالى ذكرهم ﴿وكفى بربك﴾ أى كفى ربك ﴿بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التى هى مبادى الاعمال الظاهرة أولعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات أيضا وفيه اشارة الى أن البعث والأمر ومايتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل ذلك وانما هو لقطع الاعذار والزام الحجة من كل وجه ﴿من كان يريد﴾ بأعماله التى يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالاسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الأول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثانى أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة ﴿العاجلة﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبئ عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الارادة فى قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها ارادة مافيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ويجوز أن يراد الحياة العاجلة كقوله عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها لكن الأول أنسب بقوله ﴿عجلنا له فيها﴾ أى فى تلك العاجلة فان الحياة واستمرارها من جملة ماعجل له فالانسب بذلك كلمة من كما فى قوله تعالى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴿مانشاء﴾ أى مانشاء تعجيله له من نعيمها لا كل مايريد ﴿لمن نريد﴾ تعجيل مانشاء له وهو بدل من الضمير فى له باعادة الجار بدل البعض فانه راجع الى الموصول المنبئ عن الكثرة وقرئ لمن يشاء على أن الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والارادة لما أن الحكمة التى عليها يدور فلك التكوين لا تقتضى وصول كل طالب الى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه وأما مايترامى من قوله تعالى من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل الى نتيجة أعماله فقد أشير الى تحقيق القول فيه فى سورة هود بفضل الله تعالى ﴿ثم جعلنا له﴾ مكان ماعجلنا له ﴿جهنم﴾ ومافيها من أصناف العذاب ﴿يصلاها﴾ يدخلها وهو حال من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئناف ﴿مذموما مدحورا﴾ مطرودا من رحمة الله تعالى وقيل الآية فى المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها ويأباه مايقال ان السورة مكية سوى آيات معينة ﴿ومن أراد﴾ بأعماله ﴿الآخرة﴾ الدار الآخرة ومافيها من النعيم المقيم ﴿وسعى لها سعيها﴾ أى السعى اللائق بها وهو الاتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص ﴿وهو مؤمن﴾ ايمانا صحيحا لا يخالطه شئ قادح فيه وايراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر فى حيز الصلة ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول بعنوان اتصافه بما فى حيز الصلة ومافى ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمعية لمراعاة جانب المعنى ايماء الى أن الاثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع أى أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة أعنى ارادة الآخرة والسعى الجميل لها والايمان ﴿كان سعيهم مشكورا﴾ مقبولا عند الله تعالى أحسن القبول مثابا عليه وفى تعليق المشكورية بالسعى دون قرينيه اشعار بأنه العمدة فيها ﴿كلا﴾ التنوين عوض عن المضاف اليه أى كل واحد من الفريقين لا الفريق الأخير المريد للخير الحقيق بالاسعاف فقط ﴿نمد﴾ أى نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف ومابه الامداد ماعجل لاحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلة المشار اليها بمشكورية السعى وانما لم يصرح به تعويلا على ماسبق تصريحا وتلويحا واتكالا على مالحق عبارة واشارة كما ستقف عليه وقوله تعالى ﴿هؤلاء﴾ بدل من كلا ﴿وهؤلاء﴾ عطف عليه أى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بماله من العنوان

لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا لتوهم كونه أفراد الفريق الأخير وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى ﴿من عطاء ربك﴾ أى من معطاه الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر مابه الامداد ومنبه على أن الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل ﴿وما كان عطاء ربك﴾ أى دنيويا كان أو أخرويا وانما أظهر اظهارا لمزيد الاعتناء بشأنه واشعارا بعليته للحكم ﴿محظورا﴾ ممنوعا ممن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وان وجد منه مايقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بمبدئيتها لما ذكر من الامداد وعدم الحظر ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح مامر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب أحد العطاءين والاستدلال بها على مراتب الآخر أى انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة فمن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال الاعلى كما أفصح عنه قوله تعالى ﴿وللآخرة أكبر﴾ أى هى ومافيها أكبر من الدنيا وقرئ أكثر ﴿درجات وأكبر تفضيلا﴾ لان التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية التى لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز أن يراد بما به الامداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الأول فان تخصيص ارادتهم لها ووصولهم اليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثانى ارادة ووصولا مما توهم اختصاصها بالأولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا ارادته لها فقط من الفريق الأول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوى محظورا من أحد ممن يريده وممن يريد غيره أنظر كيف فضلنا فى ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الآية واعتبار عدم المحظورية بالنسبة الى الفريق الأول تحقيقا لشمول الامداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا لا يمنعه من عاص لعصيانه يقتضى كون القصر لدفع توهم اختصاص الامداد الدنيوى بالفريق الثانى مع أنه لم يسبق فى الكلام مايوهم ثبوته له فضلا عن ايهام اختصاصه ﴿لا تجعل مع الله الها آخر﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته وهو من باب التهييج والالهاب أو كل أحد ممن يصلح للخطاب ﴿فتقعد﴾ بالنصب جوابا للنهى والقعود بمعنى الصيرورة من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة أو بمعنى العجز من قعد عنه أى عجز عنه ﴿مذموما مخذولا﴾ خبران أو حالان أى جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى وفيه اشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة ﴿وقضى ربك﴾ أى أمر أمرا مبرما وقرئ وأوصى ربك ووصى ربك ﴿أن لا تعبدوا﴾ أى بأن لا تعبدوا ﴿الا اياه﴾ على أن أن مصدرية ولا نافية أو أى لا تعبدوا على أنها مفسرة ولا ناهية لان العبادة غاية التعظيم فلا تحق الا لمن له غاية العظمة ونهاية الانعام وهو كالتفصيل للسعى للآخرة ﴿وبالوالدين﴾ أى وبأن تحسنوا بهما أو وأحسنوا بهما ﴿احسانا﴾ لانهما السبب الظاهر للوجود والتعيش ﴿اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ اما مركبة من ان الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك دخل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك فى كنفك وكفالتك وتقديمه على المفعول مع أن حقه التأخر عنه للتشويق الى وروده فانه مدار تضاعف الرعاية والاحسان وأحدهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه وقرئ يبلغان فأحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولا سبيل الى جعل كلاهما تأكيدا للضمير وتوحيد ضمير الخطاب فى عندك وفيما بعده مع أن

ماسبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فان المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام ﴿فلاتقل لهما﴾ أى لواحد منهما حالتى الانفراد والاجتماع ﴿أف﴾ وهو صوت ينبئ عن تضجر أواسم فعل هو أتضجر وقرئ بالكسر بلا تنوين و بالفتح والضم منونا وغير منون أى لاتتضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر مايؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه اظهارا للاعتناء بشأنه فقيل ﴿ولاتنهرهما﴾ أى لاتزجرهما عمالايعجبك باغلاظ قيل النهى والنهر والنهم اخوات ﴿وقل لهما﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قولا كريما﴾ ذا كرم أوهو وصف له بوصف صاحبه أى قولا صادرا عن كرم ولطف وهو القول الجميل الذى يقتضيه حسن الادب و يستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول ياأباه و ياأماه كدأب ابراهيم عليه السلام اذ قال لأبيه ياأبت مع مابه من الكفر ولايدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء وسوء الادب وديدن الدعار وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال أن لاتقوم الى خدمتهما عن كسل وقيل أن لاترفع صوتك عليهما و لا تنظر اليهما شزرا ولايريا منك مخالفة فى ظاهر و لاباطن وأن تترحم عليهما ماعاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما فعن النبى عليه الصلاة والسلام ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ عبارة عن إلانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزازهما لايكون الا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناحك الذليل أو جعل لذله جناح كما جعل لبيد فى قوله

وغداة ريح قد كشفت وقرة ... اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

للقرة زماما وللشمال يدا تشبيهاله بطائر يخفض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها وأما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلايناسب المقام ﴿من الرحمة﴾ من فرط رحمتك وعطفك عليهما و رقتك لهما لافتقارهما اليوم الى من كان أفقر خلق الله تعالى اليهما و لاتكتف برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعة الباقية ﴿وقل رب ارحمهما﴾ برحمتك الدنيوية والأخروية التى من جملتها الهداية الى الاسلام فلا ينافى ذلك كفرهما ﴿كما ربيانى﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى رحمة مثل تربيتهمالى أومثل رحمتهمالى على أن التربية رحمة و يجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معاوقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر فى الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية فى مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما و ربهما كما رحمانى و ربيانى ﴿صغيرا﴾ و يجوز أن تكون الكاف للتعليل أى لاجل تربيتهما لى كقوله تعالى واذكروه كما هداكم ولقد بالغ عز وجل فى التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما معاثم ضيق الأمر فى باب مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر مالايكاد يدخل تحت الحصر وختمها بأن جعل رحمته التى وسعت كل شىء مشبهة بتربيتهما وعن النبى عليه الصلاة والسلام رضى الله فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما و روى يفعل البار مايشاء أن يفعل فلن يدخل النار و يفعل العاق مايشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ماوليانى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما و روى أن شيخا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال ان ابنى هذا له مال كثير وانه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ قد أنشأ فى ابنه أبياتا ماقرع سمع بمثلها فاستنشدها فأنشدها الشيخ فقال

غذوتك مولودا ومنتك يافعا ... تعل بما أجنى عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك الا باكيا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى ... اليها مدى ماكنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أنت ومالك لأبيك ﴿ربكم أعلم بما فى نفوسكم﴾ من البر والعقوق ﴿ان تكونوا صالحين﴾ قاصدين للصلاح والبر دون العقوق والفساد ﴿فانه﴾ تعالى ﴿كان للاوابين﴾ أى الرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم مما لايكاد يخلو عنه البشر ﴿غفورا﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية وفيه مالايخفى من التشديد فى الأمر بمراعاة حقوقهما و يجوز أن يكون عاما لكل تائب و يدخل فيه الجانى على أبويه دخولا أوليا ﴿وآت ذا القربى﴾ أى ذا القرابة ﴿حقه﴾ توصية بالاقارب اثر التوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم و بحقهم النفقة كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية لامحالة أى وآتهما حقهما مما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية ﴿ولاتبذر تبذيرا﴾ نهى عن صرف المال الى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه ماخوذ من تفريق حبات والقائها كيفما كان من غير تعهد لمواقعه لاعن الاكثار فى صرفه اليهم والا لناسبه الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه بقوله تعالى ولاتبسطها و كلاهما مذموم ﴿ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين﴾ تعليل للنهى عن التبذير ببيان انه يجعل صاحبه ملزوزا فى قرن الشياطين والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل مالاخير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير أى كانوا بما فعلوا من التبذير أمثال الشياطين أو الصداقة والملازمة أى كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيماذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا ينحرون الابل و يتياسرون عليها و يبذرون أموالهم فى السمعة وسائر مالاخير فيه من المناهى والملاهى أو المقارنة أى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد ﴿وكان الشيطان لربه كفورا﴾ من تتمة التعليل أى مبالغا فى كفران نعمته تعالى لأن شأنه أن يصرف جميع ماأعطاه الله تعالى من القوى والقدر الى غير ماخلقت هى له من أنواع المعاصى والافساد فى الارض واضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها الى غير ماأمر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة للايذان بأن التبذير الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى الى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها الى ماخلقت هى له والتعرض لوصف الربوبية للاشعار بكمال عتوه فان كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من أقوى الدواعى الى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان ﴿واما تعرضن عنهم﴾ أى ان اعتراك أمر اضطرك الى أن تعرض عن أولئك المستحقين ﴿ابتغاء رحمة من ربك﴾ أى لفقد رزق من ربك اقامة للمسبب مقام السبب فان الفقد سبب للابتغاء ﴿ترجوها﴾ من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام اذا سئل شيئا وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكوته عليه السلام فقيل ﴿فقل لهم قولا ميسورا﴾ سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا من يسر الأمر نحو سعد أو قل لهم رزقنا الله واياكم من فضله على انه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم ﴿ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ تمثيلان لمنع الشحيح واسراف المبذر زجرا لها عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد

كلا طرفى قصد الامور ذميم

وحيث كان قبح الشح مقارنا لمعلوما من أول الأمر روعى ذلك فى التصوير

بأقبح الصور ولما كان غائلة الاسراف فى آخره بين قبحه فى أثره فقيل ﴿فتقعد ملوما﴾ أى فتصير ملوما عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك اذا احتجت وندمت على مافعلت ﴿محسورا﴾ نادما أو منقطعا بك لاشئ عندك من حسره السفر اذا بلغ منه وما قيل من أنه روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد اذ أتاه صبى فقال ان أمى تستكسيك درعا فقال عليه السلام من ساعة الى ساعة فعد الينا فذهب الى أمه فقالت له قل ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قيصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت فيأباه أن السورة مكية خلا آيات فى آخرها وكذا ما قيل انه عليه السلام أعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وكذا عيينة بن حصن الفزارى فجاء عباس بن مرادس فأنشأ يقول

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والاقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال عليه السلام يا أبا بكر اقطع لسانه عنى أعطه مائة من الابل وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب فنزلت ﴿ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ تعليل لما مر أى يوسعه على بعض ويضيقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فليس ما يرهقك من الاضاقة التى تحوجك الى الاعراض عن السائلين أو نفاد ما فى يدك اذا بسطتها كل البسط الا لمصلحتك ﴿انه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾ تعليل لما سبق أى يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويجوز أن يراد ان البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذى بيده خزائن السموات والارض وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا وأن يراد أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وأن يراد أنه تعالى يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق﴾ أى مخافة فقر وقرئ بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك ﴿نحن نرزقهم واياكم﴾ لا أنتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم وتقديم ضمير الأولاد على المخاطبين على عكس ما وقع فى سورة الأنعام للاشعار باصالتهم فى افاضة الرزق أو لأن الباعث على القتل هناك الاملاق الناجز ولذلك قيل من املاق وههنا الاملاق المتوقع ولذلك قيل خشية املاق فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شئ فيعتريكم ما تخشونه واياكم أيضا رزقا الى رزقكم ﴿ان قتلهم كان خطأ كبيرا﴾ تعليل آخر ببيان أن المنهى عنه فى نفسه منكر عظيم والخطء الذنب والاثم يقال خطئ خطأ كأثم اثما وقرئ بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدودا وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته وانما نهى عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق من القتل للمبالغة فى النهى عن نفسه ولأن قربانه داع الى مباشرته وتوسيط النهى عنه بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن قتل النفس المحرمة على الاطلاق باعتبار أنه قتل للاولاد لما أنه تضييع للانساب فان من لم يثبت نسبه ميت حكما ﴿انه كان فاحشة﴾ فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد ﴿وساء سبيلا﴾ أى بئس طريقا طريقه فانه غصب الابضاع المؤدى الى اختلال أمر الأنساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبى عليه السلام اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان على رأسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه وقال عليه السلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال عليه السلام اياكم والزنا فان فيه ست خصال

ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فأما التى فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر وأما التى فى الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله﴾ قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد ﴿الا بالحق﴾ الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا فالاستثناء مفرغ أى لا تقتلوها بسبب من الأسباب الا بسبب الحق أو ملتبسين أو ملتبسة بشئ من الأشياء ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف أى لا تقتلوها قتلا ما الا قتلا ملتبسا بالحق ﴿ومن قتل مظلوما﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقاتل حتى انه لا يعتبر اباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص اذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده قول الولى أنا أمرته بذلك ما لم يكن الأمر ظاهرا ﴿فقد جعلنا لوليه﴾ لمن يلى أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث ﴿سلطانا﴾ تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته أو حجة غالبة ﴿فلا يسرف﴾ وقرئ لا تسرف ﴿فى القتل﴾ أى لا يسرف الولى فى أمر القتل بان يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلة أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه أو بأن يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله أهل الجاهلية أو بأن يقتل القاتل فى مادة الدية وقرئ بصيغة النفى مبالغة فى افادة معنى النهى ﴿انه كان منصورا﴾ تعليل للنهى والضمير للولى على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعونته فى استيفاء حقه فلا يبغ ما وراء حقه ولا يستزد عليه ولا يخرج من دائرة أمر الناصر أو للمقتول ظلما على معنى أنه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف وليه فى شأنه أو للذى يقتله الولى ظلما واسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد أن الضمير فى لا يسرف للقاتل الاول ويعضده قراءة فلا تسرفوا والضميران فى التعليل عائدان الى الولى أو المقتول فالمراد بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الاسراف وتجاوز الحد فى القتل أى لا يسرف على نفسه فى شأن القتل كما فى قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ نهى عن قربانه لما ذكر من المبالغة فى النهى عن التعرض له ومن افضاء ذلك اليه وللتوسل الى الاستثناء بقوله تعالى ﴿الا بالتى هى أحسن﴾ أى الا بالخصلة والطريقة التى هى أحسن الخصال والطرائق وهى حفظه واستثماره ﴿حتى يبلغ أشده﴾ غاية لجواز التصرف على الوجه الاحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط ﴿وأوفوا بالعهد﴾ سواء جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس والايفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل الا بالباء فرقا بينه وبين الايفاء الحسى كايفاء الكيل والوزن ﴿ان العهد﴾ أظهر فى مقام الاضمار اظهارا لكمال العناية بشأنه أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود ﴿كان مسئولا﴾ أى مسئولا عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا فى اسم المفعول كقوله تعالى وذلك يوم مشهود أى مشهود فيه ونظيره ما فى قوله تعالى تلك آيات الكتاب الحكيم على أن أصله الحكيم قائله فحذف المضاف وجعل الضمير مستكنا فى الحكيم بعد انقلابه مرفوعا ويجوز أن يكون تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت ﴿وأوفوا الكيل﴾ أى أتموه ولا تخسروه ﴿اذا كلتم﴾ أى وقت كيلكم للمشترين وتقييد الأمر بذلك لما أن التطفيف هناك يكون وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة الى الأمر بالتعديل قال تعالى اذا اكتالوا على الناس يستوفون الآية ﴿وزنوا بالقسطاس﴾ وهو القرسطون وقيل كل ميزان صغيرا كان أو كبيرا رومى معرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لانتظام المعربات فى سلك الكلم العربية وقرئ بضم القاف ﴿المستقيم﴾ أى العدل السوى ولعل الاكتفاء باستقامته عن الأمر بايفاء الوزن لما أن عند استقامته لا يتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فانه كثيرا

ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بايفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن ايفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضا فى قوله تعالى أوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴿ذلك﴾ أى ايفاء الكيل والوزن بالميزان السوى ﴿خير﴾ فى الدنيا اذهو أمانة توجب الرغبة فى معاملته والذكر الجميل بين الناس ﴿وأحسن تأويلا﴾ عاقبة تفعيل من آل اذا رجع والمراد ما يؤول اليه ﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع من قفا أثره اذا تبعه وقرئ ولا تقف من قاف أثره أى قفاه ومنه القافة فى جمع القائف ﴿ماليس لك به علم﴾ أى لا تكن فى اتباع ما لا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله الى مقصده واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان أو ظنيا واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه وقيل انه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمى وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج ومنه قول الكميت

ولا أرمى البرئ بغير ذنب ... ولا أقفو الحواصن ان رمينا

﴿ان السمع والبصر والفؤاد﴾ وقرئ بفتح الفاء والواو المقلوبة من الهمزة عند ضم الفاء ﴿كل أولئك﴾ أى كل واحد من تلك الأعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤلة عن أحوالها شاهدة على أصحابها هذا وان أولاء وان غلب فى العقلاء لكنه من حيث انه اسم جمع لذا الذى يعم القبيلين جاء لغيرهم أيضا قال

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام

﴿كان عنه مسؤلا﴾ أى كان كل من تلك الأعضاء مسؤلا عن نفسه على أن اسم كان ضمير يرجع الى كل وكذا الضمير المجرور وقد جوز أن يكون الاسم ضمير القافى بطريق الالتفات اذ الظاهر أن يقال كنت عنه مسؤلا وقيل الجار والمجرور فى محل الرفع قد أسند اليه مسؤلا معللا بأن الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدا وهو السبب فى منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه ولكن النحاس حكى الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا ويجوز أن يكون من باب الحذف على شريطة التفسير ويحذف الجار من المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا فى قوله تعالى يوم مشهود وجوز أن يكون مسؤلا مسندا الى المصدر المدلول عليه بالفعل وأن يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه فى محل النصب وسأل ابن جنى أبا على عن قولهم فيك يرغب وقال لا يرتفع بما بعده فاين المرفوع فقال المصدر أى فيك يرغب الرغبة بمعنى تفعل الرغبة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع وجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير كل بحذف المضاف أى كان صاحبه عنه مسؤلا أو مسؤلا صاحبه ﴿ولا تمش فى الأرض﴾ التقييد لزيادة التقرير والاشعار بأن المشى عليها مما لا يليق بالمرح ﴿مرحا﴾ تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع الحال أى ذا مرح أو تمرح مرحا أو لاجل المرح وقرئ بالكسر ﴿انك لن تخرق الأرض﴾ تعليل للنهى وفيه تهكم بالمختال وايذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبر عليها أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك وقرئ بضم الراء ﴿ولن تبلغ الجبال﴾ التى هى بعض أجزاء الأرض ﴿طولا﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها اذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه ﴿كل ذلك﴾ اشارة الى ما علم فى تضاعيف ذكر الأوامر والنواهى من الخصال الخمس والعشرين ﴿كان سيئه﴾ الذى نهى عنه وهى اثنتا عشرة خصلة ﴿عند ربك مكروها﴾ مبغضا غير مرضى أو غير مراد بالارادة الأولية لا غير مراد مطلقا لقيام الأدلة القاطعة على أن جميع الأشياء واقعة بارادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الامور

المنهى عنها جميعا ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للايذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية فى وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الاشارة الى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها اليه ابتداء لما أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط وفيه اشعار بكون ماعداه مرضيا عنده تعالى وانما لم يصرح بذلك ايذانا بالغنى عنه وقيل الاضافة بيانية كما فى آية الليل وآية النهار وقرئ سيئة على أنه خبر كان وذلك اشارة الى مانهى عنه من الامور المذكورة ومكروها بدل من سيئة أو صفة لها محمولة على المعنى فانه بمعنى سيئا وقد قرئ به أو مجرى على موصوف مذكر أى أمرا مكروها أو مجرى مجرى الاسماء زال عنه معنى الوصفية ويجوز كونه حالا من المستكن فى كان أو فى الظرف على أنه صفة سيئة وقرئ سيئاته وقرئ شأنه ﴿ذلك﴾ أى الذى تقدم من التكاليف المفصلة ﴿مما أوحى اليك ربك﴾ أى بعض منه أو من جنسه ﴿من الحكمة﴾ التى هى علم الشرائع أو معرفة الحق لذاته والعمل به أو من الأحكام المحكمة التى لا يتطرق اليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان هذه الآيات الثمانى عشرة كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله الها آخر قال تعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وهى عشر آيات فى التوراة ومن اما متعلقة بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائية واما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره المحذوف فى الصلة أى كائنا من الحكمة واما بدل من الموصول باعادة الجار ﴿ولا تجعل مع الله الها آخر﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهى عنه وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه وان بذ فيها أساطين الحكماء وحك بيافوخه عنان السماء وقد رتب عليه ماهو عائدة الاشراك أولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا ورتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل ﴿فتلقى فى جهنم ملوما﴾ من جهة نفسك ومن جهة غيرك ﴿مدحورا﴾ مبعدا من رحمة الله تعالى وفى ايراد الالقاء مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه فيطرحها فى التنور ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا﴾ خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والاصفاء بالشئ جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يفسره المذكور أى أفضلكم على جنابه فخصكم بأفضل الأولاد على وجه الخلوص وآثر لذاته أخسها وأدناها كما فى قوله سبحانه ألكم الذكر وله الانثى وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد النكير وتأكيده وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام وايراد الاناث مكان البنات الى كفرة لهم أخرى وهى وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التى هى أخس صفات الحيوان كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ﴿انكم لتقولون﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل الذى هو اضافة الولد اليه سبحانه ﴿قولا عظيما﴾ لا يقادر قدره فى استتباع الاثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه أحد حيث يجعلونه تعالى من قبيل الاجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شئ وهو الواحد القهار الباقى بذاته ثم تضيفون اليه ما تكرهون من أخس الأولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالانوثة التى هى أخس أوصاف الحيوان فيالها من ضلة ما أقبحها وكفرة ما أشنعها وأفظعها ﴿ولقد صرفنا﴾ هذا المعنى وكررناه ﴿فى هذا القرآن﴾ على وجوه من التصريف فى مواضع منه وانما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرئ بالتخفيف ﴿ليذكروا﴾ مافيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكى للسامعين هناتهم وقرئ بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر ويجوز أن يراد بهذا القرآن ما نطق ببطلان مقالتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على أساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له أى أوقعنا

فيه التصريف كقوله يجرح فى عراقيبها نصلى وقد جوز أن يراد به ابطال اضافتهم اليه تعالى البنات وأنت تعلم أن ابطالها من آثار القرآن ونتائجها ﴿ومايزيدهم﴾ أى والحال أنه مايزيدهم ذلك التصريف البالغ ﴿الانفورا﴾ عن الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدى الى معرفة بطلان ماهم عليه من القبائح ﴿قل﴾ فى اظهار بطلان ذلك من جهة أخرى ﴿لوكان معه﴾ تعالى ﴿آلهة كما يقولون﴾ أى المشركون قاطبة وقرىء بالتاء خطابا لهم من قبل النبى عليه الصلاة والسلام والكاف فى محل النصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى كونا مشابها لما يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة ﴿اذاً لابتغوا﴾ جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء للو أى لطلبوا ﴿الى ذى العرش﴾ أى الى من له الملك والربوبية على الاطلاق ﴿سبيلا﴾ بالمغالبة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل بالتقرب اليه تعالى كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة والأول هو الأظهر الأنسب لقوله ﴿سبحانه﴾ فانه صريح فى أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من حيث لايحتسبون وأما ابتغاء السبيل اليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقرير ولا هو مما يلزمهم من حيث لايشعرون بل هو أمر يعتقدونه رأسا أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ﴿وتعالى﴾ متباعدا ﴿عما يقولون﴾ من العظيمة التى هى أن يكون معه آلهة وأن يكون له بنات ﴿علوا﴾ تعاليا كقوله تعالى والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴿كبيرا﴾ لاغاية وراءه كيف لاوانه سبحانه فى أقصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتى ومايقولونه من أن لله تعالى شركاء وأولادا فى أبعد مراتب العدم أعنى الامتناع لالأنه تعالى فى أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فانه من خواص مايمتنع بقاؤه كما قيل فان مايقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهة ولا ريب فى أن ذلك ليس بداخل فى حد الامكان فضلا عن دخوله تحت الوجود وكونه من أدنى مراتب الوجود انما هو بالنسبة الى من شأنه ذلك ﴿تسبح﴾ بالفوقانية وقرىء بالتحتانية وقرىء سبحت ﴿له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ من الملائكة والثقلين على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز ﴿وان من شىء﴾ من الأشياء حيوانا كان أونباتا أوجمادا ﴿الايسبح﴾ ملتبسا ﴿بحمده﴾ أى ينزهه تعالى بلسان الحال عما لا يليق بذاته الأقدس من لوازم الامكان ولواحق الحدوث اذ مامن موجود الاوهو بامكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على أن له صانعا عليما قادرا حكيما واجبا لذاته قطعا للسلسلة ﴿ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾ أيها المشركون لاخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم ذلك وقرىء لايفقهون على صيغة المبنى للمفعول من باب التفعيل ﴿انه كان حليما﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ماأنتم عليه من موجباتها من الاعراض عن التدبر فى الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك فى الكفر والاشراك ﴿غفورا﴾ لمن تاب منكم ﴿واذا قرأت القرآن﴾ الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم الى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع ﴿جعلنا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية ﴿بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة﴾ أوثر الموصول على الضمير ذمالهم بما فى حيز الصلة وانما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها معظم ماأمروا بالايمان به فى القرآن وتمهيدا لما سينقل عنهم من انكار البعث واستعجاله ونحو ذلك ﴿حجابا﴾ يحجبهم من أن يدركوك على ماأنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترؤا على تفوه العظيمة التى هى قولهم ان تتبعون الارجلا مسحورا وحمل الحجاب على ماروى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه من أنه لما نزلت سورة تبت أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبى لهب وفى يدها فهر والنبى عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد

ومعه أبو بكر رضى الله عنه فلما رآها قال يارسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال عليه الصلاة والسلام انها لن ترانى وقرأ قرآنا فوقفت على أبى بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم ﴿مستورا﴾ ذاستر كما فى قولهم سيل مفعم أومستورا عن الحس بمعنى غير حسى أومستورا فى نفسه بحجاب آخر أومستورا كونه حجابا حيث لايدرون أنهم لايدرون ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أغطية كثيرة جمع كنان ﴿أن يفقهوه﴾ مفعول لأجله أى كراهة أن يفقهوه أومفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى ﴿وفى آذانهم وقرا﴾ صمما وثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشئون النبى عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جىء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال اثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال وايذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه الالمانع قوى يعترى المشاعر فيبطلها وتنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لاحكاية لما قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب كيف لاوقصدهم بذلك انما هو الاخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا وأساطير وقس عليه حال النبى عليه الصلاة والسلام لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ماأدركوه قد حال بينهم وبين ادراكه حائل من قبلهم ولا ريب فى أن ذلك المعنى مما لايكاد يلائم المقام ﴿واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده﴾ واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال أصله يحد وحده ﴿ولوا على أدبارهم﴾ أى هربوا ونفروا ﴿نفورا﴾ أوولوا نافرين ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بنى عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ﴿اذ يستمعون اليك﴾ ظرف لأعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لاأن العلم يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى ﴿واذهم نجوى﴾ لكن لامن حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجى المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن أعلم بالذى يستمعون ملتبسين به مما لاخير فيه من الامور المذكورة وبالذى يتناجون به فيما بينهم أوالاول ظرف ليستمعون والثانى ليتناجون والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير وبما به التناجى وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف أى ذوونجوى أوهو جمع نجى كقتلى جمع قتيل أى متناجون ﴿اذ يقول الظالمون﴾ بدل من اذهم وفيه دليل على أن مايتناجون به غير مايستمعون به وانما وضع الظالمون موضع المضمر اشعارا بأنهم فى ذلك ظالمون مجاوزون للحد أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ﴿ان تتبعون﴾ ماتتبعون ان وجد منكم الاتباع فرضا أو ما تتهمون باللغو والهزء ﴿الا رجلا مسحورا﴾ أى سحر فجن أو رجلا ذا سحر أى رئة يتنفس أى بشرا مثلكم ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فضلوا﴾ فى جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿فلا يستطيعون سبيلا﴾ الى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لايرتاب فى بطلانه أحد أو الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مالا يخفى ﴿وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا﴾ استفهام انكارى مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ماآل الحال الى هذا المآل لما بين غضاضة الحى ويبوسة الرميم من التنافى كأن استحالة الامر من الظهور بحيث لايقدر المخاطب على التكلم به والرفات مابولغ فى دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام واذا متمحضة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها مادل عليه قوله

تعالى ﴿أئنا لمبعوثون﴾ لانفسه لان مابعد ان والهمزة واللام لايعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجع
للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل
لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن واللام
لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله
تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وليس
مدار انكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم عظاما و رفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم
بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم
فى الضلال مالا مزيد عليه ﴿خلقا جديدا﴾ نصب على المصدر من غير لفظه أو الحالية على أن الخلق بمعنى المخلوق
﴿قل﴾ جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه ﴿كونوا حجارة أو حديدا أوخلقا﴾ آخر ﴿مما يكبر فى صدوركم﴾ أى
يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها و بينه فانكم مبعوثون ومعادون لامحالة ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾
مع مابيننا و بين الاعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة ﴿قل﴾ لهم تحقيقا للحق وازاحة للاستبعاد وارشادا لهم الى طريقة
الاستدلال ﴿الذى﴾ أى يعيدكم القادر العظيم الذى ﴿فطركم﴾ اخترعكم ﴿أول مرة﴾ من غير مثال يحتذيه و لا
أسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ماشم رائحة الحياة أليس الذى يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية الى حالتها المعهودة
بلى انه على كل شىء قدير ﴿فسينغضون اليك رؤسهم﴾ أى سيحركونها نحوك تعجبا وانكارا ﴿و يقولون﴾ استهزاء
﴿متى هو﴾ أى ماذكرته من الاعادة ﴿قل﴾ لهم ﴿عسى أن يكون﴾ ذلك ﴿قريبا﴾ نصب على أنه خبر ليكون
أوظرف على أن كان تامة أى أن يقع فى زمان قريب ومحل أن مع مافى حيزها اما نصب على أنه خبر لعسى وهى ناقصة
واسمها ضمير عائد الى ماعاد اليه هو أى عسى البعث أن يكون قريبا أو عسى البعث يقع فى زمان قريب أو رفع على أنه
فاعل لعسى وهى تامة أى عسى كونه قريبا أو وقوعه فى زمان قريب ﴿يوم يدعوكم﴾ منصوب بفعل مضمر أى اذكروا
أو على أنه بدل من قريبا على أنه ظرف أو بيكون تامة بالاتفاق أو ناقصة عند من يجوز اعمال الناقصة فى الظروف أو
بضمير المصدر المستكن فى عسى أو يكون أعنى البعث عند من يجوز اعمال ضمير المصدر كما فى قول زهير

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

فهو ضمير المصدر وقد تعلق به مابعده من الجار ﴿فتستجيبون﴾ أى يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والاجابة
ايذانا بكمال سهولة التأتى و بأن المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجواب ﴿بحمده﴾ حال من ضمير تستجيبون أى
منقادين له حامدين لما فعل بكم غير مستعصين أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها
﴿وتظنون﴾ عطف على تستجيبون أى تظنون عند ماترون ماترون من الامور الهائلة ﴿ان لبثتم﴾ أى مالبثتم فى
القبور ﴿الا قليلا﴾ كالذى مر على قرية أو مالبثتم فى الدنيا ﴿وقل لعبادى﴾ أى المؤمنين ﴿يقولوا﴾ عند محاورتهم
مع المشركين ﴿التى﴾ أى الكلمة التى ﴿هى أحسن﴾ و لايخاشنوهم كقوله تعالى و لاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتى
هى أحسن ﴿ان الشيطان ينزغ بينهم﴾ أى يفسد و يهيج الشر والمراء و يغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة
والمشارة والمعارة والمضارة فلعل ذلك يؤدى الى تأكد العناد وتمادى الفساد فهو تعليل للامر السابق وقرىء بكسر الزاء
﴿ان الشيطان كان﴾ قدما ﴿للانسان عدوا مبينا﴾ ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من أن الشيطان ينزغ بينهم
﴿ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم﴾ بالتوفيق للايمان ﴿أوان يشأ يعذبكم﴾ بالاماتة على الكفر وهذا تفسير التى هى

أحسن وما بينهما اعتراض أى قولوا لهم هذه الكلمة ومايشا كلها و لا تصرحوا بأنهم من أهل النار فانه مما يهيجهم على
الشر مع أن العاقبة مما لا يعلمه الا الله سبحانه فعسى يهديهم الى الايمان ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلا﴾ موكولا
اليك أمورهم تقسرهم على الايمان وانما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة
والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه شتمه رجل فأمر بالعفو وقيل أفرط أذية المشركين
بالمؤمنين فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل الكلمة التى هى أحسن أن يقولوا يهديكم الله و يرحمكم الله
﴿وربك أعلم بمن فى السموات والأرض﴾ وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التى بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء
فيختار منهم لنبوته و ولايته من يشاء ممن يستحقه وهو رد عليهم اذ قالوا بعيد أن يكون يتيم أبى طالب نبيا وأن يكون العراة
الجوع أصحابه دون أن يكون ذلك من الاكابر والصناديد وذكر من فى السموات لابطال قولهم لولا أنزل علينا الملائكة
وذكر من فى الارض لرد قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾
بالفضائل النفسانية والتنزه عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع ﴿وآتينا داود زبورا﴾ بيان لحيثية
تفضيله عليه الصلاة والسلام فان ذلك ايتاء الزبور لا ايتاء الملك والسلطنة وفيه ايذان بتفضيل النبى عليه الصلاة والسلام
فان نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة فى الزبور وأن المراد بعباد الله الصالحين فى قوله تعالى ان الارض يرثها
عبادى الصالحون هو النبى عليه الصلاة والسلام وأمته وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى اما لانه فى الاصل فعول بمعنى
المفعول كالحلوب أو مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد آتينا داود زبورا من الزبر أو بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة
والسلام وقرىء بضم الزاى على أنه جمع زبر بمعنى مزبور ﴿قل ادعوا الذين زعمتم﴾ انها آلهة ﴿من دونه﴾ تعالى من الملائكة
والمسيح وعزير ﴿فلا يملكون﴾ فلا يستطيعون ﴿كشف الضر عنكم﴾ بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك
﴿ولا تحويلا﴾ أى و لا تحويله الى غيركم ﴿أولئك الذين يدعون﴾ أى أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من
المذكورين ﴿يبتغون﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿الى ربهم﴾ ومالك أمورهم ﴿الوسيلة﴾ القربة بالطاعة والعبادة ﴿أيهم
أقرب﴾ بدل من فاعل يبتغون وأى موصولة أى يبتغى من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه أو ضمن
الابتغاء معنى الحرص فكانه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب اليه تعالى بالطاعة والعبادة ﴿ويرجون رحمته﴾ بها
﴿ويخافون عذابه﴾ بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضلا عن الالهية ﴿ان عذاب ربك كان
محذورا﴾ حقيقا بأن يحذره كل أحد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى و يخافون عذابه
وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب وأن بينهم و بين العذاب بونا بعيدا ﴿وان من قرية﴾ بيان
لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره اثر بيان أنه حقيق بالحذر وأن أساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة
والسلام على حذر من ذلك وكلمة ان نافية ومن استغراقية والمراد بالقرية القرية الكافرة أى مامن قرية من قرى الكفار
﴿الا نحن مهلكوها﴾ أى مخربوها البتة بالخسف بها أو باهلاك أهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات
المستوجبة لذلك وفى صيغة الفاعل وان كانت بمعنى المستقبل ماليس فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وانما قيل
﴿قبل يوم القيامة﴾ لأن الاهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة و لا هو بطريق العقوبة وانما هو لانقضاء عمر
الدنيا ﴿أومعذبوها﴾ أى معذبو أهلها على الاسناد المجازى ﴿عذابا شديدا﴾ لا بالقتل والسبى ونحوهما من البلايا
الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الاخروية أيضا حسبما يفصح عنه اطلاق التعذيب عما قيد به
الاهلاك من قبلية يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوباتها الى يوم القيامة ﴿كان

ذلك﴾ الذى ذكر من الاهلاك والتعذيب ﴿فى الكتاب﴾ أى اللوح المحفوظ ﴿مسطورا﴾ مكتوبا لم يغادر منه شئ الا بين فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له و وقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها أما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فهلا كها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ أبو عمرو الدوانى فى كتاب الفتن انه روى عن وهب بن منبه أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب أفريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من قبل عدو من ورائهم يحصرهم حتى لا يستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل الغرق وخراب الايلة من قبل عدو يحصرهم برا وبحرا وخراب الرى من الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة وقد أخرجه العمرى من هذا الوجه وأنت خبير بان تعميم القرية لا يساعده السباق ولا السياق ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾ أى الآيات التى اقترحتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك ﴿الا أن كذب بها الأولون﴾ استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى وما منعنا ارسالها شئ من الاشياء الا تكذيب الاولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله تعالى بها وان كان بمشيئته المبنية على الحكم البالغة لا لمنع مانع عن ذلك من التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحكم السنة الالهية واستلزامه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراك فى العتو والعناد وافضائه الى أن يحل بهم مثل ما حل بهم بحكم الشركة فى الجريرة لما كان منافيا للارسال لما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيب المستدعى للاستئصال المخالف لما جرى به قلم القضاء من تأخير عقوبات هذه الأمة الى الآخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوهم من ايمان بعض أعقابهم عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة ايذانا بتعاضد مبادى الارسال لا كما زعموا من عدم ارادته تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر فى ايثار الارسال على الايتاء لما فيه من الاشعار بتداعى الآيات الى النزول لولا أن تمسكها يد التقدير واسناد على هذا المنع الى تكذيب الاولين لا الى علمه تعالى بما سيكون من الآخرين كما فى قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون لاقامة الحجة عليهم بابراز الانموذج وللايذان بأن مدار عدم الاجابة الى ايتاء مقترحهم ليس الا صنيعهم ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ عطف على ما يفصح عنه النظم الكريم كانه قيل وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا باقتراحهم ثمود الناقة ﴿مبصرة﴾ على صيغة الفاعل أى بينة ذات ابصار أو بصائر يدركها الناس أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو جاعلتهم ذوى بصائر من أبصره جعله بصيرا وقرئ على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهى نصب على الحالية وقرئ بالرفع على انها خبر مبتدأ محذوف ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بها ظالمين أى لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا وصدورا أو لأنها من جهة انها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى قل كونوا حجارة

أو حديدا ﴿وما نرسل بالآيات﴾ المقترحة ﴿الا تخويفا﴾ لمن أرسلت هى عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم ما فعل فلا محل للجملة حينئذ من الاعراب ويجوز أن تكون حالا من ضمير ظلموا أى فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال أنا ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها الا تخويفا من العذاب الذى يعقبها فنزل بهم ما نزل ﴿واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس﴾ أى علما كما نقله الامام الثعلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما فلا يخفى عليه شئ من أفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وفى قوله تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس﴾ الى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجئ بعض الآيات لاشتراك الكل فى كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله سبحانه لتصديق النبي عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقى كما أن تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة والمراد بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء حسبما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك بالرؤيا اما لأنه لا فرق بينها وبين الرؤية أو لانها وقعت بالليل أو لان الكفرة قالوا لعلها رؤيا أى وما جعلنا الرؤيا التى أريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية حقيقة بأن لا يتلعثم فى تصديقها أحد ممن له أدنى بصيرة الا فتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم ﴿والشجرة الملعونة فى القرآن﴾ عطف على الرؤيا والمراد بلعنها فيه لعن طاعمها على الاسناد المجازى أو ابعادها عن الرحمة فانها تنبت فى أصل الجحيم فى أبعد مكان من الرحمة أى وما جعلناها الا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا ان محمدا يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا حيث كابروا قضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندر تلقى فى النار فلا تؤثر فيها ويرون أن فى كل شجر نارا وقرئ بالرفع على حذف الخبر كانه قيل والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك ﴿ونخوفهم﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات فان الكل للتخويف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿الا طغيانا كبيرا﴾ متجاوزا عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها وفعل بهم ما فعل بأشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة الكبرى هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وقد حمل أكثر المفسرين الاحاطة على الاحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الاجابة الى انزال الآيات التى اقترحوها لان انزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهم فى قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة ألا يرى أن الرؤيا التى أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنها ما أورثت ضعفا لامرك وفتورا فى حالك وقد فسر الاحاطة باهلاك قريش يوم بدر وانما عبر عنه بالماضى مع كونه منتظرا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقوله تعالى قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وغير ذلك جريا على عادته سبحانه فى أخباره وأولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام فى المنام من مصارعهم لما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الأرض هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت به قريش فاستسخروا منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكة وأخبر به أصحابه فتوجه اليها فصده المشركون عام الحديبية واعتذر عن كون ما ذكر مدنيا بأنه يجوز أن يكون الوحى باهلاكهم وكذا الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وأنت خبير بأنه

يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعا بعد الهجرة وأن يكون ازديادهم طغيانا متوقعا غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا مارآه عليه الصلاة والسلام فى وقعة بدر من مضمون قوله تعالى اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولا ريب فى أن تلك الرؤيا مع وقوعها فى المدينة ماجعلت فتنة للناس ﴿واذ قلنا للملائكة﴾ تذكير لما جرى منه تعالى من الأمر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ماسبق من قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام فى الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال ابليس حال من يعاند الحق ويخالف الأمر أى واذكر وقت قولنا لهم ﴿اسجدوا لآدم﴾ تحية وتكريما لما له من الفضائل المستوجبة لذلك ﴿فسجدوا﴾ له من غير تلعثم امتثالا للامر وأداء لحقه عليه الصلاة والسلام ﴿الا ابليس﴾ وكان داخلا فى زمرتهم مندرجا تحت الأمر بالسجود ﴿قال﴾ أى عند ماوبخ بقوله عز سلطانه يا ابليس مالك أن لاتكون مع الساجدين وقوله مامنعك أن لاتسجد اذ أمرتك وقوله مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى كما أشير اليه فى سورة الحجر ﴿أأسجد﴾ وأنا مخلوق من العنصر العالى ﴿لمن خلقت طينا﴾ نصب على نزع الخافض أى من طين أو حال من الراجع الى الموصول أى خلقته وهو طين أو من نفس الموصول أى أأسجد له وأصله طين والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل انكاره بما فى حيز الصلة ﴿قال﴾ أى ابليس لكن لاعقيب كلامه المحكى بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الأمر بخروجه من بين الملأ الأعلى باللعن المؤبد وانما لم يصرح بذلك اكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر فان توسيط قال بين كلامى اللعين للايذان بعدم اتصال الثانى بالأول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم بعد قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ﴿أرأيتك هذا الذى كرمت على﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لامحل لها من الاعراب وهذا مفعول أول والموصول صفته والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بأن أمرتنى بالسجود له لم كرمته على وقيل هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أى أخبرنى أهذا من كرمته على وقيل معنى أرأيتك أتأملت كان المتكلم ينبه المخاطب على استحضار مايخاطبه به عقيبه ﴿لئن أخرتن﴾ حيا ﴿الى يوم القيامة﴾ كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله ﴿لأحتنكن ذريته﴾ أى لأستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الأرض اذا جرد ماعليها أكلا أو لأقودنهم حيث ما شئت ولأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها اذا جعلت فى حنكها الأسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين وانما علم تسنى ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو استنباطا من قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أو توسما من خلقه ﴿الا قليلا﴾ منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى ﴿قال اذهب﴾ أى امض لشأنك الذى اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين ماسولت له نفسه ﴿فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم﴾ أى جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية ﴿جزاء موفورا﴾ أى جزاء مكملا من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة أى وفر وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لما فى قوله فان جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو للفعل المقدر أو حال موطئة لقوله موفورا ﴿واستفزز﴾ أى استخف ﴿من استطعت منهم﴾ أن تستفزه ﴿بصوتك﴾ بدعائك الى الفساد ﴿وأجلب عليهم﴾ أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ﴿بخيلك ورجلك﴾ أى بأعوانك وأنصارك من راكب وراجل من أهل العيث والفساد قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة ان له خيلا ورجلا

من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ياخيل الله اركبى والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب وقرىء بكسر الجيم وهى قراءة حفص على أنه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب وبضمة مثل حدث وحدث وندس وندس ونظائرهما أى جمعك الراجل ليطابق الخيل وقرىء رجالك ورجالك ويجوز أن يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ﴿وشاركهم فى الأموال﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على مالا ينبغى ﴿والاولاد﴾ بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة والاشراك كتسميتهم بعبد العزى والتضليل بالحمل على الاديان الزائغة والحرف الذميمة والأفعال القبيحة ﴿وعدهم﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الأمل ﴿ومايعدهم الشيطان الاغرورا﴾ اعتراض لبيان شأن مواعيده والالتفات الى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب ﴿ان عبادى﴾ الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه أن من تبعه ليس منهم وأن الاضافة لثبوت الحكم فى قوله تعالى ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ أى تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴿وكفى بربك وكيلا﴾ لهم يتوكلون عليه ويستمدون به فى الخلاص عن اغوائك والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى مع الاضافة الى ضمير ابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم أعنى سلب قدرته على اغوائهم ﴿ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر﴾ مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال أى هو القادر الحكيم الذى يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها فى البحر ﴿لتبتغوا من فضله﴾ من رزقه الذى هو فضل من قبله أو من الربح الذى هو معطيه ومن مزيدة أو تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التى هى دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا يملكون الآية ﴿انه كان بكم﴾ أزلا وأبدا ﴿رحيما﴾ حيث هيأ لكم ماتحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لماسبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم للدلالة على أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة الى الجليلة والحقيرة ﴿واذا مسكم الضر فى البحر﴾ خوف الغرق فيه ﴿ضل من تدعون﴾ أى ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيح أو غيرهم ﴿الا اياه﴾ وحده من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم وتدعوه لكشفه استقلالا أو اشتراكا أو ضل كل من تدعونه عن اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك الا الله على الاستثناء المنقطع ﴿فلما نجاكم﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿الى البر أعرضتم﴾ عن التوحيد أو اتسعتم فى كفران النعمة ﴿وكان الانسان كفورا﴾ تعليل لما سبق من الاعراض ﴿أفأمنتم﴾ الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم ﴿أن يخسف بكم جانب البر﴾ الذى هو مأمنكم أى يقلبه ملتبسا بكم أو بسبب كونكم فيه وفى زيادة الجانب تنبيه على تساوى الجوانب والجهات بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى وقهره وسلطانه وقرىء بنون العظمة ﴿أو يرسل عليكم﴾ من فوقكم وقرىء بالنون ﴿حاصبا﴾ ريحا ترمى بالحصباء ﴿ثم لاتجدوا لكم وكيلا﴾ يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فانه لاراد لامره الغالب ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه﴾ فى البحر أوثرت كلمة فى على كلمة الى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه ﴿تارة أخرى﴾ اسناد الاعادة اليه تعالى مع أن العود اليه

باختيارهم باعتبار خلق الدواعى الملجئة لهم الى ذلك وفيه ايماء الى كمال شدة هول مالاقوه فى التارة الأولى بحيث لولا الاعادة لما عادوا ﴿فيرسل عليكم﴾ وأنتم فى البحر وقرئ بالنون ﴿قاصفا من الريح﴾ وهى التى لاتمر بشئ الا كسرته وجعلته كالرميم أو التى لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أى تتكسر ﴿فيغرقكم﴾ بعد كسر فلككم كما ينبئ عنه عنوان القصف وقرئ بالنون و بالتاء على الاسناد الى ضمير الريح ﴿بما كفرتم﴾ بسبب اشراككم أو كفرانكم لنعمة الانجاء ﴿ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا كقوله سبحانه ولا يخاف عقباها ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم أى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما فى الارض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ماذكر ابن عباس رضى الله عنهما من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وما قيل من شركة القرد له فى ذلك مبنى على عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التى يطأ بها القاذورات لا بيده ﴿وحملناهم فى البر والبحر﴾ على الدواب والسفن من حملته اذا جعلت له ما يركبه وليس من المخلوقات شئ كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم بالماء وأنت خبير بأن الاول هو الانسب بالتكريم اذ جميع الحيوانات كذلك ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم و بغير صنعهم ﴿وفضلناهم﴾ فى العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التى بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿تفضيلا﴾ عظيما فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها و يستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة و يرفضوا ماهم عليه من الشرك الذى لا يقبله أحد ممن له أدنى تميز فضلا عمن فضل على من عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المحضة وانما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم دائمة عارية عن الخطأ والخلل وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد هنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها و لا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة و زيادة القربة عند الله سبحانه. ان قيل أى حاجة الى تعيين مافيه التفضيل بعد بيان ماهو المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لا يستلزم استثناءهم من تفضيل بعض أفراده عليهم قلنا لابد من تعيينه البتة اذ ليس من الأفراد الفاجرة للبشر أحد يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه أصلا بل هم أدنى من كل دنئ حسبما ينبئ عنه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل وقوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴿يوم ندعو﴾ نصب على المفعولية باضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه قوله تعالى ولا يظلمون وقرئ بالياء على البناء للفاعل والمفعول و يدعو بقلب الالف واوا على لغة من يقول فى أفعى أفعو وقد جوز كون الواو علامة الجمع كما فى قوله تعالى وأسروا النجوى أو ضميره و كل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست الا علامة الرفع وقد يكتفى بتقديره كما فى يدعى ﴿كل أناس﴾ من بنى آدم الذين فعلنا بهم فى الدنيا مافعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع فى بيان تفاوت أحوالهم فى الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا ﴿بامامهم﴾ أى بمن ائتموا به من نبى أو مقدم فى الدين أو كتاب أو دين وقيل بكتاب أعمالهم التى قدموها فيقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر أو يا أهل دين كذا يا أهل كتاب كذا وقيل الامام جمع أم كخف وخفاف والحكمة فى دعوتهم بأمهاتهم اجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضى الله عنهما والستر على أولاد الزنا ﴿فمن أوتى﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿كتابه﴾ صحيفة أعماله ﴿بيمينه﴾ ابانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الامر بما فى مطاويه ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من باعتبار معناه

ايذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل أو اشعارا بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما فى حال الايتاء ومافيه من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم أى أولئك المختصون بتلك الكرامة التى يشعر بها الايتاء المزبور ﴿يقرءون كتابهم﴾ الذى أوتوه على الوجه المبين تبجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات ﴿ولا يظلمون﴾ أى لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة فى كتبهم بل يؤتونها مضاعفة ﴿فتيلا﴾ أى قدر فتيل وهو القشرة التى فى شق النواة أو أدنى شئ فان الفتيل مثل فى القلة والحقارة ﴿ومن كان﴾ من المدعوين المذكورين ﴿فى هذه﴾ الدنيا التى فعل بهم فيها مافعل من فنون التكريم والتفضيل ﴿أعمى﴾ فاقد البصيرة لا يهتدى الى رشده ولا يعرف ماأوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها و لا يستعمل ماأودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم والمعارف الحقة ﴿فهو فى الآخرة﴾ التى عبر عنها بيوم ندعو ﴿أعمى﴾ كذلك أى لا يهتدى الى ما ينجيه و لا يظفر بما يجديه لان العمى الأول موجب للثانى وقد جوز كون الثانى بمعنى التفضيل على أن عماه فى الآخرة أشد من عماه فى الدنيا ولذلك قرأ أبو عمرو الاول مما لا والثانى مفخما ﴿وأضل سبيلا﴾ أى من الاعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية وهذا بعينه هو الذى أوتى كتابه بشماله بدلالة حال ماسبق من الفريق القابل له ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع أنه الذى يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع فى سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة له كما فى قوله تعالى وأما ان كان من المكذبين الضالين بعد قوله تعالى فأما ان كان من أصحاب اليمين وللرمز الى علة حال الفريق الاول وقد ذكر فى أحد الجانبين المسبب و فى الآخر السبب ودل بالمذكور فى كل منهما على المتروك فى الآخر تعويلا على شهادة العقل كما فى قوله عز وعلا وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله ﴿وان كادوا ليفتنونك﴾ نزلت فى ثقيف اذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لا ندخل فى أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لا نعشر ولا نحشر ولا نجبى فى صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا وج كما حرمت مكة فاذا قالت العرب لم فعلت فقل ان الله أمرنى بذلك وقيل فى قريش حيث قالوا اجعل لنا آية عذاب آية رحمة وآية رحمة آية عذاب أو قالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا فان مخففة من المشددة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة بينها و بين النافية أى ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين ﴿عن الذى أوحينا اليك﴾ من أوامرنا ونواهينا و وعدنا ووعيدنا ﴿لتفترى علينا غيره﴾ لتتقول علينا غير الذى أوحينا اليك مما اقترحته ثقيف أو قريش حسبما نقل ﴿واذن لاتخذوك خليلا﴾ أى لو اتبعت أهواءهم لكنت لهم وليا ولخرجت من ولايتى ﴿ولولا أن ثبتناك﴾ على ماأنت عليه من الحق بعصمتنا لك ﴿لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا﴾ من الركون الذى هو أدنى ميل أى لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ماهم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته ﴿إذن﴾ لو قاربت أن تركن اليهم أدنى ركنة ﴿لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات﴾ أى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف مايعذب به فى الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير خطير وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت اضافة موصوفها وقيل الضعف من أسماء العذاب وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة و بضعف الممات عذاب القبر ﴿ثم لاتجد لك علينا نصيرا﴾ يدفع عنك العذاب ﴿وان كادوا﴾

الكلام فيه كما فى الأول أى كاد أهل مكة ﴿ليستفزونك﴾ أى ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ أى الأرض التى أنت فيها وهى أرض مكة ﴿ليخرجوك منها واذن لايلبثون﴾ بالرفع عطفا على خبر كاد وقرئ لايلبثوا بالنصب باعمال اذن على أن الجملة معطوفة على جملة وان كادوا ليستفزونك ﴿خلافك﴾ أى بعدك قال

خلت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

أى ولو خرجت لايبقون بعد خروجك وقرئ خلفك ﴿الاقليلا﴾ الازمانا قليلا وقد كان كذلك فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام وقيل نزلت الآية فى اليهود حيث حسدوا مقام النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الأنبياء عليهم السلام فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك فى قلبه عليه الصلاه والسلام فخرج مرحلة فنزلت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلى بنو النضير بقليل ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ نصب على المصدرية أى سن الله تعالى سنة وهى أن يهلك كل أمة أخرجت رسولهم من بين أظهرهم فالسنة لله تعالى واضافتها الى الرسل لأنها سنت لأجلهم على ماينطق به قوله عز وجل ﴿ولاتجد لسنتنا تحويلا﴾ أى تغيرا ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ لزوالها كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر واشتقاقه من الدلك لأن من نظر اليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس أى غربت وقيل أصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها فى قولك لثلاث خلون ﴿الى غسق الليل﴾ الى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار بل اقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها لما أن الانسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف أول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته الى غروب الشفق وقوله تعالى ﴿وقرآن الفجر﴾ أى صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول أقم أو على الاغراء قاله الزجاج وانما سميت قرآنا لأنه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية ولكن لادلالة له على ذلك لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها نعم لو فسر بالقراءة فى صلاة الفجر لدل الأمر باقامتها على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة ويجوز أن يكون وقرآن الفجر حثا على تطويل القراءة فى صلاة الفجر ﴿ان قرآن الفجر﴾ أظهر فى مقام الاضمار ابانة لمزيد الاهتمام به ﴿كان مشهودا﴾ يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار أو شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذى هو أخو الموت أو يشهده كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر ﴿ومن الليل﴾ قيل هو نصب على الاغراء أى الزم بعض الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولايجدى نفعا كون معناها التبعيض فان واو مع ليست اسما بالاجماع وان كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر أى قم بعض الليل ﴿فتهجد به﴾ أى أزل وألق الهجود أى النوم فان صيغة التفعل تجئ للازالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن من حيث هو لابقيد اضافته الى الفجر أو للبعض المفهوم من قوله تعالى ومن الليل أى تهجد فى ذلك البعض على أن الباء بمعنى فى وقيل منصوب بتهجد أى تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة واياى فارهبون ﴿نافلة لك﴾ فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الأمة ولعله هو الوجه فى تأخير

ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم فى الدرجات على ماقال مجاهد والسدى فانه عليه السلام مغفور له ماتقدم من ذنبه وماتأخر فيكون تطوعه زيادة فى درجاته بخلاف من عداه من الامة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع فى فرائضهم وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل أو بجعل تهجد بمعناه أو بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبادة زائدة واما على الحالية من الضمير الراجع الى القرآن أى حال كونها صلاة نافلة واما على المفعولية لتهجد اذا جعل بمعنى صل وجعل الضمير المجرور للبعض أى فصل فى ذلك البعض نافلة لك ﴿عسى أن يبعثك ربك﴾ الذى يبلغك الى كمالك اللائق بك من بعد الموت الأكبر كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الاصغر بالصلاة والعبادة ﴿مقاما﴾ نصب على الظرفية على اضمار فيقيمك أو تضمين البعث معنى الاقامة اذ لابد من أن يكون العامل فى مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى الاستقرار ويجوز أن يكون حالا بتقدير مضاف أى يبعثك ذا مقام ﴿محمودا﴾ عندك وعند جميع الناس وفيه تهوين لمشقة قيام الليل وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما مقاما يحمدك فيه الأولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك وعن حذيفة رضى الله عنه يجمع الناس فى صعيد واحد فلاتتكلم فيه نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لاملجأ ولامنجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت ﴿وقل رب أدخلنى﴾ أى القبر ﴿مدخل صدق﴾ أى ادخالا مرضيا ﴿وأخرجنى﴾ أى منه عند البعث ﴿مخرج صدق﴾ أى اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالاقامة المعهودة التى لا كرامة فوقها وقيل المراد ادخال المدينة والاخراج من مكة وتغيير ترتيب الوجود لكون الادخال هو المقصد وقيل ادخاله عليه السلام مكة ظاهرا عليها واخراجه منها آمنا من المشركين وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخاله فيما حمله من أعباء الرسالة واخراجه منه مؤديا حقه وقيل ادخاله فى كل مايلابسه من مكان أو أمر واخراجه منه وقرئ مدخل ومخرج بالفتح على معنى أدخلنى فأدخل دخولا وأخرجنى فأخرج خروجا كقوله

وعضة دهر ياابن مروان لم تدع من المال الا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق ﴿واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا﴾ حجة تنصرنى على من يخالفنى أوملكا وعزا ناصرا للاسلام مظهرا له على الكفر فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عز وعلا والله يعصمك من الناس ألا ان حزب الله هم الغالبون ليظهره على الدين كله ليستخلفنهم فى الارض ﴿وقل جاء الحق﴾ أى الاسلام والوحى الثابت الراسخ ﴿وزهق الباطل﴾ أى ذهب وهلك الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهق روحه اذا خرج ﴿ان الباطل﴾ كائنا ماكان ﴿كان زهوقا﴾ أى شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت وهو عدة كريمة باجابة الدعاء بالسلطان النصير الذى لقنه . عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه عليه السلام دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل ينكت بمخصرة كانت بيده فى عين واحد واحد ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر فقال ياعلى ارم به فصعد فرمى به فكسره ﴿وننزل من القرآن﴾ وقرئ ننزل من الانزال ﴿ماهو شفاء﴾ لما فى الصدور من أدواء الريب وأسقام الاوهام ﴿ورحمة للمؤمنين﴾ به العاملين بما فى تضاعيفه أى ماهو فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القرآن

كذلك وعن النبى عليه السلام من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله أو تبعيضية لكن لا بمعنى أن بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا ننزل منه فى كل نوبة ما تستدعى الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقته لاحوالهم الداعية الى نزوله موقع الدواء الشافى المصادف لابأنه من المرضى المحتاجين اليه بحسب الحال من غير تقديم و لا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا فى كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسمانى كما فى الفاتحة وآيات الشفاء لا يساعده قوله سبحانه ﴿ولا يزيد الظالمين الاخسارا﴾ أى لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين المكذبين به الواضعين للاشياء فى غير مواضعها مع كونه فى نفسه شفاء من الاسقام الاخسارا أى هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لانقصانا كما قيل فان مابهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبيء عن حصول بعض مبادى الاسقام فيهم و زيادتهم فى مراتب الهلاك من حيث انهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا وفيه ايماء الى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الامراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك واسناد الزيادة المذكورة الى القرآن مع انهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك ﴿واذا أنعمنا على الانسان﴾ بالصحة والنعمة ﴿أعرض﴾ عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر ﴿ونأى﴾ تباعد عن طاعتنا ﴿بجانبه﴾ النأى بالجانب أن يلوى عن الشيء عطفه و يوليه عرض وجهه فهو تأكيد للاعراض أوعبارة عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين ﴿واذا مسه الشر﴾ من فقر أومرض أونازلة من النوازل وفى اسناد المساس الى الشر بعد اسناد الانعام الى ضمير الجلالة ايذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك ﴿كان يؤوسا﴾ شديد اليأس من روحنا وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة و لا ينافيه قوله تعالى واذا مسه الشر فذودعاء عريض ونظائره فان ذلك شأن بعض آخرين منهم وقيل أريد به الوليد بن المغيرة وقرىء ناء اما على القلب كما يقال راء فى رأى واما على أنه بمعنى نهض ﴿قل كل﴾ أى كل أحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿يعمل﴾ عمله ﴿على شاكلته﴾ طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة أوجوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه ﴿فربكم﴾ الذى برأكم على هذه الطبائع المتخالفة ﴿أعلم بمن هو أهدى سبيلا﴾ أى أسد طريقا وأبين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الانسانى ومبدأ حياته روى أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة ﴿قل الروح﴾ أظهر فى مقام الاضمار اظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه ﴿من أمر ربى﴾ كلمة من بيانية والأمر بمعنى الشأن والاضافة للاختصاص العلمى لا الايجادى لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف مالا يخفى كما فى الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أى هو من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الاسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر ﴿وما أوتيتم من العلم الاقليلا﴾ لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أنما فى الارض من شجرة أقلام الآية وانما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فان الحكمة الانسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما نيط به المعاش والمعاد وذلك بالاضافة الى مالا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير

فى نفسه أو بالنسبة الى الانسان أو هو من الابداعيات الكائنة بمحض الأمر التكوينى من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كأعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه ومآله أنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فان ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الامر أو من عالم الخلق وفيه تنبيه على أنه مما لا يحيط بكنهه دائرة ادراك البشر وانما الممكن هذا القدر الاجمالى المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا أى الا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحواس فان تعقل المعارف النظرية انما هو من احساس الجزئيات و لذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما ولعل أكثر الاشياء لا يدركه الحس و لا شيء من أحواله التى يدور عليها معرفة ذاته وأما حمل ما ذكر على السؤال عن قدمه وحدوثه وجعل الجواب اخبارا بحدوثه أى كائن بتكوينه حادث باحداثه بالأمر التكوينى فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فان ماسألوا عنه مما يفى به علمهم حينئذ وقد أخبر عنه وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وقيل جبريل عليه السلام وقيل القرآن ومعنى من أمر ربى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك﴾ من القرآن الذى هو شفاء و رحمة للمؤمنين ومنبع للعلوم التى أوتيتموها وثبتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدت تركن اليهم شيئاً قليلا وانما عبر عنه بالموصول تفخيما لشأنه و وصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء واعلاما بحاله من أول الأمر و بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط و بذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به المحو من المصاحف والصدور وهو أبلغ من الاذهاب عن ابن مسعود رضى الله عنه أن أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم و لا دين لهم وأن هذا القرآن تصبحون يوما ومافيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا و يعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف و ينزع ما فى القلوب ﴿ثم لا تجد لك به﴾ أى بالقرآن ﴿علينا وكيلا﴾ من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا ﴿الا رحمة من ربك﴾ فانها ان نالتك لعلها تسترده عليك ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به فيكون امتنانا بابقائه بعد المنة بتنزيله وترغيبا فى المحافظة على أداء حقوقه وتحذيرا من أن لا يقدر قدره الجليل و يفرط فى القيام بشكره وهو أجل النعم وأعظمها ﴿ان فضله كان عليك كبيرا﴾ كارسالك وانزال الكتاب عليك وابقائه فى حفظك وغير ذلك ﴿قل﴾ للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل و لا يفهمون فخامة شأنه الجليل بل يزعمون أنه من كلام البشر ﴿لئن اجتمعت الانس والجن﴾ أى اتفقوا ﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر لان المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لان غيرهما قادر على المعارضة ﴿لا يأتون بمثله﴾ أوثر الاظهار على ايراد الضمير الراجع الى المثل المذكور احترازا عن أن يتوهم أن له مثلا معينا وايذانا بأن المراد نفى الاتيان بمثل ما أى لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أرباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذى ينبيء عنه اللام الموطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما فى قول زهير

وان أتاه خليل يوم مسألة … يقول لا غائب مالى ولا حرم

وحيث كان المراد بالاجتماع على الاتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدى للمعارضة من كل واحد منهم على الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الافكار وتعاضد الانظار قيل ﴿ولو كان بعضهم

لبعض ظهيرا﴾ أى فى تحقيق مايتوخونه من الاتيان بمثله وهو عطف على مقدر أى لا يأتون بمثله لولم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولوكان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فان الاتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفى عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور مافى ان ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه أى لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو فى هذه الحال المنافية لعدم الاتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لاطماعهم الفارغة فى روم تبديل بعض آياته ببعض و لامساغ لكون الآية تقريرا لما قبلها من قوله تعالى ثم لاتجد لك به علينا وكيلا كما قيل لكن لا لما قيل من أن الاتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفى الشىء انما يقرره نفى مادونه لانفى مافوقه فان أصعبية الاسترداد بغير أمره تعالى من الاتيان بمثله مما لاشبهة فيه بل لأن الجملة القسمية ليست مسوقة الى النبى صلى الله عليه وسلم بل الى المكابرين من قبله عليه السلام ﴿ولقد صرفنا﴾ كررنا و رددنا على أنحاء مختلفة توجب زيادة تقرير و بيان و وكادة رسوخ واطمئنان ﴿للناس فى هذا القرآن﴾ المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿من كل مثل﴾ من كل معنى بديع هو فى الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول ﴿فأبى أكثر الناس﴾ أوثر الاظهار على الاضمار تأكيدا وتوضيحا ﴿الا كفورا﴾ أى الا جحودا وانما صح الاستثناء من الموجب مع أنه لا يصح ضربت الا زيدا لأنه متأول بالنفى كأنه قيل ماقبل أكثرهم الا كفورا وفيه من المبالغة ماليس فى أبوا الايمان لأن فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الايمان والتوقف فى الأمر ونحو ذلك وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الاباء ﴿وقالوا﴾ عند ظهور عجزهم و وضوح مغلوبيتهم بالاعجاز التنزيلى وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن فى العادة وجوده و لاتقتضى الحكمة وقوعه من الأمور كما هو ديدن المبهوت المحجوج ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر﴾ وقرىء بالتشديد ﴿لنا من الارض﴾ أرض مكة ﴿ينبوعا﴾ عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء اذا زخر ﴿أو تكون لك جنة﴾ أى بستان تستر أشجاره ماتحتها من العرصة ﴿من نخيل وعنب فتفجر الانهار﴾ أى تجريها بقوة ﴿خلالها تفجيرا﴾ كثيرا والمراد اما اجراء الانهار خلالها عند سقيها أو ادامة اجرائها كما ينبىء عنه الفاء لا ابتداؤه ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾ جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرىء بالسكون كسدرة وسدر وهى حال من السماء والكاف فى كما فى محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف أى اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى أو تسقط عليهم كسفا من السماء ﴿أو تأتى بالله والملائكة قبيلا﴾ أى مقابلا كالعشير والمعاشر أو كفيلا يشهد بصحة ماتدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها أى والملائكة قبلاء كما حذف الخبر فى قوله فانى وقيار بها لغريب أو جماعة فيكون حالا من الملائكة ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ من ذهب وقد قرىء به وأصله الزينة ﴿أو ترقى فى السماء﴾ أى فى معارجها لحذف المضاف يقال رقى فى السلم و فى الدرجة ﴿ولن نؤمن لرقيك﴾ أى لأجل رقيك فيها وحده أو لن نصدق رقيك فيها ﴿حتى تنزل﴾ منها ﴿علينا كتابا﴾ فيه تصديقك ﴿نقرؤه﴾ نحن من غير أن يتلقى من قبلك. عن ابن عباس رضى الله عنهما قال عبد الله بن أبى أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة الا العناد واللجاج ولو أنهم أوتوا أضعاف مااقترحوا من الآيات مازادهم ذلك الا مكابرة والا فقد كان يكفيهم بعض ماشاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال ﴿قل﴾ تعجبا من شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحات عما لايكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التى تكاد السموات يتفطرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان

ماقالوه ﴿سبحان ربى﴾ وقرىء قال سبحان ربى ﴿هل كنت الا بشرا﴾ لا ملكا حتى يتصور منى الرقى فى السماء ونحوه ﴿رسولا﴾ مأمورا من قبل ربى بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لى خيرة فى الامر كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم و لا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشىء منها وقوله بشرا خبر لكنت و رسولا صفته ﴿وما منع الناس﴾ أى الذين حكيت اباطيلهم ﴿أن يؤمنوا﴾ مفعول ثان لمنع وقوله ﴿اذ جاءهم الهدى﴾ أى الوحى ظرف لمنع أو يؤمنوا أى ومامنعهم وقت مجىء الوحى المقرون بالمعجزات المستدعية للايمان أن يؤمنوا بالقرآن و بنبوتك أو مامنعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجىء ماذكر ﴿الا أن قالوا﴾ فى محل الرفع على أنه فاعل منع أى الا قولهم ﴿أبعث الله بشرا رسولا﴾ منكرين أن يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وانما عبر عنه بالقول ايذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق وحصر المانع من الايمان فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما أنه معظمها أو لأنه هو المانع بحسب الحال أعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى هل كنت الا بشرا رسولا اذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية وفيه ايذان بكمال عنادهم حيث يشير الى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا الى الايمان يعكسون الأمر و يجعلونه مانعا منه ﴿قل﴾ لهم أولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب ﴿لو كان﴾ أى لو وجد واستقر ﴿فى الأرض﴾ بدل البشر ﴿ملائكة يمشون مطمئنين﴾ قارين فيها من غير أن يعرجوا فى السماء و يعلموا ما يجب أن يعلم ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ يهديهم الى الحق و يرشدهم الى الخير لتمكنهم من الاجتماع والتلقى منه وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية فكيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وانما يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب و يلقوا الى جانب وقوله تعالى ملكا يحتمل أن يكون حالا من رسولا وأن يكون موصوفا به وكذلك بشرا فى قوله تعالى أبعث الله بشرا رسولا والأول أولى ﴿قل﴾ لهم ثانيا من جهتك بعد ما قلت لهم من قبلنا ما قلت وبينت لهم ما تقتضيه الحكمة فى البعثة ولم يرفعوا اليه رأسا ﴿كفى بالله﴾ وحده ﴿شهيدا﴾ على أنى أديت ما على من مواجب الرسالة أكمل أداء وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة الى كونه عليه السلام رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى ﴿بينى و بينكم﴾ ومابعده من التعليل وانما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة وابانة للمباينة وشهيدا اما حال أو تمييز ﴿انه كان بعباده﴾ من الرسل والمرسل اليهم ﴿خبيرا بصيرا﴾ محيطا بظواهر أحوالهم و بواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار ﴿ومن يهد الله﴾ كلام مبتدأ يفصل ما أشار اليه الكلام السابق من مجازاة العباد اشارة اجمالية أى من يهده الله الى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿فهو المهتد﴾ اليه والى ما يؤدى اليه من الثواب أو المهتد الى كل مطلوب ﴿ومن يضلل﴾ أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فلن تجد لهم﴾ أوثر ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غب ما أوثر فى مقابله الافراد نظرا الى لفظها تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال و كثرة الضلال ﴿أولياء من دونه﴾ من دون الله تعالى أى أنصارا يهدونهم الى طريق الحق أو الى طريق يوصلهم الى مطالبهم الدنيوية والأخروية أو الى طريق النجاة من العذاب الذى يستدعيه ضلالهم على

معنى لن تجد لأحدمنهم وليا على ما تقتضيه قضيةمقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد الى الآحاد ﴿ونحشرهم﴾ التفات من الغيبة الى التكلم ايذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يوم القيامة على وجوههم﴾ حال من الضمير المنصوب أى كائنين عليها سحبا كقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أو مشيا فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ﴿عميا﴾ حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة ﴿وبكما وصما﴾ لا يبصرون ما يقر أعينهم و لا ينطقون ما يقبل منهم و لا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر و لا ينطقون بالحق و لا يستمعونه و يجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف الى النار موفى القوى والحواس وأن يحشروا كذلك ثم يعاد اليهم قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه ﴿مأواهم جهنم﴾ اما حال واستئناف وكذا قوله تعالى ﴿كلما خبت زدناهم سعيرا﴾ أى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ذلك﴾ أى ذلك العذاب ﴿جزاؤهم بأنهم﴾ أى بسبب أنهم ﴿كفروا بآياتنا﴾ العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة واضحة فذلك مبتدأ وجزاؤهم خبره و يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا و بأنهم خبره والجملة خبرا لذلك وأن يكون جزاؤهم بدلا من ذلك أو بيانا له والخبر هو الظرف ﴿وقالوا﴾ منكرين أشد الانكار ﴿أئذا كنا عظاما و رفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ اما مصدر مؤكد من غير لفظه أى لمبعوثون بعثا جديدا واما حال أى مخلوقين مستأنفين ﴿أولم يروا﴾ أى ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أن الله الذى خلق السموات والارض﴾ من غير مادة مع عظمهما ﴿قادر على أن يخلق مثلهم﴾ فى الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا ﴿وجعل لهم أجلا لا ريب فيه﴾ عطف على أولم يروا فانه فى قوة قد رأوا والمعنى قد علموا أن من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق أمثالهم من الانس وجعل لهم ولبعثهم أجلا محققا لا ريب فيه هو يوم القيامة ﴿فأبى الظالمون﴾ وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد بالمرة ﴿الا كفورا﴾ أى جحودا ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى﴾ خزائن رزقه التى أفاضها على كافة الموجودات وأنتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لوذات سوار لطمتنى وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص ﴿اذن لأمسكتم﴾ لبخلتم ﴿خشية الانفاق﴾ مخافة النفاد بالانفاق اذ ليس فى الدنيا أحد الا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشئ فانما يؤثره لعوض يفوقه فاذن هو بخيل بالاضافة الى جود الله سبحانه ﴿وكان الانسان قتورا﴾ مبالغا فى البخل لان مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج اليه وملاحظة العوض بما يبذله ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور على بنى اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الاخيرة و يأباه أن هذه الثلاث لم تكن منزلة اذ ذاك وأن الأولين لا تعلق لهما بفرعون وانما أوتيهما بنو اسرائيل وعن صفوان بن عسال أن يهوديا سأل النبى عليه الصلاة والسلام عنها فقال أن لا تشركوا به شيئا و لا تسرقوا و لا تزنوا و لا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق و لا تسحروا و لا تأكلوا الربا و لا تمشوا ببرئ الى ذى سلطان ليقتله و لا تقذفوا محصنة و لا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت فقبل اليهودى يده ورجله عليه السلام و لا يساعده أيضا ما ذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان

فى التوراة مسطورا وقد علم أنه ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة الوحى ﴿فاسأل بنى اسرائيل﴾ وقرئ فسل أى فقلنا له سلهم من فرعون وقل له أرسل معى بنى اسرائيل أو سلهم عن ايمانهم أو عن حال دينهم أو سلهم أن يعاضدوك و يؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضى وقيل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أى فاسألهم عن تلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة أو ليظهر صدقك ﴿اذ جاءهم﴾ متعلق بقلنا أو بسأل على القراءة المذكورة وبآتينا أو بمضمر هو يخبروك أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فقال له فرعون﴾ الفاء فصيحة أى فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات و بلغه ما أرسل به فقال له فرعون ﴿انى لأظنك ياموسى مسحورا﴾ سحرت فتخبط عقلك ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء﴾ يعنى الآيات التى أظهرها ﴿الا رب السموات والارض﴾ خالقهما ومدبرهما والتعرض لربوبيته تعالى لهما للايذان بأنه لا يقدر على ايتاء مثل هاتيك الآيات العظام الا خالقهما ومدبرهما ﴿بصائر﴾ حال من الآيات أى بينات مكشوفات تبصرك صدقى ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ومن ضرورة ذلك العلم العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم المسحورية وقرئ علمت على صيغة التكلم أى لقد علمت بيقين أن هذه الآيات الباهرة أنزلها الله عز سلطانه فكيف يتوهم أن يحوم حولى سحر ﴿وانى لأظنك يافرعون مثبورا﴾ مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ما ثبرك عن هذا أى ما صرفك أو هالكا ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون افك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين ﴿فأراد﴾ أى فرعون ﴿أن يستفزهم﴾ أى يستخفهم ويزعجهم ﴿من الارض﴾ أرض مصر أو من الارض مطلقا بالقتل كقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴿فأغرقناه ومن معه جميعا﴾ فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالاغراق ﴿وقلنا من بعده﴾ من بعد اغراقهم ﴿لبنى اسرائيل اسكنوا الارض﴾ التى أراد أن يستفزكم منها ﴿فاذا جاء وعد الآخرة﴾ الكرة الآخرة أو الحياة أو الساعة و الدار الآخرة أى قيام القيامة ﴿جئنا بكم لفيفا﴾ مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى ﴿و بالحق أنزلناه و بالحق نزل﴾ أى وما أنزلنا القرآن الا ملتبسا بالحق المقتضى لانزاله وما نزل الا ملتبسا بالحق الذى اشتمل عليه أو ما أنزلناه من السماء الا محفوظا وما نزل على الرسول الا محفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿وما أرسلناك الا مبشرا﴾ للمطيع بالثواب ﴿ونذيرا﴾ للعاصى من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثه عليه الصلاة والسلام اثر تحقيق حقية انزال القرآن ﴿وقرآنا﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿فرقناه﴾ وقرئ بالتشديد دلالة على كثرة نجومه ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ على مهل وتثبت فانه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وقرئ بالفتح وهو لغة فيه ﴿ونزلناه تنزيلا﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات ﴿قل﴾ للذين كفروا ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ فان ايمانكم به لا يزيده كمالا وامتناعكم لا يورثه نقصا ﴿ان الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أى العلماء الذين قرؤا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ورأوا فيها نعتك ونعت ما أنزل اليك ﴿اذا يتلى﴾ أى القرآن ﴿عليهم يخرون للاذقان﴾ أى يسقطون على وجوههم ﴿سجدا﴾ تعظيما لأمر الله تعالى أو شكرا لانجاز ما وعد به فى تلك الكتب من بعثتك وتخصيص الاذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل اذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وايثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما فى قوله فخر صريعا لليدين وللفم وهو تعليل لما يفهم من قوله تعالى آمنوا به أو لا تؤمنوا من عدم المبالاة بذلك أى ان لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن ايمان من هو خير منكم ويجوز أن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بايمان

العلماء عن ايمان الجهلة ولا تكترث بايمانهم واعراضهم ﴿ويقولون﴾ فى سجودهم ﴿سبحان ربنا﴾ عما يفعل الكفرة من التكذيب أوعن خلف وعده ﴿ان كان وعد ربنا لمفعولا﴾ ان مخففة من المثقلة واللام فارقة أى ان الشأن هذا ﴿ويخرون للاذقان يبكون﴾ كرر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الأول لتعظيم أمر الله تعالى أوالشكر لانجاز الوعد والثانى لما أثرفيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله ﴿ويزيدهم﴾ أى القرآن بسماعهم ﴿خشوعا﴾ كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى ﴿قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن﴾ نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ياألله يارحمن فقالوا انه ينهانا عن عبادة الهين وهو يدعو الها آخر وقالت اليهود انك لتقل ذكر الرحمن وقدأ كثره الله تعالى فى التوراة والمراد على الاول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وان اختلف الاعتبار والتوحيد انما هو للذات الذى هو المعبود وعلى الثانى انهما سيان فى حسن الاطلاق والافضاء الى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى ﴿أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى الى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأوللتخيير والتنوين فى أيا عوض عن المضاف اليه ومامزيدة لتأكيد مافى أى من الابهام والضمير فى له للمسمى لأن التسمية له لا للاسم وكان أصل الكلام أياماتدعوا فهوحسن فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ماهو الدليل عليه اذحسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والاكرام ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أى بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فان ذلك يحملهم على السب واللغو فيها ﴿ولا تخافت بها﴾ أى بقراءتها بحيث لاتسمع من خلفك من المؤمنين ﴿وابتغ بين ذلك﴾ أى بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور ﴿سبيلا﴾ أمرا وسطا قصدا فان خير الامور أوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه اليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم الى المطلوب وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان يخفت ويقول أناجى ربى وقدعلم حاجتى وعمر رضى الله عنه كان يجهر بها ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض قليلا وقيل المعنى لاتجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم الى أنها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا﴾ كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ولم يكن له شريك فى الملك﴾ أى الالوهية كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة ﴿ولم يكن له ولى من الذل﴾ ناصر ومانع منه لاعتزازه به أولم يوال أحدا من أجل مذلة ليدفعها به وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته دون غيره اذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الايجاد ومايتفرع عليه من افاضة أنواع النعم وماعداه ناقص مملوك نعمة أومنعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى ﴿وكبره تكبيرا﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وان بالغ فى التنزيه والتمجيد واجتهد فى الطاعة والتحميد ينبغى أن يعترف بالقصور فى ذلك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بنى اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت

سـورة الكهف

(مكية وقيل الا قوله تعالى واصبر نفسك الآية . وهى مائة واحدى عشرة آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿الكتاب﴾ أى الكتاب الكامل الغنى عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن أوعن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا وفى وصفه تعالى بالموصول اشعار بعلية مافى حيز الصلة لاستحقاق الحمد وايذان بعظم شأن التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك سعادة الدارين وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا الى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام الى أعلى معارج العبادة وتشريف له أى تشريف واشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبدا للمرسل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى ﴿ولم يجعل له عوجا﴾ أى شيئا من العوج بنوع اختلال فى النظم وتناف فى المعنى أوانحراف عن الدعوة الى الحق وهو فى المعانى كالعوج فى الأعيان وأما قوله تعالى لاترى فيها عوجا ولا أمتا مع كون الجبال من الأعيان فللدلالة على انتفاء مالايدرك من العوج بحاسة البصر بل انما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لايشعر به بالمشاعر الظاهرة عد من قبيل مافى المعانى وقيل الفتح فى اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر فى اعوجاج غيره عينا كان أومعنى ﴿قيما﴾ بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ماينبئ عنه مابعده من الانذار والتبشير فيكون وصفاله بالتكميل بعد وصفه بالكمال أوعلى ماقبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها أومتناهيا فى الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج مع افادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما تنبئ عنه الصيغة لا أنه نفى عنه العوج مع كونه من شأنه وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة بمضمر ينبئ عنه نفى العوج تقديره جعله قيما وأما على تقدير كونها حالية فهو على الحالية من الكتاب اذ لا فصل حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرئ قيما ﴿لينذر﴾ متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما فى الفعلين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الأول للايذان بأن ماسيق له الكلام هو المفعول الثانى وأن الأول ظاهر لاحاجة الى ذكره أى أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به ﴿بأسا﴾ أى عذابا ﴿شديدا من لدنه﴾ أى صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرئ من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع ﴿ويبشر﴾ بالتشديد وقرئ بالتخفيف ﴿المؤمنين﴾ أى المصدقين به ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ الأعمال الصالحة التى بينت فى تضاعيفه وايثار صيغة الاستقبال فى الصلة للاشعار بتجدد الأعمال الصالحة واستمرارها واجراء الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول الأعمال هو الايمان ﴿أن لهم﴾ أى بأن لهم بمقابلة ايمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أجرا حسنا﴾ هو الجنة ومافيها من المثوبات الحسنى ﴿ماكثين﴾ حال من الضمير المجرور فى لهم ﴿فيه﴾ أى فى ذلك الاجر ﴿أبدا﴾ من غير انتهاء أى خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار عماهم عليه مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية وتكرير الانذار بقوله تعالى ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا﴾ متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الانذار السابق من مستحق البأس الشديد للايذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم أى وينذر من بين سائر الكفرة

هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله وترك اجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى ويبشر المؤمنين للايذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه وايثار صيغة الماضى فى الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدى الى خروج سائر أصناف الكفرة عن الانذار والوعيد وتعميم الانذار هناك للمؤمنين أيضا بحمله على معنى مجرد الاخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما فى قوله تعالى أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا يفضى الى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة ويجوز أن يكون الفاعل فى الأفعال الثلاثة ضمير الكتاب أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ما لهم به﴾ أى باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا ﴿من علم﴾ مرفوع على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفى والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم فى مقالهم أى ما لهم بذلك شىء من علم أصلا لا لاخلالهم بطريقه مع تحقق المعلوم أو امكانه بل لاستحالته فى نفسه ﴿ولا لآبائهم﴾ الذين قلدوهم فتاهوا جميعا فى تيه الجهالة والضلالة أو ما لهم علم بما قالوه أهو صواب أم خطأ بل انما قالوه رميا عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما فى قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم أو بحقيقة ما قالوه وبعظم رتبته فى الشناعة كما فى قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه الآيات وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿كبرت كلمة﴾ أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه الى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل فى كبرت اما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز أو ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم وقرىء كبرت باسكان الباء مع اشمام الضم وقرىء كلمة بالرفع ﴿تخرج من أفواههم﴾ صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها واسناد الخروج اليها مع أن الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت الملابسة بها ﴿ان يقولون﴾ ما يقولون فى ذلك الشان ﴿الا كذبا﴾ أى الا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت امكان الصدق أصلا والضمير ان لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام فى شدة الوجد على اعراض القوم وتوليهم عن الايمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه اهلاك نفسه اثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والاشفاق من ذلك ﴿فلعلك باخع﴾ أى مهلك ﴿نفسك على آثارهم﴾ غما ووجدا على فراقهم وقرىء بالاضافة ﴿ان لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ أى القرآن الذى عبر عنه فى صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه وقرىء بأن المفتوحة أى لأن لم يؤمنوا فاعمال باخع بحمله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما فى قوله عز وجل باسط ذراعيه ﴿أسفا﴾ مفعول له لباخع أى لفرط الحزن والغضب أو حال مما فيه من الضمير أى متأسفا عليهم ويجوز حمل النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين أجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما فى التمثيل وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم ﴿انا جعلنا ما على الارض﴾ استئناف وتعليل لما فى لعل من معنى الاشفاق أى انا جعلنا ما عليها مما عدا من وجه اليه التكليف من الزخارف حيوانا كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴿زينة﴾ مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير أو حال ان حمل على معنى الابداع واللام فى ﴿لها﴾ اما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أى كائنة لها أى

ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظرا واستدلالا فان الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فان الأزواج والأولاد أيضا من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها ولا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فانهم من جهة انتسابهم الى أصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء ﴿لنبلوهم﴾ متعلق بجعلنا أى جعلنا ما جعلنا لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أيهم أحسن عملا﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسىء وامتازت طبقات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المرتبة على أنظارهم وتفاوت درجات أعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه فى مطلع سورة هود وأى اما استفهامية مرفوعة بالابتداء وأحسن خبرها والجملة فى محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية واما موصولة بمعنى الذى وأحسن خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لها وهى فى حيز النصب بدل من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذى هو أحسن عملا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمة فى أيهم للبناء كما فى قوله عز وجل ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا على أحد الاقوال لتحقق شرط البناء الذى هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وأن تكون للاعراب لأن ماذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ما ينبغى والتأمل فى شأنها وجعلها ذريعة الى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن له الشرع وأداء حقوقها والشكر لها لا اتخاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة وأصحاب الاهواء وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط للاشعار بأن الغاية الاصلية للجعل المذكور انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ما حقق فى تفسير قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴿وانا لجاعلون﴾ فيما سيأتى عند تناهى عمر الدنيا ﴿ما عليها﴾ من المخلوقات قاطبة بافنائها بالكلية وانما أظهر فى مقام الاضمار لزيادة التقرير أو لادراج المكلفين فيه ﴿صعيدا﴾ مفعول ثان للجعل والصعيد التراب أو وجه الارض قال أبو عبيدة هو المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذى لا نبات فيه ﴿جرزا﴾ ترابا لا نبات فيه بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار وتتشرف بمشاهدته الابصار يقال أرض جرز لا نبات فيها وسنة جرز لا مطر فيها قال الفراء جرزت الارض فهى مجروزة أى ذهب نباتها بقحط أو جراد ويقال جرزها الجراد والشاة والابل اذا أكلت ما عليها وهذه الجملة لتكميل ما فى السابقة من التعليل والمعنى لا تحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا ما على الارض من فنون الاشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم بحسبها وانا لمفنون جميع ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم ﴿أم حسبت﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انكار حسبان أمته وأم منقطعة مقدرة ببل التى هى للانتقال من حديث الى حديث لا للابطال وبهمزة الاستفهام عند الجمهور وببل وحدها عند غيرهم أى بل أحسبت ﴿أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا﴾ فى بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر ﴿من آياتنا﴾ من بين آياتنا التى من جملتها ما ذكرناه من جعل ما على الارض زينة لها للحكمة المشار اليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالامس ﴿عجبا﴾ أى آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف أو وصفا لذلك بالمصدر مبالغة وهو خبر لكانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى أن قصتهم وان كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة الى سائر الآيات التى من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هى عندها كالنزر الحقير والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم كلبهم قال أمية بن أبي الصلت

وليس بها الا الرقيم مجاورا   وصيدهم والقوم فى الكهف همد

وقيل هو لوح رصاصى أو حجرى رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادى الذى فيه الكهف فهو من رقمة الوادى أى جانبه وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل مكانهم بين غضبان وايلة دون فلسطين وقيل أصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله على ما فصل فى الصحيحين ﴿اذ أوى﴾ ظرف لعجبا لا لحسبت أو مفعول لاذكر أى حين التجأ ﴿الفتية﴾ أى أصحاب الكهف أوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه فى أنفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من أشراف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولأن صاحبية الكهف من فروع التجائهم الى الكهف فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه ﴿الى الكهف﴾ بجعلهم للجلوس واتخذوه مأوى ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك﴾ من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون أهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثانى قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له أى آتنا كائنة من لدنك ﴿رحمة﴾ خاصة تستوجب المغفرة والرزق والأمن من الاعداء ﴿وهيىء لنا من أمرنا﴾ الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك وأصل التهيئة احداث هيئة الشىء أى أصلح ورتب وأتم لنا من أمرنا ﴿رشدا﴾ اصابة للطريق الموصل الى المطلوب واهتداء اليه وكلا الجارين متعلق بهيىء لاختلافهما فى المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبىء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وكذا الكلام فى تقديم قوله تعالى من لدنك على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من أمرنا للايذان من أول الامر بكون المسئول مرغوبا فيه لديهم أو اجعل أمرنا رشدا كله على أن من تجريدية مثلها فى قولك رأيت منك أسدا ﴿فضربنا على آذانهم﴾ أى أنمناهم على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج الى الحجب عادة اذ هى الطريقة للتيقظ غالبا لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الانامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما فى قولهم ضرب الأمير على يد الرعية أى منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتى من البعث لا يدل على النوم مع أنه المراد قطعا والفاء فى فضربنا كما فى قوله عز وجل فاستجبنا له بعد قوله تعالى اذ نادى فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك ايتاء رحمة لدنية خافية عن أبصار المتمسكين بالاسباب العادية استجابة لدعوتهم ﴿فى الكهف﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿سنين﴾ ظرف زمان له باعتبار بقائه لا لابتدائه ﴿عددا﴾ أى ذوات عدد أو تعد عددا على أنه مصدر أو معدودة على أنه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك اما للتكثير وهو الانسب باظهار كمال القدرة أو للتقليل وهو الاليق بمقام انكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل ﴿ثم بعثناهم﴾ أى أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿لنعلم﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء مبنيا للفاعل بطريق الالتفات وأيا ما كان فهو غاية للبعث لكن لا بجعل العلم مجازا من الاظهار والتمييز أو بحمله على ما يصح وقوعه غاية للبعث الحادث من العلم الحالى الذى يتعلق به الجزاء كما فى قوله تعالى الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وقوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا ونظائرهما التى يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فان تحويل القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس الى متبع ومنقلب وكذا مداولة الايام بين الناس ترتب عليه تحزبهم الى الثابت على الايمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم

الحالى والاظهار والتمييز وأما بعث هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم الى المحصى وغيره حتى يتعلق بهما العلم أو الاظهار والتمييز ويتسنى نظم شىء من ذلك فى سلك الغاية وانما الذى ترتب عليه تفرقهم الى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض الى العلم الربانى وليس شىء منهما من الاحصاء فى شىء بل بحمل النظم الكريم على التمثيل المبنى على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى فأت بها من المغرب وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أى الحزبين﴾ أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتى ﴿أحصى﴾ أى أضبط ﴿لما لبثوا﴾ اى للبثهم ﴿أمدا﴾ أى غاية فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك الى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على ذكر مبدئها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتى على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدى اليها وهذا أولى من تصوير التمثيل بأن يقال بعثناهم بعث من يريد أن يعلم الخ حسبما وقع فى تفسير قوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا على أحد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت اذ ربما يتوهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار الى جعل ارادة العلم عبارة عن الاختبار فاختبر واختر. هذا وقد قرىء ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام على أن المفعول الاول محذوف والجملة المصدرة بأى فى موقع المفعول الثانى فقط ان جعل العلم عرفانيا وفى موقع المفعولين ان جعل يقينيا أى ليعلم الله الناس أى الحزبين أحصى الخ وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وقيل كلاهما من غيرهم والاول هو الاظهر فان اللام للعهد ولا عهد لغيرهم والامد بمعنى المدى كالغاية فى قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية وهو مفعول لأحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى احصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فانه لا يسمى احصاء بل ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها الى السنين وبلوغها من تلك الحيثية الى مراتب الاعداد على ما يرشدك اليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين ويجوز أن يراد بالامد معناه الوضعى بتقدير المضاف أى لزمان لبثهم وبدونه أيضا فان اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له أمد لا محالة لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو آن انبعاثهم من نومهم فان معرفته من تلك الحيثية لا تخفى على أحد ولا تسمى احصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة معارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه الى السنين ووصوله الى مرتبة معينة من مراتب العدد كما حقق فى الصورة الاولى والفرق بين الاعتبارين أن ما تعلق به الاحصاء فى الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة الى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفى الصورة الاخيرة منتهى تلك المدة المنقسمة اليها أعنى السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الاحصاء بالامد بالمعنى الاول ظاهر وأما تعلقه به بالمعنى الثانى فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما فى قوله تعالى لما لبثوا مصدرية ويجوز أن تكون موصولة حذف عائدها من الصلة أى للذى لبثوا فيه من الزمان الذى عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالامد بمعناه الوضعى على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وأمدا نصب على التمييز وأما ما قيل من أن أحصى اسم تفضيل لانه الموافق لما وقع فى سائر الآيات الكريمة نحو أيهم أحسن عملا أيهم أقرب لكم نفعا الى غير ذلك مما لا يحصى ولان كونه فعلا ماضيا

يشعر بأن غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث لا بالاحصاء المتأخر عنه وليس كذلك وادعاء أن مجىء أفعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسى مدفوع بأنه عند سيبويه قياس مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته للنقل ولا ريب فى أن ما نحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمله انما هو فى غير التمييز من المعمولات وأما أن التمييز يجب كونه فاعلا فى المعنى فلمانع أن يمنعه بصحة أن يقال أيهم أحفظ لهذا الشعر وزنا أو تقطيعا أو يقال ان العامل فى أمدا فعل محذوف يدل عليه المذكور أى يحصى لما لبثوا أمدا كما فى قوله وأضرب منا بالسيوف القوانسا وحديث الوقوع فى المحذور بلا فائدة مدفوع بما أشير اليه من فائدة الموافقة للنظائر فع مافيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لان مؤداه أن يكون المقصود بالاختبار اظهار أفضل الحزبين وتمييزه عن الادنى مع تحقق أصل الاحصاء فيهما ومن البين أن لا تحقق له أصلا وأن المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم إيذانه بأن غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم عليه مردود بأن صيغة الماضى باعتبار حال الحكاية والله تعالى أعلم ﴿نحن نقص عليك﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فيما سلف من قوله تعالى اذ أوى الفتية الخ أى نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه فى مطلع سورة يوسف عليه السلام ﴿نبأهم﴾ النبأ الخبر الذى له شأن وخطر ﴿بالحق﴾ اما صفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير نقص أو من نبأهم أو صفة له على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته أى نقص قصصا ملتبسا بالحق أو نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبسا به أو نبأهم الملتبس به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن اسحق بن يسار أنه قد مرج أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ فى ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الاوثان فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحياة الابدية قتله وقطع آرابه وعلقها فى سور المدينة وأبوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء أهل مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا الى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء فبينما هم كذلك اذ دخل عليهم أعوان الجبار فاحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان فقالوا ان لنا الها ملأ السموات والارض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه أحدا ولن نقر لما تدعونا اليه أبدا فاقض ما أنت قاض فأمر بنزع ماعليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وخرج هو الى مدينة نينوى لبعض شأنه وأمهلهم الى رجوعه ليتأملوا فى أمرهم فان تبعوه والا فعل بهم مافعل بسائر المسلمين فأزمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء الى الكهف الحصين فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئا فتصدقوا ببعضه وتزودوا بالباقى فأووا الى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل وأطراف النهار ويبتهلون الى الله سبحانه بالانين والجؤار وفوضوا أمر نفقتهم الى يمليخا فكان اذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشترى مايهمهم ويتحسس مافيها من الاخبار ويعود الى أصحابه فلبثوا على ذلك الى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها فى الاسواق وفروا الى الجبل فلما رأى يمليخا مارأى من الشر رجع الى أصحابه وهو يبكى ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بما شهده من الهول ففزعوا الى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رؤسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم فبيناهم كذلك اذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رؤسهم فخرج دقيانوس فى طلبهم بخيله ورجله فوجدوهم قد دخلوا الكهف فأمر باخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبرا لهم ففعل ثم كان من

شأنهم ماقص الله عز وجل عنهم ﴿انهم فتية﴾ استئناف تحقيقى مبنى على تقدير السؤال من قبل المخاطب والفتية جمع قلة للفتى كالصبية للصبى ﴿آمنوا بربهم﴾ أوثر الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لايمانهم ولمراعاة ماصدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم ﴿وزدناهم هدى﴾ بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة الى ماعليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والاوطان والنعيم والاخوان واجترؤا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار ﴿اذ قاموا﴾ منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لاظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال أكبرهم انى لاجد فى نفسى شيئا أن ربى رب السموات والارض فقالوا نحن أيضا كذلك فقاموا جميعا ﴿فقالوا ربنا رب السموات والارض﴾ ضمنوا دعواهم مايحقق فحواها ويقضى بمقتضاها فان ربوبيته عز وجل لهما تقتضى ربوبيته لما فيهما أى اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فحينئذ يكون ماسيأتى من قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده ﴿لن ندعو﴾ لن نعبد أبدا ﴿من دونه الها﴾ معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا والعدول عن أن يقال ربا للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة وللاشعار بأن مدار العبادة وصف الالوهية وللايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الالوهية لا بطريق المالكية المجازية ﴿لقد قلنا اذا شططا﴾ أى قولا ذا شطط أى تجاوز عن الحد أو قولا هو عين الشطط على أنه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما أنها لا تعرى عن الاعتراف بالوهية المعبود والتضرع اليه قيل لقد قلنا واذا جواب وجزاء أى لو دعونا من دونه الها والله لقد قلنا قولا خارجا عن حد العقول مفرطا فى الظلم ﴿هؤلاء﴾ هو مبتدأ وفى اسم الاشارة تحقير لهم ﴿قومنا﴾ عطف بيان له ﴿اتخذوا من دونه آلهة﴾ خبره وفيه معنى الانكار ﴿لولا يأتون﴾ تحضيض فيه معنى الانكار والتعجيز أى هلا يأتون ﴿عليهم﴾ على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم لها آلهة ﴿بسلطان بين﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو تبكيت لهم والقام حجر ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ بنسبة الشريك اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والمعنى أنه أظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم على انكار الأظلمية من غير تعرض لانكار المساواة كما مر تحقيقه فى سورة هود ﴿واذ اعتزلتموهم﴾ أى فارقتموهم فى الاعتقاد أو أردتم الاعتزال الجسمانى ﴿وما يعبدون الا الله﴾ عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أى اذ اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله أو وعبادتهم الا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة ومنقطع على تقدير تمحضهم فى عبادة الأوثان ويجوز كون ما نافية على أنه اخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين اذ وجوابه ﴿فأووا﴾ أى التجئوا ﴿الى الكهف﴾ قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه أى اذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا أو اذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف ﴿ينشر لكم﴾ يبسط لكم ويوسع عليكم ﴿ربكم﴾ مالك أمركم ﴿من رحمته﴾ فى الدارين ﴿ويهيىء لكم﴾ يسهل لكم ﴿من أمركم﴾ الذى أنتم بصدده من الفرار بالدين ﴿مرفقا﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به وقرىء بفتح الميم وكسر الفاء مصدرا كالمرجع وتقديم لكم فى الموضعين لما مر مرارا من الايذان من أول الأمر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق الى وروده ﴿وترى الشمس﴾ بيان لحالهم بعد ما أووا الى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الأمر به لكونه صادرا عن رأى صائب وتعويلا على ما سلف من

قوله سبحانه اذ أوى الفتية الى الكهف وما لحق من اضافة الكهف اليهم و كونهم فى فجوة منه والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الانباء بكون الكهف بحيث لورأيته ترى الشمس ﴿اذا طلعت تزاور﴾ أى تتزاور وتتنحى بحذف احدى التاءين وقرئ بادغام التاء فى الزاى وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزئر وكلها من الزور وهو الميل ﴿عن كهفهم﴾ الذى أووا اليه فالاضافة لادنى ملابسة ﴿ذات اليمين﴾ أى جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل الى قعره أى جانبه الذى يلى المغرب فلايقع عليهم شعاعها فيؤذيهم ﴿واذاغربت﴾ أى تراها عندغروبها ﴿تقرضهم﴾ أى تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم ﴿ذات الشمال﴾ أى جهة ذات شمال الكهف أى جانبه الذى يلى المشرق و كان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى ﴿وهم فى فجوة منه﴾ جملة حالية مبينة لكون ذلك أمرا بديعا أى تراها تميل عنهم يمينا وشمالا ولا تحوم حولهم مع أنهم فى متسع من الكهف معرض لاصابتها لولا أن صرفتها عنهم يدالتقدير ﴿ذلك﴾ أى ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتى الطلوع والغروب مع كونهم فى موقع شعاعها ﴿من آيات الله﴾ العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد و كرامة أهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف وقيل كان باب الكهف شماليا مستقبل بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب الى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس اذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الايمن وهو الذى يلى المغرب وتغرب محاذية لجانبه الايسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذى أجسادهم ويبلى ثيابهم ولعل ميل الباب الى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم فذلك حينئذ اشارة الى ايوائهم الى كهف هذاشأنه وأما جعله اشارة الى حفظ الله سبحانه اياهم فى ذلك الكهف تلك المدة الطويلة أو الى اطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم فلا يساعده ايراده فى تضاعيف القصة ﴿من يهد الله﴾ الى الحق بالتوفيق له ﴿فهو المهتد﴾ الذى أصاب الفلاح والمراد اما الثناء عليهم والشهادة لهم باصابة المطلوب والاخبار بتحقيق ما أملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿ومن يضلل﴾ أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره اليه ﴿فلن تجد له﴾ أبدا وان بالغت فى التتبع والاستقصاء ﴿وليا﴾ ناصرا ﴿مرشدا﴾ يهديه الى ما ذكر من الفلاح لاستحالة وجوده فى نفسه لا أنك لا تجده مع وجوده أو امكانه ﴿وتحسبهم﴾ بفتح السين وقرئ بكسرها أيضا والخطاب فيه كما سبق ﴿أيقاظا﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى ونقلبهم ﴿وهم رقود﴾ أى نيام وهو تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم ﴿ونقلبهم﴾ فى رقدتهم ﴿ذات اليمين﴾ نصب على الظرفية أى جهة تلى أيمانهم ﴿وذات الشمال﴾ أى جهة تلى شمائلهم كيلا تأكل الارض ما يليها من أبدانهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما لولم يقلبوا لأكلتهم الارض قيل لهم تقليبتان فى السنة وقيل تقليبة واحدة يوم عاشوراء وقيل فى كل تسع سنين وقرئ يقلبهم على الاسناد الى ضمير الجلالة وتقلبهم على المصدر منصوبا بمضمر ينبئ عنه وتحسبهم أى وترى تقلبهم ﴿وكلبهم﴾ قيل هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فأنطقه الله تعالى فقال لاتخشوا جانبى فانى أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم وقيل هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم اذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف فى لونه فقيل كان انمر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالد

ابن معدان ليس فى الجنة من الدواب الا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدا ﴿باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل وعند الكسائى وهشام وأبى جعفر من البصريين يجوز اعماله مطلقا والذراع من المرفق الى رأس الأصبع الوسطى ﴿بالوصيد﴾ أى بموضع الباب من الكهف ﴿لو اطلعت عليهم﴾ أى لوعاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الاشراف على الشئ بالمعاينة والمشاهدة وقرئ بضم الواو ﴿لوليت منهم فرارا﴾ هربا مما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدرية من معنى ما قبله اذ التولية والفرار من واد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل أى فارا أو بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما فى قولها فانما هى اقبال وادبار واما على أنه مفعول له ﴿ولملئت منهم رعبا﴾ وقرئ بضم العين أى خوفا يملأ الصدر ويرعبه وهو اما مفعول ثان أو تمييز ذلك لما ألبسهم الله عز وجل من الهيبة والهيئة كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم ولا يساعده قولهم لبثنا يوما أو بعض يوم وقوله ولا يشعرن بكم أحدا فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم فى أنفسهم وقيل لعظم أجرامهم ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للايذان باستقلال كل منهما فى الترتب على الاطلاع اذلو روعى ترتيب الوجود لتبادر الى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه وللاشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية لما غزا الروم فر بالكهف قال لو كشفت لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال لو اطلعت عليهم الآية قال معاوية لا أنتهى حتى أعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم وقرئ بتشديد اللام على التكثير وبابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد ﴿وكذلك بعثناهم﴾ أى كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أى ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختبار من حيث انه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره ﴿قال﴾ استئناف لبيان تساؤلهم ﴿قائل منهم﴾ هو رئيسهم واسمه مكسلمينا ﴿كم لبثتم﴾ فى منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد فى الجملة ﴿قالوا﴾ أى بعضهم ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ قيل انما قالوه لما أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا أو بعض يوم وكان ذلك بناء على الظن الغالب فلم يعزوا الى الكذب ﴿قالوا﴾ أى بعض آخر منهم بما سنح لهم من الأدلة أو بالهام من الله سبحانه ﴿ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الادب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن فى حالتين ولا يساعده النظم الكريم فان الاستئناف فى الحكاية والخطاب فى المحكى يقضى بأن الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة والا لقيل ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة﴾ قالوه اعراضا عن التعمق فى البحث واقبالا على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبئ عنه الفاء والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ووصفها باسم الاشارة يشعر بأن القائل ناولها بعض أصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك وقرئ بسكون الراء وبادغام القاف فى الكاف وبكسر الواو وبسكون الراء مع الادغام وحملهم لها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل على الله تعالى ﴿فلينظر أيها﴾ أى أهلها ﴿أزكى﴾ أحل وأطيب أو أكثر وأرخص ﴿طعاما فليأتكم برزق منه﴾ أى من ذلك الازكى طعاما ﴿وليتلطف﴾ وليتكلف اللطف فى المعاملة كيلا يغبن أو فى الاستخفاء لئلا يعرف ﴿ولا يشعرن بكم أحدا﴾ من أهل المدينة فانه يستدعى شيوع أخباركم أى لا يفعلن ما يؤدى الى ذلك فالنهى على الاول تأسيس وعلى

الثانى تأكيد للامر بالتلطف ﴿انهم﴾ تعليل لما سبق من الامر والنهى أى ليبالغ فى التلطف وعدم الاشعار لانهم ﴿ان يظهروا عليكم﴾ أى يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم والضمير للاهل المقدر فى أيها ﴿يرجموكم﴾ ان ثبتم على ما أنتم عليه ﴿أو يعيدوكم فى ملتهم﴾ أى يصيروكم اليها و يدخلوكم فيها كرها من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى أولتعودن فى ملتنا وقيل كانوا أولا على دينهم وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار الذى هو أشد شىء عندهم كراهة وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لان الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدى اليه وضمير الخطاب فى المواضع الاربعة للمبالغة فى حمل المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان امحاض النصح أدخل فى القبول واهتمام الانسان بشأن نفسه اكثر وأوفر ﴿ولن تفلحوا اذا﴾ أى ان دخلتم فيها ولو بالكره والالجاء لن تفوزوا بخير ﴿أبدا﴾ لا فى الدنيا و لا فى الآخرة وفيه من التشديد فى التحذير مالا يخفى ﴿وكذلك﴾ أى وكما أنمناهم و بعثناهم لما مر من ازديادهم فى مراتب اليقين ﴿أعثرنا﴾ أى أطلعنا الناس ﴿عليهم ليعلموا﴾ أى الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة ﴿أن وعد الله﴾ أى وعده بالبعث أو موعوده الذى هو البعث أوأن كل وعده أو كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث أو البعث الموعود دخولا أوليا ﴿حق﴾ صادق لا خلف فيه أو ثابت لامرد له لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث ﴿وأن الساعة﴾ أى القيامة التى هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء ﴿لاريب فيها﴾ لاشك فى قيامها فان من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها اليها لا يبقى له شائبة شك فى أن وعده تعالى حق وأنه يبعث من فى القبور فيرد اليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم ﴿اذ يتنازعون﴾ ظرف لقوله أعثرنا قدم عليه الغاية اظهاراً لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على أن التنازع يحدث بعد الاعثار وليس كذلك أى أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بينهم أمرهم﴾ ليرتفع الخلاف و يتبين الحق قيل المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين فى البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول ببعث الأرواح دون الاجساد وآخر يقول ببعثهما معا قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف أهل مملكته فى البعث حسبما فصل فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحق فألقى الله عز وجل فى نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به دقيانوس باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ماجرى روى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشترى به الطعام وكان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم ان آباءنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا الى مضاجعهم فماتوا فألقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم فى المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج و بنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا الى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا فدخل فعمى عليهم المدخل فبنوا ثمة مسجدا وقيل المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أى أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وماجرى بينهم و بين دقيانوس من الأحوال والاهوال و يتلقون ذلك من الاساطير وأفواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء فى قوله عز وجل ﴿فقالوا﴾ فصيحة أى أعثرناهم عليهم فرأوا مارأوا فماتوا فقالوا أى قال بعضهم ﴿ابنوا عليهم﴾ أى على باب كهفهم ﴿بنيانا﴾ لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها وقوله تعالى ﴿ربهم أعلم بهم﴾ من كلام المتنازعين كانهم لما رأوا عدم اهتدائهم الى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث فى

الكهف قالوا ذلك تفويضا للامر الى علام الغيوب أو من كلام الله تعالى رداً لقول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين وقيل هو أمرهم وتدبيرهم عند وفاتهم أوشأنهم فى الموت والنوم حيث اختلفوا فى أنهم ماتوا أوناموا كما فى أول مرة فاذ حينئذ متعلق بقوله تعالى ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ وهم الملك والمسلمون ﴿لنتخذن عليهم مسجدا﴾ وقوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون وايثار صيغة الماضى للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر و يتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا وأما تعلقه بأعثرنا فيأباه أن اعثارهم ليس فى زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل وقت التنازع ممتدا يقع فى بعضه الاعثار و فى بعضه التنازع تعسف لايخفى مع أنه لامخصص لاضافته الى التنازع وهو مؤخر فى الوقوع ﴿سيقولون﴾ الضمير فى الافعال الثلاثة للخائضين فى قصتهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن لا على وجه اسناد كل منها الى كلهم بل الى بعضهم ﴿ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أى هم ثلاثة أشخاص رابعهم أى جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم كلبهم قيل قالته اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقرىء ثلاث بادغام الثاء فى التاء ﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾ قيل قالته النصارى أو العاقب منهم وكان نسطوريا ﴿رجما بالغيب﴾ رميا بالخبر الخفى الذى لامطلع عليه أوظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن اذا ظن وانتصابه على الحالية من الضمير فى الفعلين جميعا أى راجمين أو على المصدرية منهما فان الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معا أى يرجمون رجما وعدم ايراد السين للاكتفاء بعطفه على مافيه ذلك ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ هو مايقوله المسلمون بطريق التلقى من هذا الوحى ومافيه مما يرشدهم الى ذلك من عدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيها لا بوحى آخر كما قيل ﴿قل﴾ تحقيقا للحق وردا على الأولين ﴿ربى أعلم﴾ أى أقوى علما ﴿بعدتهم﴾ بعددهم ﴿مايعلمهم﴾ أى مايعلم عدتهم أو مايعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم ﴿الا قليل﴾ من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد قال ابن عباس رضى الله عنه حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضى الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان فى ذلك وحى آخر لما خفى عليه ولما احتاج الى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون اسوة له فى العلم بذلك وعن على كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشلينا ومشلينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره والسابع الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفيشيططيوش ﴿فلا تمار﴾ الفاء لتفريع النهى على ماقبله أى اذ قد عرفت جهل أصحاب القولين الأولين فلا تجادلهم ﴿فيهم﴾ فى شأن الفتية ﴿الا مراء ظاهرا﴾ قدر ما تعرض له الوحى من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الاجمالى وتفويض العلم الى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم فانه مما يخل بمكارم الاخلاق ﴿ولا تستفت فيهم﴾ فى شأنهم ﴿منهم﴾ من الخائضين ﴿أحدا﴾ فان فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك مع انه لاعلم لهم بذلك وقال عطاء الا قليل من أهل الكتاب فالضمائر الثلاثة فى الافعال الثلاثة لهم وماذكر من الشواهد لارشاد المؤمنين الى صحة القول الثالث وفيه محيص عما فى الأول من التكلف فى جعل أحد الاقوال المحكية المنظومة فى سمط واحد ناشئا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه و وضوح فى سبب حذف المفعول فى لاتمار والمعنى حينئذ واذ قد وقفت على أن كلهم ليسوا على خطأ فى ذلك فلا تجادلهم الا جدالا ظاهرا نطق به الوحى المبين من غير تجهيل لجميعهم فان فيهم مصيبا وان قل والنهى عن الاستفتاء لدفع ماعسى يتوهم من احتمال جوازه أو احتمال وقوعه بناء على اصابة بعضهم فالمعنى لاتراجع اليهم فى شأن الفتية ولا تصدق القول الثالث من حيث صدوره عنهم بل من حيث التلقى من الوحى ﴿ولا تقولن لشىء﴾ أى لاجل

شئ تعزم عليه ﴿انى فاعل ذلك﴾ الشئ ﴿غدا﴾ أى فيما يستقبل من الزمان مطلقا فيدخل فيه الغد دخولا أوليا فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذى القرنين فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال ائتونى غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش وماقيل من أن المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده أن مابعده ليس بمعناه فى مناط النهى فان وسعة المجال دليل القدرة فليتأمل ﴿الا أن يشاء الله﴾ استثناء مفرغ من النهى أى لاتقولن ذلك فى حال من الاحوال الاحال ملابستة بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد وهو أن يقال ان شاء الله أو فى وقت من الأوقات الا وقت أن يشاء الله أن تقوله لامطلقا بل مشيئة اذن فان النسيان أيضا بمشيئته تعالى ولامساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهى وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لاتقولنه أبدا كقوله تعالى وماكان لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ﴿واذكر ربك﴾ بقولك ان شاء الله متداركا له ﴿اذا نسيت﴾ اذا فرط منك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة مالم يحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه اذ لوصح ذلك لما تقرر اقرار ولاطلاق ولاعتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبى هنا فى تدارك التبرك والتخلص عن الاثم وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون الامتصلا ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه اذا تركت بعض ماأمرك به ليبعثك ذلك على التدارك أو اذكره اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها ﴿وقل عسى أن يهدين ربى﴾ أى يوفقنى ﴿لأقرب من هذا﴾ أى لشئ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى ﴿رشدا﴾ أى ارشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ماهو أعظم من ذلك وأبين كقصص الأنبياء المتباعد أيامهم والحوادث النازلة فى الاعصار المستقبلة الى قيام الساعة أو لاقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسى ﴿ولبثوا فى كهفهم﴾ أحياء مضروبا على آذانهم ﴿ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾ وهى جملة مستأنفة مبينة لما أجمل فيما سلف وأشير الى عزة مناله وقيل انه حكاية كلام أهل الكتاب فانهم اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلثمائة وروى عن على رضى الله عنه أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلثمائة وتسع سنين وسنين عطف بيان لثلثمائة وقيل بدل وقرئ على الاضافة وضعا للجمع موضع المفرد ومما يحسنه هنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف فى الواحد وأن الأصل فى العدد اضافته الى الجمع ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أى بالزمان الذى لبثوا فيه ﴿له غيب السموات والأرض﴾ أى ماغاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما واللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فانه غير مختص بالغيب ﴿أبصر به وأسمع﴾ دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين لا يحجبه شئ ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفى والجلى والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله أبصر أى صار ذا بصر ثم نقل الى صيغة الأمر للانشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له أو لزيادة الباء كما فى كفى به والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة ان كانت الهمزة للتعدية ومعدية ان كانت للصيرورة ولعل تقديم أمر ابصاره تعالى لما أن الذى نحن بصدده من قبيل المبصرات ﴿مالهم﴾ لأهل السموات والأرض ﴿من دونه﴾ تعالى ﴿من ولى﴾ يتولى أمورهم وينصرهم استقلالا ﴿ولا يشرك فى حكمه﴾ فى قضائه أو فى علم الغيب

﴿أحدا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلا وهو كما ترى أبلغ فى نفى الشريك من أن يقال من ولى ولاشريك وقرئ على صيغة نهى الحاضر على أن الخطاب لكل أحد ولما دل انتظام القرآن الكريم لقصة أصحاب الكهف من حيث انها بالنسبة الى النبى صلى الله عليه وسلم من المغيبات على أنه وحى معجز أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته فقال ﴿واتل ماأوحى اليك من كتاب ربك﴾ ولاتسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿لا مبدل لكلماته﴾ لا قادر على تبديله وتغييره غيره ﴿ولن تجد﴾ أبد الدهر وان بالغت فى الطلب ﴿من دونه ملتحدا﴾ ملجأ تعدل اليه عند الملمات ﴿واصبر نفسك﴾ احبسها وثبتها مصاحبة ﴿مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾ أى دائبين على الدعاء فى جميع الأوقات وقيل فى طرفى النهار وقرئ بالغدوة على أن ادخال اللام عليها وهى علم فى الأغلب على تأويل التنكير بهم والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم رضى الله عنهم وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل انه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الأرذلون فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما فى حيز الصلة من الخصلة الداعية الى ادامة الصحبة ﴿يريدون﴾ بدعائهم ذلك ﴿وجهه﴾ حال من المستكن فى يدعون أى مريدين لرضاه تعالى وطاعته ﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أى لا يجاوزهم نظرك الى غيرهم من عداه أى جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو أو لا تصرف عيناك النظر عنهم الى غيرهم من عدوته عن الأمر أى صرفته عنه على أن المفعول محذوف لظهوره وقرئ ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من الاعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زى الاغنياء ﴿تريد زينة الحيوة الدنيا﴾ أى تطلب مجالسة الأشراف والاغنياء وأصحاب الدنيا وهى حال من الكاف على الوجه الاول من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثانى منها وضمير تريد للعينين واسناد الارادة اليه مجاز وتوحيده للتلازم كما فى قوله

لمن زحلوقة زل ... بها العينان تنهل

ومن المستكن فى الفعل على القراءتين الاخيرتين ﴿ولا تطع﴾ فى تنحية الفقراء عن مجالسك ﴿من أغفلنا قلبه﴾ أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة أو وجدناه غافلا كقولك أجبنته وأبخلته اذا وجدته كذلك أوهو من أغفل ابله أى لم نسمه بالذكر ﴿عن ذكرنا﴾ كأولئك الذين يدعونك الى طرد الفقراء عن مجلسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الاوقات وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه فى الحسيات حتى خفى عليه أن الشرف بحلية النفس لابزينة الجسد وقرئ اغفلنا قلبه على اسناد الفعل الى القلب أى حسبنا غافلين عن ذكرنا اياه بالمؤاخذة من أغفلته اذا وجدته غافلا ﴿واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ ضياعا وهلاكا أومتقدما للحق والصواب نابذاله وراء ظهره من قولهم فرس فرط أى متقدم للخيل أوهو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى الى اتباع الهوى المؤدى الى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية مافى حيز الصلة للنهى عن الاطاعة ﴿وقل﴾ لاولئك الغافلين المتبعين هواهم ﴿الحق من ربكم﴾ أى ماأوحى الى الحق لاغير كائنا من ربكم أوالحق المعهود من جهة ربكم لامن جهتى حتى يتصور فيه التبديل أو يمكن التردد فى اتباعه وقوله تعالى ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ امامن تمام القول المأمور به والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها بطريق التهديد لالتفريعه عليه كما فى قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب وقوله تعالى الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أى عقيب تحقق أن ماأوحى الى حق لاريب فيه وأن ذلك الحق من جهة ربكم فمن

شاء أن يؤمن به فليؤمن كسائر المؤمنين و لا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به فليفعل وفيه من التهديد واظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم و بايمانهم وجودا وعدما مالايخفى واما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب مابعدها من التهديد على الأمر لا على مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك و بعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى ﴿انا أعتدنا﴾ وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر أو لما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فان اعداد جزائه من دواعي الاملاء والامهال وعلى الوجه الأول هو تعليل للامر بما ذكر من التخيير التهديدى أى قل لهم ذلك انا أعتدنا ﴿للظالمين﴾ أى هيأنا للكافرين بالحق بعد ماجاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد و وضع للشيء في غير موضعه ﴿نارا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أحاط بهم﴾ أى يحيط بهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿سرادقها﴾ أى فسطاطها شبه به مايحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار ﴿وان يستغيثوا﴾ من العطش ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ كالحديد المذاب وقيل كدردى الزيت وهو على طريقة قوله فاعتبوا بالصيلم ﴿يشوى الوجوه﴾ اذا قدم ليشرب انشوى الوجه لحرارته عن النبى عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فاذاقرب اليه سقطت فروة وجهه ﴿بئس الشراب﴾ ذلك ﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقا﴾ متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وأنى ذلك فى النار وانما هو بمقابلة قوله تعالى حسنت مرتفقا ﴿ان الذين آمنوا﴾ فى محل التعليل للحث على الايمان المنفهم من التخيير كأنه قيل وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للايذان بكمال تنافى مآلى الفريقين أى ان الذين آمنوا بالحق الذى أوحى اليك ﴿وعملوا الصالحات﴾ حسبما بين فى تضاعيفه ﴿انا لانضيع أجر من أحسن عملا﴾ خبر ان الاولى هى الثانية مع مافى حيزها والراجع محذوف أى من أحسن منهم عملا أومستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد أو واقع موقعه الظاهر فان من أحسن عملا فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل الصالحات ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار﴾ استئناف لبيان الاجر أوهو الخبر ومابينهما اعتراض أوهو خبر بعد خبر ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾ من الاولى ابتدائية والثانية بيانية صفة لاساور والتنكير للتفخيم وهو جمع أسورة أوأسوار جمع سوار ﴿ويلبسون ثيابا خضرا﴾ خصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة ﴿من سندس واستبرق﴾ أى مما رق من الديباج وماغلظ جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ على السرر على ماهو شأن المتنعمين ﴿نعم الثواب﴾ ذلك ﴿وحسنت﴾ أى الأرائك ﴿مرتفقا﴾ أى متكأ ﴿واضرب لهم﴾ أى للفريقين الكافر والمؤمن ﴿مثلا رجلين﴾ مفعولان لاضرب أولهما ثانيهما لأنه المحتاج الى التفصيل والبيان أى اضرب للكافرين والمؤمنين لامن حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا من أن للاولين فى الآخرة كذا وللآخرين كذا بل من حيث عصيان الأولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين أومحققين هما اخوان من بنى اسرائيل أوشريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه الى وجوه المبار فآل أمرهما الى ماحكاه الله تعالى وقيل هما أخوان من بنى مخزوم كافر هو الاسود ابن عبد الاسد ومسلم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد زوج أم سلمة رضى الله عنها أولا ﴿جعلنا لأحدهما﴾ وهو الكافر ﴿جنتين﴾ بستانين ﴿من أعناب﴾ من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل أوصفة لرجلين

﴿وحففناهما بنخل﴾ أى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزرا بها كرومهما يقال حفه القوم اذا طافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا آخر كقولك غشيته به ﴿وجعلنا بينهما﴾ وسطهما ﴿زرعا﴾ ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الانيق ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ ثمرها و بلغت مبلغا صالحا للاكل وقرىء بسكون الكاف وقرىء كل الجنتين آتى أكله ﴿ولم تظلم منه﴾ لم تنقص من أكلها ﴿شيئا﴾ كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الاشجار يأتى بالثمر فى بعض الاعوام دون بعض ﴿وفجرنا خلالهما﴾ فيما بين كل من الجنتين ﴿نهرا﴾ على حدة ليدوم شربهما و يزيد بهاؤهما وقرىء بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر ايتاء الأكل مع أن الترتيب الخارجى على العكس للايذان باستقلال كل من ايتاء الأكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين كما فى قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فان ايتاء الأكل متفرع على السقى عادة وفيه ايماء الى أن ايتاء الأكل لا يتوقف على السقى كقوله تعالى يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار ﴿وكان له﴾ لصاحب الجنتين ﴿ثمر﴾ أنواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله اذا كثره قال ابن عباس رضى الله عنهما هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة خاصة ﴿فقال لصاحبه﴾ المؤمن ﴿وهو﴾ أى القائل ﴿يحاوره﴾ أى صاحبه المؤمن وان جاز العكس أى يراجعه فى الكلام من حار اذا رجع ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا﴾ حشما وأعوانا أو أولادا ذكورا لأنهم الذين ينفرون معه ﴿ودخل جنته﴾ التى شرحت أحوالها وعددها وصفاتها وهيآتها وتوحيدها اما لعدم تعلق الغرض بتعددها واما لاتصال احداهما بالأخرى واما لأن الدخول يكون فى واحدة فواحدة ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ ضار لها بعجبه وكفره ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال اذ ذاك فقيل قال ﴿ماأظن أن تبيد هذه﴾ الجنة أى تفنى ﴿أبدا﴾ لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ولعله انما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ كائنة فيما سيأتى ﴿ولئن رددت﴾ بالبعث عند قيامها كما تقول ﴿الى ربى لأجدن﴾ يومئذ ﴿خيرا منها﴾ أى من هذه الجنة وقرىء منهما أى من الجنتين ﴿منقلبا﴾ مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أنه تعالى انما أولاهما أولاه فى الدنيا لاستحقاقه الذاتى وكرامته عليه سبحانه ولم يدر أن ذلك استدراج ﴿قال له صاحبه﴾ استئناف كما سبق ﴿وهو يحاوره﴾ جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من أول الأمر على أن مايتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة ﴿أكفرت﴾ حيث قلت ماأظن الساعة قائمة ﴿بالذى خلقك﴾ أى فى ضمن خلق أصلك ﴿من تراب﴾ فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لانه أصل مادتك اذ به يحصل الغذاء الذى منه تحصل النطفة فتدبر ﴿من نطفة﴾ هى مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد ﴿ثم سواك رجلا﴾ أى عدلك و كملك انسانا ذكرا أوصيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة لانكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله عز من قائل يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب الخ ﴿لكنا هو الله ربى﴾ أصله لكن انا وقد قرىء كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الادغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربى

وتلك الجملة خبر أنا والعائدمنها اليه الضمير وقرئ بإثبات الف أنا فى الوصل والوقف جميعا وفى الوقف خاصة وقرئ لكنه
بالهاء ولكن يطرح انا ولكن انا لا اله الا هو ربى ومدار الاستدراك قوله تعالى أكفرت كأنه قال أنت كافر لكنى مؤمن موحد
﴿ولا أشرك بربى أحدا﴾ فيه ايذان بأن كفره كان بطريق الاشراك ﴿ولولا اذ دخلت جنتك قلت﴾ أى هلا قلت
عند مادخلتها وتقديم الظرف على المحضض عليه للايذان بتحتم القول فى آن الدخول من غير ريث لا للقصر ﴿ماشاء
الله﴾ أى الأمر ماشاء الله أو ماشاء الله كائن على أن ماموصولة مرفوعة المحل أو أى شئ شاء الله كان على أنها شرطية
منصوبة والجواب محذوف والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أفناها
﴿لاقوة الا بالله﴾ أى هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك و بأن ماتيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها انما هو بمعونته تعالى
واقداره عن النبى صلى الله عليه وسلم من رأى شيأ فأعجبه فقال ماشاء الله لاقوة الا بالله لم يضره ﴿ان ترن أنا أقل منك
مالا وولدا﴾ أنا اما مؤكد لياء المتكلم أو ضمير فصل بين مفعولى الرؤية ان جعلت علية وأقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية
فيكون أنا حينئذ تأكيدا لا غير لأن شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدا والخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر وقرئ أقل
بالرفع خبرا لانا والجملة مفعول ثان للرؤية أو حال وفى قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد ﴿فعسى ربى أن
يؤتينى خيرا من جنتك﴾ هو جواب الشرط والمعنى ان ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلب مابى
ومابك من الفقر والغنى فيرزقنى لايمانى جنة خيرا من جنتك و يسلبك لكفرك نعمته و يخرب جنتك ﴿ويرسل
عليها حسبانا﴾ هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران أى مقدارا قدره الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها
وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامى جمع حسبانة وهى الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما
سيأتى للاولين أكثر ﴿من السماء فتصبح صعيدا زلقا﴾ مصدر أريد به المفعول مبالغة أى أرضا ملساء يزلق عليها
لاستئصال ماعليها من البناء والشجر والنبات ﴿أو يصبح﴾ عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على
يرسل ﴿ماؤها غورا﴾ أى غائرا فى الارض أطلق عليه المصدر مبالغة ﴿فلن تستطيع﴾ أبدا ﴿له﴾ أى للماء
الغائر ﴿طلبا﴾ فضلا عن وجدانه ورده ﴿وأحيط بثمره﴾ أهلك أمواله المعهودة من جنتيه ومافيهما وأصله من
احاطة العدو وهو عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض ماتوقع من المحذور وأهلك أمواله وانما حذف لدلالة السباق
والسياق عليه كما فى المعطوف عليه بالفاء الفصيحة ﴿فأصبح يقلب كفيه﴾ ظهرا لبطن وهو كناية عن الندم كأنه قيل
فأصبح يندم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أى فى عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ماهلك الآن من الجنة لما
أنه انما يكون على الافعال الاختيارية ولأن ما أنفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه
الى مصالحها رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به وكان يرى أنه لاتنالها أيدى الردى و لذلك قال ما أظن أن تبيد هذه
أبدا فلما ظهر له أنها مما يعتريه الهلاك ندم على ماصنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق مايمكن ادخاره فى مثل هذا
الشئ السريع الزوال ﴿وهى﴾ أى الجنة من الاعناب المحفوفة بنخل ﴿خاوية﴾ ساقطة ﴿على عروشها﴾ أى
دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها وتخصيص حالها بالذكر دون النخل والزرع اما لأنها العمدة وهما من
متممانها واما لأن ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقى لانها حيث هلكت وهى مشيدة بعروشها فهلاك ماعداها بالطريق
الاولى واما لأن الانفاق فى عمارتها أكثر وقيل أرسل الله تعالى عليها نارا فأحرقتها وغار ماؤها ﴿ويقول﴾ عطف
على يقلب أو حال من ضميره أى وهو يقول ﴿ياليتنى لم أشرك بربى أحدا﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه انما أتى
من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه قيل ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك وندما على مافرط منه

﴿ولم تكن له﴾ وقرئ بالياء التحتانية ﴿فئة ينصرونه﴾ يقدرون على نصره بدفع الاهلاك أو على رد المهلك أو
الاتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى كما فى قوله عز وعلا يرونهم مثليهم ﴿من دون الله﴾ فانه القادر على ذلك وحده
﴿وما كان﴾ فى نفسه ﴿منتصرا﴾ ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه ﴿هنالك﴾ فى ذلك المقام وفى تلك الحال
﴿الولاية لله الحق﴾ أى النصر لله وحده لايقدر عليها أحد فهو تقرير لما قبله أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة كما
نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن و يعضده قوله تعالى ﴿هو خير ثوابا وخير عقبا﴾ أى لأوليائه وقرئ الولاية بكسر
الواو ومعناها الملك والسلطان أى هنالك السلطان له عز وجل لا يغلب ولا يمتنع منه أو لا يعبد غيره كقوله تعالى واذا ركبوا
دعوا الله مخلصين له الدين فيكون تنبيها على أن قوله ياليتنى لم أشرك الخ كان عن اضطرار وجزع عما دهاه على أسلوب
قوله تعالى آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وقيل هنالك اشارة الى الآخرة كقوله تعالى لمن الملك اليوم
لله الواحد القهار وقرئ برفع الحق على أنه صفة للولاية و بنصبه على أنه مصدر مؤكد وقرئ عقبا بضم القاف وعقبى
كرجعى والكل بمعنى العاقبة ﴿واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا﴾ أى واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة
زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا بالمرة أو بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى
الغرابة كالمثل ﴿كماء﴾ استئناف لبيان المثل أى هى كماء ﴿أنزلناه من السماء﴾ ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على
أنه بمعنى صير ﴿فاختلط به﴾ اشتبك بسببه ﴿نبات الارض﴾ فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه أو نجع
الماء فى النبات حتى روى ورف فمقتضى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات الأرض وايثار ماعليه النظم الكريم عليه للمبالغة
فى الكثرة فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه ﴿فأصبح﴾ ذلك النبات الملتف اثر بهجتها ورفيفها ﴿هشيما﴾
مهشوما مكسورا ﴿تذروه الرياح﴾ تفرقه وقرئ تذريه من اذراه وتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو
الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفا ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يغن بالامس
﴿وكان الله على كل شئ﴾ من الاشياء التى من جملتها الانشاء والافناء ﴿مقتدرا﴾ قادرا على الكمال ﴿المال والبنون
زينة الحيوة الدنيا﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الأخ الكافر أنا أكثر منك مالا
وأعز نفرا اثر بيان شأن نفسها بما مر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما فى الآية المحكية آنفا وقوله
تعالى وأمددناكم بأموال وبنين وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه
بالنسبة الى الافراد والاوقات فانه زينة وعدة لكل أحد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وامدادهم
انما يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الابوة ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولان الحاجة اليه أمس
من الحاجة اليهم ولانه أقدم منهم فى الوجود ولانه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو فى ضيق
حال ونكال وافراد الزينة مع أنها مسندة الى الاثنين لما أنها مصدر فى الاصل أطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس
الزينة والمعنى انما يفتخرون به من المال والبنين شئ يتزين به فى الحياة الدنيا وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب
الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التى شأنها أن تزول قبل زوالها ﴿والباقيات الصالحات﴾ هى أعمال الخير
وقيل هى الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقيل كل ما أريد به وجه الله تعالى وعلى
كل تقدير يدخل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه دخولا أوليا أما صلاحها
فظاهر وأما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ماتطمح اليه النفس من حظوظ الدنيا ﴿خير﴾ أى مما نعت شأنه من
المال والبنين واخراج بقاء تلك الاعمال وصلاحها مخرج الصفات المفروغ عنها مع أن حقهما أن يكونا مقصودى

الافادة لاسيما فى مقابلة اثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى ماعندكم ينفد وما عند الله باق للايذان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة الى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وانما الذى يحتاج الى التعرض له خيريتها ﴿عند ربك﴾ أى فى الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة اضافة الزينة الى الحياة الدنيا لا لأفضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل فى الاصل اذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة ﴿ثوابا﴾ عائدة تعود الى صاحبها ﴿وخير أملا﴾ حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله وتكرير خير للاشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيها ﴿ويوم نسير الجبال﴾ منصوب بمضمر أى اذكر حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو على هيئاتها كما ينبئ عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثا والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهى وقيل هو معطوف على ما قبله من قوله تعالى عند ربك أى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة وقرىء تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن الاسناد الى الفاعل لتعينه وقرىء تسير ﴿وترى الأرض﴾ أى جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وقرىء ترى على صيغة البناء للمفعول ﴿بارزة﴾ أما بروزما تحت الجبال فظاهر وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك فالآن أضحى قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴿وحشرناهم﴾ جمعناهم الى الموقف من كل أوب وايثار صيغة الماضى بعد نسير وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا وقيل هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك ﴿فلم نغادر﴾ أى لم نترك ﴿منهم أحدا﴾ يقال غادره وأغدره اذا تركه ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء والغدير الذى هو ماء يتركه السيل فى الارض الغائرة وقرىء بالياء وبالفوقانية على اسناد الفعل الى ضمير الارض كما فى قوله تعالى وألقت ما فيها وتخلت ﴿وعرضوا على ربك﴾ شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر وفى الالتفات الى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجرى على سنن الكبرياء واظهار اللطف به عليه السلام مالا يخفى ﴿صفا﴾ أى غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد فى الحديث الصحيح يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا ﴿لقد جئتمونا﴾ على اضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير عرضوا أى مقولا لهم أو وقلنا لهم وأما كونه عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه أن هذا القول هو المقصود بالاصالة دون سائر القوارع مع أنه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الارض ﴿كما خلقناكم﴾ نعت لمصدر مقدر أى مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا لكم ﴿أول مرة﴾ أو حال من ضمير جئتمونا أى كائنين كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غرلا أو ما معكم شىء مما تفتخرون به من الاموال والانصار كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ اضراب وانتقال من كلام الى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع أى زعمتم فى الدنيا أنه لن نجعل لكم أبدا وقتا ننجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه وأن مخففة من المثقلة فصل بحرف النفى بينها وبين خبرها لكونه جملة فعلية متصرفة غير دعاء والظرف اما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والاول هو موعدا أو حال من موعدا وهو بمعنى الخلق والابداع ﴿ووضع الكتاب﴾ عطف على عرضوا داخل تحت الامور الهائلة التى أريد تذكيرها بتذكير وقتها أو رد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة

الماضى دلالة على التقرر أيضا أى وضع صحائف الاعمال وايثار الافراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها اما وضعها فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا واما فى الميزان ﴿فترى المجرمين﴾ قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولا أوليا ﴿مشفقين﴾ خائفين ﴿مما فيه﴾ من الجرائم والذنوب ﴿ويقولون﴾ عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا وقطميرا ﴿ياويلتنا﴾ منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات مستدعين لها ليهلكوا ولا يروا هول ما لاقوه أى ياويلتنا احضرى فهذا أوان حضورك ﴿مال هذا الكتاب﴾ أى أى شىء له وقوله تعالى ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها﴾ أى حواها وضبطها جملة حالية محققة لما فى الجملة الاستفهامية من التعجب أو استئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ما شأنه حتى يتعجب منه فقيل لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ﴿ووجدوا ما عملوا﴾ فى الدنيا من السيئات أو جزاء ما عملوا ﴿حاضرا﴾ مسطورا عتيدا ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ فيكتب ما لم يعمل من السيئات أو يزيد فى عقابه المستحق فيكون اظهارا لمعدلة القلم الازلى ﴿واذ قلنا للملائكة﴾ أى اذكر وقت قولنا لهم ﴿اسجدوا لآدم﴾ سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله ﴿فسجدوا﴾ جميعا امتثالا بالامر ﴿الا ابليس﴾ فانه لم يسجد بل أبى واستكبر وقوله تعالى ﴿كان من الجن﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل ماله لم يسجد فقيل كان أصله جنيا ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أى خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاء أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر الله تعالى اذ لولاه لما أبى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع ابليس وأنهم فى ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿أفتتخذونه﴾ الخ فان الهمزة للانكار والتعجيب والفاء للتعقيب أى أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه ﴿وذريته﴾ أى أولاده وأتباعه جعلوا ذريته مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين ﴿أولياء من دونى﴾ فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى ﴿وهم﴾ أى والحال أن ابليس وذريته ﴿لكم عدو﴾ أى أعداء كما فى قوله تعالى فانهم عدو لى الا رب العالمين وقوله تعالى هم العدو وانما فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الانكار وتشديده فان مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا ﴿بئس للظالمين﴾ أى الواضعين للشىء فى غير موضعه ﴿بدلا﴾ من الله سبحانه ابليس وذريته وفى الالتفات الى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الايذان بكمال السخط والاشارة الى أن ما فعلوه ظلم قبيح مالا يخفى ﴿ما أشهدتهم﴾ استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور فى أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة أى ما أحضرت ابليس وذريته ﴿خلق السموات والارض﴾ حيث خلقتهما قبل خلقهم ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم هذا ما أجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس ولك أن ترجع الضمير الثانى الى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على قود المعنى اليه فان نفى اشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذى يدور عليه انكار اتخاذهم أولياء بناء على أن أدنى ما يصحح التولى حضور الولى خلق المتولى وحيث لا حضور لا مصحح للتولى قطعا وأما نفى اشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مدارية الانكار المذكور فى شىء على أن اشهاد بعضهم خلق بعض ان كان مصححا لتولى الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار أن له مدخلا فى خلق المشهود فى الجملة فهو مخل بتولى المشهود بناء على قصوره عمن شهد خلقه فلا يكون نفى الاشهاد المذكور متمحضا فى نفى الكمال المصحح للتولى عن الكل وهو

المناط للانكار المذكور ﴿وما كنت متخذ المضلين﴾ أى متخذهم وانما وضع موضعه المظهر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالاضلال وتأكيدا لما سبق من انكار اتخاذهم أولياء ﴿عضدا﴾ أعوانا فى شأن الخلق أو فى شأن من شئونى حتى يتوهم شركتهم فى التولى بناء على الشركة فى بعض أحكام الربوبية وفيه تهكم بهم وايذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلى الذى لا يكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون الى التصريح به وايثار نفى الاشهاد على نفى شهودهم ونفى اتخاذهم أعوانا على نفى كونهم كذلك للاشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته وارادته فيهم وأنهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير احضار واتخاذ وانما قصارى ما يتوهم فى شأنهم أن يبلغوا ذلك المبلغ بأمر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى ما أشهدتهم خلق ذلك وما أطلعتهم على أسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بايمانهم كما يزعمون فلا يلتفت الى قولهم طمعا فى نصرتهم للدين فانه لا ينبغى لى أن أعتضد بالمضلين ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ما صح لك الاعتضاد بهم ووصفهم بالاضلال لتعليل نفى الاتخاذ وقرئ متخذا المضلين على الأصل وقرئ عضدا بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف وبضمتين بالاتباع وبفتحتين على أنه جمع عاضد كرصد وراصد ﴿ويوم يقول﴾ أى الله عز وجل للكافرين توبيخا وتعجيزا وقرئ بنون العظمة ﴿نادوا شركائى الذين زعمتم﴾ أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم والمراد بهم كل ما عبد من دونه تعالى وقيل ابليس وذريته ﴿فدعوهم﴾ أى نادوهم للاغاثة وفيه بيان لكمال اعتنائهم باغاثتهم على طريقة الشفاعة اذ معلوم أن لا طريق الى المدافعة ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فلم يغيثوهم اذ لا امكان لذلك وفى ايراده مع ظهوره تهكم بهم وايذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه الا بالتصريح به ﴿وجعلنا بينهم﴾ بين الداعين والمدعوين ﴿موبقا﴾ اسم مكان أو مصدر من وبق وبوقا كوثب وثوبا أو وبق وبقا كفرح فرحا اذا هلك أى مهلكا يشتركون فيه وهو النار أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل أى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بينهم أمدا بعيدا يهلك فيه الاشواط لفرط بعده لانهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان ﴿ورأى المجرمون النار﴾ وضع المظهر مقام المضمر تصريحا باجرامهم وذما لهم بذلك ﴿فظنوا﴾ أى فأيقنوا ﴿أنهم مواقعوها﴾ مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا اذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة ﴿ولم يجدوا عنها مصرفا﴾ انصرافا أو معدلا ينصرفون اليه ﴿ولقد صرفنا﴾ أى كررنا أو رددنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿فى هذا القرآن للناس﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿من كل مثل﴾ من جملته أمر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية الى الايمان التى هى فى الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا ﴿وكان الانسان﴾ بحسب جبلته ﴿أكثر شئ جدلا﴾ أى أكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذى هو الفتل والمجادلة الملاواة لان كلا من المجادلين يلتوى على صاحبه وانتصابه على التمييز والمعنى أن جدله أكثر من جدل كل مجادل ﴿وما منع الناس﴾ أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم ﴿أن يؤمنوا﴾ من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الاشراك ﴿اذ جاءهم الهدى﴾ أى القرآن العظيم الهادى الى الايمان بما فيه من فنون المعانى الموجبة له ﴿ويستغفروا ربهم﴾ عما فرط منهم من أنواع الذنوب التى من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل ﴿الا أن تأتيهم سنة الاولين﴾ أى الا طلب اتيان سنتهم أو الا انتظار اتيانها أو الا تقديره لحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وسنتهم الاستئصال ﴿أو يأتيهم العذاب﴾ أى

عذاب الآخرة ﴿قبلا﴾ أى أنواعا جمع قبيل أو عيانا كما فى قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرئ بفتحتين أى مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى أن ما تضمنه القرآن الكريم من الامور المستوجبة للايمان بحيث لولم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وان كانوا مجبولين على الجدل المفرط ﴿وما نرسل المرسلين﴾ الى الامم ملتبسين بحال من الاحوال ﴿الا﴾ حال كونهم ﴿مبشرين﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿ومنذرين﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا ﴿ليدحضوا به﴾ أى بالجدال ﴿الحق﴾ أى يزيلوه عن مركزه ويبطلوه من ادحاض القدم وهو ازلاقها وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ونحوهما ﴿واتخذوا آياتى﴾ التى تخر لها صم الجبال ﴿وما أنذروا﴾ أى أنذروه من القوارع الناعية عليهم العقاب والعذاب أو انذارهم ﴿هزوا﴾ استهزاء وقرئ بسكون الزاى وهو ما يستهزأ به ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه﴾ وهو القرآن العظيم ﴿فأعرض عنها﴾ ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وان كان مدلوله الوضعى نفى الأظلمية من غير تعرض لنفى المساواة فى الظلم الا أن مفهومه العرفى أنه أظلم من كل ظالم وبناء الأظلمية على ما فى حيز الصلة من الاعراض عن القرآن للاشعار بأن ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوا خارج عن الحد ﴿ونسى ما قدمت يداه﴾ أى عمله من الكفر والمعاصى التى من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر فى عاقبتها ﴿انا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ﴿أن يفقهوه﴾ مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه أو مفعول له أى كراهة أن يفقهوه ﴿وفى آذانهم﴾ أى جعلنا فيها ﴿وقرا﴾ ثقلا يمنعهم من استماعه ﴿وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا﴾ أى فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف واذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبى عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته باسلامهم كأنه قال عليه الصلاة والسلام مالى لا أدعوهم فقيل ان تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع الى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن افراده فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه ﴿وربك﴾ مبتدأ وقوله تعالى ﴿الغفور﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ذو الرحمة﴾ أى الموصوف بها خبر بعد خبر وايراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولان المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما الرحمة فهى فعل وايجاد ولا يدخل تحت الوجود الا ما يتناهى وتقديم الوصف الاول لان التخلية قبل التحلية أو لانه أهم بحسب الحال اذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿لو يؤاخذهم﴾ أى لو يريد مؤاخذتهم ﴿بما كسبوا﴾ من المعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل واعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لعجل لهم العذاب﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك وايثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الاخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للايذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم ارادة المؤاخذة فان المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق فى موضعه ﴿بل لهم موعد﴾ اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة ﴿لن يجدوا﴾ البتة ﴿من دونه موئلا﴾ منجى أو ملجأ يقال وأل أى نجا ووأل اليه أى لجأ اليه ﴿وتلك القرى﴾ أى قرى عاد وثمود

وأضرابها وهى مبتدأ على تقدير المضاف أى وأهل تلك القرى خبره قوله تعالى ﴿أهلكناهم﴾ أو مفعول مضمر مفسر به ﴿لما ظلموا﴾ أى وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكى عنهم من القبائح وترك المفعول اما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أى لما فعلوا الظلم ولما اما حرف كما قال ابن عصفور واما ظرف استعمل للتعليل وليس المراد به الوقت المعين الذى عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم الى آخره ﴿وجعلنا لمهلكهم﴾ أى عينا لهلاكهم ﴿موعدا﴾ أى وقتا معينا لا يحيد لهم عن ذلك وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب وقرئ بضم الميم وفتح اللام أى اهلاكهم وبفتحهما ﴿واذ قال موسى﴾ نصب باضمار فعل أى اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لفتاه﴾ وهو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام سمى فتاه اذ كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يتعلم منه ويسمى التلميذ فتى وان كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل أمة موعدا تذكير ما فى القصة من موعد الملاقاة مع ما فيها من سائر المنافع الجليلة ﴿لا أبرح﴾ من برح الناقص كزال يزال أى لا أزال أسير فحذف الخبر اعتمادا على قرينة الحال اذ كان ذلك عند التوجه الى السفر واتكالا على ما يعقبه من قوله ﴿حتى أبلغ﴾ فان ذلك غاية تستدعى ذا غاية يؤدى اليها ويجوز أن يكون أصل الكلام لا يبرح مسيرى حاصلا حتى أبلغ فيحذف المضاف ويقام المضاف اليه مقامه فينقلب الضمير البارز المجرور المحل مرفوعا مستكنا والفعل من صيغة الغيبة الى التكلم ويجوز أن يكون من برح التام كزال يزول أى لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿مجمع البحرين﴾ هو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بارمينية وقيل افريقية وقرئ بكسر الميم لمشرق ﴿أو أمضى حقبا﴾ أسير زمانا طويلا أتيقن معه فوات المطلب والحقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط أمره الله عز وجل أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقالوا له من أعلم الناس قال أنا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه عز وجل فأوحى اليه بل أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين وهو الخضر عليه السلام وكان فى أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذى القرنين الاكبر وبقى الى أيام موسى وقيل ان موسى عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيثما فقدته فهو هناك فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان ﴿فلما بلغا﴾ الفاء فصيحة كما أشير اليه ﴿مجمع بينهما﴾ أى مجمع البحرين وبينهما ظرف أضيف اليه اتساعا أو بمعنى الوصل ﴿نسيا حوتهما﴾ الذى جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه وقيل نسى يوشع أن يقدمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشئ . روى أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التى لا يصيب ماؤها ميتا الا حيى وضعا رؤسهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام وقيل توضأ عليه السلام من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع فى الماء ﴿فاتخذ سبيله فى البحر سربا﴾ مسلكا كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام وانتصاب سربا على أنه مفعول ثان لاتخذ وفى البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ ﴿فلما جاوزا﴾ أى مجمع البحرين

الذى جعل موعدا للملاقاة قيل أدلجا وسارا الليلة والغد الى الظهر وألقى على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ أى ماتتغدى به وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا﴾ اشارة الى ماسارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نصبا﴾ تعبا واعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة فى محل التعليل للامر بايتاء الغداء اما باعتبار أن النصب انما يعترى بسبب الضعف الناشئ عن الجوع واما باعتبار ما فى أثناء التغدى من استراحة ما ﴿قال﴾ أى فتاه عليه السلام ﴿أرأيت اذ أوينا الى الصخرة﴾ أى التجأنا اليها وأقمنا عندها وذكر الاواء اليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فان المجمع محل متسع لايمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة اليه ولتمهيد العذر فان الاواء اليها والنوم عندها مما يؤدى الى النسيان عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ماشاهده من العظائم التى لاتكاد تنسى وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه اذا نابه خطب أرأيت مانابنى يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لايعهد وقوعه لااستخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف اعتمادا على مايدل عليه من قوله عز وجل ﴿فانى نسيت الحوت﴾ وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسى وايقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور باتيانه للتنبيه من أول الأمر على انه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وأن ماشاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة أى نسيت أن أذكر لك أمره وماشاهدت منه من الامور العجيبة ﴿وما أنسانيه الا الشيطان﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى ﴿أن أذكره﴾ بدل اشتمال من الضمير أى ما أنسانى أن أذكره لك وفى تعليق الانساء بضمير الحوت أولا وبذكره له ثانيا على طريق الابدال المنبئ عن تنحية المبدل منه اشارة الى أن متعلق النسيان أيضا ليس نفس الحوت بل ذكر أمره وقرئ أن أذكره وايثار أن أذكره على المصدر للمبالغة فان مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وان كانت غريبة لايعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها ﴿واتخذ سبيله فى البحر عجبا﴾ بيان لطرف من أمر الحوت منبئ عن طرف آخر منه ومابينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حيى واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف حال من أولهما أو ثانيهما أو هو المفعول الثانى وعجبا صفة مصدر محذوف أى اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالطاق والسرب أو مصدر فعل محذوف أى أتعجب منه عجبا وقد قيل انه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ذلك﴾ الذى ذكرت من أمر الحوت ﴿ما كنا نبغ﴾ وقرئ باثبات الياء والضمير العائد الى الموصول محذوف أصله نبغيه أى نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام ﴿فارتدا﴾ أى رجعا ﴿على آثارهما﴾ طريقهما الذى جاءا منه ﴿قصصا﴾ يقصان قصصا أى يتبعان آثارهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة ﴿فوجدا عبدا من عبادنا﴾ التنكير للتفخيم والاضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان وقيل اليسع وقيل الياس عليهم الصلاة والسلام ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ هى الوحى والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾ خاصا لايكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب ﴿قال له موسى﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من السياق كأنه قيل فماذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى ﴿هل أتبعك على أن تعلمن﴾ استئذانا منه فى اتباعه له على وجه التعلم ﴿مما علمت رشدا﴾ أى علما ذا رشد أرشد به فى دينى والرشد اصابة الخير وقرئ بفتحتين وهو

مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدى الى مفعول واحد ويجوز كونه علة لأتبعك أومصدرا باضمار فعله ولا ينافى نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من نبي آخر مالا تعلق له بأحكام شريعته من أسرار العلوم الخفية ولقد راعى فى سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام ﴿قال﴾ أى الخضر ﴿انك لن تستطيع معى صبرا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلله بقوله ﴿وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا﴾ ايذانا بأنه يتولى أمورا خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لاسيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها وفى صحيح البخارى قال الخضر ياموسى انى على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لاأعلمه وخبرا تمييز أى لم يحط به خبرك ﴿قال﴾ موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ستجدنى ان شاء الله صابرا﴾ معك غير معترض عليك وتوسيط الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر ﴿ولا أعصى لك أمرا﴾ عطف على صابرا أى ستجدنى صابرا وغير عاص وفى وعد هذا الوجدان من المبالغة ماليس فى الوعد بنفس الصبر وترك العصيان أوعلى ستجدنى فلا محل له من الاعراب والاول هو الاولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل على أن أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه وتعالى ﴿قال فان اتبعتنى﴾ اذن له فى الاتباع بعد اللتيا والتى والفاء لتفريع الشرطية على مامر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة ﴿فلا تسألنى عن شئ﴾ تشاهده من أفعالى أى لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض ﴿حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ أى حتى أبتدئ ببيانه وفيه ايذان بأن كل ماصدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرئ فلا تسألنى بالنون المثقلة ﴿فانطلقا﴾ أى موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام الى بنى اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلما أهلها فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ﴿حتى اذا ركبا فى السفينة﴾ استعمال الركوب فى أمثال هذه المواقع بكلمة فى مع تجريده عنها فى مثل قوله عز وجل لتركبوها وزينة على مايقتضيه تعديته بنفسه لما أشرنا اليه فى قوله تعالى وقال اركبوا فيها لا لما قيل من أن فى ركوبها معنى الدخول ﴿خرقها﴾ قيل خرقها بعد مالججوا حيث أخذ فأسا فقلع من ألواحها لوحين مما يلى الماء فعند ذلك ﴿قال﴾ موسى عليه السلام ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ من الاغراق وقرئ بالتشديد من التغريق وليغرق أهلها من الثلاثى ﴿لقد جئت﴾ أتيت وفعلت ﴿شيئا إمرا﴾ أى عظيما هائلا من أمر الامر اذا عظم قيل الأصل أمرا فخفف ﴿قال﴾ أى الخضر عليه السلام ﴿ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا﴾ تذكير لما قاله من قبل وتحقيق لمضمونه متضمن للانكار على عدم الوفاء بوعده ﴿قال لا تؤاخذنى بما نسيت﴾ بنسيانى أو بالذى نسيته أو بشئ نسيته وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ماصدر عنه من الافعال الخفية الأسباب قبل بيانه أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى كما ورد فى صحيح البخارى من أن الأول كان من موسى نسيانا أوأخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسى ليبسط عذره فى الانكار وهو من معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب مع التوصل الى الغرض أوأراد بالنسيان الترك أى لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿ولا ترهقنى﴾ أى لا تغشنى ولا تحملنى ﴿من أمرى﴾ وهو اتباعه اياه ﴿عسرا﴾ أى لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين ﴿فانطلقا﴾ الفاء فصيحة أى فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا ﴿حتى اذا لقيا غلاما فقتله﴾ قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان فقتل عنقه وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه فذبحه بالسكين ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿أقتلت نفسا زكية﴾

طاهرة من الذنوب وقرئ زاكية ﴿بغير نفس﴾ أى بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفى هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان لأنه الأقرب الى الوقوع نظرا الى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وابراز ماصدر عن موسى عليه الصلاة والسلام فى معرض الجزاء المقصود افادته مع أن الحقيق بذلك انما هو ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفس الى ورود خبرها لقلة وقوعها فى نفس الأمر وندرة وصول خبرها الى الاذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الاولى لما أن صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه الى ترقب أحوال موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع الى المناقشة كما مر فى المرة الاولى فكان المقصود افادة ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام ففعل مافعل ولله درشأن التنزيل وأما ماقيل من أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة فى الكلام فليس من دفع الشبهة فى شئ بل هو مؤيد لها فان كون القتل أقبح من مبادى قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره الى الاسماع وذلك مما يستدعى جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه أدخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل وذلك مما لا يقتضى جعله كذلك ﴿لقد جئت شيئا نكرا﴾ قيل معناه أنكر من الأول اذ لا يمكن تداركه كما يمكن تدارك الأول بالسد ونحوه وقيل الأمر أعظم من النكر لأن قتل نفس واحدة أهون من اغراق أهل السفينة ﴿قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا﴾ زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد فى التكير فى المرة الثانية ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ان سألتك عن شئ بعدها﴾ أى بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبنى﴾ وقرئ من الافعال أى لا تجعلنى صاحبك ﴿قد بلغت من لدنى عذرا﴾ أى قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا حيث خالفتك ثلاث مرات عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى موسى استحيى فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب وقرئ لدنى بتخفيف النون وقرئ بسكون الدال كعضد فى عضد ﴿فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية﴾ هى أنطاكية وقيل أيلة وهى أبعد أرض الله من السماء وقيل هى برقة وقيل بلدة بأندلس عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التى لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه وقوله تعالى ﴿استطعما أهلها﴾ فى محل الجر على أنه صفة لقرية ولعل العدول عن استطعامهم على أن يكون صفة للاهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فان الاباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع روى أنهما طافا فى القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾ بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الاضافة يقال ضافه اذا كان له ضيفا وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفا له وحقيقة ضاف مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار ﴿فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض﴾ أى يدانى أن يسقط فاستعيرت الارادة للمشارفة للدلالة على المبالغة فى ذلك والانقضاض الاسراع فى السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ أن ينقض من النقض وأن ينقاص من انقاصت السن اذا انشقت طولا ﴿فأقامه﴾ قيل مسحه بيده فقام وقيل نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾ تحريضا له على أخذ الجعل لينتعشا به أو تعريضا بأنه فضول لما فى لوم من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر

واتخذ افتعل من تخذ بمعنى أخذ كاتبع من تبع وليس من الاخذ عند البصريين وقرئ لتخذت أى لأخذت وقرئ بادغام الذال فى التاء ﴿قال﴾ أى الخضر عليه الصلاة والسلام ﴿هذا فراق بينى وبينك﴾ على اضافة المصدر الى الظرف اتساعا وقد قرئ على الأصل والمشار اليه اما نفس الفراق كما فى هذا أخوك أو الوقت الحاضر أى هذا الوقت وقت فراق بينى وبينك أو السؤال الثالث أى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود ﴿سأنبئك﴾ السين للتأكيد لعدم تراخى التنبئة ﴿بتأويل مالم تستطع عليه صبرا﴾ التأويل رجع الشئ الى مآله والمراد به هنا المآل والعاقبة اذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل مافعلت أو بتأويل مارأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب ﴿أما السفينة﴾ التى خرقتها ﴿فكانت لمساكين﴾ لضعفاء لايقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة أخوة خمسة منهم زمنى وخمسة ﴿يعملون فى البحر﴾ واسناد العمل الى الكل حينئذ انما هو بطريق التغليب أو لان عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أى أجعلها ذات عيب ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أى أمامهم وقد قرئ به أو خلفهم وكان رجوعهم عليه لامحالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة بن جلندى الازدى ﴿يأخذ كل سفينة﴾ أى صالحة وقد قرئ كذلك ﴿غصبا﴾ من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الاخذ ولعل تفريع ارادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب مع أن مدارها كلا الأمرين للاعتناء بشأنها اذ هى المحتاجة الى التأويل وللايذان بأن الاقوى فى المدارية هو الامر الأول ولذلك لايبالى بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب فى حقهم أيضا ولان فى التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه الى الاقرب ﴿وأما الغلام﴾ الذى قتلته ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ لم يصرح بكفرانه أو بكفره اشعارا بعدم الحاجة الى الذكر لظهوره ﴿فخشينا أن يرهقهما﴾ فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين ﴿طغيانا﴾ عليهما ﴿وكفرا﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء أو يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وانما خشى الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لان الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وقرئ فخاف ربك أى كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره ويجوز أن تكون القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى لأهب لك ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا﴾ منه بأن يرزقهما بدله ولدا خيرا ﴿منه﴾ وفى التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما مالايخفى من الدلالة على ارادة وصول الخير اليهما ﴿زكوة﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وأقرب رحما﴾ أى رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا هدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما وقرئ يبدلهما بالتشديد وقرئ رحما بضم الحاء أيضا وانتصابه على التمييز مثل زكوة ﴿وأما الجدار﴾ المعهود ﴿فكان لغلامين يتيمين فى المدينة﴾ هى القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لاظهار نوع اعتداد بها باعتداد مافيها من اليتيمين وأبيهما الصالح قيل اسماهما اصرم وصريم واسم المقتول جيسور ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ من فضة وذهب كما روى مرفوعا والذم على كنزهما فى قوله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لايؤدى زكاتهما وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم ﴿وكان أبوهما صالحا﴾ تنبيه على أن سعيه فى ذلك كان لصلاحه قيل كان

بينهما وبين الاب الذى حفظا فيه سبعة آباء ﴿فأراد ربك﴾ أى مالكك ومدبر أمورك ففى اضافة الرب الى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لارادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة ﴿أن يبلغا أشدهما﴾ أى حلمهما وكمال رأيهما ﴿ويستخرجا بالكلية كنزهما﴾ من تحت الجدار ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع ﴿رحمة من ربك﴾ مصدر فى موقع الحال أى مرحومين منه عز وجل أو مفعول له أو مصدر مؤكد لأراد فان ارادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر أى فعلت مافعلت من الأمور التى شاهدتها رحمة من ربك ويعضده اضافة الرب الى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا ﴿وما فعلته عن أمرى﴾ أى عن رأيى واجتهادى تأكيد لذلك ﴿ذلك﴾ اشارة الى العواقب المنظومة فى سلك البيان ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها فى الفخامة ﴿تأويل مالم تسطع﴾ أى لم تستطع فحذف التاء للتخفيف ﴿عليه صبرا﴾ من الأمور التى رأيته أى مآله وعاقبته فيكون انجازا للتنبئة الموعودة أو الى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم وفى جعل الصلة عين مامر تكرير للتنكير وتشديد للعتاب (تنبيه) اختلفوا فى حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل انه حى وسببه انه كان على مقدمة ذى القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا والياس أيضا فى الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل انه ميت لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى العشاء ذات ليلة ثم قال أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة منها لايبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعد مائة عام . روى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال له أوصنى قال لاتطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به ﴿ويسألونك عن ذى القرنين﴾ هم اليهود سألوه على وجه الامتحان أو سأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك الى ورود الجواب وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الاسكندر بن فيلفوس اليونانى وقال ابن اسحق اسمه مرزبان بن مردبه من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان اسود وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن فينان بن منصور بن عبد الله بن الآزر بن عون بن زيد بن كهلان ابن سبا بن يعرب بن قحطان وقال السهيلى قيل ان اسمه مرزبان بن مدركة ذكره بن هشام وهو أول التبابعة وقيل انه أفريذون ابن النعمان الذى قتل الضحاك وذكر أبو الريحان البيروتى فى كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أن ذا القرنين هو أبو كرب سمى بن عيرين بن أفريقيس الحميرى وأن ملكه بلغ مشارق الارض ومغاربها وهو الذى افتخر به التبع اليمانى حيث قال

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب أمر من حكيم مرشد

وجعل هذا القول أقرب لان الاذواء كانوا من اليمن كذى المنار وذى نواس وذى النون وذى رعين وذى يزن وذى جدن قال الامام الرازى والاول هو الاظهر لان من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التى نطق بها التنزيل الجليل انما هو الاسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التواريخ يروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم أمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشأم وقصد بنى اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف الى أرمينية وباب الأبواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارا الى أن قتله صاحب حرسه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند

وفتحه وبنى مدينة سرنديب وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خرسان وبنى بها مدائن كثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات انتهى كلام الامام وروى أن أهل النجوم قالوا له انك لاتموت الاعلى أرض من حديد وتحت سماء من خشب وكان يدفن كنز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فأظلوه بترس فنظر فقال هذه أرض من حديد وسماء من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب وأغرب منه ماقاله ابن عساكر من أنه بلغنى أنه عاش ستا وثلاثين سنة أوثنتين وثلاثين سنة وأنه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فان ذلك لاينطبق الا على ذى القرنين الثانى كما سنذكره قلت وكذا ماذكره الامام من قصد بنى اسرائيل وورود بيت المقدس والذبح فى مذبحه فانه مما لايكاد يتأتى نسبته الى الأول واختلف فى نبوته بعد الاتفاق على اسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى انا مكنا له فى الارض وظاهر أنه متناول للتمكين فى الدين وكماله بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شىء سببا ومن جملة الأشياء النبوة ولقوله تعالى قلنا ياذا القرنين ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة قال ابن كثير والصحيح أنه ماكان نبيا ولا ملكا وانما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وأنه كان داعيا الى الله تعالى سائرا فى الخلق بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقى وغيره أنه أسلم على يدى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو واسماعيل عليهم السلام وروى أنه حج ماشيا فلما سمع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا ويقال أنه أتى بفرس ليركب فقال لا أركب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له الاسباب وبشره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره وجميع آلاتهم اذا أرادوا غزو قوم وقال أبو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهه أكان نبيا أم ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا لكن كان عبدا أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه سخر له السحاب ومد له الاسباب واختلف فى وجه تسميته بذى القرنين فقيل لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لأنه ملك الروم وفارس وقيل الروم والترك وقيل لأنه كان فى رأسه أو فى تاجه مايشبه القرنين وقيل لأنه كان له ذؤابتان وقيل لأنه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لأنه دعا الناس الى الله عز وجل فضرب بقرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى وقيل لأنه رأى فى منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرنى الشمس وقيل لأنه انقرض فى عهده قرنان وقيل لأنه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته هذا وأما ذو القرنين الثانى فقد قال ابن كثير أنه الاسكندر بن فيليس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان ابن يافث بن نونه بن شرخون بن رومية بن ثونط بن نوفيل بن رومى بن الاصفر بن العيز بن العيص بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام كذا نسبه ابن عساكر المقدونى اليونانى المصرى بانى الاسكندرية الذى يؤرخ بايامه الروم وكان متأخرا عن الأول بدهر طويل أكثر من ألفى سنة كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وهو الذى قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس ووطىء أرضهم ثم قال ابن كثير وانما بينا هذا لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والأول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا وزيره الخضر عليه الصلاة والسلام وقد قيل

انه كان نبيا وأما الثانى فقد كان كافرا ووزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وقد كان مابينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة فأين هذا من ذاك انتهى قلت المقدونى نسبة الى بلدة من بلاد الروم غربى دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لازالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما أونحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين مقدونيا كانت سرير ملك هذا الاسكندر وهى اليوم بلقع لايقيم بها أحد ولكن فيها علائم تحكى كمال عظمها فى عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانها ولقد مررت بها عند القفول من بعض المغازى السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الآثار مافيه عبرة لأولى الابصار ﴿قل﴾ لهم فى الجواب ﴿سأتلو عليكم﴾ أى سأذكر لكم ﴿منه﴾ أى من ذى القرنين ﴿ذكرا﴾ أى نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحى المتلو حكاية عن جهة الله عز وجل قيل سأتلو أو سأتلو فى شأنه من جهته تعالى ذكرا أى قرآنا والسين للتأكيد والدلالة على التحقيق المناسب لمقام تأييده عليه الصلاة والسلام وتصديقه بانجاز وعده أى لا أترك التلاوة البتة كما فى قول من قال

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى أيادى لم تمنن وان هى جلت

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لان هذه الآية مانزلت بانفرادها قبل الوحى بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام ائتونى غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما أو أربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل ﴿انا مكنا له فى الأرض﴾ شروع فى تلاوة الذكر المعهود حسبما هو الموعود والتمكين ههنا الاقدار وتمهيد الأسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى الأول جعله قادرا وقويا ومعنى الثانى جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما فى الوجود وتقاربهما فى المعنى يستعمل كل منهما فى محل الآخر كما فى قوله عز وعلا مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم أى جعلناهم قادرين من حيث القوى والأسباب والآلات على أنواع التصرفات فيها مالم نجعله لكم من القوة والسعة فى المال والاستظهار بالعدد والأسباب فكأنه قيل مالم نمكنكم فيها أى مالم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكنا لهم فى الأرض مالم نمكن لكم وهكذا اذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه أصلية كما أشير اليه فى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى انا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى والأسباب حيث سخر له السحاب ومد له فى الأسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الأرض وذللت له طرقها ﴿وآتيناه من كل شىء﴾ أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿سببا﴾ أى طريقا يوصله اليه وهو كل مايتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ﴿فأتبع﴾ بالقطع أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع ﴿سببا﴾ يوصله اليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة الشمسية وقرىء فاتبع من الافتعال والفرق أن الأول فيه معنى الادراك والاسراع دون الثانى ﴿حتى اذا بلغ مغرب الشمس﴾ أى منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لايتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الأطوال على أحد القولين ﴿وجدها﴾ أى الشمس ﴿تغرب فى عين حمئة﴾ أى ذات حمأة وهى الطين الاسود من حمئت البئر اذا كثرت حمأتها وقرىء حامية أى حارة روى أن معاوية رضى الله عنه قرأ حامية وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون اليـاء فى

الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ماقبلها وأما رجوع معاوية الى قول ابن عباس رضى الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضا مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك اذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى وجدها تغرب ﴿ و وجد عندها ﴾ عند تلك العين ﴿ قوما ﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم مالفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم الى الايمان وذلك قوله تعالى ﴿ قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب ﴾ بالقتل من أول الأمر ﴿ واما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ أى أمرا ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة اطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة الى الاسلام والارشاد الى الشرائع ومحل أن مع صلته اما الرفع على الابتداء أو الخبرية واما النصب على المفعولية أى اما تعذيبك واقع أو اما أمرك تعذيبك أو اما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر أو كان ذلك الهاما لا وحيا بعد أن كان ذلك التخيير موافقا لشريعة ذلك النبى ﴿ قال ﴾ أى ذو القرنين لذلك النبى أو لمن عنده من خواصه بعدما تلقى أمره تعالى مختارا للشق الأخير ﴿ أما من ظلم ﴾ أى نفسه ولم يقبل دعوتى وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بالقتل وعن قتادة أنه كان يطبخ من كفر فى القدور ومن آمن أعطاه وكساه ﴿ ثم يرد الى ربه ﴾ فى الآخرة ﴿ فيعذبه ﴾ فيها ﴿ عذابا نكرا ﴾ أى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحى اليه وأن مقاولته كانت مع النبى أو مع من عنده من أهل مشورته ﴿ وأما من آمن ﴾ بموجب دعوتى ﴿ وعمل ﴾ عملا ﴿ صالحا ﴾ حسبما يقتضيه الايمان ﴿ فله ﴾ فى الدارين ﴿ جزاء الحسنى ﴾ أى فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدأ اعتناء به أو منصوب بمضمر أى نجزى بها جزاء والجملة حالية أو معترضة بين المبتدأ والخبر المتقدم عليه أو حال أى مجزيا بها أو تمييز وقرئ منصوبا غير منون على أنه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين ومرفوعا منونا على أنه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والأسر والجواب من باب الأسلوب الحكيم لأن الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال أما الكافر فيراعى فى حقه قوة الاسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له الا بما يجب ويجوز أن تكون اما واما للتوزيع دون التخيير أى وليكن شأنك معهم اما التعذيب واما الاحسان فالأول لمن بقى على حاله والثانى لمن تاب ﴿ وسنقول له من أمرنا ﴾ أى مما نأمر به ﴿ يسرا ﴾ أى سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر أو أطلق عليه المصدر مبالغة وقرئ بضمتين ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أى طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا الى مشرقها ﴿ حتى اذا بلغ مطلع الشمس ﴾ يعنى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الأرض وقرئ بفتح اللام على تقدير مضاف أى مكان طلوع الشمس فانه مصدر قيل بلغه فى اثنتى عشرة سنة وقيل فى أقل من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سخر له السحاب وطوى له الأسباب ﴿ وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ﴾ من اللباس والبناء قيل هم الزنج وعن كعب أن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فاذا طلعت الشمس دخلوا الاسراب أو البحر فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الاخرى ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء اذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا الى البحر يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد

من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض ﴿ كذلك ﴾ أى أمر ذى القرنين كما وصفناه لك فى رفعة المحل وبسطة الملك أو أمره فيهم كأمره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو نجعل أو صفة قوم أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم أو سترا مثل ستركم من اللباس والاكنان والجبال وغير ذلك ﴿ وقد أحطنا بما لديه ﴾ من الاسباب والعدد والعدد ﴿ خبرا ﴾ يعنى أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير هذا على الوجه الاول وأما على الوجوه الباقية فالمراد بما لديه ما يتناول ما جرى عليه وما صدر عنه وما لاقاه فتأمل ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب الى الشمال ﴿ حتى اذا بلغ بين السدين ﴾ بين الجبلين الذين سد ما بينهما وهو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان كما توهم وقرئ بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لانه مبلوغ وهو من الظروف التى تستعمل أسماء أيضا كما ارتفع فى قوله تعالى لقد تقطع بينكم وانجر فى قوله تعالى هذا فراق بينى وبينك ﴿ وجد من دونهما ﴾ أى من ورائهما مجاوزا عنهما ﴿ قوما ﴾ أى أمة من الناس ﴿ لا يكادون يفقهون قولا ﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرئ من باب الافعال أى لايفهمون السامع كلامهم واختلفوا فى أنهم من أى الاقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدى الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على احدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك لأنهم تركوا خارجين قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج ﴿ قالوا ﴾ أى بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهم ذى القرنين كلامهم وافهام كلامه اياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الاسباب ﴿ ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج ﴾ قد ذكرنا أنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لا يزيد قدهم على شبر واحد وقيل فى نهاية عظم الجسم وطول القامة تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب وأضراس كالسباع وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم اذا أسرع وأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وقد قرئ بغير همزة ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث ﴿ مفسدون فى الارض ﴾ أى فى أرضنا بالقتل والتخريب واتلاف الزروع قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس أيضا ﴿ فهل نجعل لك خرجا ﴾ أى جعلا من أموالنا والفاء لتفريع العرض على افسادهم فى الارض وقرئ خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الارض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه ﴿ على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ﴾ وقرئ بالضم ﴿ قال ما مكنى ﴾ بالادغام وقرئ بالفك أى ما مكننى ﴿ فيه ربى ﴾ وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الاسباب ﴿ خير ﴾ أى مما تريدون أن تبذلوه الى من الخرج فلا حاجة بى اليه ﴿ فأعينونى بقوة ﴾ أى بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبآلات لابد منها فى البناء والفاء لتفريع الامر بالاعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم ﴿ أجعل ﴾ جواب للامر ﴿ بينكم وبينهم ﴾ تقديم اضافة الظرف الى ضمير المخاطبين على اضافته الى ضمير يأجوج ومأجوج لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه فى قولهم

بيننا وبينهم ﴿ردما﴾ أى حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم أى فيه رقاع فوق رقاع وهذا اسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه ﴿آتونى زبر الحديد﴾ جمع زبرة كغرف فى غرفة وهى القطعة الكبيرة وهذا لا ينافى رد خراجهم لان المأمور به الايتاء بالثمن أو المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوصل الهمزة أى جيئونى بزبر الحديد على حذف الباء كما فى أمرتك الخير ولان ايتاء الآلة من قبيل الاعانة بالقوة دون الخراج على العمل ولعل تخصيص الامر بالايتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما أن الحاجة اليها أمس اذ هى الركن فى السد ووجودها أعز قيل حفر للاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا ﴿حتى اذا ساوى بين الصدفين﴾ أى أتوه اياها فأخذ يبنى شيئاً فشيئاً حتى اذا جعل ما بين ناحيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السمك على النهج المحكى قيل كان ارتفاعه مائتى ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرئ سوى من التسوية وسووى على البناء للمجهول ﴿قال﴾ للعملة ﴿انفخوا﴾ أى بالكيران فى الحديد المبنى ففعلوا ﴿حتى اذا جعله﴾ أى المنفوخ فيه ﴿نارا﴾ أى كالنار فى الحرارة والهيئة واسناد الجعل المذكور الى ذى القرنين مع انه فعل الفعلة للتنبيه على أنه العمدة فى ذلك وهم بمنزلة الآلة ﴿قال﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الاذابة ونحوها ﴿آتونى أفرغ عليه قطرا﴾ أى آتونى قطرا أى نحاسا مذابا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وقرئ بالوصل أى جيئونى كأنه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ واسناد الافراغ الى نفسه للسر الذى وقفت عليه آنفا وكذا الكلام فى قوله تعالى ساوى وقوله تعالى أجعل ﴿فما اسطاعوا﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفا وحذرا عن تلاقى المتقاربين وقرئ بالادغام وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرئ بقلب السين صادا والفاء فصيحة أى فعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الاتيان فأفرغه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما استطاعوا ﴿أن يظهروه﴾ أى يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نقبا﴾ لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لأن تلك الزبر الكثيرة اذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر الحيوان على أن يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها الى أن تكون كالنار أو عن افراغ القطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للاعمال فكان ما كان والله على كل شئ قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب فى تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة أصلا ﴿قال﴾ أى ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم ﴿هذا﴾ اشارة الى السد وقيل الى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم أى هذا الذى ظهر على يدى وحصل بمباشرتى من السد الذى شأنه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال ﴿رحمة﴾ أى أثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة ﴿من ربى﴾ على كافة العباد لا سيما على مجاوريه وفيه ايذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو احسان الهى محض وان ظهر بمباشرتى والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة ﴿فاذا جاء وعد ربى﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل اذ لا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئه ومجئ مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك لا دنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الامور التى ستحكى تقع بعد مجيئه حتما ﴿جعله﴾ أى السد المشار اليه مع متانته ورصانته وفيه من الجزالة ما ليس فى توجيه الاشارة السابقة الى التمكين المذكور ﴿دكاء﴾ أى أرضا مستوية وقرئ دكا أى مدكوكا مسوى بالأرض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك أى المنبسط السنام

وهذا الجعل وقت مجئ الوعد بمجئ بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته ﴿وكان وعد ربى﴾ أى وعده المعهود أو كل ما وعد به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا ﴿حقا﴾ ثابتا لا محالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذى القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونها وهو آخر ما حكى من قصته وقوله عز وجل ﴿وتركنا بعضهم﴾ كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكاء ومحقق لمضمونه أى جعلنا بعض الخلائق ﴿يومئذ﴾ أى يوم اذ جاء الوعد بمجئ بعض مباديه ﴿يموج فى بعض﴾ آخر منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط انسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الأولى أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين فى البلاد روى أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا فى أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم فى البحر ثم يرسل مطرا يغسل الأرض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال ﴿ونفخ فى الصور﴾ هى النفخة الثانية بقضية الفاء فى قوله تعالى ﴿فجمعناهم﴾ ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ولئلا يقع الفصل بين ما يقع فى النشأة الأولى من الاحوال والاهوال وبين ما يقع منها فى النشأة الآخرة أى جمعنا الخلائق بعدما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء ﴿جمعا﴾ أى جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه ﴿وعرضنا جهنم﴾ أى أظهرناها وأبرزناها ﴿يومئذ﴾ أى يوم اذ جمعنا الخلائق كافة ﴿للكافرين﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا ﴿عرضا﴾ أى عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع انها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لأن ذلك لاجلهم خاصة ﴿الذين كانت أعينهم﴾ وهم فى الدنيا ﴿فى غطاء﴾ كثيف وغشاوة غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب ﴿عن ذكرى﴾ عن الآيات المؤدية لأولى الأبصار المتدبرين فيها الى ذكرى بالتوحيد والتمجيد أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى أو عن القرآن الكريم ﴿وكانوا﴾ مع ذلك ﴿لا يستطيعون﴾ لفرط تصامهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿سمعا﴾ استماعا لذكرى وكلامى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لاعراضهم عن الأدلة السمعية كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جئ به لذمهم بما فى حيز الصلة وللاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك انما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها أسبابا منجية عما ابتلوا به فى الآخرة ﴿أفحسب الذين كفروا﴾ أى كفروا بى كما يعرب عنه قوله تعالى عبادى والحسبان بمعنى الظن وقد قرئ أفظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما فى قولك أضربت أباك لا انكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ الى المعطوفين جميعا كما اذا قدر المعطوف عليه فى قوله تعالى أفلا تعقلون منفيا أى ألا تسمعون فلا تعقلون لا الى المعطوف فقط كما اذا قدر مثبتا أى أتسمعون فلا تعقلون والمعنى أكفروا بى مع جلالة شأنى فحسبوا ﴿أن يتخذوا عبادى من دونى﴾ من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطانى وملكوتى ﴿أولياء﴾ معبودين ينصرونهم من بأسى وما قيل انها للعطف على ما قبلها من قوله تعالى كانت الخ وكانوا الخ دلالة على أن الحسبان ناشئ من التعامى والتصام وأدخل عليها همزة الانكار ذما على ذم وقطعا

له عن المعطوف عليهما لفظا لا معنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الاضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامى والتصام على أنهما أخرجا مخرج الاحوال الجبلية لهم ولم يذكروا من حيث أنهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة بحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما وأيضا فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى وما فى حيز صلة أن ساد مسد مفعولى حسب كما فى قوله تعالى وحسبوا أن لا تكون فتنة أى أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياء على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ فى شىء لما أنه انما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثانى محذوف أى أفحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الاول لان فى هذا تسليما لنفس الاتخاذ واعتدادا به فى الجملة وقرىء أفحسب الذين كفروا أى أفحسبهم وكافيهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل فى العمل فالهمزة حينئذ بمعنى انكار الوقوع ﴿انا أعتدنا جهنم﴾ أى هيأناها ﴿للكافرين﴾ المعهودين عدل عن الاضمار ذما لهم واشعارا بأن ذلك الاعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل ﴿نزلا﴾ أى شيئا يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل أى الضيف مما حضر من الطعام وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم أولياء من قبيل اعتاد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل انا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لانفسهم من العدة والذخر جهنم عدة وفى ايراد النزل ايماء الى أن لهم وراء جهنم من العذاب ماهو أنموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى ﴿قل هل ننبئكم﴾ الخطاب الثانى للكفرة على وجه التوبيخ والجمع فى صيغة المتكلم لتعيينه من أول الامر وللايذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضا ﴿بالأخسرين أعمالا﴾ نصب على التمييز والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ماصدر عنهم من الاعمال الحسنة فى أنفسها وفى حسبانهم أيضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيئة فى أنفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم ﴿الذين ضل سعيهم﴾ فى اقامة تلك الاعمال أى ضاع وبطل بالكلية ﴿فى الحيوة الدنيا﴾ متعلق بالسعى لا بالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم أهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن أبى وقاص ومجاهد رضى الله عنهم ويدخل فى الاعمال حينئذ ما عملوه من الاحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين يحبسون أنفسهم فى الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة ولعله ما يعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف لانه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على أنه نعت للاخسرين أو بدل منه أو منصوبا على الذم على أن الجواب ماسيأتى من قوله تعالى أولئك الآية يأباه أن صدره ليس منبئا عن خسران الاعمال وضلال السعى كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الاول وان دل على حبوطها لكنه ساكت عن انباء ما هو العمدة فى تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على أن التفريع الثانى مما يقطع ذلك الاحتمال رأسا اذ لا مجال لادراجه تحت الامر بقضية نون العظمة ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى أى يحسبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لاعجابهم بأعمالهم التى سعوا فى اقامتها وكابدوا فى تحصيلها والجملة حال من فاعل ضل أى بطل سعيهم المذكور والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون فى ذلك وينتفعون بآثاره أو من المضاف اليه لكونه فى محل الرفع نحو قوله تعالى اليه مرجعكم جميعا أى بطل سعيهم والحال أنهم الخ والفرق بينهما أن المقارن لحال حسبانهم المذكور فى الأول ضلال سعيهم وفى الثانى نفس سعيهم والأول

أدخل فى بيان خطائهم ﴿أولئك﴾ كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير داخل تحت الأمر أى أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى مع الحسبان المزبور ﴿الذين كفروا بآيات ربهم﴾ بدلائله الداعية الى التوحيد عقلا ونقلا والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم فى الكفر المذكور ﴿ولقائه﴾ بالبعث ومايتبعه من أمور الآخرة على ماهى عليه ﴿فحبطت﴾ لذلك ﴿أعمالهم﴾ المعهودة حبوطا كليا ﴿فلا نقيم لهم﴾ أى لاولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمال وقرىء بالياء ﴿يوم القيامة وزنا﴾ أى فنزدريهم ولانجعل لهم مقدارا واعتبارا لأن مداره الأعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الأعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما ماهو من أجزية الكفر فسيجىء بعد ذلك أو لانضع لأجل وزن أعمالهم ميزانا لانه انما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير أوعدمه لأن ذلك فى الموحدين بطريق الكمية وأما الكفر فاحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعا ﴿ذلك﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان مآل أعمالهم المحبطة بذلك أى الأمر ذلك وقوله عز وجل ﴿جزاؤهم جهنم﴾ جملة مبينة له أو ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أى جزاؤهم به أو جزاؤهم بدله وجهنم خبره أو جزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر ﴿بما كفروا﴾ تصريح بأن ماذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى أنبأ عنها قوله تعالى ﴿واتخذوا آياتى ورسلى هزوا﴾ أى مهزوا بهما فانهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضا ﴿ان الذين آمنوا﴾ بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة اثر بيان مآلهم بطريق الوعيد أى آمنوا بآيات ربهم ولقائه ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأعمال ﴿كانت لهم﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده وفيه ايماء الى أن أثر الرحمة يصل اليهم بمقتضى الرأفة الازلية بخلاف مامر من جعل جهنم للكافرين نزلا فانه بموجب ماحدث من سوء اختيارهم ﴿جنات الفردوس﴾ عن مجاهد ان الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك هو الجنة الملتفة الأشجار وقيل هى الجنة التى تنبت ضروبا من النبات وقيل هى الجنة من الكرم خاصة وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والاغلب عليه أن يكون من العنب وعن كعب أنه ليس فى الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة مائة درجة مابين كل درجة مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها وفيها الأنهار الأربعة فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة ﴿نزلا﴾ خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من نزلا أو على أنه بيان أو حال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فان جعل النزول بمعنى مايهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا أو جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة فى الاكرام وفيه ايذان بأنها عند ماأعد الله لهم على ماجرى على لسان النبوة من قوله أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة الى الضيافة وان جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر ﴿خالدين فيها﴾ نصب على الحالية ﴿لا يبغون عنها حولا﴾ مصدر كالعوج والصغر أى لايطلبون تحولا عنها اذ لايتصور أن يكون شىء أعز عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم اليه أنفسهم وتطمح نحوه أبصارهم ويجوز أن يراد نفى التحول وتأكيد الخلود والجملة حال من صاحب خالدين أو من ضميره فيه فيكون حالا متداخلة ﴿قل لو كان البحر﴾ أى جنس البحر ﴿مدادا﴾ وهو ماتمد به الدواة من الحبر ﴿لكلمات ربى﴾ لتحرير كلمات علمه وحكمته

التى من جملتها ماذكر من الآيات الداعية الى التوحيد المحذرة من الاشراك ﴿لنفد البحر﴾ مع كثرته ولم يبق منه شىء لتناهيه ﴿قبل أن تنفد﴾ وقرىء بالياء والمعنى من غير أن تنفد ﴿كلمات ربى﴾ لعدم تناهيها فلادلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر و فى اضافة الكلمات الى اسم الرب المضاف الى ضميره صلى الله عليه وسلم فى الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف اليه مالايخفى واظهار البحر والكلمات فى موضع الاضمار لزيادة التقرير ﴿ولوجئنا﴾ كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن جىء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أى لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لولم نجىء بمثله مددا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة ﴿بمثله مددا﴾ عونا و زيادة لأن مجموع المتناهيين متناه بل مجموع مايدخل تحت الوجود من الاجسام لايكون الامتناهيا لقيام الأدلة القاطعة على تناهى الابعاد وقرىء مددا جمع مدة وهى مايستمده الكاتب وقرىء مدادا ﴿قل﴾ لهم بعد مابينت لهم شأن كلماته تعالى ﴿انما أنا بشر مثلكم﴾ لاأدعى الاحاطة بكلماته التامة ﴿يوحى الى﴾ من تلك الكلمات ﴿أنما الهكم اله واحد﴾ لاشريك له فى الخلق ولافى سائر أحكام الالوهية وانما تميزت عنكم بذلك ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل والمراد بلقائه تعالى كرامته وادخال الماضى على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء أى فمن استمر على رجاء كرامته تعالى ﴿فليعمل﴾ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة ﴿عملا صالحا﴾ فى نفسه لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ اشراكا جليا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه و لااشراكا خفيا كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجرا وايثار وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللاشعار بعلية العنوان للامر والنهى ووجوب الامتثال فعلا وتركا . روى أن جندب ابن زهير رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه سرنى فقال عليه الصلاة والسلام ان الله لايقبل ماشورك فيه فنزلت تصديقا له وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وعنه عليه السلام اتقوا الشرك الأصغر قيل وما الشرك الأصغر قال الرياء . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى الخ كان له من مضجعه نورا يتلألأ الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام

سورة مريم عليها السلام

(مكية الا آية السجدة وهى ثمان أوتسع وتسعون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿كهيعص﴾ بامالة الهاء والياء واظهار الدال وقرىء بفتح الهاء وامالة الياء و بتفخيمهما و باخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقدسلف أن مالايكون من هذه الفواتح مفردة و لاموازنة لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء للسور أومسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لكونه مغتفرا فى باب الوقف قطعا

فحق هذه الفاتحة الكريمة أن يوقف عليها جريا على الأصل وقرىء بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج فان جعلت اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع اما على انه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا كهيعص أى مسمى به وانما صحت الاشارة اليه مع عدم جريان ذكره لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا مااشترى فلان أوعلى أنه مبتدأ خبره ﴿ذكر رحمة ربك﴾ أى المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ماانطوت هى عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والأول هو الاولى لأن مايجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذلا علم بالتسمية من قبل فحقها الاخبار بها كما فى الوجه الأول وان جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه أهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدا محذوف هو مابنىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مرادا به السورة ذكر الرحمة الخ أواسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها أى هذا ذكر رحمة الخ وقيل هومبتدأ قد حذف خبره أى فيما يتلى عليك ذكرها وقرىء ذكر رحمة ربك على صيغة الماضى من التذكير أى هذا المتلو ذكرها وقرىء ذكر على صيغة الأمر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بأن تنزيل السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى ﴿عبده﴾ مفعول لرحمة ربك على أنها مفعول لما أضيف اليها وقيل للذكر على أنه مصدر أضيف الى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان أى بلغنى وقوله عز وعلا ﴿زكريا﴾ بدل منه أو عطف بيان له ﴿اذ نادى ربه نداء خفيا﴾ ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على أنه مضاف الى فاعله اتساعا لا على الوجه الاول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما فى قوله واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الادب فى اخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبة اليه عز وجل كالجهر أدخل فى الاخلاص وأبعد من الرياء وأقرب الى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مباد لا يليق به تعاطيها فى أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل ثمانين وقيل أكثر منها كما مر فى تفسير سورة آل عمران ﴿قال﴾ جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الاعراب ﴿رب انى وهن العظم منى﴾ اسناد الوهن الى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فاذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله أو لانه أشد أجزائه صلابة وقواما وأقلها تأثرا من العلل فاذا وهن كان ما وراءه أوهن وافراده للقصد الى الجنس المنبىء عن شمول الوهن لكل فرد من أفراده ومنى متعلق بمحذوف هو حال من العظم وقرىء وهن بكسر الهاء و بضمها أيضا وتأكيد الجملة لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ شبه عليه الصلاة والسلام الشيب فى البياض والانارة بشواظ النار وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال الى محل الشعر ومنبته وأخرجه مخرج التمييز وأطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لايخفى حيث كان الاصل اشتعل شيب رأسى فأسند الاشتعال الى الرأس كما ذكر لافادة شموله لكلها فان وزانه بالنسبة الى الاصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة الى اشتعل النار فى بيته ولزيادة تقريره بالاجمال أولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرىء بادغام السين فى الشين ﴿ولم أكن بدعائك رب شقيا﴾ أى ولم أكن بدعائى اياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لى والجملة معطوفة على ما قبلها أو حال من ضمير المتكلم اذ المعنى واشتعل رأسى شيبا وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل

دعوة اثر تمهيد ما يستدعى الرحمة و يستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى بعد ما عود عبده بالاجابة دهرا طويلا لا يكاد يخيبه أبدا لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن اضافة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسيطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الاجابة بالمبالغة فى التضرع ولذلك قيل اذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته ﴿وانى خفت الموالى﴾ عطف على قوله تعالى انى وهن العظم مترتب مضمونه على مضمونه فان ضعف القوى وكبر السن من مبادى خوفه عليه السلام من يلى أمره بعد موته ومواليه بنو عمه وكانوا أشرار بنى اسرائيل فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته و يبدلوا عليهم دينهم وقوله ﴿من ورائى﴾ أى بعد موتى متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن أى فعل الموالى من بعدى أو جور الموالى وقد قرى• كذلك أو بما فى الموالى من معنى الولاية أى خفت الذين يلون الامر من ورائى لا بخفت لفساد المعنى وقرى• وراى بالقصر وفتح الياء وقرى• خفت الموالى من ورائى أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمور الدين بعدى أو خفت الموالى القادرون على اقامة مراسم الملة ومصالح الامة من خف القوم أى ارتحلوا مسرعين أى درجوا قدامى ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فالظرف حينئذ متعلق بخفت ﴿وكانت امرأتى عاقرا﴾ أى لا تلد من حين شبابها ﴿فهب لى من لدنك﴾ كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنيهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا وتقديم الاول لكون مدلوله أهم عنده ويجوز تعلق الثانى بمحذوف وقع حالا من المفعول ولدن فى الاصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات وقد مر تفصيله فى أوائل سورة آل عمران أى أعطنى من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الاسباب العادية ﴿وليا﴾ أى ولدا من صلبى وتأخيره عن الجارين لاظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ما ذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الاسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر الى الاقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه الآية وعدم ذكره ههنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكره ههنا فان الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى ﴿يرثنى﴾ صفة لوليا وقرى• هو وما عطف عليه بالجزم جوابا للدعاء أى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون المال قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة وقيل يرثنى الحبورة وكان عليه السلام حبرا ﴿ويرث من آل يعقوب﴾ يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤول اليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم أى ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبى ومقاتل هو يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكريا قال الكلبى كان بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الاحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم وقرى• ويرث وارث آل يعقوب على أنه حال من المستكن فى يرث وقرى• أو يرث آل يعقوب بالتصغير

ففيه ايماء الى وراثته عليه السلام لما يرثه فى حالة صغره وقرى• وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثنى على طريقة التجريد أى يرثنى به وارث وقيل من للتبعيض اذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء ﴿واجعله رب رضيا﴾ مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط رب بين مفعولى اجعل للمبالغة فى الاعتناء بشأن ما يستدعيه ﴿يازكريا﴾ على ارادة القول أى قال تعالى يازكريا ﴿انا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ لكن لا بأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على أن يحكى له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا الآية وقد مر تحقيقه فى سورة آل عمران وهذا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من قوله تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى الخ بل بعضا حسبما تقتضيه المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان كانوا مستجابى الدعوة لكنهم ليسوا كذلك فى جميع الدعوات ألا يرى الى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى حق أبيه والى دعوة النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهبه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه فى الأول دون الثانى حيث قتل قبل موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ما هو المشهور وقيل بقى بعده برهة فلا اشكال حينئذ وفى تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام وفى تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿لم نجعل له من قبل سميا﴾ أى شريكا له فى الاسم حيث لم يسم أحد قبله يحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فان التسمية بالاسامى البديعة الممتازة عن أسماء سائر الناس تنويه بالمسمى لا محالة وقيل سميا شبيها فى الفضل والكمال كما فى قوله تعالى هل تعلم له سميا فان المتشاركين فى الوصف بمنزلة المتشاركين فى الاسم قالوا لم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل فى أنه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصورا فيكون هذا اجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين والاظهر أنه اسم أعجمى وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش قيل سمى به لانه حيى به رحم أمه أو حيى دين الله تعالى بدعوته ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال ﴿رب﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة فى التضرع والمناجاة والجد فى التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما أن علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف على ذلك فى عامة الاوقات ﴿أنى يكون لى غلام﴾ كلمة أنى بمعنى كيف أو من أين وكان اما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له أى أنى يحدث كائنا لى غلام أو ناقصة اسمها ظاهر وخبرها اما أنى ولى متعلق بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى ﴿وكانت امرأتى عاقرا﴾ حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى ﴿وقد بلغت من الكبر عتيا﴾ حال منه مؤكدة للاستبعاد اثر تأكيد أى كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها وشبابى فكيف وهى الآن عجوز وقد بلغت أنا من أجل كبر السن جساوة وقحولا فى المفاصل والعظام أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا من عتا يعتو وأصله عتوو كقعود فاستثقل توالى الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء وسبق احداهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لها لما بعدها وقرى• بضمها ولعل البداءة ههنا بذكر حال امرأته على عكس ما فى سورة آل عمران لما أنه قد ذكر حاله فى تضاعيف دعائه وانما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة

لما ذكر قبل وأما هنالك فلم يسبق فى الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة الى بيان تصور شأنه أنسب وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك باظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة لا استبعادا له وقيل انما قاله ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون ايقانا و يرتدع المبطلون وقيل كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد ﴿قال﴾ استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما سلف والكاف فى قوله تعالى ﴿كذلك قال ربك﴾ مقحمة كما فى مثلك لا يبخل محلها اما النصب على أنه مصدر تشبيهى لقال الثانى وذلك اشارة الى مصدره الذى هو عبارة عن الوعد السابق لا الى قوم آخر شبه هذا به وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وقوله تعالى ﴿هو على هين﴾ جملة مقررة للوعد المذكور دالة على انجازه داخلة فى حيز قال الاول كانه قيل قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت أى مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو على خاصة هين وان كان فى العادة مستحيلا وقرئ وهو على هين فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراض وعلى كل حال فهى مؤكدة ومقررة لما قبلها ثم أخرج القول الثانى مخرج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وادخال الروعة كقول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم ثم أسند الى اسم الرب المضاف الى ضميره عليه السلام تشريفا له واشعارا بعلة الحكم فان تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من ايجاده من العدم وتصريفه فى أطوار الخلق من حال الى حال شيئاً فشيئاً الى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أسلس استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعود و يورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بانجازه لا محالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد الى الرب الى ياء العظمة ايذانا بأن مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لا ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه وقيل ذلك اشارة الى مبهم يفسره قوله تعالى هو على هين على طريقة قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ولا يخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنها لا تدخل بين المفسر والمفسر واما الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وذلك اشارة الى ماتقدم من وعده تعالى أى قال عز وعلا الأمر كما وعدت وهو واقع لا محالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الأولى أو حال من المستكن فى الجار والمجرور وأياما كان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما والكلام فى اسناد القول الى الرب ثم الالتفات الى التكلم كالذى مر آنفا وقيل ذلك اشارة الى ماقاله زكريا عليه الصلاة والسلام أى قال تعالى الأمر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة فى نفسه و فى امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره أى قال تعالى هو مع بعده فى نفسه على هين والقراءة الثانية أدخل فى افادة هذا المعنى على أن الواو للعطف وأما جعلها للحال فمخل بسداد المعنى لأن مآله تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع أن المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته فى نفسه وقوله تعالى ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر اذ هو الواقع اثر العدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه الصلاة والسلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بأن يقال وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يك شيئاً مع كفايته فى ازالة الاستبعاد بقياس حال مابشر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على أن كل فرد من

أفراد البشر له حظ من انشائه عليه الصلاة والسلام من العدم اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرية سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان ابداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه ابداعا للكل أحد من فروعه كذلك ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط السارى الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ أظهر عنده وأجلى وكان حاله أولى بأن يكون معيارا لحال مابشر به نسب الخلق المذكور اليه كما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل فى تضاعيف خلق آدم ولم تكن اذ ذاك شيئا أصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا وأما حمل الشىء على المعتد به أى ولم تكن شيئا معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرئ خلقناك ﴿قال رب اجعل لى آية﴾ أى علامة تدلنى على تحقق المسؤول ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لا يليق بمنصب الرسالة وانما كان ذلك لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره الى أن تظهر ظهورا معتادا وقدمرت الاشارة فى تفسير سورة آل عمران الى أن هذا السؤال ينبغى أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولا ريب فى أن دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان فى صغر مريم لقوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه وهى انما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشرة سنة والجعل ابداعى واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير حالهما بعد ورود الناسخ ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس﴾ أى أن لا تقدر على أن تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح ﴿ثلاث ليال﴾ مع أيامهن للتصريح بها فى سورة آل عمران ﴿سويا﴾ حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أى تمنع الكلام فلا تطيق به حال كونك سوى الخلق سليم الجوارح مابك شائبة بكم ولا خرس ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أى من المصلى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا اذ خرج عليهم متغيرا لونه فأنكروه وقالوا مالك ﴿فأوحى اليهم﴾ أى أومأ اليهم لقوله تعالى الا رمزا وقيل كتب على الأرض وأن فى قوله تعالى ﴿أن سبحوا﴾ اما مفسرة لأوحى أو مصدرية والمعنى أى صلوا أو بأن صلوا ﴿بكرة وعشيا﴾ هما ظرفا زمان للتسبيح. عن أبى العالية أن المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر أو نزهوا ربكم طرفى النهار ولعله كان مأمورا بأن يسبح شكرا و يأمر قومه بذلك ﴿يايحيى﴾ استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة الى الانباء بانجاز الوعد الكريم أى قلنا يايحيى ﴿خذ الكتاب﴾ التوراة ﴿بقوة﴾ أى بجد واستظهار بالتوفيق ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه فى الدين روى أنه دعاه الصبيان الى اللعب فقال ما للعب خلقنا ﴿وحنانا من لدنا﴾ عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة فى قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما ﴿وزكوة﴾ أى طهارة

من الذنوب أو صدقة تصدقنا به على أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس ﴿وكان تقيا﴾ مطيعا متجنبا عن المعاصى ﴿وبرا بوالديه﴾ عطف على تقيا أى بارابهما لطيفا بهما محسنا اليهما ﴿ولم يكن جبارا عصيا﴾ متكبرا عاقا لهما أو عاصيا لربه ﴿وسلام عليه﴾ من الله عز وجل ﴿يوم ولد﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم ﴿ويوم يموت﴾ من عذاب القبر ﴿ويوم يبعث حيا﴾ من هول القيامة وعذاب النار ﴿واذكر فى الكتاب﴾ كلام مستأنف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم اثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن اذهى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الانبياء المذكورين فيها أى واذكر للناس ﴿مريم﴾ أى نبأها فان الذكر لايتعلق بالاعيان وقوله تعالى ﴿اذ انتبذت﴾ ظرف لذلك المضاف لكن لاعلى أن يكون المأمور به ذكر نبأها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ وقيل بدل اشتمال من مريم على أن المراد بها نبأها فان الظروف مشتملة على ما فيها وقيل بدل الكل على أن المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل اذ بمعنى أن المصدرية كما فى قولك أكرمتك اذلم تكرمنى أى لأن لم تكرمنى فهو بدل اشتمال لامحالة وقوله تعالى ﴿من أهلها﴾ متعلق بانتبذت وقوله ﴿مكانا شرقيا﴾ مفعول له باعتبار ما فى ضمنه من معنى الاتيان المترتب وجودا واعتبارا على أصل معناه العامل فى الجار والمجرور وهو السر فى تأخيره عنه أى اعتزلت وانفردت منهم وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس أو من دارها لتتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت فى مشرقة لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط أو بشئ يسترها وذلك قوله تعالى ﴿فاتخذت من دونهم حجابا﴾ وكان موضعها المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها واذا طهرت عادت الى المسجد فبينا هى فى مغتسلها أتاها الملك عليه الصلاة والسلام فى صورة آدمى شاب أمرد وضئ الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى ﴿فأرسلنا اليها روحنا﴾ أى جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه وقرئ بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد الذى هو عدة المقربين فى قوله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح وريحان ﴿فتمثل لها بشرا سويا﴾ سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئاً وقيل تمثل فى صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه مايلقى اليها من كلماته تعالى اذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته وأما ماقيل من أن ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى ﴿قالت انى أعوذ بالرحمن منك﴾ فانه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثيله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف مالا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة فى العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التى هى العصمة مما دهمها وقوله تعالى ﴿ان كنت تقيا﴾ أى تتقى الله تعالى وتبالى بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه أى فانى عائذة به أو فتتعظ بتعوذى أو فلا تتعرض لى ﴿قال انما أنا رسول ربك﴾ يريد عليه الصلاة والسلام انى لست ممن يتوقع منه ماتوهمت من الشر وانما أنا رسول ربك الذى استعذت به ﴿لأهب لك غلاما﴾ أى لأكون سببا فى هبته بالنفخ فى الدرع ويجوز أن يكون ذلك حكاية لقوله تعالى ويؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من أحكام تربيتها وفى بعض المصاحف أمرنى أن أهب لك غلاما ﴿زكيا﴾ طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير أى مترقيا من سن الى سن على الخير والصلاح ﴿قالت أنى يكون لى غلام﴾ كما وصفت

﴿ولم يمسسنى بشر﴾ أى والحال أنه لم يباشرنى بالنكاح رجل وانما قيل بشر مبالغة فى بيان تنزهها من مبادى الولادة ﴿ولم أك بغيا﴾ عطف على لم يمسسنى داخل معه فى حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح أى ولم أكن فاجرة تبغى الرجال وهى فعول بمعنى الفاعل أصلها بغوى فأدغمت الواو بعد قلبها ياء فى الياء وكسرت الغين للياء وقيل هى فعيل بمعنى الفاعل والا لقيل بغو كما يقال فلان نهو عن المنكر وانما لم تلحقه التاء لانها من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أى يبغيها الرجال للفجور بها ﴿قال﴾ أى الملك تقريرا لمقالته وتحقيقا لها ﴿كذلك﴾ أى الامر كما قلت لك وقوله تعالى ﴿قال ربك﴾ الخ استئناف مقرر له أى قال ربك الذى أرسلنى اليك ﴿هو﴾ أى ما ذكرت لك من هبة الغلام من غير أن يمسك بشر أصلا ﴿على﴾ خاصة ﴿هين﴾ وان كان مستحيلا عادة لما أنى لا أحتاج الى الاسباب والوسائط وقوله تعالى ﴿ولنجعله آية للناس﴾ اما علة لمعلل محذوف أى ولنجعل وهب الغلام آية لهم وبرهانا يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك أو معطوف على علة أخرى مضمرة أى لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الأول اعتراضية والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة ﴿ورحمة﴾ عظيمة كائنة ﴿منا﴾ عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بارشاده ﴿وكان﴾ ذلك ﴿أمرا مقضيا﴾ محكما قد تعلق به قضاؤنا الازلى أو قدر وسطر فى اللوح لابد من جريانه عليك البتة أو كان أمرا حقيقا بأن يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة ﴿فحملته﴾ بأن نفخ جبريل عليه الصلاة والسلام فى درعها فدخلت النفخة فى جوفها قيل انه عليه الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ فى جيبه فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح اليها فحملت فى الحال وقيل ان النفخة كانت فى فيها وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين ﴿فانتبذت به﴾ أى فاعتزلت وهو فى بطنها كما فى قوله تدوس بنا الجماجم والتريبا فالجار والمجرور فى حيز النصب على الحالية أى فانتبذت ملتبسة به ﴿مكانا قصيا﴾ بعيدا من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار وهو الانسب بقصر مدة الحمل ﴿فأجاءها المخاض﴾ أى فألجأها وهو فى الاصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل فى غيره كآتى فى أعطى وقرئ المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة اذا تحرك الولد فى بطنها للخروج ﴿الى جذع النخلة﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لارأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما للجنس أو للعهد اذ لم يكن ثمة غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياتها ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذى هو خرسة النفساء الموافقة لها ﴿قالت ياليتنى مت﴾ بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرئ بضمها من مات يموت ﴿قبل هذا﴾ أى هذا الوقت الذى لقيت فيه مالقيت وانما قالته مع أنها كانت تعلم ماجرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم أو حذارا من وقوع الناس فى المعصية بما تكلموا فيها أو جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر عليهم كما روى عن عمر رضى الله عنه أنه أخذ تبنة من الارض فقال ياليتنى هذه التبنة ولم أكن شيئا وعن بلال أنه قال ليت بلالا لم تلده أمه ﴿وكنت نسيا﴾ أى شيأ تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلا وقرئ بالكسر قيل هما لغتان فى ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر سمى به المفعول مبالغة وقرئ بهما مهموزا من نسأت اللبن اذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرئ نسا كعصا ﴿منسيا﴾ لايخطر ببال أحد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرئ بكسر الميم اتباعا له بالسين ﴿فناداها﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿من تحتها﴾ قيل أنه كان يقبل الولد وقيل من تحتها اى من مكان أسفل منها تحت

الاكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرئ مخاطبها من تحتها بفتح الميم ﴿أن لاتحزنى﴾ أى لاتحزنى على أن أن مفسرة او بأن لاتحزنى على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار ﴿قد جعل ربك تحتك﴾ أى بمكان أسفل منك وقيل تحت أمرك ان أمرت بالجرى جرى وان أمرت بالامساك أمسك ﴿سريا﴾ أى نهرا صغيرا حسبما روى مرفوعا قال ابن عباس رضى الله عنه ان جبريل عليه السلام ضرب برجله الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله عز وجل فيه الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فانها كانت نخلة يابسة لارأس لها ولا ورق فضلا عن الثمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها اذ ذاك رأسا وخوصا وثمرا وقيل كان هناك ماء جار والاول هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم وقيل سريا أى سيدا نبيلا رفيع الشأن جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها للتشريف بها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية ﴿وهزى﴾ هز الشئ تحريكه الى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله تعالى ﴿اليك﴾ أى الى جهتك والباء فى قوله عز وعلا ﴿بجذع النخلة﴾ صلة للتأكيد كما فى قوله تعالى ولاتلقوا بأيديكم الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهزبه وأخذ الخطام وأخذ بالخطام أو لالصاق الفعل بمدخولها أى افعلى الهز بجذعها أو هزى الثمرة بهزه وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهز أى هزى اليك الرطب كائنا بجذعها ﴿تساقط﴾ أى تسقط النخلة ﴿عليك﴾ اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرئ تسقط ويسقط من الاسقاط بالتاء والياء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بادغامها فى السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على أن التاء فى الكل للنخلة والياء للجذع وقوله تعالى ﴿رطبا﴾ على القراءات الثلاث الأول مفعول وعلى الست البواقى تمييز وقوله تعالى ﴿جنيا﴾ صفة له وهو ما قطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول أى رطبا مجنيا أى صالحا للاجتناء وقيل بمعنى فاعل أى طريا طيبا وقرئ جنيا بكسر الجيم للاتباع ﴿فكلى واشربى﴾ أى ذلك الرطب وماء السرى أو من الرطب وعصيره ﴿وقرى عينا﴾ وطيبى نفسا وارفضى عنها ما أحزنك وأهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما اختلج فى صدور المتعبدين بالأحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم الى الوقوف على سريرة أمرك وقرئ وقرى بكسر القاف وهى لغة نجد واشتقاقه من القرار فان العين اذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظر الى غيره أو من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه ﴿فاما ترين من البشر أحدا﴾ أى آدميا كائنا من كان وقرئ ترئن على لغة من يقول لبأت بالحج لما بين الهمزة والياء من التآخى ﴿فقولى﴾ له ان استنطقك ﴿انى نذرت للرحمن صوما﴾ أى صمتا وقد قرئ كذلك أو صياما وكان صيامهم بالسكوت ﴿فلن أكلم اليوم انسيا﴾ أى بعد أن أخبرتكم بنذرى وانما أكلم الملائكة وأناجى ربى وقيل أمرت بأن تخبر بنذرها بالاشارة وهو الأظهر قال الفراء العرب تسمى كل ما وصل الى الانسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فاذا أكد لم يكن الا حقيقة الكلام وانما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فانه نص قاطع فى قطع الطعن ﴿فأتت به قومها﴾ أى جاءتهم مع ولدها راجعة اليهم عند ما طهرت من نفاسها ﴿تحمله﴾ أى حاملة له ﴿قالوا﴾ مؤنبين لها ﴿يا مريم لقد جئت﴾ أى فعلت ﴿شيئا فريا﴾ أى عظيما بديعا منكرا من فرى الجلد أى قطعه أو جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشئ تحقيقا للاستغراب ﴿يا أخت هرون﴾ استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنوا به هرون النبى عليه السلام وكانت من أعقاب من

كان معه فى طبقة الأخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة وقيل هو رجل صالح أو طالح كان فى زمانهم شبهوها به أى كنت عندنا مثله فى الصلاح أو شتموها به ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾ تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش ﴿فأشارت اليه﴾ أى الى عيسى عليه السلام أن كلموه والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها وأنها بمعزل من محاورة الانس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالاشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به ﴿قالوا﴾ منكرين لجوابها ﴿كيف نكلم من كان فى المهد صبيا﴾ ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لايقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم صالح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل أنه مسوق للتعجب وقيل هى زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه أو هى تامة أو دائمة كما فى قوله تعالى وكان الله عليما حكيما ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام ﴿انى عبد الله﴾ أنطقه الله عز وجل بذلك أولا تحقيقا للحق وردا على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام وعن السدى رضى الله عنه لما أشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا مما فعلت وروى أنه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار اليهم بسبابته فقال ما قال الخ وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان ﴿آتانى الكتاب﴾ أى الانجيل ﴿وجعلنى نبيا وجعلنى﴾ مع ذلك ﴿مباركا﴾ نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضى فى الأفعال الثلاثة اما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم أو بجعل ما فى شرف الوقوع لا محالة واقعا وقيل أكمله الله عقلا واستنبأه طفلا ﴿أينما كنت﴾ أى حيثما كنت ﴿وأوصانى بالصلوة﴾ أى أمرنى بها أمرا مؤكدا ﴿والزكوة﴾ زكاة المال ان ملكته أو بتطهير النفس عن الرذائل ﴿ما دمت حيا﴾ فى الدنيا ﴿وبرا بوالدتى﴾ عطف على مباركا أى جعلنى بارا بها وقرئ بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة أو منصوب بمضمر دل عليه أوصانى أى وكلفنى برا ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير للتفخيم ﴿ولم يجعلنى جبارا شقيا﴾ عند الله تعالى لفرط تكبره ﴿والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾ كما هو على يحيى على أن التعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه فان اثبات جنس السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لأضداده كما فى قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فانه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى ﴿ذلك﴾ اشارة الى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو رتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس ﴿عيسى بن مريم﴾ لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا بأضداد ما يصفونه ﴿قول الحق﴾ بالنصب على أنه مصدر مؤكد لقال انى عبد الله الخ وقوله تعالى ذلك عيسى ابن مريم اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو قول الحق الذى لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة وقيل صفة عيسى أو بدله أو خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرئ قال الحق وقول الحق فان القول والقول والقال فى معنى واحد ﴿الذى فيه يمترون﴾ أى يشكون أو يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله وقرئ بتاء الخطاب ﴿ما كان لله﴾ أى ما صح وما استقام له تعالى ﴿أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عما بهتوه وقوله تعالى ﴿اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون﴾ تبكيت لهم ببيان أن شأنه تعالى اذا قضى أمرا من الأمور أن يتعلق به ارادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد

وقرئ فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى ﴿وان الله ربى و ربكم فاعبدوه﴾ من تمام كلام عيسى عليه السلام قيل هو عطف على قوله انى عبد الله داخل تحت القول وقد قرئ بغير واو وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولأنه تعالى ربى و ربكم فاعبدوه كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وقيل معطوف على الصلاة ﴿هذا﴾ أى الذى ذكرته من التوحيد ﴿صراط مستقيم﴾ لا يضل سالكه والفاء فى قوله تعالى ﴿فاختلف الاحزاب من بينهم﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فان ما حكى من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده تعالى و رسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والافراط أو فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط الى الأرض ثم صعد الى السماء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبد الله ونبيه ﴿فويل للذين كفروا﴾ وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول ايذانا بكفرهم جميعا واشعارا بعلة الحكم ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أى من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها وقيل هو ما شهدوا به فى حق عيسى وأمه عليهما السلام ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ تعجب من حدة سمعهم وابصارهم يومئذ ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم ﴿يوم يأتوننا﴾ للحساب والجزاء أى يوم القيامة جدير بأن يتعجب منها بعد أن كانوا فى الدنيا صما عميا أو تهديد بما سيسمعون و يبصرون يومئذ وقيل أمر بأن يسمعهم و يبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الأول فى موقع الرفع وعلى الثانى فى حيز النصب ﴿لكن الظالمون اليوم﴾ أى فى الدنيا ﴿فى ضلال مبين﴾ لا تدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية و وضع الظالمين موضع الضمير للايذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أى يوم يتحسر الناس قاطبة أما المسىء فعلى اساءته وأما المحسن فعلى قلة احسانه ﴿اذ قضى الأمر﴾ أى فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظرون فينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى غم واذ بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل فى المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف ﴿وهم فى غفلة﴾ أى عما يفعل بهم فى الآخرة ﴿وهم لا يؤمنون﴾ وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر فى قوله تعالى فى ضلال مبين أى مستقرون فى ذلك وهم فى تينك الحالتين وما بينهما اعتراض أو من مفعول أنذرهم أى أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالا متضمنة لمعنى التعليل ﴿انا نحن نرث الارض ومن عليها﴾ لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك أو نتوفى الارض ومن عليها بالافناء والاهلاك توفى الوارث لارثه ﴿والينا يرجعون﴾ أى يردون للجزاء لا الى غيرنا استقلالا أو اشتراكا ﴿واذكر﴾ عطف على أنذرهم ﴿فى الكتاب﴾ أى فى السورة أو فى القرآن ﴿ابراهيم﴾ أى اتل على الناس قصته و بلغها اياهم كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فانهم ينتمون اليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح ﴿انه كان صديقا﴾ ملازما للصدق فى كل ما يأتى و يذر أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه و رسله والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الامر فان وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره ﴿نبيا﴾ خبر آخر لكان مقيد للاول مخصص له كما ينبئ عنه قوله تعالى من النبيين والصديقين الآية أى كان جامعا بين الصديقية والنبوة ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى الاحتراز عن

توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فان كل نبى صديق ﴿اذ قال﴾ بدل اشتمال من ابراهيم وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله أو متعلق بكان أو بنبيا وتعليق الذكر بالاوقات مع أن المقصود تذكير ما وقع فيها من الحوادث قد مر سره مرارا أى كان جامعا بين الاثرتين حين قال ﴿لأبيه﴾ آزر متلطفا فى الدعوة مستميلا له ﴿يا أبت﴾ أى يا أبى فان التاء عوض عن ياء الاضافة ولذلك لا يجتمعان وقد قيل يا أبتا لكون الالف بدلا من الياء ﴿لم تعبد ما لا يسمع﴾ ثناءك عليه عند عبادتك له وجؤارك اليه ﴿ولا يبصر﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه أو لا يسمع ولا يبصر شيأ من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ما ذكر دخولا أوليا ﴿ولا يغنى﴾ أى لا يقدر على أن يغنى ﴿عنك شيأ﴾ فى جلب نفع أو دفع ضر ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل و يأبى الركون اليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لا تحق الا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيى المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشىء لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا بايصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وان كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الاحياء عين ولا أثر ثم دعاه الى أن يتبعه ليهديه الى الحق المبين لما أنه لم يكن محظوظا من العلم الالهى مستقلا بالنظر السوى مصدرا لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال ﴿يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك﴾ ولم يسم أباه بالجهل المفرط وان كان فى أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وان كان كذلك بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال ﴿فاتبعنى أهدك صراطا سويا﴾ أى مستقيما موصلا الى أسنى المطالب منجيا عن الضلال المؤدى الى مهاوى الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه فى الحقيقة عبادة الشيطان لما أنه الآمر به فقال ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ فان عبادتك للاصنام عبادة له اذ هو الذى يسولها لك و يغريك عليها وقوله ﴿ان الشيطان كان للرحمن عصيا﴾ تعليل لموجب النهى وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص وكل من هو عاص حقيق بأن يسترد منه النعم و ينتقم منه والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التقرير والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لأنه ملاكها أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لأبيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال شناعة عصيانه وقوله ﴿يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلى به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية واظهار الرحمن للاشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما فى قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم ﴿فتكون للشيطان وليا﴾ أى قرينا له فى اللعن المخلد وذكر الخوف للمجاملة وابراز الاعتناء بأمره ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا قال أبوه عند ما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده ﴿أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم﴾ أى أمعرض ومنصرف أنت عنها بتوجيه الانكار الى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾

تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير أى والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهى عن عبادتها لارجمنك بالحجارة وقيل باللسان ﴿واهجرنى﴾ أى فاحذرنى واتركنى ﴿مليا﴾ أى زمانا طويلا أو مليا بالذهاب مطيقا به ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ﴿سلام عليك﴾ توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة أى لا أصيبك بمكروه بعد ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن ﴿سأستغفر لك ربى﴾ أى أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك الى الايمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى واغفر لأبى بقوله تعالى انه كان من الضالين والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لاريب فى جوازه وانما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فانه مما لامساغ له عقلا ولانقلا وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وانما الذى يمنعه السمع ألا يرى الى أنه عليه السلام قال لعمه أبى طالب لاأزال أستغفر لك مالم أنه عنه فنزل قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية والاشتباه فى أن هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله لأستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله واغفر لأبى الآية انما كان قبل انقطاع رجائه عن ايمانه لعدم تبين أمره لقوله تعالى فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما مر فى تفسير سورة التوبة واستثناؤه عما يؤتسى به فى قوله تعالى الاقول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك لايقدح فى جوازه لكن لا لأن ذلك كان قبل ورود النهى أو لموعدة وعدها اياه كما قيل لما أن النهى انما ورد فى شأن الاستغفار بعد تبين الأمر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله النهى أصلا وأن الوعد بالمحظور لايرفع حظره بل لأن المراد بما يؤتسى به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد فاستثناؤه عن ذلك انما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان للكافر المرجو ايمانه لاسيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لايتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الأمر فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى نفس الاستغفار بقوله واغفر لأبى الآية لأنها كانت هى الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمى وأما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الأمر فقد مر تحقيقه فى تفسير سورة التوبة وقوله ﴿انه كان بى حفيا﴾ أى بليغا فى البر والالطاف تعليل لمضمون ماقبله ﴿وأعتزلكم﴾ أى أتباعد عنك وعن قومك ﴿وما تدعون من دون الله﴾ بالمهاجرة بدينى حيث لم تؤثر فيكم نصائحى ﴿وأدعو ربى﴾ أعبده وحده وقد جوز أن يراد به دعاؤه المذكور فى تفسير سورة الشعراء ولا يبعد أن يراد به استدعاء الولد أيضا بقوله رب هب لى من الصالحين حسبما يساعده السباق والسياق ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا﴾ أى خائبا ضائع السعى وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم وفى تصدير الكلام بعسى من اظهار التواضع ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عز وجل لابطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾ بالمهاجرة الى الشام ﴿وهبنا له اسحق ويعقوب﴾ بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة فان المشهور أن الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى فبشرناه بغلام حليم اثر دعائه بقوله رب هب لى من الصالحين ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التى أعطاها الله تعالى اياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء فانهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولوا شأن خطير وذووا عدد كثير هذا وقد روى أنه عليه السلام لما قصد الشأم أتى أولا حران وتزوج بسارة وولدت له اسحاق وولد لاسحق يعقوب والأول هو الأقرب الأظهر ﴿وكلا﴾ أى كل واحد منهما أو منهم وهو

مفعول أول لقوله تعالى ﴿جعلنا نبيا﴾ قدم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة الى من عداهم بل بالنسبة الى بعضهم أى كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم دون بعض ﴿ووهبنا له من رحمتنا﴾ هى النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للايذان بأنها من باب الرحمة وقيل هى المال والأولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى أوتوه مما لم يؤته أحد من العالمين ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليا﴾ يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم واضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الاعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل ﴿واذكر فى الكتاب موسى﴾ قدم ذكره على ذكر اسمعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهما السلام ﴿انه كان مخلصا﴾ موحدا أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله تعالى وأخلص نفسه عما سواه وقرىء مخلصا على أن الله تعالى أخلصه ﴿وكان رسولا نبيا﴾ أرسله الله تعالى الى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه أخص وأعلى ﴿وناديناه من جانب الطور الايمن﴾ الطور جبل بين مصر ومدين والايمن صفة للجانب أى ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهى التى تلى يمين موسى عليه السلام أو من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه أنه تمثل له الكلام من تلك الجهة ﴿وقربناه نجيا﴾ تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا أى مناجيا حال من أحد الضميرين فى ناديناه أو قربناه وقيل مرتفعا لما روى أنه عليه السلام رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم ﴿ووهبنا له من رحمتنا﴾ أى من أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا ﴿أخاه﴾ أى معاضدة أخيه وموازرته اجابة لدعوته بقوله واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى لا نفسه لانه كان أكبر منه عليهما السلام وهو على الاول مفعول لوهبنا وعلى الثانى بدل وقوله تعالى ﴿هرون﴾ عطف بيان له وقوله تعالى ﴿نبيا﴾ حال منه ﴿واذكر فى الكتاب اسمعيل﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بأمره بايراده مستقلا وقوله تعالى ﴿انه كان صادق الوعد﴾ تعليل لموجب الامر وايراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح بقوله ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فوفى ﴿وكان رسولا نبيا﴾ فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم عليه السلام كانوا على شريعته ﴿وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة﴾ اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس اليه قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلوة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقصدا الى تكميل الكل بتكميلهم لانهم قدوة يؤتسى بهم وقيل أهله أمته فان الانبياء عليهم السلام آباء الامم ﴿وكان عند ربه مرضيا﴾ لاتصافه بالنعوت الجليلة التى من جملتها ماذكر من خصاله الحميدة ﴿واذكر فى الكتاب ادريس﴾ وهو سبط شيث وجد أبى نوح فانه نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد أن يكون معناه فى تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة دراسته روى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة وأنه أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب ﴿انه كان صديقا﴾ ملازما للصدق فى جميع أحواله ﴿نبيا﴾ خبر آخر لكان مخصص للاول اذ ليس كل صديق نبيا ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾ هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا كما فى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة روى عن كعب وغيره فى سبب رفع ادريس عليه السلام أنه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب انى قد مشيت فيها يوما وقد أصابنى منها ما أصابنى فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم

واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالا يعرف فقال يارب ما الذى قضيت فيه قال ان عبدى ادريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب اجعل بينى و بينه خلة فأذن الله تعالى له فرفعه الى السماء ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين فى السورة الكريمة وما فيه من معنى البعد الاشارة بعلو رتبهم و بعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الذين أنعم الله عليهم﴾ صفته أى أنعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير اليه مجملا وقوله تعالى ﴿من النبيين﴾ بيان للموصول وقوله تعالى ﴿من ذرية آدم﴾ بدل منه باعادة الجار و يجوز أن تكون كلمة من فيه للتبعيض لان المنعم عليهم أعم من الانبياء وأخص من الذرية ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ أى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام فان ابراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ومن ذرية ابراهيم﴾ وهم الباقون ﴿واسرائيل﴾ عطف على ابراهيم أى ومن ذرية اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا و يحيى وعيسى عليهم السلام وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية ﴿وممن هدينا واجتبينا﴾ أى ومن جملة من هديناهم الى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى ﴿اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا﴾ خبر لأولئك و يجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافا مسوقا لبيان خشيتهم من الله تعالى واخباتهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا و بكيا حالان من ضمير خروا أى ساجدين باكين عن النبى صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والبكى جمع باك كالسجد جمع ساجد وأصله بكوى فاجتمعت الواو والياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء وقرئ يتلى بالياء التحتانية لأن التأنيث غير حقيقى وقرئ بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغى أن يدعو الساجد فى سجدته بما يليق بآيتها فههنا يقول اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفى آية الاسراء يقول اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك وفى آية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون أى فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء ﴿أضاعوا الصلوة﴾ وقرئ الصلوات أى تركوها أو أخروها عن وقتها ﴿واتبعوا الشهوات﴾ من شرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك فى فنون المعاصى وعن على رضى الله عنه من بنى المشيد وركب المنظور ولبس المشهور ﴿فسوف يلقون غيا﴾ أى شرا فان كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد كقوله

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وعن الضحاك جزاء غى كقوله تعالى يلق أثاما أى جزاء أثام أوغيا عن طريق الجنة وقيل غى واد فى جهنم تستعيذ منه أوديتها وقوله تعالى ﴿الا من تاب وآمن وعمل صالحا﴾ يدل على أن الآية فى حق الكفرة ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا أى فأولئك المنعوتون بالتوبة والايمان والعمل الصالح ﴿يدخلون الجنة﴾ بموجب الوعد المحتوم وقرئ يدخلون على البناء للمفعول ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ أى لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً أو لا ينقصون شيئاً من النقص وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم ﴿جنات عدن﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض أو نصب على المدح وقرئ بالرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف أى هى أو تلك جنات الخ أو مبتدأ خبره التى وعد الخ وقرئ جنة عدن نصبا

و رفعا وعدن علم لمعنى العدن وهو الاقامة كما أن فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها أعلام لمعانى الفينة وهى الساعة التى أنت فيها والسحر والأمس فجرى لذلك مجرى العدن أو هو علم لأرض الجنة خاصة ولولا ذلك لما ساغ ابدال ما أضيف اليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين ولا وصفه بقوله تعالى ﴿التى وعد الرحمن عباده﴾ وجعله بدلا منه خلاف الظاهر فان الموصول فى حكم المشتق وقد نصوا على أن البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان الرحمة للايذان بأن وعدها وانجازه لكمال سعة رحمته تعالى والباء فى قوله تعالى ﴿بالغيب﴾ متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد الى الجنات أو من عباده أى وعدها اياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب أى غائبة عنهم غير حاضرة أو غائبين عنها لا يرونها وانما آمنوا بها بمجرد الاخبار أو بمضمر هو سبب للوعد أى وعدها اياهم بسبب ايمانهم ﴿انه كان وعده﴾ أى موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا أوليا ولما كانت هى مثابة يرجع اليها قيل ﴿مأتيا﴾ أى يأتيه من وعدله لا محالة بغير خلف وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل مأتيا أى مفعولا منجزا من أتى اليه احسانا أى فعله ﴿لا يسمعون فيها لغوا﴾ أى فضول كلام لا طائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغى أن يجتنب عنه فى هذه الدار ما أمكن ﴿الا سلاما﴾ استثناء منقطع أى لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض أو متصل بطريق التعليق بالمحال أى لا يسمعون لغوا ما الا سلاما فحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما فى قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهرا وانما فائدته الاكرام وقوله تعالى ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ وارد على عادة المتنعمين فى هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروره والا فليس فيها بكرة ولا عشى ﴿تلك الجنة﴾ مبتدأ وخبر جئ به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها فان ما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها ﴿التى نورث﴾ أى نورثها ﴿من عبادنا من كان تقيا﴾ أى نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث انها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا ابطال وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة فى كرامتهم وقرئ نورث بالتشديد ﴿وما نتنزل الا بأمر ربك﴾ حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى اليه فيه فأبطأ عليه أربعين يوما أو خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وأنزل الله عز وجل هذه الآية وسورة والضحى والتنزل النزول على مهل لانه مطاوع للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الانزال والمعنى وما نتنزل وقتا غب وقت الا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته وقرئ وما يتنزل بالياء والضمير للوحى ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ وهو ما نحن فيه من الاماكن والازمنة ولا ننتقل من مكان الى مكان ولا نتنزل فى زمان دون زمان الا بأمره ومشيئته ﴿وما كان ربك نسيا﴾ أى تاركا لك يعنى أن عدم النزول لم يكن الا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه اياك كما زعمت الكفرة وفى اعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ الى الكمال اللائق مضافا الى ضميره عليه السلام من تشريفه والاشعار بعلة الحكم ما لا يخفى وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضا بطريق التبجح والابتهاج والمعنى وما نتنزل الجنة الا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الأمور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله تعالى وما كان ربك نسيا تقرير لقولهم من جهة الله

تعالى أى وما كان ناسيا لاعمال العاملين وماوعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى ﴿رب السموات والارض ومابينهما﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فان من بيده ملكوت السموات والارض ومابينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدا محذوف أو بدل من ربك والفاء فى قوله تعالى ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ لترتيب مابعدها من موجب الأمرين على ماقبلها من كونه تعالى رب السموات والارض ومابينهما وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه السلام أو غير ناس لاعمال العاملين والمعنى لحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ فان ايجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لاريب فيه أو حين عرفت أنه تعالى لاينساك أو لاينسى أعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها و لاتحزن بابطاء الوحى وهزؤ الكفرة فانه يراقبك و يراعيك و يلطف بك فى الدنيا والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لابحرف الاستعلاء كما فى قوله تعالى واصطبر عليها لتضمينه معنى الثبات للعباده فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للبارز اصطبر لقرنك أى اثبت له فيما يورد عليك من شدائده ﴿هل تعلم له سميا﴾ السمى هو الشريك فى الاسم والظاهر أن يراد به ههنا الشريك فى اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والارض ومابينهما والمراد بانكار العلم ونفيه انكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما أفاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل بذلك الاسم وانتفاء اطلاقه على الغير بالكلية حقا أو باطلا وقيل المراد هو الشريك فى الاسم الجليل فان المشركين مع غلوهم فى المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا وقيل هو الشريك فى اسم الاله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئا يسمى بالاستحقاق الها وأما التسمية على الباطل فهى كلا تسمية فتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار مافى الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر ﴿ويقول الانسان﴾ المراد به اما الجنس بأسره واسناد القول الى الكل لوجود القول فيما بينهم وان لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم الكفرة أو أبى بن خلف فانه أخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد أنا نبعث بعد مانموت ونصير الى هذه الحال أى يقول بطريق الانكار والاستبعاد ﴿أئذا مامت لسوف أخرج حيا﴾ أى أبعث من الارض أو من حال الموت وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار لما أن المنكر كون مابعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لابه فان مابعد اللام لايعمل فيما قبلها وهى ههنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام للتعويض فى ياألله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرئ اذا ما مت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ﴿أولا يذكر الانسان﴾ من الذكر الذى يراد به التفكر والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بأن الانسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شئون التكوين المنحية بالقلع عن القول المذكور وهو السر فى اسناده الى الجنس أو الى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول أى أيقول ذلك ولا يذكر ﴿أنا خلقناه من قبل﴾ أى من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه ﴿ولم يك شيئا﴾ أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئا أصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بجمع المواد المتفرقة وايجاد مثل ماكان فيها من الاعراض أولى وأظهر فماله لا يذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير وقرئ يذكر و يتذكر على الاصل ﴿فوربك﴾ اقسامه باسمه عزت أسماؤه مضافا الى ضميره عليه السلام لتحقيق الامر بالاشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته ﴿لنحشرنهم﴾ لنجمعن القائلين بالسوق الى المحشر بعد ما أخرجناهم من الارض أحياء ففيه اثبات للبعث بالطريق البرهانى على أبلغ وجه وآكده كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به وانما المحتاج الى البيان

ما بعد ذلك من الاهوال ﴿والشياطين﴾ معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه . روى أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التى كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه فى سلسلة وهذا وان كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكى اليه مع كون القائل بعض أفراده ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا و ينال الاشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة و يزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم الى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثى جمع جاث من جثا اذا قعد على ركبتيه وأصله جثوو بواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فاجتمعت واو و ياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء الأولى و كسرت الجيم اتباعا لما بعدها وقرئ بضمها ونصبه على الحالية من الضمير البارز أى لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل الى الثواب والعقاب فان أهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله تعالى وترى كل أمة جاثية على ماهو المعتاد فى مواقف التقاول وان كان المراد بالانسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف الى شاطئ جهنم جثاة اهانة بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ أى من كل أمة شاعت دينا من الأديان ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ أى من كان منهم أعصى وأعتى فنطرحهم فيها وفى ذكر الاشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض من أهل العصيان وعلى تقدير تفسير الانسان بالكفرة فالمعنى انا نميز من كل طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم فى النار على الترتيب أو ندخل كلا منهم طبقتها اللائقة به وأيهم مبنى على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل و بعض للزوم الاضافة واذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد الى حقه ومنصوب المحل بننزعن و لذلك قرئ منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على أنه استفهامى وخبره أشد والجملة محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم أو مستأنفة والفعل واقع على كل شيعة على زيادة من أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى ووهبنا لهم من رحمتنا وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كأن سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن أو متعلق بأفعل وكذا الباء فى قوله تعالى ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ أى هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار وهم المنتزعون و يجوز أن يراد بهم و بأشدهم عتيا رؤساء الشيع فان عذابهم مضاعف لضلالهم واضلالهم والصلى كالعتى صيغة واعلالا وقرئ بضم الصاد ﴿وان منكم﴾ التفات لاظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات الى المذكور و يؤيد الأول أنه قرئ وان منهم أى مامنكم أيها الانسان ﴿الا واردها﴾ أى واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهى خامدة وتنهار بغيرهم وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة وأما قوله تعالى أولئك عنها مبعدون فالمراد به الابعاد عن عذابها وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها ﴿كان﴾ أى ورودهم اياها ﴿على ربك حتما مقضيا﴾ أى أمرا محتوما أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى أنه لابد من وقوعه البتة وقيل أقسم عليه ﴿ثم ننجى الذين اتقوا﴾ الكفر والمعاصى عما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون الى الجنة وقرئ ننجى بالتخفيف و ينجى و ينجى على البناء للمفعول وقرئ ثمة ننجى بفتح الثاء أى هناك ننجيهم ﴿ونذر الظالمين﴾ بالكفر والمعاصى ﴿فيها جثيا﴾ منهارا بهم كما كانوا قيل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها و يلقى

الفجرة فيها على هيآتهم وقوله تعالى ﴿واذا تتلى عليهم﴾ الآية الى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم و وخامة مآلهم أى واذا تتلى على المشركين ﴿آياتنا﴾ التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى ﴿بينات﴾ أى مرتلات الالفاظ مبينات المعانى بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بينات الاعجاز حال مؤكدة من آياتنا ﴿قال الذين كفروا﴾ أى قالوا و وضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث وأتباعه الفجرة واللام فى قوله تعالى ﴿للذين آمنوا﴾ للتبليغ كما فى مثل قوله تعالى وقال لهم نبيهم وقيل لام الاجل كما فى قوله تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه أى قالوا لأجلهم و فى حقهم والأول هو الاولى لأن قولهم ليس فى حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى ﴿أى الفريقين﴾ أى المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا ﴿خير﴾ نحن أو أنتم ﴿مقاما﴾ أى مكانا وقرىء بضم الميم أى موضع اقامة ومنزل ﴿وأحسن نديا﴾ أى مجلسا ومجتمعا يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم و يدهنونها و يتطيبون و يتزينون بالزين الفاخرة ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين يريدون بذلك أن خيريتهم حالا وأحسنيتهم منالا مما لا يقبل الانكار وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه و زلفاهم عنده اذ هو العيار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وأن من ضرورته هوان المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم الا لكونهم جهلة لا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا و رئيا﴾ أى كثيرا من القرون التى كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود وأضرابهم من الامم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى كأنه قيل فلينتظر هؤلاء أيضا مثل ذلك فكم مفعول أهلكنا ومن قرن بيان لابهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة وهو مقدمها وقوله تعالى هم أحسن أثاثا فى حيز النصب على أنه صفة لكم وأثاثا تمييز النسبة وهو متاع البيت وقيل هو ماجد منه والخرثى ما لبس منه و رث والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن لما يطحن وقرىء ريا على قلب الهمزة ياء وادغامها أو على أنه من الرى وهو النعمة والترفه وقرىء ريئا على القلب و ريا بحذف الهمزة و زيا بالزاى المعجمة من الزى وهو الجمع فانه عبارة عن المحاسن المجموعة ﴿قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا﴾ لما بين عاقبة أمر الامم المهلكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآل أمر الفريقين اما على وجه كلى متناول لهم ولغيرهم من المنهمكين فى اللذة الفانية المبتهجين بها على أن من على عمومها واما على وجه خاص بهم على أنها عبارة عنهم و وصفهم بالتمكن لذمهم والاشعار بعلة الحكم أى من كان مستقرا فى الضلالة مغمورا بالجهل والغفلة عن عواقب الامور فليمدد له الرحمن أى يمد له و يمهله بطول العمر واعطاء المال والتمكين من التصرفات واخراجه على صيغة الامر للايذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما ينبىء عنه قوله عز وجل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس واعتبار الاستقرار فى الضلالة لما أن المد لا يكون الا للمصرين عليها اذ رب ضال يهديه الله عز وجل والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية وقوله تعالى ﴿حتى اذا رأوا ما يوعدون﴾ غاية للمد الممتد لا لقول المفتخرين كما قيل اذ ليس فيه امتداد بحسب الذات وهو ظاهر ولا استمرار بحسب التكرار

لوقوعه فى حيز جواب اذا و جمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضميرين الاولين باعتبار لفظها وقوله تعالى ﴿اما العذاب واما الساعة﴾ تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل فانه اما العذاب الدنيوى بغلبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم اياهم قتلا وأسرا واما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزى والنكال على طريقة منع الخلو دون منع الجمع فان العذاب الأخروى لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى ﴿فسيعلمون﴾ جواب الشرط والجملة محكية بعد حتى أى حتى اذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوى أو الأخروى فقط فسيعلمون حينئذ ﴿من هو شر مكانا﴾ من الفريقين بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدرونه فيعلمون أنهم شر مكانا لا خير مقاما ﴿وأضعف جندا﴾ أى فئة وأنصارا لا أحسن نديا كما كانوا يدعونه وليس المراد أن له ثمة جندا ضعفاء كلا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وانما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانا من الأعيان وأنصارا من الأخيار و يفتخرون بذلك فى الأندية والمحافل ﴿و يزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حال المهتدين اثر بيان حال الضالين وقيل عطف على فليمدد لأنه فى معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل من كان فى الضلالة يمده الله و يزيد المهتدين هداية كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وقيل عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين أن امهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله عقب ذلك ببيان أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير من ذلك وقوله تعالى ﴿والباقيات الصالحات خير﴾ على تقديرى الاستئناف والعطف كلام مستأنف وارد من جهته تعالى لبيان فضل أعمال المهتدين غير داخل فى حيز الكلام الملقن لقوله تعالى ﴿عند ربك﴾ أى الطاعات التى تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومن جملتها ما قيل من الصلوات الخمس وما قيل من قول سبحان الله والحمد لله و لا اله الا الله والله أكبر خير عند الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره لتشريفه عليه السلام ﴿ثوابا﴾ أى عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التى يفتخرون بها لاسيما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة السرمدية والعذاب الأليم كما أشير اليه بقوله تعالى ﴿وخير مردا﴾ أى مرجعا وعاقبة وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها وفى التفضيل مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية فى العاقبة تهكم بهم ﴿أفرأيت الذى كفر بآياتنا﴾ أى بآياتنا التى من جملتها آيات البعث نزلت فى العاص بن وائل كان لخباب بن الأرت عليه مال فاقتضاه فقال لا حتى تكفر بمحمد قال لا والله لا أكفر به حيا و لا ميتا و لا حين بعثت قال فاذا بعثت جئنى فيكون لى ثمة مال و ولد فأعطيك وفى رواية قال لا أكفر به حتى يميتك ثم تبعث فقال انى لميت ثم مبعوث قال نعم قال دعنى حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا و ولدا فاقضيك فنزلت فالهمزة للتعجيب من حاله والايذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى و يقضى منها العجب ومن فرق بين ألم تر وأرأيت بعد بيان اشتراكهما فى الاستعمال لقصد التعجيب بأن الأول يعلق بنفس المتعجب منه فيقال ألم تر الى الذى صنع كذا بمعنى انظر اليه فتعجب من حاله والثانى يعلق بمثل المتعجب منه فيقال أرأيت مثل الذى صنع كذا بمعنى أنه من الغرابة بحيث لا يرى له مثل فقد حفظ شيئا وغابت عنه أشياء وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل أرأيت الذى يكذب بالدين والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التى حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها ﴿وقال﴾ مستهزئا بها مصدرا لكلامه باليمين الفاجرة والله ﴿لأوتين﴾ فى الآخرة ﴿مالا وولدا﴾ أى انظر اليه فتعجب من حالته البديعة وجراءته الشنيعة هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وقد قيل ان أرأيت بمعنى أخبر والفاء على أصلها والمعنى أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا أى الفريقين خير مقاما

الآية وأنت خبير بأن المشهور استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى بطريق الاستفهام جاريا على أصله أو مخرجا الى مايناسبه من المعانى لا بطريق الأمر بالاخبار لغيره وقرىء ولدا على أنه جمع ولد كأسد جمع أسد أو على أنه لغة فيه كالعرب والعرب وقوله تعالى ﴿أطلع الغيب﴾ رد لكلمته الشنعاء واظهار لبطلانها اثر ما أشير اليه بالتعجيب منها أى أقد بلغ من عظمة الشأن الى أن ارتقى الى علم الغيب الذى استأثر به العليم الخبير حتى ادعى أن يؤتى فى الآخرة مالا وولدا وأقسم عليه ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ بذلك فانه لا يتوصل الى العلم به الا بأحد هذين الطريقين والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بعلية الرحمة لايتاء مايدعيه وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل العمل الصالح فان وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أن كلامه مع خباب كان كذلك وقوله تعالى ﴿كلا﴾ ردع له عن التفوه بتلك العظيمة وتنبيه على خطائه ﴿سنكتب مايقول﴾ أى سنظهر أنا كتبنا قوله كقوله

اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة   أى يتبين أنى لم تلدنى لئيمة أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة الجانى وحفظها عليه فان نفس الكتبة لا تكاد تتأخر عن القول لقوله عز وعلا ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فبنى الاول تنزيل اظهار الشىء الخفى منزلة احداث الامر المعدوم بجامع أن كلا منهما اخراج من الكمون الى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية على تشبيه اظهار الكتابة على رؤس الاشهاد باحداثها ومدار الثانى تسمية الشىء باسم سببه فان كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعا ﴿ونمد له من العذاب مدا﴾ مكان مايدعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد أى نطول له من العذاب مايستحقه أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام ولذلك أكد بالمصدر دلالة على فرط الغضب ﴿ونرثه﴾ بموته ﴿ما يقول﴾ أى مسمى ما يقول ومصداقه وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد وفيه ايذان بأنه ليس لما يقوله مصداق موجود سوى ما ذكر أى ننزع عنه ما آتيناه ﴿ويأتينا﴾ يوم القيامة ﴿فردا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثمة زائدا وقيل نزوى عنه ما زعم أنه يناله فى الآخرة ونعطيه مايستحقه ويأباه معنى الارث وقيل المراد بما يقول نفس القول المذكور لامسماه والمعنى انما يقول هذا القول ما دام حيا فاذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضا له منفردا عنه وأنت خبير بأن ذلك مبنى على أن صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وأنه مستمر على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولا ريب فى أن ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وانما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليق اداء دينه بالمحال ﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾ حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها اثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها أى اتخذوا الاصنام آلهة متجاوزين الله تعالى ﴿ليكونوا لهم عزا﴾ أى ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة اليه عز وجل وشفعاء عنده ﴿كلا﴾ ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وانكار لوقوع ما علقوا به أطماعهم الفارغة ﴿سيكفرون بعبادتهم﴾ أى ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن ينطقها الله تعالى وتقول ماعبدتمونا أو سينكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها كما فى قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين ومعنى قوله تعالى ﴿ويكونون عليهم ضدا﴾ على الاول تكون الآلهة التى كانوا يرجون أن تكون لهم عزا ضدا للعز أى ذلا وهوانا أو تكون عونا عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم أو حيث كانت عبادتهم لها سببا لعذابهم واطلاق الضد على العون لما أن عون الرجل يضاد عدوه وينافيه باعانته له عليه وعلى الثانى يكون الكفرة ضدا وأعداء للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذى عليه تدور مضادتهم فانهم بذلك كشىء واحد كما فى قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم وقرىء كلا

بفتح الكاف والتنوين على قلب الالف نونا فى الوقف قلب ألف الاطلاق فى قوله

أقلى اللوم عاذل والعتابن   وقولى ان أصبت لقد أصابن

أو على معنى كل هذا الرأى كلا وقرىء كلا على اضمار فعل يفسره ما بعده أى سيجحدون كلا سيكفرون الخ ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الاقاويل والافاعيل والتمادى فى الغى والانهماك فى الضلال والافراط فى العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم والاجماع على مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على أن جميع ذلك منهم باضلال الشياطين واغوائهم لا لان له مسوغا ما فى الجملة ومعنى ارسال الشياطين عليهم اما تسليطهم عليهم وتمكينهم من اضلالهم واما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه عليه السلام من ارسالهم عليهم كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من أحوال الكفرة من حيث كونها من آثار اغواء الشياطين كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿تؤزهم أزا﴾ فانه اما حال مقدرة من الشياطين أو استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ فقيل تؤزهم أى تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهييجا شديدا بأنواع الوساوس والتسويلات فان الاز والهز والاستفزاز أخوات معناها شدة الازعاج ﴿فلا تعجل عليهم﴾ أى بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم وتطهر الارض من فساداتهم والفاء للاشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهى عنه محوجة الى النهى كما فى قوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة وقوله تعالى ﴿انما نعد لهم عدا﴾ تعليل لموجب النهى ببيان اقتراب هلاكهم أى لا تستعجل بهلاكهم فانه لم يبق لهم الا أيام وأنفاس نعدها عدا ﴿يوم نحشر المتقين﴾ منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للاشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم نحشر المتقين أى نجمعهم ﴿الى الرحمن﴾ الى ربهم الذى يغمرهم برحمته الواسعة ﴿وفدا﴾ وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم ﴿ونسوق المجرمين﴾ كما تساق البهائم ﴿الى جهنم وردا﴾ عطاشا فان من يرد الماء لا يورده الا العطش أو كالدواب التى ترد الماء نفعل بالفريقين من الافعال ما لا يفى ببيانه نطاق المقال وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر الخ وقيل على الظرفية لقوله تعالى ﴿لايملكون الشفاعة﴾ والذى يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الاولين ويكون هذا استئنافا مبينا لبعض ما فيه من الأمور الدالة على هوله وضميره عائدا الى العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما وقيل الى المتقين خاصة وقيل الى المجرمين من الكفرة وأهل الاسلام والشفاعة على الاولين مصدر من المبنى للفاعل وعلى الثالث ينبغى أن تكون مصدرا من المبنى للمفعول وقوله تعالى ﴿الا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ على الاول استثناء متصل من لايملكون ومحل المستثنى اما الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء والمعنى لايملك العباد أن يشفعوا لغيرهم الا من استعد له بالتحلى بالايمان والتقوى أو من أمر بذلك من قولهم عهد الامير الى فلان بكذا اذا أمره به فيكون ترغيبا للناس فى تحصيل الايمان والتقوى المؤدى الى نيل هذه الرتبة وعلى الثانى استثناء من الشفاعة على حذف المضاف والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء أى لايملك المتقون الشفاعة الا شفاعة من اتخذ العهد بالاسلام فيكون ترغيبا فى الاسلام وعلى الثالث استثناء من لا يملكون أيضا والمستثنى مرفوع على البدل أو

منصوب على الاصل والمعنى لايملك المجرمون أن يشفع لهم الا من كان منهم مسلما ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ حكاية لجناية اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا اثر حكاية عبدة الاصنام بطريق عطف القصة على القصة وقوله تعالى ﴿ لقد جئتم شيئاً إدا ﴾ رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة والاد بالكسر والفتح العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى وعظم على أى فعلتم أمرا منكرا شديدا لايقادر قدره فان جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته وقوله تعالى ﴿ تكاد السموات ﴾ الخ صفة لادا أو استئناف لبيان عظم شأنه فى الشدة والهول وقرئ يكاد بالتذكير ﴿ يتفطرن منه ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى من عظم ذلك الامر وقرئ ينفطرن والاول أبلغ لان تفعل مطاوع فعل وانفعل مطاوع فعل ولان أصل التفعل التكلف ﴿ وتنشق الارض ﴾ أى تكاد وتنشق الارض ﴿ وتخر الجبال ﴾ أى تسقط وتهدم وقوله تعالى ﴿ هدا ﴾ مصدر مؤكد لمحذوف هو حال من الجبال أى تهد هدا أو مصدر من المبنى للمفعول مؤكد لتخر على غير الصدر لانه حينئذ بمعنى التهدم والخرور كأنه قيل وتخر الجبال خرورا أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحالية أى مهدودة أو مفعول له أى لانها تهد وهذا تقرير لكونه ادا والمعنى أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطاق بها هاتيك الاجرام العظام وتفتتت من شدتها أو أن فظاعتها فى استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حلمه تعالى لخرب العالم و بددت قوائمه غضبا على من تفوه بها ﴿ أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ منصوب على حذف اللام المتعلقة بتكاد أو مجرور باضمارها أى تكاد السموات يتفطرن والارض تنشق والجبال تخر لأن دعوا له سبحانه ولدا وقيل اللام متعلقة بهدا وقيل الجملة بدل من الضمير المجرور فى منه كما فى قوله على جوده لضن بالماء حاتم وقيل خبر مبتدا محذوف أى الموجب لذلك أن دعوا الخ وقيل فاعل هدا أى هدها دعاء الولد والاول هو الاولى ودعوا من دعا بمعنى سمى المتعدى الى مفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول كل مادعى له ولدا أو من دعا بمعنى نسب الذى مطاوعه ادعى الى فلان أى انتسب اليه وقوله تعالى ﴿ وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ حال من فاعل قالوا أو دعوا مقررة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقق مضمونها أى قالوا اتخذ الرحمن ولدا أو أن دعوا للرحمن ولدا والحال أنه مايليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلا لاستحالته فى نفسه و وضع الرحمن موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ماسواه تعالى اما نعمة أو منعم عليه فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولدا وقد صرح لقوم به عز قائلا ﴿ ان كل من فى السموات والارض ﴾ أى مامنهم أحد من الملائكة والثقلين ﴿ الا آتى الرحمن عبدا ﴾ الا وهو مملوك له يأوى اليه بالعبودية والانقياد وقرئ آت الرحمن على الأصل ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أى حصرهم وأحاط بهم بحيث لايكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته ﴿ وعدهم عدا ﴾ أى عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم و كل شئ عنده بمقدار ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ أى كل واحد منهم آت إياه تعالى منفردا من الاتباع والانصار و فى صيغة الفاعل من الدلالة على اتيانهم كذلك البتة ماليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه فاذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئا منهم ولدا ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ لما فصلت قبائح أحوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن أحوال المؤمنين ﴿ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها سوى مالهم من الايمان والعمل الصالح والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود

من آثارها وعن النبى عليه الصلاة والسلام اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام انى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء ان الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له المحبة فى الارض والسين لان السورة مكية وكانوا اذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثم أنجزه حين ربا الاسلام أو لان الموعود فى القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤس الاشهاد فينزع مافى صدورهم من الغل الذى كان فى الدنيا ولعل افراد هذا بالوعد من بين ماسيؤتون يوم القيامة من الكرامات السنية لما أن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن ﴿ فانما يسرناه ﴾ أى القرآن ﴿ بلسانك ﴾ بان أنزلناه على لغتك والباء بمعنى على وقيل ضمن التيسير معنى الانزال أى يسرنا القرآن منزلين له بلغتك والفاء لتعليل أمر ينساق اليه النظم الكريم كانه قيل بعد ايحاء السورة الكريمة بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فانما يسرناه بلسانك العربى المبين ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أى الصائرين الى التقوى بامتثال مافيه من الامر والنهى ﴿ وتنذر به قوما لدا ﴾ لايؤمنون به لجاجا وعنادا واللد جمع الالد وهو الشديد الخصومة اللجوج المعاند وقوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضمن وعيد الكفرة بالاهلاك وحث له عليه الصلاة والسلام على الانذار أى قرنا كثيرا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين وقوله تعالى ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله أى هل تشعر بأحد منهم وترى ﴿ أو تسمع لهم ركزا ﴾ أى صوتا خفيا وأصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه فى الارض والركاز المال المدفون المخفى والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لايرى منهم أحد و لا يسمع منهم صوت خفى . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى ومريم وسائر الانبياء المذكورين فيها و بعدد من دعا الله تعالى فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى

سـورة طه

(مكية وهى مائة وخمس وثلاثون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طه ﴾ فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الاصل والطاء وحده أبو عمرو و ورش لاستعلائه وأمالهما الباقون وهو من الفواتح التى يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يارجل وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنه والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى الا أنه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبى على لغة عك وقيل عكل وهى لغة يمانية قالوا ان صح فلعل أصله ياهذا فتصرفوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد به من قول الشاعر

ان السفاهة طه فى خلائقكم لاقدس الله أخلاق الملاعين

ليس بنص فى ذلك لجواز كونه قسما كما فى حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الأصل طاها بصيغة الأمر من الوطء فقلبت الهمزة فى يطأ ألفا لانفتاح ماقبلها كما فى قول من قال لا هناك المرتع وها ضمير الأرض على أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الأرض بقدميه لما كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه مبالغة فى المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأبى التفسير يارجل فان الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرئ طه اما على أن أصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى أمثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا

كما مر ثم بنى منه الامر وألحق به هاء السكت واما على أنه اكتنى فى التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال أو اكتنى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث انهما مسميان لاسميهما ليقعا معبرا عنهما بل من حيث انهما جزآن لهما قد اكتنى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزآن للاسمين ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتنى فى التلفظ بشطرى الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى أنه اكتنى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقديرى كونه أمرا وكونه حرف نداء وها على تقديرى كونها كناية عن الأرض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين فى التلفظ باسمهما فبين البطلان كيف وطا وها على ما ذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الأول أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الأرض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ما سلف من أنها من الفواتح اما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ فانه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وقيل ان أبا جهل والنضر بن الحرث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك شقى حيث تركت دين آبائك وان القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا والاول هو الأنسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا واما اسم للقرآن محله الرفع على أنه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر أوقع موقع العائد الى المبتدأ كانه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أو النصب على اضمار فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الأول فانه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مقامه فان القرآن صادق على الصورة لا محالة اما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض أو باعتبار الاندراج ان أريد به الكل بل لأن نفى كون انزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على انزاله قطعا اما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب أو بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولا ريب فى أن ذلك انما يتصور فى انزال ما أنزل من قبل وأما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما باعتبار الاتحاد فظاهر وأما باعتبار الاندراج فلأن مآله أن يقال هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى أن جعلها مخبرا عنها مع أنه لا دخل لانزالها فى الشقاء السابق أصلا مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى ﴿الا تذكرة﴾ نصب على أنه مفعول له لأنزلنا لكن لا من حيث انه معلل بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه الا تذكرة الآية كقولك ماضربتك للتأديب

الا اشفاقا لما أنه يجب فى أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما فى المثال المذكور وفى قولك ماشافهتك بالسوء لتتأذى الا زجرا لغيرك فان التأديب فى الأول مسبب عن الاشفاق والتأذى فى الثانى سبب لزجر الغير وقد عرفت مابين الشقاء والتذكرة من التنافى ولا يجدى أن يراد به التعب فى الجملة الجامع للتذكرة لظهور أن لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وانما يتصور ذلك أن لو قيل مكان الا تذكرة الا تكثيرا لثوابك فان الأجر بقدر التعب ولا من حيث انه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى مافعلوه الا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث انه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ماأنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه ولكن تذكرة ﴿لمن يخشى﴾ وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن من شأنه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنهم المنتفعون بها وقوله تعالى ﴿تنزيلا﴾ مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستثنائية فانها متضمنة لأن يقال أنزلناه للتذكرة والأول هو الأنسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على أنه مفعول له لأنزلنا اذ لا يعلل الشىء بنفسه ولا بنوعه بل على أنه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولا مساغ له الا بأن يكون قيدا لأنزلنا بعد تقيده بالقيد الأول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرىء تنزيل على أنه خبر لمبتدا محذوف ومن فى قوله تعالى ﴿ممن خلق الارض والسموات العلى﴾ متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ونسبة التنزيل الى الموصول بطريق الالتفات الى الغيبة بعد نسبته الى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الافعال والصفات اثر بيانها بحسب الذات بطريق الابهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع مايتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى له مافى السموات ومافى الارض الآية لاصالتهما واستتباعهما لما عداهما وتقديم الارض لكونه أقرب الى الحس وأظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامة مع مافيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك الى قوله تعالى له الاسماء الحسنى مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شأن المنزل الداعى الى تربية المهابة وادخال الروعة المؤدية الى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية الى التذكرة والايمان ﴿الرحمن﴾ رفع على المدح أى هو الرحمن وقد عرفت فى صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ماقبله وان لم يكن تابعا له فى الاعراب ولذلك التزموا حذف المبتدا ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته وقد قرىء بالجر على أنه صفة صريحة للموصول وماقيل من أن الاسماء الناقصة لا يوصف منها الا الذى وحده مذهب الكوفيين وأياما كان فوصفه بالرحمانية اثر وصفه بخالقية السموات والارض للاشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى رب السموات والارض ومابينهما الرحمن للايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه اشارة الى أن تنزيل القرآن أيضا من أحكام رحمته تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى الرحمن علم القرآن أو رفع على الابتداء واللام للعهد والاشارة الى الموصول والخبر قوله تعالى ﴿على العرش استوى﴾ وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى شأنه ان يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للايذان بأن ذلك أمر بين لا سترة به غنى عن الاخبار به صريحا وعلى

متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الأول خبر مبتدا محذوف كما فى قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبرا بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير أصلا والمراد بيان تعلق ارادته الشريفة بايجاد الكائنات وتدبير أمرها وقوله تعالى ﴿له ما فى السموات وما فى الارض﴾ سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما ﴿وما بينهما﴾ من الموجودات الكائنة فى الجو دائما كالهواء والسحاب أو أكثريا كالطير أى له وحده دون غيره لا شركة و لا استقلالا كل ما ذكر ملكا وتصرفا واحياء واماتة وايجادا واعداما ﴿وما تحت الثرى﴾ أى ما وراء التراب وذكره مع دخوله تحت ما فى الارض لزيادة التقرير روى عن محمد بن كعب أنه ما تحت الارضين السبع وعن السدى أن الثرى هو الصخرة التى عليها الارض السابعة ﴿وان تجهر بالقول﴾ بيان لاحاطة علمه تعالى بجميع الاشياء اثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أى وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك ﴿فانه يعلم السر وأخفى﴾ أى ما أسررته الى غيرك وشيئا أخفى من ذلك وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ما أسررته لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتى وتنكيره للمبالغة فى الخفاء وهذا اما نهى عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما ارشاد للعباد الى أن الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى ﴿الله﴾ خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أى ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى ﴿لا اله الا هو﴾ تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ما أسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى ﴿له الاسماء الحسنى﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فانه روى أن المشركين حين سمعوا النبى عليه الصلاة والسلام يقول يا ألله يا رحمن قالوا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر والحسنى تأنيث الاحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كمآرب أخرى وآياتنا الكبرى ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذى اليه انتهى مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له اننى أنا الله لا اله الا أنا وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله حيث قال انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبى عليه الصلاة والسلام فى الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام فى تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب فى تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق وقوله تعالى ﴿اذ رأى نارا﴾ ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر أى حين رأى نارا كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أى اذكر وقت رؤيته نارا روى أنه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام فى الخروج الى أمه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشأم فلما وافى وادى طوى وهو بالجانب الغربى من الطور ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فبينما هو فى ذلك اذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور ﴿فقال لاهله امكثوا﴾ أى أقيموا مكانكم أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب الى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا الى موضع آخر فانه مما لا يخطر بالبال

والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع اما لظاهر لفظ الاهل أو للتفخيم كما فى قول من قال وان شئت حرمت النساء سواكم ﴿انى آنست نارا﴾ أى أبصرتها ابصارا بينا لا شبهة فيه وقيل الايناس خاص بابصار ما يؤنس به والجملة تعليل للامر أو المأمور به ﴿لعلى آتيكم منها﴾ أى أجيئكم من النار ﴿بقبس﴾ أى بشعلة مقتبسة من معظم النار وهى المرادة بالجذوة فى سورة القصص وبالشهاب القبس ﴿أو أجد على النار هدى﴾ هاديا يدلنى على الطريق على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذا هداية أو على أنه اذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل هاديا يهدينى الى أبواب الدين فان أفكار الابرار مغمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والاول هو الاظهر لان مساق النظم الكريم لتسلية أهله وقد نص عليه فى سورة القصص حيث قيل لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة الآية وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها أو لانهم عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعودا فيشرفون عليها ولما كان الاتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى اما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الأمر بالمكث والاخبار بايناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم واما حال من فاعله أى فأذهب اليها لآتيكم أو كى آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيق ذلك مفصلا فى تفسير قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴿فلما أتاها﴾ أى النار التى آنسها قال ابن عباس رضى الله عنهما رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها الى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها. قالوا النار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهى نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهى نار الشجر الاخضر وصنف يأكل ويشرب وهى نار جهنم وصنف لا يأكل ولا يشرب وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا أيضا هى أربعة أنواع نوع له نور واحراق وهى نار الدنيا ونوع لا نور له ولا احراق وهى نار الاشجار ونوع له نور بلا احراق وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام ونوع له احراق بلا نور وهى نار جهنم روى أن الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة ﴿نودى يا موسى﴾ أى نودى فقيل يا موسى ﴿انى أنا ربك﴾ أو عومل النداء معاملة القول لكونه ضربا منه وقرئ بالفتح أى بأنى وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة واماطة الشبهة روى أنه لما نودى يا موسى قال عليه الصلاة والسلام من المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فوسوس اليه ابليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأنى أسمعه من جميع الجهات بجميع الاعضاء قلت وذلك لأن سماع ما ليس من شأنه ذلك من الاعضاء ليس الا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل الى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة ﴿فاخلع نعليك﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بذلك لأن الحفوة أدخل فى التواضع وحسن الادب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كانا من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الاهل والمال والفاء لترتيب الامر على ما قبلها فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الامر ودواعيه وقوله تعالى ﴿انك بالواد المقدس﴾ تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الامر بذلك من شرف البقعة وقدسها روى أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى ﴿طوى﴾ بضم الطاء غير منون وقرئ منونا وقرئ بالكسر منونا وغير منون فمن نونه أوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى من الطى مصدر لنودى أو المقدس

أى نودى نداءين أوقدس مرة بعد أخرى ﴿وأنا اخترتك﴾ أى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرئ وانا اخترناك بالفتح والكسر والفاء فى قوله ﴿فاستمع﴾ لترتيب الامر أو المأمور به على ماقبلها فان اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والامر به واللام فى قوله تعالى ﴿لما يوحى﴾ متعلقة باستمع وما موصولة أو مصدرية أى فاستمع للذى يوحى اليك أوللوحى لا باخترتك كما قيل لكن لا لما قيل من أنه من باب التنازع واعمال الاول فلا بد حينئذ من اعادة الضمير مع الثانى بل لأن قوله تعالى ﴿اننى أنا الله لااله الا أنا﴾ بدل من مايوحى ولاريب فى أن اختياره عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى ﴿فاعبدنى﴾ لترتيب المأمور به على ماقبلها فان اختصاص الالوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل ﴿وأقم الصلوة﴾ خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالامر مع اندراجها فى الامر بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى ﴿لذكرى﴾ أى لتذكرنى فان ذكرى كما ينبغى لايتحقق الا فى ضمن العبادة والصلاة أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الاذكار أو لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى أو لاخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لاترائى بها ولاتقصد بها غرضا آخر أو لتكون ذاكرا لى غير ناس وقيل لذكرى اياها وأمرى بها فى الكتب أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وقيل لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها اذا ذكرها لأن الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكرى وقرئ لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى ﴿ان الساعة آتية﴾ تعليل لوجوب العبادة واقامة الصلاة أى كائنة لامحالة وانما عبر عن ذلك بالاتيان تحقيقا لحصولها بابرازها فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿أكاد أخفيها﴾ أى لاأظهرها بأن أقول انها آتية ولولا أن مافى الاخبار بذلك من اللطف وقطع الاعذار لمافعلت أو أكاد أظهرها بايقاعها من أخفاه اذا أظهره بسلب خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الاضداد يجىء بمعنى الاظهار والستر وقوله تعالى ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ متعلق بآتية ومابينهما اعتراض أو بأخفيها على المعنى الاخير ومامصدرية أى لتجزى كل نفس بسعيها فى تحصيل ماذكر من الأمور المأموربها وتخصيصه فى معرض الغاية لاتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بماصدر عنها سواء كان سعيا فيما ذكر أو تقاعدا عنه بالمرة أو سعيا فى تحصيل مايضاده للايذان بأن المراد بالذات من اتيانها هو الاثابة بالعبادة وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى فى الامتثال بالامر وتجد فى تحصيل ماينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اقتراف مايرديها من المعاصى وعليه مدار الامر فى قوله تعالى وهوالذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط قد علق بالأخيرين لما ذكر من أن المقصود الاصلى من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على أتم الوجوه الرائقة وأكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لايحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم فى سلك الغاية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له أو مسوغ هذا ويجوز أن يراد بالسعى مطلق العمل ﴿فلا يصدنك عنها﴾ أى عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والاول هو

الاليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وان كان النهى بطريق التهييج والالهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى ﴿من لا يؤمن بها﴾ لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولأن فى المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشىء ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية من أصلها كما فى قوله تعالى ولايجرمنكم الخ فان صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهى عنه نهيا بأصله وموجبه وابطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهى عن المسبب وارادة النهى عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن اظهار لين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم اياه عليه الصلاة والسلام كما فى قوله لاأرينك ههنا فان المراد به نهى المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته ﴿واتبع هواه﴾ أى ماتهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية ﴿فتردى﴾ أى فتهلك فان الاغفال عنها وعن تحصيل ماينجى عن أهوالها مستتبع للهلاك لامحالة وهو فى محل النصب على جواب النهى أو فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى فأنت تردى ﴿وماتلك بيمينك ياموسى﴾ شروع فى حكاية ماكلف به عليه الصلاة والسلام من الامور المتعلقة بالخلق اثر حكاية ماأمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فما استفهامية فى حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا أى وماتلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما فى قوله عز وعلا وهذا بعلى شيخا وقيل تلك موصولة أى ماالتى هى بيمينك وأياما كان فالاستفهام ايقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ماسيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه ﴿قال هى عصاى﴾ نسبها الى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعقبه من الافاعيل المنسوبة اليه عليه الصلاة والسلام وقرئ عصى على لغة هذيل ﴿أتوكأ عليها﴾ أى أعتمد عليها عند الاعياء أو الوقوف على رأس القطيع ﴿وأهش بها﴾ أى أخبط بها الورق وأسقطه ﴿على غنمى﴾ وقرئ أهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش اذا انكسر لهشاشته وقرئ بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمين معنى الانحاء والاقبال أى أزجرها منحيا ومقبلا عليها ﴿ولى فيها مآرب أخرى﴾ أى حاجات أخر من هذا الباب مثل ماروى أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب ونحوها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل به واذا قصر الرشاء وصله بها واذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها قيل ومن جملة المآرب أنها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا أراد كسره لواه بالشعبتين وكانه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى اذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم أنها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى أنها من جنس العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال ﴿ألقها ياموسى﴾ لترى من شأنها مالم يخطر ببالك من الامور وتكرير النداء لتأكيد التنبيه ﴿فألقاها﴾ على الارض ﴿فاذا هى حية تسعى﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا أخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من أول الامر ثعبان وهو

الاليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل فاذاهى ثعبان مبين وانما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لافى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اما صفة لحية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿خذها ولا تخف﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شئ من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الامر اشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ مع كونه استئنافا مسوقا لتعليل الامتثال بالامر والنهى فان اعادتها الى ما كانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها عدة كريمة باظهار معجزة أخرى على يده عليه الصلاة والسلام وايذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الاخذ الى حالتها الاولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف الى حيث كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى الى سيرتها أو على أن أعاد منقول من عاده بمعنى عاد اليه أو على الظرفية أى سنعيدها فى طريقتها أو على تقدير فعلها وايقاعها حالا من المفعول أى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الاولى أى سائرة سيرتها الاولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل ﴿واضمم يدك الى جناحك﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بذلك بعدما أخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت أى أدخلها تحت عضدك فان جناحى الانسان جنباه كما أن جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا جناحين لانه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران وقوله تعالى ﴿تخرج﴾ جواب الامر وقوله تعالى ﴿بيضاء﴾ حال من الضمير فيه وقوله تعالى ﴿من غير سوء﴾ متعلق بمحذوف هو حال من الضمير فى بيضاء أى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوءة عن العورة لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تغشى البصر ﴿آية أخرى﴾ أى معجزة أخرى غير العصا وانتصابها على الحالية اما من الضمير فى تخرج على أنها بدل من الحال الاولى واما من الضمير فى بيضاء وقيل من الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ أو دونك وقوله تعالى ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ متعلق بمضمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا ما فعلنا من الامر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ما هى كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعا واما تعلقه بما دل عليه آية أى دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم أو بقوله تخرج أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى الى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر ﴿اذهب الى فرعون﴾ تخلص الى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذانا بأصالته أى اذهب اليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى ﴿انه طغى﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعينا بربه عز وجل ﴿رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى﴾ لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع الى ربه عز وجل وأظهر عجزه بقوله ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى وسأله تعالى أن يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤون الحق وأحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره

بجميل الصبر وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجأش رابط وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذى هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بابهام المشروح والميسر أولا وتفسيرهما ثانيا وفى تقديمها وتكريرها اظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به ﴿واحلل عقدة من لسانى﴾ روى أنه كان فى لسانه عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة أدخلها فاه فى صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ لحيته فنتفها لما كان فيها من الجواهر فغضب وأمر بقتله فقالت آسية انه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها فى فيه قيل واحترقت يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال الى أى رب تدعونى قال الى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى قد أوتيت سؤلك ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى هو أفصح منى وقوله تعالى ولا يكاد يبين وأجاب عن الاول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة تمنع الافهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله من لسانى أى عقدة كائنة من عقد لسانى وجعل قوله تعالى ﴿يفقهوا قولى﴾ جواب الامر وغرضا من الدعاء فبحلها فى الجملة يتحقق ايتاء سؤله عليه الصلاة والسلام والحق أن ما ذكر لا يدل على بقائها فى الجملة أما قوله تعالى هو أفصح منى فلأنه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاء الحل كما ستعرفه على أن أفصحيته منه عليهما الصلاة والسلام لا تستدعى بقاءها أصلا بل تستدعى عدم البقاء لما أن الافصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة فى المفضول أيضا وذلك مناف للعقدة رأسا وأما قوله تعالى ولا يكاد يبين فمن باب غلو اللعين فى العتو والطغيان والا لدل على عدم زوالها أصلا وتنكيرها انما يفيد قلتها فى نفسها لا قلتها باعتبار كونها بعضا من الكثير وتعلق كلمة من فى قوله تعالى من لسانى بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فان المحلول اذا كان متعلقا بشئ ومتصلا به فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشئ أيضا باعتبار ازالته عنه أو ابتداء حصوله منه ﴿واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى﴾ أى موازرا يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل او ملجأ أعتصم برأيه على أنه من الوزر وهو الملجأ وقيل أصله أزير من الأزر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس قلبت همزته واوا كقلبها فى موازر ونصبه على أنه مفعول ثان لاجعل قدم على الأول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء بشأن الوزارة ولى صلة للجعل أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيرا اذ هو صفة له فى الاصل ومن أهلى اما صفة لوزيرا أو صلة لاجعل وقيل مفعولا لاجعل لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن أهلى كما مر من الوجهين وأخى فى الوجهين بدل من هرون أو عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من أهلى ولى تبيين كما فى قوله تعالى ولم يكن له كفوا أحد ورد بأن شرط المفعولين فى باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ ويخبر عنه بما بعده ﴿أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى﴾ كلاهما على صيغة الدعاء أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف ﴿كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا﴾ غاية للادعية الثلاثة الاخيرة فان فعل فيها كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه أيضا بسبب تقويته وتأييده اذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو فى الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة الى الحق وذلك مما لا ريب فى اختلاف حاله فى حالتى التعدد والانفراد فان كلا منهما يصدر عنه

بتأييد الآخر من اظهار الحق مالا يكاد يصدر عنه مثله فى حال الانفراد وكثيرا فى الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أى ننزهك عمالا يليق بك من الصفات والأفعال التى من جملتها مايدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من ادعاء الشركة فى الالوهيـة ونصفك بمـا يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا أو زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه وأما ماقيل من أن المعنى كى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليـك فلا يساعده المقام ﴿انك كنت بنا بصيرا﴾ أى عالمـا بأحوالنا وبأن مادعوتك به ممـا يصلحنا ويفيدنا فى تحقيق ماكلفته من اقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الرد فى أداء ما أمرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل ﴿قال قد أوتيت سؤلك﴾ أى أعطيت سؤلك فعـل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمـأكول والايتاء عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السـلام البتة وتقديره اياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الأمر وشد الأزر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى ﴿ياموسى﴾ تشريف له عليـه السـلام بشرف الخطاب اثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى ﴿ولقد مننا عليك﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليـه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلان ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى وبالله لقد أنعمنا ﴿مرة أخرى﴾ أى فى وقت غير هذا الوقت لا أن ذلك مؤخر عن هذا فان أخرى تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من أفراد ماله أفراد متجددة متعـددة فصار علما فى ذلك حتى جعل معيارا لمـا فى معناه من سائر الاشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها ههنا الوقت الممتد الذى وقع فيـه ماسيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى ﴿اذ أوحينا الى أمك ما يوحى﴾ ظرف لمننا والمراد بالايحاء اما الايحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى واذ أوحيت الى الحواريين الآية واما الايحاء بواسطة الملك لاعلى وجه النبوة كما أوحى الى مريم واما الالهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل واما الاراءة فى المنام والمراد بمـا يوحى ماسيأتى من الأمر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم أولا تهويلا له وتفخيما لشأنه ثم فسر ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به وقيـل مالا يعلم الا بالوحى وفيه انه لايلائم المعنيين الاخيرين للوحى اذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون ممـا لا يعلم الا بالالهام أو بالاراءة فى المنام وأن فى قوله تعالى ﴿أن اقذفيه فى التابوت﴾ مفسرة لأن الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها الباء أى بأن اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى ﴿فاقذفيه فى اليم﴾ فالالقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى فاذا خفت عليه فألقيه في اليم لا القذف بلا تابوت ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ لمـا كان القاء البحر اياه بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعـل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك وأخرج الجواب مخرج الامر والضمائر كلها لموسى عليه السـلام والمقذوف فى البحر والملقى بالساحل وان كان هو التابوت أصالة لكن لمـا كان المقصود بالذات مافيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك ﴿يأخذه عدو لى وعدو له﴾ جواب للامر بالالقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالامر والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيـه ولا تضره بل تؤدى الى المحبة فان الامر بمـا هو سبب للهلاك صورة من قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى وقيل الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطىء بل ما يقابل الوسط وهو مايلى الساحل

من البحر بحيث يجرى ماؤه الى نهر فرعون لمـا روى أنها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته وألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر صغير فدفعه المـاء اليه فأتى به الى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فاذا هو صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى ﴿وألقيت عليك محبة منى﴾ كلمة من متعلقه بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لمـا فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدو الله وآله وقيل هى متعلقة بألقيت أى أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لامحالة وقوله تعالى ﴿ولتصنع على عينى﴾ متعلق بألقيت معطوف على علة له مضمرة أى ليتعطف عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتى وحفظى أو بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله من القاء المحبة والجمـلة مبتدأة أى ولتصنع على عينى فعلت ذلك وقرىء ولتصنع على صيغة الامر بسكون اللام وكسرها وقرىء بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك على عين منى لئلا يخالف به عن أمرى ﴿اذ تمشى أختك﴾ ظرف لتصنع على أن المراد به وقت وقع فيه مشيها الى بيت فرعون وماترتب عليه من القول والرجع الى أمها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عينى اذ لا شفقة أعظم من شفقة الام وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من اذ أوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الاطراف وهو الانسب بمـا سيأتى من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فان جميع ذلك من المنن الالهية ولا تعلق لشىء منها بالصنع المذكور وأما كونه ظرفا لألقيت كما جوز فربما يوهم أن القاء المحبة لم يحصـل قبل ذلك ولا ريب فى أن معظم آثار القائها ظهر عند فتح التابوت ﴿فتقول﴾ أى لفرعون وآسـية حين رأتهما يطلبان له عليه السـلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية ﴿هل أدلكم على من يكفله﴾ أى يضمه الى نفسـه ويربيه وذلك انمـا يكون بقبوله ثديها روى أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لا يرتضع ثدى امرأة واضطروا الى تتبع النسـاء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا فجاءت بامه فقبل ثديها فالفاء فى قوله تعالى ﴿فرجعناك الى أمك﴾ فصيحة معربة عن محـذوف قبلها يعطف عليه ما بعـدها أى فقالوا دلينا عليها فجاءت بامك فرجعناك اليها ﴿كى تقر عينها﴾ بلقائك ﴿ولا تحزن﴾ أى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك والا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فان التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد اشفاقها ﴿وقتلت نفسا﴾ هى نفس القبطى الذى استغاثه الاسرائيلى عليه ﴿فنجيناك من الغم﴾ أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالانجاء منه بالمهـاجرة الى مدين ﴿وفتناك فتونا﴾ أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو اجمال مانا له فى سـفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الالاف والمشى راجلا وفقد الزاد وقد روى أن سعيد بن جبير سأل عنـه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسـه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذى يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد اجارة نفسـه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ماوقع قبل وصوله عليه السـلام الى مدين بقضية الفاء فى قوله تعـالى ﴿فلبثت سنين فى أهل مدين﴾ اذ لا ريب فى أن الاجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول اليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السـلام فيهم دون وصوله

اليهم الى جميع ماقاساه عليه السلام فى تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأى فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثمانى مراحل من مصر ﴿ثم جئت﴾ الى المكان الذى أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفى كلمة التراخى ايذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق وتفرق الغنم فى الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك ﴿على قدر﴾ أى تقدير قدرته لان أكلمك وأستنبئك فى وقت قدعينته لذلك فما جئت الا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة وقوله تعالى ﴿ياموسى﴾ تشريف له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الاخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولا وقوله تعالى ﴿واصطنعتك لنفسى﴾ تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لارساله عليه السلام الى فرعون مؤيدا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابغة السابقة تأكيدا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ونظيريه السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أى اصطفيتك برسالاتى و بكلامى وقوله تعالى ﴿اذهب أنت وأخوك﴾ أى وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ماهو المقصود بالاصطناع ﴿بآياتى﴾ أى بمعجزاتى التى أريتكها من اليد والعصا فانهما وان كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى فيه آيات بينات مقام ابراهيم فان انقلاب العصا حيوانا آية و كونها ثعبانا عظيما لايقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى و كونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده فى فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى و كذلك اليد فان بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها الى حالتها الاولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية اذ المراد ذهابهما الى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها فى اجراء أحكام الرسالة واكمال أمر الدعوة لا مجرد اذهابها وايصالها اليه ﴿ولاتنيا﴾ لاتفترا ولا تقصرا وقرئ لاتنيا بكسر التاء للاتباع ﴿فى ذكرى﴾ أى بما يليق بى من الصفات الجليلة والافعال الجميلة عند تبليغ رسالتى والدعاء الى وقيل المعنى لاتنيا فى تبليغ رسالتى فان الذكر يقع على جميع العبادات وهو أجلها وأعظمها وقيل لاتنسيانى حيثما تقلبتما واستمدا بذكرى العون والتأييد واعلما أن أمرا من الامور لا يتأتى ولايتسنى الا بذكرى ﴿اذهبا الى فرعون﴾ جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون اذ ذاك للتغليب و كذا الحال فى صيغة النهى روى أنه أوحى الى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه ﴿انه طغى﴾ تعليل لموجب الامر والفاء فى قوله تعالى ﴿فقولا له قولا لينا﴾ لترتيب ما بعدها على طغيانه فان تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة و يلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تعنفا فى قولكما وقيل القول اللين مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فانها دعوة فى صورة عرض ومشورة و برده ماسيجئ من قوله تعالى فقولا انا رسولا ربك الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبوالوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا يهرم و يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لا يزول الا بالموت وقرئ لينا ﴿لعله يتذكر﴾ بما بلغتماه من ذكرى و يرغب فيما رغبتماه فيه ﴿أو يخشى﴾ عقابى ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أى فقولا له قولا لينا راجين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لمنع الخلو أى باشرا الامر مباشرة من يرجو و يطمع فى أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو يجتهد بطوقه و يحتشد بأقصى وسعه وجدوى ارسالها اليه مع العلم

بحاله الزام الحجة وقطع المعذرة ﴿قالا ربنا﴾ أسند القول اليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب ايذانا بأصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له فى كل ما يأتى و يذر ويجوز أن يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية كما فى قوله تعالى ياأيها الرسل كلوا من الطيبات فان هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب الا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف باجتماعهم فى الخطاب ﴿اننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أى يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر الى اتمام الدعوة واظهار المعجزة من فرط اذا تقدم ومنه الفارط وفرس فارط يسبق الخيل وقرئ يفرط من أفرطه اذا حمله على العجلة أى نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب ﴿أو أن يطغى﴾ أى يزداد طغيانا الى أن يقول فى شأنك مالا ينبغى لكمال جراءته وقساوته واطلاقه من حسن الادب واظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لاظهار كمال الاعتناء بالامر والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال الناشئ من النظم الكريم ولعل اسناد الفعل الى ضمير الغيبة للاشعار بانتقال الكلام من مساق الى مساق آخر فان ماقبله من الافعال الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ماسيأتى من قوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الأعلى فان ما قبله أيضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما اليه فقيل قال ﴿لا تخافا﴾ ما توهمتما من الامرين وقوله تعالى ﴿اننى معكما﴾ تعليل لموجب النهى ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿أسمع وأرى﴾ أى ما يجرى بينكما و بينه من قول وفعل فأفعل فى كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر وجلب نفع وخير و يجوز أن لا يقدر شئ على معنى اننى حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر اذا كان كذلك فقدتم و بلغت النصرة غايتها ﴿فأتياه﴾ أمرا باتيانه الذى هو عبارة عن الوصول اليه بعد ما أمرا بالذهاب اليه فلا تكرار وهو عطف على لاتخافا باعتبار تعليله بما بعده ﴿فقولا انا رسولا ربك﴾ أمرا بذلك تحقيقا للحق من أول الامر ليعرف الطاغية شأنهما ويبنى جوابه عليه و كذا التعرض لربوبيته تعالى له والفاء فى قوله تعالى ﴿فأرسل معنا بنى اسرائيل﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها فان كونهما رسولى ربه مما يوجب ارسالهم معهما والمراد بالارسال اطلاقهم من الاسر والقسر واخراجهم من تحت يده العادية لاتكليفهم أن يذهبوا معهما الى الشام كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ولا تعذبهم﴾ أى بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الاعمال الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الاحجار وغيرهما من الامور الشاقة و يقتلون ذكور أولادهم عاما دون عام و يستخدمون نساءهم وتوسيط حكم الارسال بين بيان رسالتهما و بين ذكر المجئ بآية دالة على صحتها لاظهار الاعتناء به مع ما فيه من تهوين الامر على فرعون فان ارسالهم معهما من غير تعرض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه كل المشقة ولأن فى بيان مجئ الآية نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما ماقيل من أن ذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم الى الايمان فكلا ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الارسال فان مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما و يقررها و يوجب الامتثال بأمرهما واظهار اسم الرب فى موضع الاضمار مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتأكيد ماذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها لان المراد اثبات الدعوى ببرهانها لا بيان تعدد الحجة و كذلك قوله تعالى قد جئتكم ببينة وقوله تعالى أولو جئتك بشئ مبين

وأما قوله تعالى فأت بآية ان كنت من الصادقين فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات ﴿والسلام﴾ المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين ﴿على من اتبع الهدى﴾ بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق وفيه من ترغيبه فى اتباعهما على ألطف وجه مالا يخفى ﴿انا قد أوحى الينا﴾ من جهة ربنا ﴿أن العذاب﴾ الدنيوى والاخروى ﴿على من كذب﴾ أى بآياته تعالى ﴿وتولى﴾ أى أعرض عن قبولها وفيه من التلطيف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه ﴿قال﴾ أى فرعون بعد ما أتياه و بلغاه ما أمرا به وانما طوى ذكره للايجاز والاشعار بأنهما كما أمرا بذلك سارعا الى الامتثال به من غير تلعثم و بأن ذلك من الظهور بحيث لاحاجة الى التصريح به ﴿فمن ربكما ياموسى﴾ لم يضف الرب الى نفسه و لو بطريق حكاية مافى قوله تعالى انا رسولا ربك وقوله تعالى قد جئناك بآية من ربك لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه اليهما لما أن المرسل لابد أن يكون ربا للرسول أو لانهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بان قالا انا رسول رب العالمين كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ماسبق من كونهما رسولى ربهما أى اذا كنتما رسولى ربكما فأخبرا من ربكما الذى أرسلكما وتخصيص النداء بموسى عليه الصلاة والسلام مع توجيه الخطاب اليهما لما أنه الاصل فى الرسالة وهرون وزيره وأما ماقيل من أن ذلك لانه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رتة فأراد أن يفحمه فيرده ماشاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأما قوله ولا يكاد يبين فمن غلوه فى الخبث والدعارة كما مر ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام مجيباله ﴿ربنا﴾ امامبتدأ وقوله تعالى ﴿الذى أعطى كل شىء خلقه﴾ خبره أو هو خبر لمبتدا محذوف والموصول صفته وأياما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق و ردا عليه كما يفصح عنه مافى حيز الصلة أى هو ربنا الذى أعطى كل شىء من الاشياء خلقه أى صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شىء تحتاج هى اليه وترتفق به وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيأ من ذلك بخلاف جنسه وقرىء خلقه على صيغة الماضى على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه وحذف المفعول الثانى اما للاقتصار على الاول أى كل شىء خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وانعامه أو للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال أى أعطى كل شىء خلقه الله تعالى مايحتاج اليه ﴿ثم هدى﴾ أى الى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله اما اختيارا كما فى الحيوانات أو طبعا كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدما على الهداية التى هى عبارة عن ابداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام وسط بينهما كلمة التراخى ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين أنه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعم عليها بجميع مايليق بها بطريق التفضل وضمنه أن ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هداياته تعالى اياه بعد أن هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ لما شاهد اللعين مانظمه عليه الصلاة والسلام فى سلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه الصلاة والسلام و بطلان خرافات نفسه ظهورا بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه الى مالا يعنيه من الامور التى لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات و يشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك الى أن

يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والأمم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فاجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وانما علمها عند الله عز وجل وأما ما قيل من أنه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى ﴿قال علمها عند ربى﴾ فان معناه أنه من الغيوب التى لا يعلمها الا الله تعالى وانما أنا عبد لا أعلم منها الا ماعلمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ولو كان المسؤول عنه ما ذكر من الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى والسلام الآيتين ﴿فى كتاب﴾ أى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله و يجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى ﴿لا يضل ربى ولا ينسى﴾ أى لا يخطىء ابتداء ولا يذهب علمه بقاء بل هو ثابت أبدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الأول لبيان أن اثباته فى اللوح ليس لحاجته تعالى اليه فى العلم به ابتداء أو بقاء واظهار ربى فى موقع الاضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير والاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضى عدم الضلال والنسيان حتما ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤنه تعالى ثم تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتى من الالتفات ﴿الذى جعل لكم الأرض مهداً﴾ على أن الموصول اما مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبر مبتدا محذوف أى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها أو ذات مهد وهو مصدر سمى به المفعول وقرىء مهاداً وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أى جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم ﴿وسلك لكم فيها سبلا﴾ أى حصل لكم طرقا و وسطها بين الجبال والأودية والبرارى تسلكونها من قطر الى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ هو المطر ﴿فأخرجنا به﴾ أى بذلك الماء وهو عطف على أنزل داخل تحت الحكاية وانما التفت الى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والايذان بأنه لا يتأتى الا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة كما فى قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وقوله تعالى أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة خلا أن ما قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فاخرجنا به هو المحكى مع كون ماقبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ﴿أزواجا﴾ أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿من نبات﴾ بيان أو صفة لأزواجا أى كائنة من نبات و كذا قوله تعالى ﴿شتى﴾ أى متفرقة جمع شتيت و يجوز أن يكون صفة لنبات لما أنه فى الاصل مصدر يستوى فيه الواحد والجمع يعنى أنها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح و بعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الانعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ حال من ضمير فاخرجنا على ارادة القول أى أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات و بالواسطة آذنين فى ذلك ﴿ان فى ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من شؤنه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته و بعد منزلته فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى ﴿لآيات﴾ للتفخيم كما و كيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤن الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام ﴿لأولى النهى﴾ جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل

وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الاباطيل التى من جملتها ما يدعيه الطاغية و يقبله منه فئته الباغية وتخصيص كونها آيات بهم مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها ﴿منها خلقناكم﴾ أى فى ضمن خلق أبيكم آدم عليه الصلاة و السلام منها فان كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة والسلام اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام منها خلقا للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الارض بوسائط وقيل ان الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة ﴿وفيها نعيدكم﴾ بالاماتة وتفريق الاجزاء وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار المديد فيها ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الارواح اليها وكون هذا الاخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الارض اخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الاصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة ﴿ولقد أريناه﴾ حكاية اجمالية لما جرى بين موسى عليه الصلاة والسلام و بين فرعون اثر حكاية ما ذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نعمائه الداعية له الى قبول الحق والانقياد له وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها واسناد الاراءة الى نون العظمة نظرا الى الحقيقة لا الى موسى نظرا الى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها واظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى المكابرة والعناد أى و بالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه ﴿آياتنا﴾ حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون حسبما بين فى تفسير قوله تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتى وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل واحد منها داهية دهياء فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلبت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك الا أخذته فأخذه فعاد عصا وروى أنها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون و جعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت و يقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده من جيبه فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى ﴿كلها﴾ كانه قيل أريناه آيتينا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصدا الى بيان أنه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما أنها انما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولا ريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ما جعل لاهلاكهم لا لارشادهم الى الايمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى اسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا أن يعد منها الآيات الظاهرة على يد الانبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون فى حكم اظهارها بين يديه واراءته اياها لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون مما لم

يجر ذكره ههنا على أن ما سيأتى من حمل ما أظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه اباء بينا و ينطق بأن المراد بها ما ذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات ﴿فكذب﴾ موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ما شاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا ﴿وأبى﴾ الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيأ منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى ﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى﴾ استئناف مبين لكيفية تكذيبه وابائه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجىء اما على حقيقته أو بمعنى الاقبال على الأمر والتصدى له أى أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر فان ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وانما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام بابراز أن مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بنى اسرائيل من أيديهم بل اخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه الى اتباعه أحد و يبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ما أظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه الصلاة والسلام فقال ﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام جواب قسم محذوف كأنه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك ﴿فاجعل بيننا و بينك موعدا﴾ أى وعدا كما ينبىء عنه وصفه بقوله تعالى ﴿لا نخلفه﴾ فانه المناسب لا المكان والزمان أى لا نخلف ذلك الوعد ﴿نحن ولا أنت﴾ وانما فوض اللعين أمر الوعد الى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة واراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الأمد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفى بينهما للايذان بمسارعته الى عدم الاخلاف وأن عدم اخلافه لا يوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب ﴿مكانا سوى﴾ بفعل يدل عليه المصدر لا به فانه موصوف أو بأنه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى ﴿قال موعدكم يوم الزينة﴾ من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرىء يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا واليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرىء بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد و يشيع ذلك فيما بين كل حاضر و باد ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ عطف على يوم أو الزينة وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون و بالياء على أن الضمير له على سنن الملوك أو لليوم ﴿فتولى فرعون﴾ أى انصرف عن المجلس ﴿فجمع كيده﴾ أى ما يكاد به من السحرة وأدواتهم ﴿ثم أتى﴾ أى الموعد ومعه ما جمعه من كيده وفى كلمة التراخى ايماء الى أنه لم يسارع اليه بل أتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى ﴿قال لهم موسى﴾ الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس الا ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام وأما اتيانه أو لا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فماذا صنع موسى

عليه الصلاة والسلام عند اتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة ﴿ويلكم لاتفتروا على الله كذبا﴾ بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدى سحرا كما فعل فرعون ﴿فيسحتكم﴾ أى يستأصلكم بسببه ﴿بعذاب﴾ هائل لايقادر قدره وقرئ يسحتكم من الثلاثى على لغة أهل الحجاز والاسحات لغة بنى تميم ونجد ﴿وقد خاب من افترى﴾ أى على الله كائنا من كان بأى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا أوليا أو وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها ﴿فتنازعوا﴾ أى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿أمرهم﴾ الذى أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا ﴿بينهم﴾ فى كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول فى ذلك ﴿وأسروا النجوى﴾ أى من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم مانطق به قوله تعالى ﴿قالوا﴾ أى بطريق التناجى والاسرار ﴿ان هذان لساحران﴾ الخ فانه تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة مااستقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وان مخففة من ان قد أهملت عن العمل واللام فارقة وقرئ بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى الا أى ماهذان الا ساحران وقرئ ان بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث بن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل ان بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدا وخبر وفيهما أن اللام لاتدخل خبر المبتدا وقيل أصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لايليق به الحذف وقرئ ان هذين لساحران وهى قراءة واضحة ﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم﴾ أى أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿بسحرهما﴾ الذى أظهراه من قبل ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها باظهار مذهبهما واعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لاطريقة السحر فانهم ما كانوا يعتقدونه دينا وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه الصلاة والسلام أرسل معنا بنى اسرائيل وكانوا أرباب علم فيما بينهم ويأباه أن اخراجهم من أرضهم انما يكون بالاستيلاء عليها تمكنا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بنى اسرائيل الى الشأم وحمل الاخراج على اخراج بنى اسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن هذه المقالة منهم للاغراء بالمبالغة فى المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلابد أن يكون الانذار والتحذير بأشد المكاره وأشقها عليهم ولا ريب فى أن اخراج بنى اسرائيل من بينهم والذهاب بهم الى الشأم وهم آمنون فى ديارهم ليس فيه كثير محذور وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لما أنهم قدوة لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص الاذهاب بهم مما لامزية فيه وقوله تعالى ﴿فأجمعوا كيدكم﴾ تصريح بالمطلوب اثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة أى اذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ماذكر من الاخراج والاذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لايتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرئ فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى فجمع كيده أى فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى ﴿ثم ائتوا صفا﴾ أى مصطفين أمروا بذلك لأنه أهيب فى صدور الرائين وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفا مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه اقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقيل خمسة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين ألفا والله أعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر فى قطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر منه ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الاعياد والصلوات

ووجه صحته أن يكون علما لموضع معين من المكان الموعود وأما ارادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا وقوله تعالى ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ اعتراض تذييلى من قبلهم مؤكد لما قبله من الأمرين أى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ماوعدهم فرعون من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال نعم وانكم لمن المقربين وبمن غلب أنفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون أو من غلب منهم حثا لهم على بذل المجهود فى المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم وقد قيل كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ماهذا بقول ساحر وقيل كان ذلك أن قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر فيكون اسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحمل قولهم ان هذان لساحران الخ على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا الا المناصبة للمعارضة وأما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على أنهم قالوا ذلك للسحرة ردا لهم عن الاختلاف وأمروهم بالاجماع والازماع واظهار الجلادة بالاتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشئ من حكاية ماجرى بين السحرة من المقاولة كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ماقالوا فيما بينهم ماقالوا فقيل قالوا ﴿ياموسى﴾ وانما لم يتعرض لاجماعهم واتيانهم بطريق الاصطفاف اشعارا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان ﴿اما أن تلقى﴾ أى ماتلقيه أولا على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الالقاء أولا على أن الفعل منزل منزلة اللازم ﴿واما أن نكون أول من ألقى﴾ مايلقيه أو أول من يفعل الالقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للادب لما رأوا منه عليه الصلاة والسلام ماراوا من مخايل الخير ورزانة الرأى واظهارا للجلادة بارائة أنه لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير وأن مع مافى حيزها منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية مبتدأ محذوف أى اختر القاءك أولا أو القاءنا أو الأمر اما القاؤك أو القاؤنا ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ناشئ من حكاية تخيير السحرة اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال ﴿بل ألقوا﴾ أنتم أولا مقابلة للادب بأحسن من أدبهم حيث بت القول بالقائهم أولا واظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما أوهموا من الميل الى البدء وليبرزوا ما معهم ويستفرغوا أقصى جهدهم ويستنفدوا قصارى وسعهم ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ما سيظهر بيده سيلقف ما يصنعون من مكايد السحر ﴿فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى﴾ الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم الى الالقاء كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فألقوا فاذا حبالهم وهى للمفاجأة والتحقيق أنها أيضا ظرفية تستدعى متعلقا ينصبها وجملة تضاف اليها لكنها خصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل اليه سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه أنها تتحرك وقرئ تخيل بالتاء على اسناده الى ضمير الحبال والعصى وابدال أنها تسعى منه بدل اشتمال وقرئ يخيل باسناده اليه تعالى وقرئ تخيل بحذف احدى التاءين من تتخيل ﴿فأوجس فى نفسه خيفة موسى﴾ أى أضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل ﴿قلنا لا تخف﴾ أى ما توهمت ﴿انك أنت الأعلى﴾ تعليل لما يوجبه النهى من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق

وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبئ عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل ﴿وألق ما فى يمينك﴾ أى عصاك كما وقع فى سورة الأعراف وانما أوثر الابهام تهويلا لامرها وتفخيما لشأنها وايذانا بأنها ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر فى موضع آخر لا يستدعى عدم مراعاتها عند وقوع المحكى هذا وحمل الابهام على التحقير بأن يراد لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك فانه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهى على هيئتها الأصلية وقد كان منها ما كان وقوله تعالى ﴿تلقف ما صنعوا﴾ بالجزم جوابا للامر من لقفه اذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ما عبارة عن العصا أى تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصى التى خيل اليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والايذان بالتمويه والتزوير وقرئ تلقف بتشديد القاف واسقاط احدى التاءين من تتلقف وقرئ بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الامرية معطوفة على النهى متممة بما فى حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فان ابتلاع عصاه لاباطيلهم التى منها أوجس فى نفسه ما أوجس مما يقلع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح فى أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام والا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب ايمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ان ماصنعوا﴾ الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ماصنعوا وما اما موصولة أو موصوفة أى ان الذى صنعوه أو ان شيأ صنعوه ﴿كيد ساحر﴾ بالرفع على أنه خبر لان أى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به الى تنكير ما أضيف اليه للتحقير وقرئ بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرئ كيد سحر على أن الاضافة للبيان كما فى علم فقه أو على معنى ذى سحر أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى ﴿ولا يفلح الساحر﴾ أى هذا الجنس ﴿حيث أتى﴾ أى حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة الهية مع ما فى ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور أمرها والفاء فى قوله تعالى ﴿فألقى السحرة سجدا﴾ كما سلف فصيحة معربة عن محذوفين ينساق اليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالأمر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود أى فألقاه عليه السلام فوقع ما وقع من اللقف فألقى السحرة سجدا لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وانما هى آية من آيات الله عز وجل روى أن رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع القادر العالم وبظهور ذلك على يد موسى عليه الصلاة والسلام على صحة رسالته لاجرم ألقاهم ما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لأن كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿آمنا برب هرون وموسى﴾ تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضا هكذا اما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام واما للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فى صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون ﴿قال﴾ أى فرعون للسحرة ﴿آمنتم له﴾ أى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرئ

على الاستفهام التوبيخى ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أى من غير أن آذن لكم فى الايمان له كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن اذنه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع ﴿انه﴾ يعنى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿لكبيركم﴾ أى فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم ﴿الذى علمكم السحر﴾ فتواطأتم على مافعلتم أو فعلكم شيأ دون شئ فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين وألقاها على قومه وأراهم أن أمر الايمان منوط باذنه فلما كان ايمانهم بغير اذنه لم يكن معتدا به وأنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلا عبرة بما أظهره كما لا عبرة بما أظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الايمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال ﴿فلأقطعن﴾ أى فوالله لاقطعن ﴿أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أى اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كان القطع ابتداء من مخالفة العضو العضو فان المبتدئ من المعروض مبتدئ من العارض أيضا وهى مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية أى لاقطعنها مختلفات وتعيين تلك الحال للايذان بتحقيق الأمر وايقاعه لامحالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لا لأنها أفظع من غيرها ﴿ولأصلبنكم فى جذوع النخل﴾ أى عليها وايثار كلمة فى للدلالة على ابقائهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف فى الظرف المشتمل عليه قالوا وهو أول من صلب وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف ﴿ولتعلمن أينا﴾ يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم واللام مع الايمان فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا اما لقصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لأنه لم يكن من التعذيب فى شئ واما لارادة أن ايمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضا وقيل يريد به رب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى ﴿أشد عذابا وأبقى﴾ أى أدوم ﴿قالوا﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿لن نؤثرك﴾ لن نختارك بالايمان والاتباع ﴿على ماجاءنا﴾ من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿من البينات﴾ من المعجزات الظاهرة فان ماظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها ﴿والذى فطرنا﴾ أى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ماجاءنا وتأخيره لان مافى ضمنه آية عقلية نظرية وماشاهدوه آية حسية ظاهرة وايراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للاشعار بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم ايثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أى وحق الذى فطرنا لانؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب أيضا لما أن القسم لايجاب بلن الا على شذوذ وقوله تعالى ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ جواب عن تهديده بقوله لاقطعن الخ أى فاصنع ما أنت صانعه أو فاحكم ما أنت حاكم به وقوله تعالى ﴿انما تقضى هذه الحيوة الدنيا﴾ مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الامر بالقضاء أى انما تصنع ماتهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب ومالنا من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها ﴿انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ التى اقترفنا فيها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ عطف على خطايانا أى ويغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه الصلاة والسلام باكراهك وحشرك ايانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى خطاياهم اظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الاكراه للايذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار

م ستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى اسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل انه أكرههم على المعارضة حيث روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بسحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون ﴿والله خير﴾ أى فى حد ذاته وهو ناظر الى قولهم والذى فطرنا ﴿وأبقى﴾ أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أو خير ثوابا وأبقى عذابا وقوله تعالى ﴿انه﴾ الى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وأبقى جزاء وتحقيق له وابطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع ما فيه من زيادة التقرير فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى ﴿من يأت ربه مجرما﴾ بأن مات على الكفر والمعاصى ﴿فان له جهنم لا يموت فيها﴾ فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى ﴿ولا يحيا﴾ حياة ينتفع بها ﴿ومن يأته مؤمنا﴾ به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ماشاهدناه ﴿قد عمل الصالحات﴾ الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لاتذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿لهم﴾ بسبب ايمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿الدرجات العلى﴾ أى المنازل الرفيعة وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لأن ما نيط بالايمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الافيه ﴿جنات عدن﴾ بدل من الدرجات العلى أو بيان وقدمر أن عدنا علم لمعنى الاقامة أو لأرض الجنة فقوله تعالى ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ حال من الجنات وقوله تعالى ﴿خالدين فيها﴾ حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الاشارة ﴿وذلك﴾ اشارة الى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم ﴿جزاء من تزكى﴾ أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة الى بيان أشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذابا وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الأخبار ﴿ولقد أوحينا الى موسى﴾ حكاية اجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ماجرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الأعراف وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى ﴿أن أسر بعبادى﴾ اما مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عبادا له تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل أى وبالله لقد أوحينا اليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لانقاذهم من ملكة فرعون أى سر بهم من مصر ليلا ﴿فاضرب لهم﴾ أى فاجعل أو فاتخذ لهم ﴿طريقا فى البحر يبسا﴾ أى يابسا على أنه مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرئ يبسا وهو اما مخفف منه أو وصف كصعب أو جمع يابس كصحب

وصف به الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الأسباط ﴿لا تخاف دركا﴾ حال من المأمور أى آمنا من أن يدرككم العدو أو صفة أخرى لطريقا والعائد محذوف وقرئ لاتخف جوابا للامر ﴿ولا تخشى﴾ عطف على لا تخاف داخل فى حكمه أى ولا تخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لا تخشى أو عطف عليه والالف للاطلاق كما فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة الى ازاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا انا لمدركون ﴿فأتبعهم فرعون بجنوده﴾ أى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم أى تبعتهم وذلك اذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده أنه قرئ فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم فرعون جنوده أى ساقهم خلفهم وأيا ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وايذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام الى الامتثال بالأمر أى ففعل ما أمر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم فرعون بجنوده برا وبحرا روى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فاخبر فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة ألف فقص أثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ أى علاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الأمر الهائل الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ما سمعت قصته وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع قصته وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم أى غطاهم ما غطاهم والفاعل هو الله عز وعلا أو ماغشاهم وقيل فرعون لأنه الذى ورطهم للهلكة ويأباه الاظهار فى قوله تعالى ﴿وأضل فرعون قومه﴾ أى سلك بهم مسلكا أداهم الى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الأخروى وقوله تعالى ﴿وما هدى﴾ أى ما أرشدهم قط الى طريق موصل الى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لاضلاله وتأكيد له اذ رب مضل قد يرشد من يضله الى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد فان نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك انما يتصور فى حقه بطريق التهكم وحمل الاضلال والهداية على ما يختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده الى مساق الهلاك الدنيوى وجعلهما عبارة عن الاضلال فى البحر والانجاء منه مما لا يقبله العقل السليم ﴿يابنى اسرائيل﴾ حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون وقومه وانجائهم منهم لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو انشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام على معنى أنه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم اصالة وبهم تبعا ويرده ما سيأتى من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أى وقلنا يابنى اسرائيل ﴿قد أنجيناكم من عدوكم﴾ فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وقرئ نجيناكم وبجيتكم ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ بالنصب على أنه صفة للمضاف وقرئ بالجر للجوار أى واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان جانبه الايمن نظرا الى السالك من مصر الى الشام أى اتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وانزال التوراة عليه ونسبت المواعدة اليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا الى ملابستها اياهم وسراية منفعتها اليهم وايفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين مع أن المخلوق المصور بالذات هو آدم

بدل منه وقوله تعالى ﴿له خوار﴾ أى صوت عجل نعت له ﴿فقالوا﴾ أى السامرى ومن افتتن به أول ما رآه ﴿هذا الهكم واله موسى فنسى﴾ أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا الى زيادة تقريرها ثم ترتيب الانكار عليها لا من جهة القائلين والا لقيل فأخرج لنا والحمل على أن عدولهم الى ضمير الغيبة لبيان أن الاخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع أنه مخل باعتذارهم فان مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الاخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وأن نسبة الاخلاف الى أنفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ما وجد الاخلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى ما فعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فيقضى بفساده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى ﴿أفلا يرون﴾ الخ انكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذه الها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿أن لا يرجع اليهم قولا﴾ أى انه لا يرجع اليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه اله وقرئ يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فان أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه اليهم قولا من الاقوال وتعليق الابصار بما ذكر مع كونه أمرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى ﴿ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا﴾ عطف على لا يرجع داخل معه فى حيز الرؤية أى أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا أو لا يقدر على أن يضرهم ان لم يعبدوه أو ينفعهم ان عبدوه ﴿ولقد قال لهم هرون من قبل﴾ جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول اثر بيان مكابرتهم لقضية العقول أى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الامر من قبل رجوع موسى عليه السلام اليهم وخطابه اياهم بما ذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع الى تحذيرهم وقال لهم ﴿ياقوم انما فتنتم به﴾ أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالقياس الى مقابله الذى يدعيه القوم لا الى قيده المذكور بالقياس الى قيد آخر على معنى انما فعل بكم الفتنة لا الارشاد الى الحق لا على معنى انما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى ﴿وان ربكم الرحمن﴾ بكسر ان عطفا على انما ارشاد لهم الى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق كما أن التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى ان ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء فى قوله تعالى ﴿فاتبعونى﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين أى اذا كان الامر كذلك فاتبعونى فى الثبات على الدين ﴿وأطيعوا أمرى﴾ هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه ﴿قالوا﴾ فى جواب هرون عليه السلام ﴿لن نبرح عليه﴾ على العجل وعبادته ﴿عاكفين﴾ مقيمين ﴿حتى يرجع الينا موسى﴾ جعلوا رجوعه عليه السلام اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجع بشئ مبين تعويلا على مقالة السامرى روى أنهم لما قالوه اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى ﴿قال﴾ استئناف

مبنى على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى لهرون عليهما السلام حين سمع جوابهم له وهل رضى بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه ﴿ياهرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا﴾ بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة الى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء ﴿أن لا تتبعنى﴾ أى أن تتبعنى على أن لا مزيدة وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل فى اذ أى أى شئ منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعنى فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ما حملك على أن لا تتبعنى فان المنع عن الشئ مستلزم للحمل على مقابله وقيل ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه أن نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجرهم مفارقته اياهم عنه أولى والاعتذار بأنهم اذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه الى حين رجوعه عليه السلام ﴿أفعصيت أمرى﴾ أى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فان قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للامر بهما حتما فان الخلافة لا تتحقق الا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم تتبعنى أو أخالفتنى فعصيت أمرى ﴿قال يابن أم﴾ خص الام بالاضافة استعطافا لحقها وترقيقا لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لام فان الجمهور على أنهما كانا شقيقين ﴿لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى﴾ أى ولا بشعر رأسى روى أنه عليه السلام أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديدا متصلبا فى كل شئ فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ففعل ما فعل وقوله تعالى ﴿انى خشيت﴾ الخ استئناف سيق لتعليل موجب النهى ببيان الداعى الى ترك المقاتلة وتحقيق أنه غير عاص لامره بل ممتثل به أى انى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا ﴿أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل﴾ برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق الذى لا يرجى بعده الاجتماع ﴿ولم ترقب قولى﴾ يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى وأصلح الخ يعنى انى رأيت أن الاصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم الى أن ترجع اليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للامر حسبما رأيت لا سيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم باسناد الفساد الى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخا له هذا شأنهم ﴿فما خطبك ياسامرى﴾ أى ما شأنك وما مطلوبك مما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما صنعه من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم ﴿قال﴾ أى السامرى مجيبا له عليه السلام ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ بضم الصاد فيهما وقرئ بكسرها فى الأول وفتحها فى الثانى وقرئ بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه أى علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت ما لم يروه وهو الانسب بما سيأتى من قوله وكذلك سولت لى نفسى لا سيما على القراءة بالخطاب فان ادعاء علم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية ما لم يره عليه السلام فانها مما يقع بحسب ما يتفق وقد كان رأى أن جبريل عليه السلام جاء راكب فرس وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات فى الحال فعرف أن له شأنا فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى ﴿فقبضت قبضة من

أثر الرسول﴾ وقرئ من أثر فرس الرسول أى من تربة موطئ فرس الملك الذى أرسل اليك ليذهب بك الى الطور ولعل ذكره بعنوان الرسالة للاشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم من الاسرار الالهية تأكيدا لما صدر به مقالته والتنبيه على وقت أخذ ما أخذه والقبضة المرة من القبض أطلقت على المقبوض مرة وقرئ بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرئ فقبصت قبصة بالصاد المهملة والأول للاخذ بجميع الكف والثانى بأطراف الاصابع ونحوهما الخضم والقضم ﴿فنبذتها﴾ أى فى الحلى المذابة فكان ما كان ﴿وكذلك سولت لى نفسى﴾ أى ما فعلته من القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل كذلك فى الأصل النصب على أنه مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت لى نفسى تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لافادة تأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتا له أى ذلك التزيين البديع زينت لى نفسى ما فعلته لا تزيينا أدنى منه ولذلك فعلته وحاصل جوابه أن ما فعله انما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الامارة بالسوء واغوائها لا بشئ آخر من البرهان العقلى أو الالهام الالهى فعند ذلك ﴿قال﴾ عليه السلام ﴿فاذهب﴾ أى من بين الناس وقوله تعالى ﴿فان لك فى الحيوة﴾ الخ تعليل لموجب الامر وفى متعلقة بالاستقرار فى لك أى ثابت لك فى الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف المذكور لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى ﴿أن تقول لامساس﴾ لمكان أن أى ثابت لك كائنا فى الحياة أى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجئ اليها وذلك انه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس أحدا أو يمسه أحد كائنا من كان الا حما من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجئ الى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال ان قومه باق فيهم تلك الحالة الى اليوم وقرئ لا مساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة ما بينهما من مناسبة التضاد فانه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التى هى من أسباب موت الاحياء ﴿وان لك موعدا﴾ أى فى الآخرة ﴿لن تخلفه﴾ أى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك فى الدنيا وقرئ بكسر اللام والاظهر أنه من أخلفت الموعد أى وجدته خلفا وقرئ بالنون على حكاية قوله عز وجل ﴿وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا﴾ أى ظللت مقيما على عبادته فحذفت اللام الأولى تخفيفا وقرئ بكسر الظاء بنقل حركة اللام اليها ﴿لنحرقنه﴾ جواب قسم محذوف أى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الاحراق وقيل بالمبرد على أنه مبالغة فى حرق اذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه ﴿ثم لننسفنه﴾ أى لنذرينه وقرئ بضم السين ﴿فى اليم﴾ رمادا أو مبرودا كأنه هباء ﴿نسفا﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الأمر بالنظر وانما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين ﴿انما الهكم الله﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه الى الكل أى انما معبودكم المستحق للعبادة الله ﴿الذى لا اله﴾ فى الوجود لشئ من الأشياء ﴿الا هو﴾ وحده من غير أن يشاركه شئ من الأشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها أحكام الألوهية وقرئ الله لا اله الا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى ﴿وسع كل شئ علما﴾ أى وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل انما الهكم الله الذى وسع كل شئ علما لا غيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أوليا وقرئ وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما

على المفعولية لأنه على القراءة الأولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل الى التعدية الى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول كأنه قيل وسع علمه كل شئ وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته وقوله تعالى ﴿كذلك نقص عليك﴾ كلام مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال ما مر من أنباء الأمم السالفة وذلك اشارة الى اقتصاص حديث موسى عليه السلام وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر مقدر أى نقص عليك ﴿من أنباء ما قد سبق﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصا مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من أنباء فى حيز النصب اما على أنه مفعول نقص باعتبار مضمونه واما على أنه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك أى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض أنباء ما قد سبق أو بعضا كائنا من أنباء ما قد سبق وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتأخيره عن عليك لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك ما ذكر من الانباء لا قصا ناقصا عنه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من أمتك ﴿وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾ أى كتابا منطويا على هذه الأقاصيص والاخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك وتنكير ذكرا للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما أن مرجع الافادة فى الجملة كون المؤتى من لدنه تعالى ذكرا عظيما وقرآنا كريما جامعا لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طول بما بعده من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم ﴿من أعرض عنه﴾ عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين وقيل عن الله عز وجل ومن اما شرطية أو موصولة وأيا ما كانت فالجملة صفة لذكرا ﴿فانه﴾ أى المعرض عنه ﴿يحمل يوم القيامة وزرا﴾ أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا اما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره أو لأنها جزاء الوزر وهو الاثم والاول هو الانسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى ﴿خالدين فيه﴾ أى فى الوزر أو فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر الى معنى من لما أن الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها كما أن الافراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر الى لفظها ﴿وساء لهم يوم القيامة حملا﴾ أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم واعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الأمر ﴿يوم ينفخ فى الصور﴾ بدل من يوم القيامة أو منصوب باضمار اذكر أو ظرف لمضمر قد حذف للايذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقرئ ننفخ بالنون على اسناد النفخ الى الآمر به تعظيما له وبالياء المفتوحة على أن ضميره لله عز وجل أو لاسرافيل عليه السلام وان لم يجر ذكره لشهرته ﴿ونحشر المجرمين يومئذ﴾ أى يوم اذ ينفخ فى الصور وذكره صريحا مع تعين أن الحشر لا يكون الا يومئذ للتهويل وقرئ ويحشر المجرمون ﴿زرقا﴾ أى حال كونهم زرق العيون وانما جعلوا كذلك لان الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها الى العرب فان الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميا لان حدقة الأعمى تزرق وقوله تعالى ﴿يتخافتون بينهم﴾ أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال أخرى من المجرمين أى يقول بعضهم

لبعض بطريق المخافتة ﴿ان لبثتم﴾ أى مالبثتم فى الدنيا ﴿الا عشراً﴾ أى عشر ليال استقصار المدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا أنهم استحقوها على اضاعتها فى قضاء الأوطار واتباع الشهوات أو فى القبر وهو الانسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا و يعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقا لسرعة وقوعه كأنهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر الا مدة يسيرة والا لحالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ وهو مدة لبثهم ﴿اذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أى أعدلهم رأيا أو عملا ﴿ان لبثتم الا يوما﴾ ونسبة هذا القول الى أمثلهم استرجاح منه تعالى له لكن لا لكونه أقرب الى الصدق بل لكونه أدل على شدة الهول ﴿و يسألونك عن الجبال﴾ أى عن مآل أمرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء ﴿فقل ينسفها ربى نسفا﴾ أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها والفاء للمسارعة الى الزام السائلين ﴿فيذرها﴾ الضمير اما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى مقارها ومراكزها أى فيذرما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الارض بعد نسف ما نتأ منها ونشز واما للارض المدلول عليها بقرينة الحال لانها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل ﴿قاعا صفصفا﴾ لان الجبال اذا سويت وجعل سطحها مساويا لسطوح سائر أجزاء الارض فقد جعل الكل سطحا واحدا والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الارض وقيل المستوى الصلب منها وقيل ما لانبات فيه ولا بناء والصفصف الارض المستوية الملساء كأن أجزاءه صف واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب أو هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا اما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى ﴿لا ترى فيها﴾ أى فى مقار الجبال أو فى الارض على ما مر من التفصيل ﴿عوجا﴾ بكسر العين أى اعوجاجا ما كأنه لغاية خفائه من قبيل مافى المعانى أى لا تدركه ان تأملت بالمقاييس الهندسية ﴿ولا أمتا﴾ أى نتوءا يسيرا استئناف مبين لكيفية ما سبق من القاع الصفصف أو حال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتأتى منه الرؤية وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿يومئذ﴾ أى يوم اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى ﴿يتبعون الداعى﴾ وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك أى يتبع الناس داعى الله عز وجل الى المحشر وهو اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب الى صوبه ﴿لا عوج له﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ أى خضعت لهيبته ﴿فلا تسمع الا همسا﴾ أى صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت أخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها الى المحشر ﴿يومئذ﴾ أى يوم اذ يقع ما ذكر من الامور الهائلة ﴿لاتنفع الشفاعة﴾ من الشفعاء أحدا ﴿الا من أذن له الرحمن﴾ أن يشفع له ﴿ورضى له قولا﴾ أى ورضى لاجله قول الشافع فى شأنه أو رضى قوله لاجله وفى شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وان فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين فالاستثناء كما ترى من أعم المفاعيل وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لاتنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل اليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هى عنه أصلا كما فى قوله تعالى لا يملكون الشفاعة الا

من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فالاخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم امكان صدورها عمن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم وأما قوله تعالى ولا يقبل منها شفاعة فمعناه عدم الاذن فى الشفاعة لا عدم قبولها بعد وقوعها ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أى ما تقدمهم من الاحوال وقيل من أمر الدنيا ﴿وماخلفهم﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة ﴿ولا يحيطون به علما﴾ أى لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لاحد الموصولين أو لمجموعهما فانهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم﴾ أى ذلت وخضعت خضوع العناة أى الأسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى ﴿وقد خاب من حمل ظلما﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم أو اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلما فقوله تعالى ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ الخ قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما أنه كذلك على الوجه الأول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من أنباء ما قد سبق ﴿وهو مؤمن﴾ فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات ﴿فلا يخاف ظلما﴾ أى منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿ولا هضما﴾ ولا كسرا منه بنقص أو لا يخاف جزاء ظلم وهضم اذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم حتى يخافهما وقرئ فلا يخف على النهى ﴿وكذلك﴾ عطف على كذلك نقص وذلك اشارة الى انزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أى مثل ذلك الانزال ﴿أنزلناه﴾ أى القرآن كله واضماره من غير سبق ذكره للايذان بنباهة شأنه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الاذهان ﴿قرآنا عربيا﴾ ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ أى كررنا فيه بعض الوعيد أو بعضا من الوعيد حسبما أشير اليه آنفا ﴿لعلهم يتقون﴾ أى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل ﴿أو يحدث لهم ذكرا﴾ اتعاظا واعتبارا مؤديا بالآخرة الى الاتقاء ﴿فتعالى الله﴾ استعظام له تعالى ولشؤنه التى يصرف عليها عباده من الاوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله ﴿الملك﴾ النافذ أمره ونهيه الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده ﴿الحق﴾ فى ملكوته وألوهيته لذاته أو الثابت فى ذاته وصفاته ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك﴾ أى يتم ﴿وحيه﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ألقى اليه جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال بطريق الاستطراد لما أن استقرار الالفاظ فى الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها وربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها وأمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل ﴿وقل﴾ أى فى نفسك ﴿رب زدنى علما﴾ أى سل الله عز وجل زيادة العلم فانه الموصل الى طلبتك دون الاستعجال وقيل انه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لا ريب فى صحته ومشروعيته ﴿ولقد عهدنا الى آدم﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ فى النسيان مع ما فيه من انجاز الموعود فى قوله تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق يقال عهد اليه الملك وعزم عليه وأوعز اليه وتقدم اليه اذا أمره

و وصاه والمعهود محذوف يدل عليه مابعده واللام جواب قسم محذوف أى وأقسم أو و بالله أو وتالله لقد أمرناه و وصيناه ﴿من قبل﴾ أى من قبل هذا الزمان ﴿فنسى﴾ أى العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه أو تركه ترك المنسى عنه وقرئ فنسى أى نساه الشيطان ﴿ولم نجد له عزما﴾ تصميم رأى وثبات قدم فى الامور اذ لو كان كذلك لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء أمره من قبل أن يجرب الامور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها وأريها عن النبى عليه الصلاة والسلام لو وزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقيل عزما على الذنب فانه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجد ان كان من الوجود العلى فله عزما مفعولاه قدم الثانى على الاول لكونه ظرفا وان كان من الوجود المقابل للعدم وهو الانسب لأن مصب الفائدة هو المفعول وليس فى الاخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى ﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام أى واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فاذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة فى ذهن المخاطب بوجوداتها العينية أى اذكر ماوقع فى ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه ﴿فسجدوا الا ابليس﴾ قد سبق الكلام فيه مرارا ﴿أبى﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كأنه قيل ماباله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى اما محذوف أى أبى السجود كما فى قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين أو غير منوى رأسا بتنزيله منزلة اللازم أى فعل الاباء وأظهره ﴿فقلنا﴾ عقيب ذلك اعتناء بنصحه ﴿يا آدم ان هذا﴾ الذى رأيت مافعل ﴿عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما﴾ أى لا يكونن سببا لاخراجكما ﴿من الجنة﴾ والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان الى اخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك لا أرينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما أو على الاخبار بها ﴿فتشقى﴾ جواب للنهى واسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الاخراج الموجب له بهما معا لاصالته فى الامور واستلزام شقائه لشقائها مع مافيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادى المعاش وذلك من وظائف الرجال ﴿ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ تعليل لما يوجبه النهى فان اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى الى الخروج عنها والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها مالا يخفى الى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحى لتذكير تلك الامور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى اليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى و يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر فى موضع آخر واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى أن لا تجوع فيها الخ أن لا يصيبه شئ من الامور الاربعة أصلا فان الشبع والرى والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الامر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل الى شئ

من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل الى حد الضرورة و وجه افراده عليه السلام بما ذكر ما مر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع فى الذكر مع تجانسهما وتقارنهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالاشارة الى أن نفى كل واحد من تلك الامور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفى كل واحد من الامور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لا أن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لنفى بعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتجانسين وقرئ انك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لا تجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بأن المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى افادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة ولا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما فى حيزهما بخلاف مالو وقعت خبرا لها فان اتحاد المناط حينئذ مما لاريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها مافيها من الحكم الايجابى أو السلبى وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وانما لم يجوزوا أن يقال ان أن زيدا قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا ان عندى أن زيدا قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وان كانت نائبة عن المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى افضاء معناها واجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى ان لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقا كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض أن المفيدة له كأنه قيل ان لك فيها عدم ظمائك على التحقيق ﴿فوسوس اليه الشيطان﴾ أى أنهى اليه وسوسته أو أسرها اليه ﴿قال﴾ اما بدل من وسوس أو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال ﴿يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾ أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿وملك لا يبلى﴾ أى لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قد مر تفسيره فى سورة الأعراف ﴿وعصى آدم ربه﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿فغوى﴾ ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرئ فغوى من غوى الفصيل اذا اتخم من اللبن وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لاولاده عن أمثالها ﴿ثم اجتباه ربه﴾ أى اصطفاه وقربه اليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشئ بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمعته أو من جبى الى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها وأصل الكلمة الجمع وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام ﴿فتاب عليه﴾ أى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وافراده عليه السلام بالاجتباء وقبول

التوبة قد مر وجهه ﴿وهدى﴾ أى الى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه قيل فماذا أمره تعالى بعدذلك فقيل قال له ولزوجته ﴿اهبطا منها جميعا﴾ أى انزلا من الجنة الى الارض وقوله تعالى ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الاولاد أى متعادين فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ﴿فاما يأتينكم منى هدى﴾ من كتاب ورسول ﴿فمن اتبع هداى﴾ وضع الظاهر موضع المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى ايجاب اتباعه ﴿فلا يضل﴾ فى الدنيا ﴿ولا يشقى﴾ فى الآخرة ﴿ومن أعرض عن ذكرى﴾ أى عن الهدى الذاكر لى والداعى الى ﴿فان له﴾ فى الدنيا ﴿معيشة ضنكا﴾ ضيقا مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث وقرئ ضنكى كسكرى وذلك لان مجامع همته ومطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها وخائف من انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الايمان كما قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال تعالى ولو أن أهل الكتاب آمنوا الى قوله تعالى لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هو الضريع والزقوم فى النار وقيل عذاب القبر ﴿ونحشره﴾ وقرئ بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفا على محل فان له معيشة ضنكا لانه جواب الشرط ﴿يوم القيامة أعمى﴾ فاقد البصر كما فى قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما لا أعمى عن الحجة كما قيل ﴿قال﴾ استئناف كما مر ﴿رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا﴾ أى فى الدنيا وقرئ أعمى بالامالة فى الموضعين وفى الاول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف ﴿قال كذلك﴾ أى مثل ذلك فعلت أنت ثم فسره بقوله تعالى ﴿أتتك آياتنا﴾ واضحة نيرة بحيث لا تخفى على أحد ﴿فنسيتها﴾ أى عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لا يذكر أصلا ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا ﴿اليوم تنسى﴾ تترك فى العمى والعذاب جزاء وفاقا لكن لا أبدا كما قيل بل الى ماشاء الله ثم يزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد مقعده من النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴿وكذلك﴾ أى مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿نجزى من أسرف﴾ بالانهماك فى الشهوات ﴿ولم يؤمن بآيات ربه﴾ بل كذبها وأعرض عنها ﴿ولعذاب الآخرة﴾ على الاطلاق أو عذاب النار ﴿أشد وأبقى﴾ أى من ضنك العيش أو منه ومن الحشر على العمى ﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من قوله تعالى وكذلك نجزى الآية والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللام فلا حاجة الى المفعول أو لأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف وأياما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة اهلاكنا للقرون الاولى وقد مر فى قوله عز وجل أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها الآية وقيل الفاعل الضمير العائد الى الله عز وجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى كم أهلكنا الخ اما معلق للفعل سادمسد مفعوله أو مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والاوجه أن لا يلاحظ له مفعول كأنه قيل أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم أهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية ومن القرون فى محل النصب على أنه وصف لمميز كم أى كم قرنا كائنا من القرون وقوله تعالى ﴿يمشون فى مساكنهم﴾ حال من القرون أو من مفعول أهلكنا أى أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم أو من الضمير

فى لهم مؤكد للانكار والعامل يهد والمعنى أفلم يهد لهم اهلاكنا للقرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين فى مساكنهم اذا سافروا الى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم مع أن ذلك مما يوجب أن يهتدوا الى الحق فيعتبروا لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك وقرئ يمشون على البناء للمفعول أى يمكنون من المشى ﴿ان فى ذلك﴾ تعليل للانكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك اشارة الى مضمون قوله تعالى كم أهلكنا الخ وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلو شأنه فى بابه ﴿لآيات﴾ كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فاذن هو هاد وأيما هاد ويجوز أن تكون كلمة فى تجريدية فافهم ﴿لأولى النهى﴾ لذوى العقول الناهية عن القبائح التى من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامى عنها وغير ذلك من فنون المعاصى وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع مايشعر به قوله تعالى أفلم يهد لهم الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة أى ولولا الكلمة السابقة وهى العدة بتأخير عذاب هذه الامة الى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه ﴿لكان﴾ عقاب جناياتهم ﴿لزاما﴾ أى لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل بأولئك الغابرين وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تلويح بأن ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبئ عنه قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واللزام اما مصدر لازم وصف به مبالغة واما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم ﴿وأجل مسمى﴾ عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لاعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة الى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد الى الاخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الاخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود وأضرابهم ولم ينفرد الاجل المسمى دون الأخذ العاجل ﴿فاصبر على يقولون﴾ أى اذا كان الأمر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وأنه لازم لهم البتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فان علمه عليه السلام بأنهم معذبون لامحالة مما يسليه ويحمله على الصبر ﴿وسبح﴾ ملتبسا ﴿بحمد ربك﴾ أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك الى كمالك على هدايته وتوفيقه أو نزهه تعالى عما ينسبونه اليه مما لا يليق بشأنه الرفيع حامدا له على ماميزك بالهدى معترفا بأنه مولى النعم كلها والأول هو الاظهر المناسب لقوله تعالى ﴿قبل طلوع الشمس﴾ الخ فان توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ يعنى صلاتى الظهر والعصر لانهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل صلاة العصر ﴿ومن آناء الليل﴾ أى من ساعاته جمع انى بالكسر والقصر وأناء بالفتح والمد ﴿فسبح﴾ أى فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما أجمع والنفس الى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴿وأطراف النهار﴾ تكرير لصلاة الفجر والمغرب ايذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الالباس كقول من قال ظهراهما مثل ظهور الترسين أو أمر بصلاة الظهر فانه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الأخير وجمعه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس أو أمر بالتطوع فى أجزاء النهار ﴿لعلك ترضى﴾ متعلق بسبح أى سبح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ماترضى به نفسك وقرئ ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أى يرضيك ربك ﴿ولا تمدن عينيك﴾ أى لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿الى ما متعنا به﴾ من زخارف

الدنيا وقوله تعالى ﴿أزواجا منهم﴾ أى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول منهم أى الى الذى متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم على أنه معنى من التبعيضية أو بعضا منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا ﴿زهرة الحيوة الدنيا﴾ منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا أى أعطينا أو به على تضمين معناه أو بالبدلية من محل به أو من أزواجا بتقدير مضاف أو بدونه أو بالذم وهى الزينة والبهجة وقرئ زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعمهم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد ﴿لنفتنهم فيه﴾ متعلق بمتعنا جئ به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا اثر اظهار بهجته حالا أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه ﴿ورزق ربك﴾ أى ما ادخر لك فى الآخرة أو ما رزقك فى الدنيا من النبوة والهدى ﴿خير﴾ مما منحهم فى الدنيا لأنه مع كونه فى نفسه أجل ما يتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ما منحوه ﴿وأبقى﴾ فانه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدا كما عليه زهرة الدنيا ﴿وأمر أهلك بالصلوة﴾ أمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعدما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا الفت أرباب الثروة ﴿واصطبر عليها﴾ وثابر عليها غير مشتغل بأمر المعاش ﴿لانسألك رزقا﴾ أى لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك ﴿نحن نرزقك﴾ واياهم ففرغ بالك بأمر الآخرة ﴿والعاقبة﴾ الحميدة ﴿للتقوى﴾ أى لأهل التقوى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على أن ملاك الأمر هو التقوى روى أنه عليه السلام كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التى أمر عليه السلام بالصبر عليها أى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه فى دعوى النبوة أو بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد الى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى ﴿أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى﴾ أى التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان القرآن الكريم الذى هو أم الآيات وأس المعجزات وأعظمها وأبقاها لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات أى أمر كان ولا ريب فى أن العلم أجل الأمور وأعلاها اذ هو أصل الاعمال ومبدأ الافعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين على يد أمى لم يمارس شيأ من العلوم ولم يدارس أحدا من أهلها أصلا فأى معجزة تراد بعد وروده وأى آية ترام مع وجوده وفى ايراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الأولى من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية أى شاهدا بحقية ما فيها من العقائد الحقة وأصول الأحكام التى أجمعت عليها كافة الرسل وبصحة ما تنطق به من أنباء الامم من حيث أنه غنى باعجازه عما يشهد بحقيته حقيق باثبات حقية غيره ما لا يخفى من تنويه شأنه وانارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لاتيانه واسناد الاتيان اليه مع جعلهم اياه مأتيا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة والهمزة لانكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم يأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما فى الصحف الاولى تقريرا لاتيانه وايذانا بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم انكاره أصلا وان اجترؤا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرئ أولم يأتهم بالياء التحتانية وقرئ الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب﴾ الى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن انكارها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب مستأصل ﴿من قبله﴾ متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب أى بعذاب كائن من قبل اتيان

البينة أو من قبل محمد عليه الصلاة والسلام ﴿لقالوا﴾ أى يوم القيامة ﴿ربنا لولا أرسلت الينا﴾ فى الدنيا ﴿رسولا﴾ مع كتاب ﴿فنتبع آياتك﴾ التى جاءنا بها ﴿من قبل أن نذل﴾ بالعذاب فى الدنيا ﴿ونخزى﴾ بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ ﴿قل﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كل﴾ أى كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ منتظر لما يؤول اليه أمرنا وأمركم ﴿فتربصوا﴾ وقرئ فتمتعوا ﴿فستعلمون﴾ عن قريب ﴿من أصحاب الصراط السوى﴾ أى المستقيم وقرئ السواء أى الوسط الجيد وقرئ السوء والسوءى والسوى تصغير السوء ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة ومن فى الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها ما بعدها والجملة سادة سد مفعولى العلم أو مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الاولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط وقيل العائد فى الاولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار وقال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا سورة طه ويس

سورة الانبياء

(مكية وهى مائة واثنتا عشرة آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿اقترب للناس حسابهم﴾ مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه ما بعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة واسناد الاقتراب اليه لا الى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الأحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام الى بيان غفلتهم عنه واعراضهم عما يذكرهم ذلك واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة الى ادخال الروعة فان نسبة الاقتراب اليهم من أول الامر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما أن تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح فى قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض لتعجيل المسرة لما أن بيان كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا اليه وجعلها تأكيدا للاضافة على أن الاصل المتعارف فيما بين الاوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع أنه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وانما الذى يستدعيه حسن النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفى اسناد الاقتراب المنبئ عن التوجه نحوهم الى الحساب مع امكان العكس بأن يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شئ مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه فى كل ساعة من ساعات الزمان أقرب اليهم منه فى الساعة السابقة هذا وأما الاعتذار بأن قربه بالاضافة الى ما مضى من الزمان أو بالنسبة الى الله عز وجل أو باعتبار أن كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولا حاجة اليه فى تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه عرفا كونه قريبا فى نفسه أيضا فيصار حينئذ الى التوجيه بالوجه الاول دون الاخيرين أما الثانى فلا سبيل الى اعتباره هنا لان قربه بالنسبة اليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وانما اعتباره فى قوله تعالى لعل الساعة قريب ونظائره مما لا دلالة فيه على

الحدوث وأما الثالث فلا دلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة الى شئ آخر ﴿وهم فى غفلة﴾ أى فى غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لأنهم غير مبالين به مع اعترافهم باتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن الاعمال لابد لها من الجزاء ﴿معرضون﴾ أى عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة أمرا جبليا لهم جعل الخبر الاول ظرفا منبئا عن الاستقرار بخلاف الاعراض والجملة حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون ﴿ما يأتيهم من ذكر﴾ من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم ذلك أكمل تذكير وتنبيهم عن الغفلة أتم تنبيه كانها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى ﴿من ربهم﴾ لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأيا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه و كمال شناعة مافعلوا به والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع ﴿محدث﴾ بالجر صفة لذكر وقرئ بالرفع حملا على محله أى محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى ﴿الا استمعوه﴾ استثناء مفرغ محله النصب على أنه حال من مفعول يأتيهم باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى ﴿وهم يلعبون﴾ حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى ﴿لاهية قلوبهم﴾ اما حال أخرى منه أو من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال الا حال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أو لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الأمور والتفكر فى العواقب وقرئ لاهية بالرفع على أنه خبر بعد خبر ﴿وأسروا النجوى﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة اثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجى ومعنى اسرارها مع أنها لاتكون الا سرا أنهم بالغوا فى اخفائها أو أسروا نفس التناجى بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون وقوله تعالى ﴿الذين ظلموا﴾ بدل من واو أسروا منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما أو منصوب على الذم وقوله تعالى ﴿هل هذا الا بشر مثلكم﴾ الخ فى حيز النصب على أنه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله كأنه قيل ماذا قالوا فى نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ أو بدل من أسروا أو معطوف عليه أو على أنه بدل من النجوى أى أسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفى والهمزة فى قوله تعالى ﴿أفتأتون السحر﴾ للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى ﴿وأنتم تبصرون﴾ حال من فاعل تأتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ماهذا الا بشر مثلكم أى من جنسكم وما أتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر قالوه بناء على ماارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون الا ملكا وأن كل مايظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر و زل عنهم أن ارسال البشر الى عامة البشر هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون وانما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادى الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴿قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض﴾ حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ماأوحى اليه أحوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهانى مع مافيه من الايذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة لاتفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما فى علوم الخلق وقرئ قل ربى الخ وقوله تعالى فى السماء والأرض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أى كائنا فى السماء والأرض وقوله تعالى ﴿وهو السميع العليم﴾ أى المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات التى من جملتها ماأسروه من النجوى فيجازيهم

بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله متضمن للوعيد ﴿بل قالوا أضغاث أحلام﴾ اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق الى حكاية قول آخر مضطرب فى مسالك البطلان أى لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه عليه السلام هل هذا الا بشر و فى حق ماظهر على يده من القرآن الكريم انه سحر بل قالوا تخاليط الأحلام ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿بل افتراه﴾ من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا ﴿بل هو شاعر﴾ وما أتى به شعر يخيل الى السامع معانى لا حقيقة لها وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لايزال يتردد بين باطل وأبطل و يتذبذب بين فاسد وأفسد فالاضراب الأول كما ترى من جهته تعالى والثانى والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم هو سحر الى أنه تخاليط أحلام ثم الى أنه كلام مفترى ثم الى أنه قول شاعر ولا ريب فى أنه كان ينبغى حينئذ أن يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل قوله تعالى هل هذا الا بشر الخ كأنه قيل وأسروا النجوى قالوا هل هذا الى قوله بل أضغاث أحلام وانما صرح بقالوا بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله ﴿فليأتنا بآية﴾ جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل وان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية ﴿كما أرسل الأولون﴾ أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على أنها صفة لآية ويجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على أنها مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف أى فليأتنا بآية اتيانا كائنا مثل ارسال الأولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالآية من فروع الارسال بها أى مثل اتيان مترتب على الارسال ويجوز أن يحمل النظم الكريم على أنه أريد كل واحد من الاتيان والارسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب المشبه ذكر الارسال و فى جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى الموطن الآخر حسبما مر فى آخر سورة يونس عليه السلام ﴿ما آمنت قبلهم من قرية﴾ كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما ينبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمنى بالايمان كما أشير اليه و بيان أنهم فى اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وأن فى ترك الاجابة اليه ابقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا مااقترحوا مع عدم ايمانهم قطعا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عز وجل فى الأمم السالفة على أن المقترحين اذا أعطوا مااقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لامحالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هذه الأمة لايعذبون بعذاب الاستئصال فقوله من قرية أى من أهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتأكيد العموم وقوله تعالى ﴿أهلكناها﴾ أى باهلاك أهلها لعدم ايمانهم بعد مجئ مااقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة فى قوله تعالى ﴿أفهم يؤمنون﴾ لانكار الوقوع والفاء للعطف اما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت انكار وقوع ايمانهم ونفيه عقيب عدم ايمان الأولين فالمعنى انه لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند اعطاء مااقترحوه من الآيات أهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا الى ماسألوا وأعطوا مااقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى واما على ما آمنت على أن الفاء متقدمة على الهمزة فى الاعتبار مفيدة لترتيب انكار وقوع ايمانهم على عدم ايمان الأولين وانما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وقوله عز وجل ﴿وما أرسلنا قبلك الا رجالا﴾ جواب لقولهم هل هذا الا بشر الخ متضمن لرد مادسوا تحت قولهم كما أرسل الأولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة الى رده وابطاله كما مر فى تفسير قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين وقوله تعالى ماننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذاً منظرين ولأن فى هذا الجواب نوع بسط يخل

تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم والحق أن ما اتخذوه سببا للتكذيب موجب للتصديق فى الحقيقة لان مقتضى الحكمة أن يرسل الى البشر البشر والى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فان عامة البشر بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك منهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب آخر وقوله تعالى ﴿نوحى اليهم﴾ استئناف مبين لكيفية الارسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد الى خصوصه والمعنى وما أرسلنا الى الأمم قبل ارسالك الى أمتك الا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحى اليهم بواسطة الملك مانوحى من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والاخبار كما نوحى اليك من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى وحقية مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين الى قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما كما لافرق بينك وبينهم فى البشرية فمالهم لايفهمون أنك لست بدعا من الرسل وأن ما أوحى اليك ليس مخالفا لما أوحى اليهم فيقولون مايقولون وقرئ يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بتعين الفاعل وقوله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الأنيقة وأما الوقوف عليها بالاستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم لاتعلمون ماذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم أمروا بذلك لأن اخبار الجم الغفير يوجب العلم لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورونهم فى أمره عليه السلام ففيه من الدلالة على كمال وضوح الامر وقوة شأن النبى عليه السلام مالايخفى ﴿وماجعلناهم جسدا﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام اسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية اثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الانسان والجن والملائكة ونصبه اما على أنه مفعول ثان للجعل لكن لابمعنى جعله جسدا بعد أن لم يكن كذلك كما هو المشهور من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل كما مر فى قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة واما حال من الضمير والجعل ابداعى وافراده لارادة الجنس المنتظم للكثير أيضا وقيل بتقدير المضاف أى ذوى جسد وقوله تعالى ﴿لايأكلون الطعام﴾ صفة له أى وماجعلناهم جسدا مستغنيا عن الاكل والشرب بل محتاجا الى ذلك لتحصيل بدل مايتحلل منه ﴿وما كانوا خالدين﴾ لأن مآل التحلل هو الفناء لامحالة وفى ايثار ما كانوا على ماجعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى أشير اليها بقوله تعالى وماجعلناهم الخ لا بالجعل المستأنف والمراد بالخلود اما المكث المديد كما هو شأن الملائكة أو الابدية وهم معتقدون أنهم لايموتون والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية صائرة الى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لاملائكة ولا أجسادا مستغنية عن الاغذية مصونة عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم السلام بشرا لاملكا مع مافى ذلك من الرد على قولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ عطف على مايفهم من حكاية وحيه تعالى اليهم على الاستمرار التجددى كأنه قيل أوحينا اليهم ما أوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى

باهلاك أعدائهم ﴿فأنجيناهم ومن نشاء﴾ من المؤمنين وغيرهم ممن تستدعى الحكمة ابقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ أى المجاوزين للحدود فى الكفر والمعاصى ﴿لقد أنزلنا اليكم﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة أضغاث أحلام وأخرى مفترى وشعرا وبيان علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمى اظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وايذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب النكير أى والله لقد أنزلنا اليكم يامعشر قريش ﴿كتابا﴾ عظيم الشأن نير البرهان وقوله تعالى ﴿فيه ذكركم﴾ صفة لكتابا مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بأنه جميل الآثار مستجلب لهم منافع جليلة أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقيل ماتحتاجون اليه فى أمور دينكم ودنياكم وقيل فيه ماتطلبون به حسن الذكر من مكارم الاخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه فان قوله تعالى ﴿أفلا تعقلون﴾ انكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمر كذلك أو لاتعقلون شيأ من الاشياء التى من جملتها ماذكر وقوله تعالى ﴿وكم قصمنا من قرية﴾ نوع تفصيل لاجمال قوله تعالى وأهلكنا المسرفين وبيان لكيفية اهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على أنها مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفى لفظ القصم الذى هو عبارة عن الكسر بابانة أجزاء المكسور وازالة تأليفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط مالايخفى وقوله تعالى ﴿كانت ظالمة﴾ فى محل الجر على أنها صفة لقرية بتقدير مضاف ينبئ عنه الضمير الآتى أى وكثيرا قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم ﴿وأنشأنا بعدها﴾ أى بعد اهلاكها ﴿قوما آخرين﴾ أى ليسوا منهم نسبا ولا دينا ففيه تنبيه على استئصال الاولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر فى تقديم حكاية انشاء هؤلاء على حكاية مبادى اهلاك أولئك بقوله تعالى ﴿فلما أحسوا بأسنا﴾ أى أدركوا عذابنا الشديد ادراكا تاما كأنه ادراك المشاهد المحسوس ﴿اذاهم منها يركضون﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو مشبهين بهم فى فرط الاسراع ﴿لاتركضوا﴾ أى قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال من الملك أو ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لاتركضوا ﴿وارجعوا الى ما أترفتم فيه﴾ من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة ﴿ومساكنكم﴾ التى كنتم تفتخرون بها ﴿لعلكم تسألون﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل أو تتفقدون اذا رئيت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم ﴿قالوا﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب ﴿ياويلنا﴾ أى هلاكنا ﴿انا كنا ظالمين﴾ أى مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك ﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ أى فما زالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى أى دعوة لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا ياويل تعال فهذا أوانك ﴿حتى جعلناهم حصيدا﴾ أى مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع ﴿خامدين﴾ أى ميتين من خمدت النار اذا طفئت وهو مع حصيدا فى حيز المفعول الثانى للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب فى جعلناهم أو من المستكن فى حصيد أو صفة لحصيد لتعدده معنى لأنه فى حكم جعلناهم أمثال حصيد ﴿وماخلقنا

السماء والارض﴾ اشارة اجمالية الى أن تكوين العالم وابداع بنى آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ما حكى من العذاب الهائل والعقاب النازل باهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء أعمالهم اياه وأن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم أى ما خلقناهما ﴿وما بينهما﴾ من المخلوقات التى لاتحصى أجناسها وأفرادها ولا تحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والاسلوب المنيع خالية عن الحكم والمصالح وانما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل ﴿لاعبين﴾ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة بتصويره بصورة مالا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه سبحانه بل انما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ودليلا يقوده الى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا كما ينطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقوله تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾ استئناف مقرر لماقبله من انتفاء اللعب واللهو أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ أى من جهة قدرتنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل ارادتنا له لمنافاته الحكمة فيستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى ﴿ان كنا فاعلين﴾ جوابه محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه أى ان كنا فاعلين لاتخذناه وقيل ان نافية أى ما كنا فاعلين أى لاتخاذ اللهو لعدم ارادتنا اياه فيكون بيانا لانتفاء التالى لانتفاء المقدم أو لارادة اتخاذه فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده ﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾ اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن ارادته كأنه قيل لكنا لانريده بل شأننا أن نغلب الحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من قبيله اللهو وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شؤنه تعالى بالذكر للتخلص الى ما سيأتى من الوعيد ﴿فيدمغه﴾ أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية وقد استعير لايراد الحق على الباطل القذف الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذى هو كسر الشىء الرخو الاجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى الى زهوق الروح تصويرا له بذلك وقرىء فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرىء فيدمغه بضم الميم ﴿فاذا هو زاهق﴾ أى ذاهب بالكلية وفى اذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان مالا يخفى فكأنه زاهق من الاصل ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ وعيد لقريش بأن لهم أيضا مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره فى الخبر وما اما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أى واستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل أو بالذى تصفونه أو بشىء تصفونه به من الولد أو كائنا مما تصفونه تعالى به ﴿وله من فى السموات والأرض﴾ استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل وأنه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا واثابة من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا ﴿ومن عنده﴾ وهم الملائكة عليهم السلام عبر عنهم بذلك اثر ما عبر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿لايستكبرون عن عبادته﴾ أى لا يتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبيرا ﴿ولا يستحسرون﴾ ولا يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون

لا لافادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة كما أن نفى الظلامية فى قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الأولى وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات والأرض للتعظيم كما فى قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله تعالى لا يستكبرون حينئذ حال من الثانية ﴿يسبحون الليل والنهار﴾ أى ينزهونه فى جميع الأوقات ويعظمونه ويمجدونه دائما وهو استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون فى عباداتهم أو كيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى ﴿لا يفترون﴾ أى لايتخلل تسبيحهم فترة أصلا بفراغ أو بشغل آخر ﴿أم اتخذوا آلهة﴾ حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن الى فن آخر من التوبيخ اثر تحقيق الحق ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكوته وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الأمور التى من جملتها الأنداد ومعنى الهمزة فى أم المنقطعة انكار الوقوع لا انكار الواقع وقوله تعالى ﴿من الأرض﴾ متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأيا ما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص وقوله تعالى ﴿هم ينشرون﴾ أى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لا محالة أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فان ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا لها الالهية فكأنهم ادعوا لها الانشار ضرورة أنه من الخصائص الالهية حتما ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير ما أشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار الموجبة لمزيد الانكار كما فى قوله تعالى أفى الله شك وقوله تعالى أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون فان تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لأن الالوهية مقتضية للاستقلال بالابداء والاعادة فحيث ادعوا للأصنام الالهية فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالانشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لأصل الانشار ﴿لو كان فيهما آلهة الا الله﴾ ابطال لتعدد الاله باقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته وايراد الجمع لوروده اثر انكار اتخاذ الآلهة لا لأن للجمعية مدخلا فى الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما والا بمعنى غير على أنها صفة لآلهة ولا مساغ للاستثناء لاستحالة شمول ما قبلها لما بعدها وافضائه الى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى ولا للرفع على البدل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون فى كلام غير موجب أى لو كان فى السموات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل ﴿لفسدتا﴾ أى لبطلتا بما فيهما جميعا وحيث انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا بيان الملازمة أن الالهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا وايجادا واعداما واحياء واماتة فبقاؤهما على ما هما عليه اما بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة واما بتأثير واحد منها فالبواقى بمعزل من الالهية قطعا واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لما أنه اعتبر فى المقدم تعدد الآلهة فيهما والا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الاطلاق فانه لو تعدد الاله فان توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وان تخالفت تعاوقت فلا يوجد موجود أصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى ﴿فسبحان الله﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أى فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الامور التى من جملتها أن يكون له شريك فى الالوهية وايراد الجلالة فى موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية مناط لجميع صفات كماله التى من جملتها تنزهه

تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى ﴿رب العرش﴾ صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عز وجل ﴿عما يصفون﴾ متعلق بالتسبيح أى فسبحوه عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهة ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ استئناف ببيان أنه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لاحد من مخلوقاته أن يناقشه و يسأله عما يفعل من أفعاله اثر بيان أن ليس له شريك فى الالهية ﴿وهم﴾ أى العباد ﴿يسألون﴾ عما يفعلون نقيرا وقطميرا لانهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ اضراب وانتقال من اظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة آلهة حقيقة باظهار خلوها عن خصائص الالهية التى من جملتها الانشار واقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الاله على الاطلاق وتفرده سبحانه بالالوهية الى اظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله عز سلطانه وتبكيتهم بالجائهم الى اقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد و بطلان الاشراك والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين اياه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالالوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الالوهية بالكلية ﴿قل﴾ لهم بطريق التبكيت والقام الحجر ﴿هاتوا برهانكم﴾ على ما تدعونه من جهة العقل والنقل فانه لاصحة لقول لادليل عليه فى الامور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير وما فى اضافة البرهان الى ضميرهم من الاشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى ﴿هذا ذكر من معى وذكر من قبلى﴾ انارة لبرهانه واشارة الى أنه مما نطقت به الكتب الالهية قاطبة وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم وذكر الامم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضا برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على أمتى وهذا كتاب أنزل على أمم الانبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقرئ بالتنوين والاعمال كقوله تعالى أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما و به و بمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل و بعد وقوله تعالى ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾ اضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الامر بتبكيتهم بمطالبة البرهان الى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة باظهار حقية الحق و بطلان الباطل فان أكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون بينه و بين الباطل ﴿فهم﴾ لاجل ذلك ﴿معرضون﴾ أى مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وان كررت عليهم البينات والحجج أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية وقرئ الحق بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيدا للسببية وقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون﴾ استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الالهية وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرئ يوحى على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأياما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحى ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين جىء بها لاظهار بطلانها و بيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى أن قريشا و بعض أجناس العرب جهينة و بنى سلمة وخزاعة و بنى مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ماسواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة أو منعما عليه لابراز كمال شناعة مقالتهم

الباطلة ﴿سبحانه﴾ أى تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مصدر من سبح أى بعد أو أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى ﴿بل عباد﴾ اضراب وابطال لما قالوه كأنه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباده تعالى ﴿مكرمون﴾ مقربون عنده وقرئ مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشا غلط القوم وقوله تعالى ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ صفة أخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لامره تعالى أى لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصله لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق اليهم منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم اياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون مالا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق وأداة له ثم أنيب اللام عن الاضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرئ لا يسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه زيد استهجان للسبق واشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى و زيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فأنى يتوهم صدوره عنهم ﴿وهم بأمره يعملون﴾ بيان لتبعيتهم له تعالى فى الاعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الاقوال فان نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بأمره يقولون و بأمره يعملون لا بغير أمره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة الى غير أمره لا الى أمر غيره ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ استئناف وقع تعليلا لما قبله وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الاقوال والاعمال لا يزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى ﴿ولا يشفعون الا لمن ارتضى﴾ أن يشفع له مهابة منه تعالى ﴿وهم﴾ مع ذلك ﴿من خشيته﴾ عز وجل ﴿مشفقون﴾ مرتعدون وأصل الخشية الخوف مع التعظيم و لذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الامر ﴿ومن يقل منهم﴾ أى من الملائكة الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم ﴿انى اله من دونه﴾ متجاوزا اياه تعالى ﴿فذلك﴾ الذى فرض قوله فرض محال ﴿نجزيه جهنم﴾ كسائر المجرمين ولا يغنى عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ما لا يخفى ﴿كذلك نجزى الظالمين﴾ مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ماقبله اى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الاشياء فى غير مواضعها و يتعدون أطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة الى النقصان دون الزيادة أى لاجزاء أنقص منه ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جميع ماسواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر وقرئ بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أن السموات والارض كانتا﴾ أى جماعتا السموات والارضين كما فى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ﴿رتقا﴾ الرتق الضم والالتحام والمعنى اما على حذف المضاف او هو بمعنى المفعول أى كانتا ذواتى رتق أو مرتوقتين وقرئ رتقا أى شيأ رتقا أى مرتوقا ﴿ففتقناهما﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيأ واحدا ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما و رفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها و بسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وقال مجاهد والسدى

كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين ان السموات كانت رتقا مستوية صلبة لاتمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق او السموات جميعا على أن لها مدخلا فى الامطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لاسترة به وأما بالمعانى الاول فهم وان لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما اما بطريق النظر والتفكر فان الفتق عارض مفتقر الى مؤثر قديم واما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء وذلك لانه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه اليه وانتفاعه به أوصيرنا كل شىء حى من الماء أى بسبب منه لابد له من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لالمجرد أن المفعولين فى الاصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدا فان ذلك مصحح محض لا مرجح وقرىء حيا على أنه صفة كل أو مفعول ثان والظرف كما فى الوجه الاول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق الى المؤخر ﴿أفلا يؤمنون﴾ انكار لعدم ايمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والانفسية الدالة على تفرده عز وجل بالالوهية وعلى كون ماسواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون ﴿وجعلنا فى الارض رواسى﴾ أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشىء اذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لاريب فى صحته كقوله تعالى أشهر معلومات وأياما معدودات ﴿أن تميد بهم﴾ أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالباس ﴿وجعلنا فيها﴾ أى فى الارض وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه أو فى الرواسى لانها المحتاجة الى الطرق ﴿فجاجا﴾ مسالك واسعة وانما قدم على قوله تعالى ﴿سبلا﴾ وهو وصف له ليصير حالا فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقها كذلك أو ليبدل منها سبلا فيدل ضمنا على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد ﴿لعلهم يهتدون﴾ أى الى مصالحهم ومهماتهم ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾ من الوقوع بقدرتنا القاهرة أو من الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمع بالشهب ﴿وهم عن آياتها﴾ الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وارادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة ﴿معرضون﴾ لايتدبرون فيها فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى ﴿وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده ﴿كل﴾ أى كل واحد منهما على أن التنوين عوض عن المضاف اليه ﴿فى فلك يسبحون﴾ أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لان السباحة حالهم ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ أى فى الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية ﴿أفان مت﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فهم الخالدون﴾ نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه انكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فان الشماتة بما يعتريه أيضا مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل كأنه قيل أفان مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أى ذائقة مرارة مفارقتها

جسدها برهان على ما انكر من خلودهم ﴿ونبلوكم﴾ الخطاب اما للناس كافة بطريق التلوين أو للكفرة بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿بالشر والخير﴾ بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أولا ﴿فتنة﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه ﴿والينا ترجعون﴾ لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال فهو على الأول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض وفيه ايماء الى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرىء يرجعون بالياء على الالتفات ﴿واذا رآك الذين كفروا﴾ أى المشركون ﴿ان يتخذونك الا هزوا﴾ أى ما يتخذونك الا مهزوا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون بك الا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ان أتبع الا ما يوحى الى فى سورة الأنعام ﴿أهذا الذى يذكر آلهتكم﴾ على ارادة القول أى ويقولون أو قائلين ذلك أى يذكرهم بسوء كما فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ وقوله تعالى ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ فى حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى أنهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التى لاتضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بارشاد الخلق بارسال الرسل وانزال الكتب أو بالقرآن كافرون فهم أحقاء بالعيب والانكار فالضمير الأول مبتدأ خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للاول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول ﴿خلق الانسان من عجل﴾ جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الاخلاق منزلة ما طبع منه من الاركان ايذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجاله بالوعيد روى أنها نزلت فى النضر بن الحرث حين استعجل العذاب بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالانسان آدم عليه السلام وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم وروى أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام وقيل خلقه الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع فى خلقه قبل غيبتها فالمعنى خلق الانسان خلقا ناشئا من عجل فذكره لبيان أنه من دواعى عجلته فى الأمور والأظهر أن المراد به الجنس وان كان خلقه عليه السلام ساريا الى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى ﴿سأريكم آياتى﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار وغيره ﴿فلا تستعجلون﴾ بالاتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ أى وقت مجىء الساعة التى كانوا يوعدون وانما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والانكار كما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقته بطريق الالزام كما فى سورة الملك ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجىء الساعة وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين فان قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لاتيانه بطريق العجلة فان ذلك فى قوة الأمر بالاتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة ان كنتم صادقين ﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم انما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وايثار صيغة المضارع فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم العلم فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى

افادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن الى لشكرتك فان المعنى أن انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان لا لانتفاء استمرار الاحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى ﴿حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه واضافته الى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب أيضا مع انكار الكفرة لذلك للايذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة له الى الاخبار به وانما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أى لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما الاحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم ﴿ولا هم ينصرون﴾ من جهة الغير فى دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره الى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال ﴿بل تأتيهم﴾ عطف على لا يكفون أى لا يكفونها بل تأتيهم أى العدة أو النار أو الساعة ﴿بغتة فتبهتهم﴾ أى تغلبهم أو تحيرهم وقرىء الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين وكذا الهاء فى قوله تعالى ﴿فلا يستطيعون ردها﴾ بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة ويجوز عوده الى النار وقيل الى البغتة أى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية ﴿ولا هم ينظرون﴾ أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لامهالهم فى الدنيا ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بأنه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أى وبالله لقد استهزىء برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ﴿فحاق﴾ أى أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل الا فى الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى ﴿بالذين سخروا منهم﴾ أى من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد اليها والجار متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لاجله واما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ الى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل ايثاره على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد واحد منهم عليهم السلام لا جزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو كل فقط أى فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب ايذانا بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم ان أريد بذلك العذاب الاخروى بناء على تجسم الاعمال فان الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح وعلى ذلك بنى الوزن وقد مر تفصيله فى سورة الاعراف وفى قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم الآية الى آخرها ﴿قل﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسليته بما ذكر من مصير أمرهم الى الهلاك وأمر له عليه السلام بأن يقول لاولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت ﴿من يكلؤكم﴾ أى يحفظكم ﴿بالليل والنهار من الرحمن﴾ أى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا أو نهارا وتقديم

الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا وفى التعرض لعنوان الرحمانية ايذان بأن كالئهم ليس الا رحمته العامة وبعد ما أمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لانهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بأن يكلفوا الاعتراف بذلك فيوبخوا على ماهم عليه من الاشراك أضرب عن ذلك بقوله تعالى ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى أنهم لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه ويعدوا ما كانوا عليه من الامن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالىء على طريقة قول من قال

عوجوا لنعمى فحيوا دمنة الدار ۔ ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وفى تعليق الاعراض بذكره تعالى وايراد اسم الرب المضاف الى ضميرهم المنبىء عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى ما لا يخفى وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عما قبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى اياهم لعدم خوفهم الناشىء عن اعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية الى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم واسنادهم الحفظ اليها والهمزة لانكار أن يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا أو حفظنا أو من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها وفى توجيه الانكار والنفى الى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا الى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع ما لا يخفى وقوله عز وعلا ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ استئناف مقرر لما قبله من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم أى هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم وقوله تعالى ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ اضراب عما توهموا ببيان أن الداعى الى حفظهم تمتيعنا اياهم بما قدر لهم من الاعمار أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ماهم عليه ولذلك عقب بما يدل على أنه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل ﴿أفلا يرون﴾ أى ألا ينظرون فلا يرون ﴿أنا نأتى الارض﴾ أى أرض الكفرة ﴿ننقصها من أطرافها﴾ فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عز وجل من ديارهم على أيدى المسلمين ويضيفها الى دار الاسلام ﴿أفهم الغالبون﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والفاء لانكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء وفى التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها ﴿قل انما أنذركم﴾ بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجلونه من العذاب ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر عليه السلام بأن يقول لهم انما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿بالوحى﴾ الصادق الناطق باتيانها وفظاعة ما فيها من الاهوال أى انما شأنى أن أنذركم بالاخبار بذلك لا بالاتيان بها فانه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية اذ الايمان برهانى لا عيانى وقوله تعالى ﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ اما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما أوليا أو للعهد فوضع المظهر موضع المضمر

للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى ﴿اذا ماينذرون﴾ مع أن الصم لا يسمعون الكلام مانذارا كان أو تبشيرا لبيان كمال شدة الصمم كما أن ايثار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم فى غاية لاغاية وراءها واما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون ويؤيده القراءة على خطاب النبى عليه الصلاة والسلام من الاسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل قل لهم ذلك وأنت بمعزل من اسماعهم وقرىء بالياء أيضا على أن الفاعل هو عليه السلام وقرىء على البناء للمفعول أى لا يقدر أحد على اسماع الصم وقوله تعالى ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك﴾ بيان لسرعة تأثرهم من مجىء نفس العذاب اثر بيان عدم تأثرهم من مجىء خبره على نهج التوكيد القسمى أى وبالله لئن أصابهم أدنى اصابة أدنى شىء من عذابه تعالى كما ينبىء عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فان أصل النفح هبوب رائحة الشىء ﴿ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين﴾ ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى ﴿ونضع الموازين القسط﴾ بيان لما سيقع عند اتيان ما أنذروه أى نقيم الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الاعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال وقد مر تفصيل ما فيه من الكلام فى سورة الاعراف وافراد القسط لانه مصدر وصف به مبالغة ﴿ليوم القيامة﴾ التى كانوا يستعجلونها اى لجزائه أو لاجل أهله أو فيه كما فى قولك جئت لخمس خلون من الشهر ﴿فلا تظلم نفس﴾ من النفوس ﴿شيأ﴾ حقا من حقوقها أو شيأ ما من الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين ﴿وان كان﴾ أى العمل المدلول عليه بوضع الموازين ﴿مثقال حبة من خردل﴾ اى مقدار حبة كائنة من خردل أى وان كان فى غاية القلة والحقارة فان حبة الخردل مثل فى الصغر وقرىء مثقال حبة بالرفع على أن كان تامة ﴿أتينا بها﴾ أى أحضرناذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لاضافته الى الحبة وقرىء آتينا بها أى جازينا بها من الايتاء بمعنى المجازاة والمكافأة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرىء أثبنا من الثواب وقرىء جئنا بها ﴿وكفى بنا حاسبين﴾ اذ لا مزيد على علمنا وعدلنا ﴿ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين﴾ نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم الى قوله تعالى وأهلكنا المسرفين واشارة الى كيفية انجائهم واهلاك أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمى لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر أى وبالله لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لانهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع والاحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والاول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الالهية لا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولان فلق البحر هو الذى اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقرىء ضياء بغير واو على انه حال من الفرقان وقوله تعالى ﴿الذين يخشون ربهم﴾ أى عذابه مجرور المحل على أنه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح ﴿بالغيب﴾ حال من المفعول أى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالانذار مالم يشاهدوا ما أنذروه وقيل من الفاعل ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أى خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الاطلاق للايذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وايثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق ودوامه ﴿وهذا﴾ أى القرآن الكريم أشير اليه بهذا ايذانا بغاية وضوح أمره ﴿ذكر﴾ يتذكر به من يتذكر وصف بالوصف الاخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر فى صدر السورة الكريمة ﴿مبارك﴾ كثير الخير غزير النفع يتبرك به ﴿أنزلناه﴾ اما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر ﴿أفأنتم له منكرون﴾ انكار لانكارهم بعد ظهور كون انزاله كايتاء التوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى الايتاء والايحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له أصلا ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده﴾ أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية وقرىء رشده وهما لغتان كالحزن والحزن ﴿من قبل﴾ أى من قبل ايتاء موسى وهرون التوراة وتقديم ذكر ايتائها لما بينه وبين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من قبل استنبائه أو قبل بلوغه ويأباه المقام ﴿وكنا به عالمين﴾ أى بأنه أهل لما آتيناه وفيه من الدليل على أنه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى أفعاله مالا يخفى ﴿اذ قال لابيه وقومه﴾ ظرف لآتينا على أنه وقت متسع وقع فيه الايتاء وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أى اذكر وقت قوله لهم ﴿ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون﴾ لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشىء مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بما التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم كأنه لا يعرف أنها ماذا مع احاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشىء لغرض من الاغراض قصدا الى تحقيرها واذلالها وتوبيخا لهم على اجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية والا لجىء بكلمة على والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها وقد جوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ أجابوا بذلك لما أن مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبىء عنه وصفه عليه السلام اياهم بالعكوف لها كأنه قال ما هى هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجأوا الى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمى حيث ﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم﴾ الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿فى ضلال﴾ عجيب لا يقادر قدره ﴿مبين﴾ أى ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضى الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده الى دليل ما والتقليد انما يجوز فيما يحتمل الحقية فى الجملة ﴿قالوا﴾ لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ما هم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام اياهم بطريق التوكيد القسمى وترددا فى كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد ﴿أجئتنا بالحق﴾ أى بالجد ﴿أم أنت من اللاعبين﴾ فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح وفى ايراد الشق الاخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ايذان برجحانه عندهم ﴿قال﴾ عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين كأنه قيل ليس الأمر كذلك ﴿بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن﴾ وقيل هو اضراب عن كونه لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه وضميرهن للسموات والارض وصفه تعالى بايجادهن اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها على أن مالا يكون كذلك بمعزل من الربوبية أى أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ورجع الضمير الى التماثيل أدخل فى تضليلهم وأظهر فى الزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون ما يعبدونه

من جملة المخلوقات ﴿وأنا على ذلكم﴾ الذى ذكرته من كون ربكم رب السموات والأرض فقط دون ماعداه كائنا ما كان ﴿من الشاهدين﴾ أى العالمين به على سبيل الحقيقه المبرهنين عليه فان الشاهد على الشئ من تحققه وحققه وشهادته على ذلك ادلاؤه بالحجة عليه واثباته بها كأنه قال وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه ﴿وتالله﴾ وقرئ بالباء وهو الاصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الأصل وفيها تعجب ﴿لأكيدن أصنامكم﴾ أى لاجتهدن فى كسرها وفيه ايذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وانما قاله عليه السلام سرا وقيل سمعه رجل واحد ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ من عبادتها الى عيدكم وقرئ تولوا من التولى بحذف احدى التاءين و يعضدها قوله تعالى فتولوا عنه مدبرين والفاء فى قوله تعالى ﴿فجعلهم﴾ فصيحة أى فولوا فجعلهم ﴿جذاذا﴾ أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر وقرئ بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرئ بالفتح وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيدلهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه فسجدوا لها و وضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا الى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا و بقى ابراهيم عليه السلام فنظر الى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب و كان من ذهب و فى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق الا الكبير وعلق الفأس فى عنقه وذلك قوله تعالى ﴿الا كبيرا لهم﴾ أى للأصنام ﴿لعلهم اليه﴾ أى الى ابراهيم عليه السلام ﴿يرجعون﴾ فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم و يبكتهم وقيل يرجعون الى الكبير فيسألونه عن الكاسر لان من شأن المعبود أن يرجع اليه فى الملمات وقيل يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع مايصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم ﴿قالوا﴾ أى حين رجعوا من عيدهم و رأوا مارأوا ﴿من فعل هذا بآلهتنا﴾ على طريقة الانكار والتوبيخ والتشنيع وانما عبروا عنها بما ذكر ولم يشيروا اليها بهؤلاء وهى بين أيديهم مبالغة فى التشنيع وقوله تعالى ﴿انه لمن الظالمين﴾ استئناف مقرر لما قبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز الرفع على أنها خبر لها والمعنى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا انه معدود من جملة الظلمة اما لجرأته على اهانتها وهى حقيقة بالاعظام أو لافراطه فى الكسر والحطم وتماديه فى الاستهانة بها أو بتعريض نفسه للهلكة ﴿قالوا﴾ أى بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾ أى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم اما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين أو صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا اذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وان كانوا قد سمعوا من الناس أنه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة الى المصحح ﴿يقال له ابراهيم﴾ صفة أخرى لفتى أى يطلق عليه هذا الاسم ﴿قالوا﴾ أى السائلون ﴿فأتوا به على أعين الناس﴾ أى بمرأى منهم بحيث يكون نصب أعينهم فى مكان مرتفع لايكاد يخفى على أحد ﴿لعلهم يشهدون﴾ أى يحضرون عقوبتنا له وقيل لعلهم يشهدون بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوابه أولا فقيل أتوابه ثم قالوا ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم﴾ اقتصارا على حكاية مخاطبتهم اياه عليه السلام للتنبيه على أن اتيانهم به ومسارعتهم الى ذلك أمر محقق غنى عن البيان ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ مشيرا الى الذى لم يكسر مسلك عليه السلام مسلكا تعريضيا يؤديه الى مقصده الذى هو الزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع مافيه من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما أبرزه فى ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد اسناده اليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة

من دون الله سبحانه و كان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل اليه باعتبار أنه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ماتنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد و يدعى الها أن يقدر على ماهو أشد من ذلك و يحكى أنه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فيكون تمثيلا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادته الأصنام وأما ماقيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم بل انما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك أمى فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل أنت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لانفيها عنك واثباتها له فبمعزل من التحقيق لأن خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب فى أن مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله ﴿فاسألوهم ان كانوا ينطقون﴾ أى ان كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وانما لم يقل عليه السلام ان كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل وقد حصل ذلك أولا حسبما نطق به قوله تعالى ﴿فرجعوا الى أنفسهم﴾ أى راجعوا عقولهم وتذكروا أن مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودا ﴿فقالوا﴾ أى قال بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿انكم أنتم الظالمون﴾ أى بهذا السؤال لأنه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام لامن ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين أو أنتم الظالمون بعبادتها لامن كسرها ﴿ثم نكسوا على رؤسهم﴾ أى انقلبوا الى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم الى الباطل بصيرورة أسفل الشئ أعلاه وقرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل أى نكسوا أنفسهم ﴿لقد علمت ماهؤلاء ينطقون﴾ على ارادة القول أى قائلين والله لقد علمت أن ليس من شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لانفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع ﴿قال﴾ مبكتا لهم ﴿أفتعبدون﴾ أى أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿من دون الله﴾ أى متجاوزين عبادته تعالى ﴿مالا ينفعكم شيأ﴾ من النفع ﴿ولا يضركم﴾ فان العلم بحاله المنافية للألوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعا ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ تضجر منه عليه السلام من اصرارهم على الباطل البين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح مافعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحا ونتنا واللام لبيان المتأفف له ﴿أفلا تعقلون﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم ﴿قالوا﴾ أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج اذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لا يبقى لهمفزع الا المناصبة ﴿حرقوه﴾ فانه أشد العقوبات ﴿وانصروا آلهتكم﴾ بالانتقام لها ﴿ان كنتم فاعلين﴾ أى للنصر أو لشئ يعتد به قيل القائل نمرود بن كنعان بن السنجاريب بن نمرود بن كوس ابن حام بن نوح وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الأرض روى أنهم لما أجمعوا على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الانباط وذلك قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم

فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوما فأوقدوا نارا عظيمة لايكاد يحوم حولها أحد حتى ان كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فأتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الأكراد فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ثم عمدوا الى ابراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالى علمه بحالى فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك قوله تعالى ﴿قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم﴾ أى كونى ذات برد وسلام أى ابردى بردا غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطاوعة واقامة كونى ذات برد مقام ابردى ثم حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقيل نصب سلاما بفعله أى وسلمنا سلاما عليه . روى أن الملائكة أخذوا بضبعى ابراهيم وأقعدوه على الأرض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وروى أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوما أو خمسين وقال ما كنت أطيب عيشا منى اذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد الى جنبه يؤنسه فنظر نمرود من صرحه فأشرف عليه فرآه جالسا فى روضة مونقة ومعه جليس على أحسن مايكون من الهيئة والنار محيطة به فناداه ياابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشى فخرج منها فاستقبله نمرود وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فقال انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لايقبل الله منك مادمت على دينك هذا قال لاأستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان اذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فان انقلاب النار هواء طيبا وان لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه فى السمندل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على ابراهيم ﴿وأرادوا به كيدا﴾ مكرا عظيما فى الاضرار به ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أى أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى اطفاء نور الحق برهانا قاطعا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشد العذاب ﴿ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين﴾ أى من العراق الى الشأم وبركاته العامة أن أكثر الانبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى أنه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة﴾ أى عطية فهى حال منهما أو ولد ولد أو زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة ﴿وكلا﴾ أى كل واحد من هؤلاء الأربعة لا بعضهم دون بعض ﴿جعلنا صالحين﴾ بأن وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين ﴿وجعلناهم أئمة﴾ يقتدى بهم فى أمور الدين اجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتى ﴿يهدون﴾ أى الأمة الى الحق ﴿بأمرنا﴾ لهم بذلك وارسالنا اياهم حتى صاروا مكملين ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات﴾ ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل الى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى ﴿واقام الصلاة وايتاء الزكاة﴾ وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وانافته وحذفت تاء الاقامة المعوضة من احدى الالفين لقيام المضاف اليه مقامه ﴿وكانوا لنا﴾ خاصة دون غيرنا ﴿عابدين﴾ لايخطر ببالهم غير عبادتنا ﴿ولوطا﴾ قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿آتيناه﴾ أى وآتينا لوطا وقيل باذكر ﴿حكما﴾ أى حكمة أو نبوة

أو فصلا بين الخصوم بالحق ﴿وعلما﴾ بما ينبغى علمه للانبياء عليهم السلام ﴿ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث﴾ أى اللواطة وصفت بصفة أهلها وأسندت اليها على حذف المضاف واقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى ﴿انهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾ فانه كالتعليل له ﴿وأدخلناه فى رحمتنا﴾ أى فى أهل رحمتنا أو فى جنتنا ﴿انه من الصالحين﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴿ونوحا﴾ أى اذكر نوحا أى خبره وقوله تعالى ﴿اذ نادى﴾ أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر أى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه ﴿من قبل﴾ أى من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فاستجبنا له﴾ أى دعاءه الذى من جملته قوله انى مغلوب فانتصر ﴿فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ وهو الطوفان وقيل أذية قومه وأصل الكرب الغم الشديد ﴿ونصرناه﴾ نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل ﴿من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وحمله على فانتصر يأباه ماذكر من دعائه عليه السلام فان ظاهره يوجب اسناد الانتصار اليه تعالى مع مافيه من تهويل الامر وقوله تعالى ﴿انهم كانوا قوم سوء﴾ تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى ﴿فأغرقناهم أجمعين﴾ فان الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الاهلاك قطعا ﴿وداود وسليمان﴾ اما عطف على نوحا معمول لعامله واما لمضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى ﴿اذ يحكمان﴾ ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما ﴿فى الحرث﴾ أى فى حق الزرع أو الكرم المتدلى عناقيده كما قيل أو بدل اشتمال منهما وقوله تعالى ﴿اذ نفشت﴾ أى تفرقت وانتشرت ﴿فيه غنم القوم﴾ ليلا بلا راع فرعته وأفسدته ظرف للحكم ﴿وكنا لحكمهم﴾ أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين اليهما فان الاضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرىء لحكمهما ﴿شاهدين﴾ حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه ﴿ففهمناها سليمان﴾ عطف على يحكمان فانه فى حكم الماضى وقرىء فأفهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما ان غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق النبوة والأبوة الا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم الى صاحب الارض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث الى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود الى ما كان ثم يترادا فقال القضاء ماقضيت وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فان قول سليمان عليه السلام غير هذا أرفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع الخ صريح فى أنه ليس بطريق الوحى والا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لاظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بدأ وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم ان رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبىء عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبى حنيفة الى المجنى عليه أو يفديه ويبيعه فى ذلك أو يفديه عند الشافعى وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بازاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث الى أن يزول الضرر الذى أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فأبق منه انه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من المنافع فاذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى ففهمناها سليمان دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام اليه مع أن الحكم المبنى على

الاجتهاد لا ينقض باجتهاد آخر وان كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا على أنه ورد فى الأخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع وأما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند أبى حنيفة رحمه الله لاضمان ان لم يكن معها سائق أو قائد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لا نهارا وقوله تعالى ﴿وكلا آتينا حكما وعلما﴾ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أى وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده وهذا انما يدل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فى كونه مجتهدا وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لاظهار ما تفضل عليه فى صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن احدى عشرة سنة ﴿وسخرنا مع داود الجبال﴾ شروع فى بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى اثر بيان كرامته العامة لهما ﴿يسبحن﴾ أى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير وقيل بالتسبيح وهو بعيد ﴿والطير﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل ﴿وكنا فاعلين﴾ أى من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وان كان بديعا عندكم ﴿وعلمناه صنعة لبوس﴾ أى عمل الدرع وهو فى الأصل اللباس قال قائلهم

البس لكل حالة لبوسها اما نعيمها واما بوسها

وقيل كانت صفائح فحلقها وسردها ﴿لكم﴾ متعلق بعلمنا أو بمحذوف هو صفة لبوس ﴿لتحصنكم﴾ أى اللبوس بتاويل الدرع وقرئ بالتذكير على أن الضمير لداود عليه السلام أو للبوس وقرئ بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم ﴿من بأسكم﴾ قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ أمر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ﴿ولسليمان الريح﴾ أى وسخرنا له الريح وايراد اللام ههنا دون الاول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت فان تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال بأمره ونهيه والمقهورية تحت ملكوته وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا ﴿عاصفة﴾ حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أى وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث أنها كانت تبعد بكرسيه فى مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب ارادته عليه السلام وقرئ الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدأ فى الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وقرئ الرياح نصبا ورفعا ﴿تجرى بأمره﴾ بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاولى أو حال من ضميرها ﴿الى الارض التى باركنا فيها﴾ وهى الشأم رواحا بعدما سار به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر الى الشأم والى حيث شاء ثم يعود الى منزله ﴿وكنا بكل شئ عالمين﴾ فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ومن الشياطين﴾ أى وسخرنا له من الشياطين ﴿من يغوصون له﴾ فى البحار ويستخرجون له من نفائسها وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والاول هو الاظهر ﴿ويعملون عملا دون ذلك﴾ أى غير ما ذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية وهؤلاء اما الفرقة الاولى أو غيرها لعموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد ما رشح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى ﴿وكنا لهم حافظين﴾ أى من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة وجمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار ﴿وأيوب﴾ الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى وداود وسليمان أى واذكر خبر أيوب ﴿اذ نادى ربه أنى﴾ أى بأنى ﴿مسنى الضر﴾ وقرئ بالكسر على اضمار القول أو تضمين النداء معناه والضر شائع فى كل ضرر وبالضم خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان عليه السلام روميا من ولد عيص بن اسحاق استنبأه الله تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعا وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات روى أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال أستحيى من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى أن ابليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا اله الارض فعلت بزوجك ما فعلت لانه تركنى وعبد اله السماء فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت الى أيوب وكان ملقى فى الكناسة لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل لاضربنك مائة سوط وحرام على أن أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لا يحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى ﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾ فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والمال الا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان ثم ان امرأته قالت فى نفسها هب انه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعا ويأكله السباع لأرجعن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الامور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأل عنه فأرسل اليها أيوب ودعاها فقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ما كان منك فبكت وقالت بعلى قال أتعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته ﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ أى آتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب أو لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم أيوب وذكرنا اياهم بالاحسان وعدم نسياننا لهم ﴿واسماعيل وادريس وذا الكفل﴾ أى واذكرهم وذو الكفل الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لانه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل منه أو ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجئ بمعنى النصيب والكفالة والضعف ﴿كل﴾ أى كل واحد من هؤلاء ﴿من الصابرين﴾ أى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم

﴿وأدخلناهم فى رحمتنا﴾ أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة ﴿انهم من الصالحين﴾ أى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لايحوم حول لشائبة الفساد وهم الانبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد ﴿وذا النون﴾ أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام ﴿اذ ذهب مغاضبا﴾ أى مراغما لقومه لمابرم من طول دعوته اياهم وشدة شكيمتهم وتمادى اصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتو بتهم ولم يعرف الحال فظن انه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المغالبة للبالغة أو لانه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرى٬ مغضبا ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ أى لن نضيق عليه أو لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر و يؤيده أنه قرى٬ مشددا أو لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن أن لن نقدر عليه أى نعامله معاملة من يظن أن لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لامرنا كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده أى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للبالغة وقرى٬ بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول ﴿فنادى﴾ الفاء فصيحة أى فكان ماكان من المساهمة والتقام الحوت فنادى ﴿فى الظلمات﴾ أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة أو فى ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل ﴿أن لا اله الا أنت﴾ أى بانه لا اله الا أنت على أن أن مخففة من أن وضمير الشأن محذوف أو أى لا اله الا أنت على أنها مفسرة ﴿سبحانك﴾ أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شى٬ أو أن يكون ابتلائى بهذا بغير سبب من جهتى ﴿انى كنت من الظالمين﴾ لانفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت الى المهاجرة ﴿فاستجبنا له﴾ أى دعاءه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له ﴿ونجيناه من الغم﴾ بأن قذفه الحوت الى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة ﴿وكذلك﴾ أى مثل ذلك الانجاء الكامل ﴿ننجى المؤمنين﴾ من غموم دعوا الله تعالى فيها بالاخلاص لا انجاء أدنى منه وفى الامام نجى فلذلك أخفى الجماعة النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرى٬ بتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت الثانية كما حذفت التاء فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فان الداعى الى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الادغام وامتناع الحذف فى تتجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول أسند الى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفا ورد بانه لايسند الى المصدر والمفعول مذكور والماضى لايسكن آخره ﴿وزكريا﴾ أى واذكر خبره ﴿اذ نادى ربه﴾ وقال ﴿رب لاتذرنى فردا﴾ أى وحيدا بلاولد يرثنى ﴿وأنت خير الوارثين﴾ فحسبى أنت ان لم ترزقنى وارثا ﴿فاستجبنا له﴾ أى دعاءه ﴿ووهبنا له يحيى﴾ وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة فى سورة مريم ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ أى أصلحناها للولادة بعد عقرها أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى ﴿انهم كانوا يسارعون فى الخيرات﴾ تعليل لما فصل من فنون احسانه تعالى المتعلقة بالانبياء المذكورين أى كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير وهو السر فى ايثار كلمة فى على كلمة الى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ ذوى رغب ورهب أو راغبين فى الثواب راجين للاجابة أو فى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أى مخبتين متضرعين أو دائمى الوجل والمعنى انهم نالوا من الله تعالى مانالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة ﴿والتى أحصنت

فرجها﴾ أى اذكر خبر التى أحصنته على الاطلاق من الحلال والحرام والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه فى حقها آثر ذى أثير ﴿فنفخنا فيها﴾ أى أحيينا عيسى فى جوفها ﴿من روحنا﴾ من الروح الذى هو من أمرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ﴿وجعلناها وابنها﴾ أى قصتهما أو حالهما ﴿آية للعالمين﴾ فان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ماحصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل أريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها ﴿ان هذه﴾ أى ملة التوحيد والاسلام أشير اليها بهذه تنبيها على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد ﴿أمتكم﴾ أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولاتخلوا بشى٬ منها والخطاب للناس قاطبة ﴿أمة واحدة﴾ نصب على الحالية من أمتكم أى غير مختلفة فيما بين الانبياء عليهم السلام اذ لامشاركة لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الامم والاعصار وقرى٬ أمتكم بالنصب على البدلية من اسم ان وأمة واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران ﴿وأنا ربكم﴾ لا اله لكم غيرى ﴿فاعبدون﴾ خاصة لاغير وقوله تعالى ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ التفات الى الغيبة لينعى عليهم ماأفسدوه من التفرق فى الدين وجعل أمره قطعا موزعة و ينهى قبائح أفعالهم الى الآخرين كأنه قيل ألا ترون الى عظيم ماارتكب هؤلاء فى دين الله الذى أجمعت عليه كافة الانبياء عليهم السلام ﴿كل﴾ أى كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق ﴿الينا راجعون﴾ بالبعث لا الى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم وايراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ الخ تفصيل للجزاء أى فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات ﴿وهو مؤمن﴾ بالله ورسله ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أى لاحرمان لثواب عمله ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذى هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه تعالى ونفى نفى الجنس للمبالغة فى التنزيه وعبر عن العمل بالسعى لاظهار الاعتداد به ﴿وانا له﴾ أى لسعيه ﴿كاتبون﴾ أى مثبتون فى صحائف أعمالهم لانغادر من ذلك شيأ ﴿وحرام على قرية﴾ أى ممتنع على أهلها غير متصور منهم وقرى٬ حرم وهى لغة كالحل والحلال ﴿أهلكناها﴾ قدرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى ﴿أنهم لايرجعون﴾ فى حيز الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أو فاعل له سادمسد خبره والجملة لتقرير مضمون ماقبلها من قوله تعالى كل الينا راجعون ومافى أن من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لا فى المنفى أى ممتنع البتة عدم رجوعهم الينا للجزاء لا أن عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى كل الينا راجعون لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم الى التوبة على أن لا صلة وقرى٬ انهم لايرجعون بالكسر على أنه استئناف تعليلى لما قبله فحرام خبر مبتدا محذوف أى حرام عليها ذلك وهو ماذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالايمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى انهم لايرجعون عماهم عليه من الكفر فكيف لايمتنع ذلك ويجوز حمل المفتوحة أيضا على هذا المعنى بحذف اللام عنها أى لأنهم لا يرجعون وحتى فى قوله تعالى ﴿حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ الخ هى التى يحكى بعدها الكلام وهى على الاول غاية لما يدل عليه ماقبلها كأنه قيل يستمرون على ماهم عليه من الهلاك حتى اذا قامت القيامة يرجعون الينا ويقولون ياويلنا الخ وعلى الثانى غاية للحرمة أى يستمر امتناع رجوعهم الى التوبة حتى اذا قامت القيامة يرجعون اليها حين لاتنفعهم

التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أى لا يرجعون عنه حتى اذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع و يأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدها على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرىء فتحت بالتشديد ﴿وهم﴾ أى يأجوج ومأجوج وقيل الناس ﴿من كل حدب﴾ أى نشز من الارض وقرىء جدث وهو القبر ﴿ينسلون﴾ أى يسرعون وأصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرىء بضم السين ﴿واقترب الوعد الحق﴾ عطف على فتحت والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة الاولى ﴿فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ جواب الشرط واذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كما فى قوله تعالى اذاهم يقنطون فاذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير للقصة أومبهم يفسره مابعده ﴿ياويلنا﴾ على تقدير قول وقع حالا من الموصول أى يقولون ياويلنا تعال فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط ﴿قد كنا فى غفلة﴾ تامة ﴿من هذا﴾ الذى دهمنا من البعث والرجوع اليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق ﴿بل كنا ظالمين﴾ اضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لانفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى ﴿انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الاجمال مبالغة فى الانذار وازاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن أصنامهم لانها التى يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية قال له ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة فرد عليه بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل ولا يعارضه ما روى أنه عليه السلام رده بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك ولا ما روى أن ابن الزبعرى قال هذا شىء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال عليه السلام بل لكل من عبد من دون الله تعالى اذ ليس شىء منهما نصا فى عموم كلمة ما كما أن الاول نص فى خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضى شموله بطريق العبارة بل يكفى فى ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة فى المعبودية من دون الله تعالى فلعله عليه السلام بعد مابين مدلول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين فى حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضا تأكيدا للرد والالزام وتكريرا للتبكيت والافحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فان اخراج بعض المعبودين عن حكم منبىء عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة فى عبادته فى الجملة بل بتحقيق الحق وبيان أنهم ليسوا من المعبودية فى شىء حتى يتوهم دخولهم فى الحكم المذكور دلالة بموجب شركتهم للاصنام فى المعبودية من دون الله تعالى وانما معبودهم الشياطين التى أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية فهم الداخلون فى الحكم المذكور لاشتراكهم الاصنام فى المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه فى التوفيق بين الاخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضا وجعل ما سيأتى من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بيانا للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم والحصب مايرمى به و يهيج به النار من حصبه اذا رماه بالحصباء وقرىء بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة ﴿أنتم لها واردون﴾ استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لاجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا ﴿لو كان هؤلاء﴾ أى أصنامهم ﴿آلهة﴾ كما يزعمون ﴿ماوردوها﴾ وحيث تبين ورودهم اياها تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بما يعبدون هى الاصنام

لأن المراد اثبات نقيض ما يدعونه وهم انما يدعون الهية الاصنام لا الهية الشياطين حتى يحتج بورودها النار على عدم الهيتها وأما ما وقع فى الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام اليه عند بيان ماسيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الأول مما يوهم الرخصة فى عبادتهم فى الجملة لأنهم المعبودون عندهم أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطين وأنهم داخلون فى حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين ﴿وكل﴾ أى من العبدة والمعبودين ﴿فيها خالدون﴾ لاخلاص لهم عنها ﴿لهم فيها زفير﴾ أى أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من أفعال العبدة أضيف الى الكل للتغليب و يجوز أن يكون الضمير للعبدة لعدم الالباس و كذا فى قوله تعالى ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون ما يسرهم من الكلام ﴿ان الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ شروع فى بيان حال المؤمنين اثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وايراد الترغيب مع الترهيب أى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال وهى السعادة وقيل التوفيق للطاعة أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الادخل الاظهر فى الحمل عليها لما أن الأولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع ما بعدها تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون كما أن ماقبلها من قوله تعالى انكم وما تعبدون الخ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وحرام الخ ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم و بعد منزلتهم فى الشرف والفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿عنها﴾ أى عن جهنم ﴿مبعدون﴾ لانهم فى الجنة وشتان بينها وبين النار وما روى أن عليا رضى الله تعالى عنه خطب يوما فقرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه و يقول ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة والحسيس صوت يحس به أى لا يسمعون صوتها سمعا ضعيفا كما هو المعهود عند كون المصوت بعيدا وان كان صوته فى غاية الشدة لأنهم لا يسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون أو حال من ضميره مسوقة للمبالغة فى انقاذهم منها وقوله تعالى ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ بيان لفوزهم بالمطالب اثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب أى دائمون فى غاية التنعم وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى ﴿لا يحزنهم الفزع الاكبر﴾ بيان لنجاتهم من الافزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار لانهم اذا لم يحزنهم أكبر الافزاع لا يحزنهم ماعداه بالضرورة عن الحسن رضى الله عنه أنه الانصراف الى النار وعن الضحاك حين يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش أملح وقيل النفخة الاخيرة لقوله تعالى ففزع من فى السموات ومن فى الارض وليس بذاك فان الآمن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله الا من شاء الله لا جميع المؤمنين الموصوفين بالاعمال الصالحة على أن الاكثرين على أن ذلك فى النفخة الاولى دون الأخيرة كما سيأتى فى سورة النمل ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ أى تستقبلهم مهنئين لهم ﴿هذا يومكم﴾ على ارادة القول أى قائلين هذا اليوم يومكم ﴿الذى كنتم توعدون﴾ فى الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الايمان والطاعات وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالايمان والاعمال الصالحة لا من ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل ﴿يوم نطوى السماء﴾ بنون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لا يحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير

المحذوف فى توعدون والطى ضد النشر وقيل المحو وقرئ يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول ﴿كطى السجل﴾ وهى الصحيفة أى طيا كطى الطومار وقرئ السجل كلفظ الدلو وبالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام فى قوله تعالى ﴿للكتب﴾ متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى كطى السجل كائنا للكتب أو الكائن للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطى حقيقة وقرئ للكتاب وهو اما مصدر واللام للتعليل أى كما يطوى الطومار للكتابة أو اسم كالامام فاللام كما ذكر أولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب أعمال بنى آدم اذا رفعت اليه وقيل هو كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ أى نعيد ما خلقناه مبتدأ اعادة مثل بدئنا اياه فى كونها ايجادا بعد العدم او جمعا من الاجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدأ لشمول الامكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما كافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا أو لفعل يفسره نعيده أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده أى نعيد مثل الذى بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف ﴿وعدا﴾ مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده أو منتصب به لانه عدة بالاعادة ﴿علينا﴾ أى علينا انجازه ﴿انا كنا فاعلين﴾ لما ذكر لامحالة ﴿ولقد كتبنا فى الزبور﴾ هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما أنزل على الانبياء عليهم السلام ﴿من بعد الذكر﴾ أى التوراة وقيل اللوح المحفوظ أى وبالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد ما كتبنا فى التوراة أو كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا فى اللوح المحفوظ ﴿أن الارض يرثها عبادى الصالحون﴾ أى عامة المؤمنين بعد اجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى باظهار الدين واعزاز أهله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد أرض الجنة كما ينبئ عنه قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقيل الارض المقدسة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ان فى هذا﴾ أى فيما ذكر فى السورة الكريمة من الاخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة ﴿لبلاغا﴾ أى كفاية أو سبب بلوغ الى البغية ﴿لقوم عابدين﴾ أى لقوم همهم العبادة دون العادة ﴿وما أرسلناك﴾ بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والاحكام وغير ذلك من الامور التى هى مناط لسعادة الدارين ﴿الا رحمة للعالمين﴾ هو فى حيز النصب على أنه استثناء من أعم العلل أو من أعم الاحوال أى ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة أو ما أرسلناك فى حال من الاحوال الا حال كونك رحمة لهم فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط فى نفسه وحرمة حقه لا أنه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة فى حق الكفار أمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴿قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد﴾ أى ما يوحى الى الا أنه لا اله لكم الا اله واحد لأنه المقصود الاصلى من البعثة وأما ما عداه فمن الاحكام المتفرعة عليه فانما الاولى لقصر الحكم على الشئ كقولك انما يقوم زيد أى ما يقوم الا زيد والثانية لقصر الشئ على الحكم كقولك انما زيد قائم أى ليس له الا صفة القيام ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أى مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى والفاء للدلالة على أن ماقبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية تصح أن يكون طريقها السمع ﴿فان تولوا﴾ عن الاسلام ولم يلتفتوا الى مايوجبه من الوحى ﴿فقل لهم آذنتكم﴾ أى أعلمتكم ما أمرت به او حربى لكم ﴿على سواء﴾ كائنين على سواء فى الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم أو مستوين به أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به أو فى المعاداة أو ايذانا على سواء وقيل أعلمتكم أنى على سواء أى

عدل واستقامة رأى بالبرهان النير ﴿وان أدرى﴾ أى ما أدرى ﴿أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ من غلبة المسلمين وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيا لامحالة ﴿انه يعلم الجهر من القول﴾ أى ما تجاهرون به من الطعن فى الاسلام وتكذيب الآيات التى من جملتها ما نطق بمجئ الموعود ﴿ويعلم ما تكتمون﴾ من الاحن والاحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا ﴿وان أدرى لعله فتنة لكم﴾ أى ما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون ﴿ومتاع الى حين﴾ أى وتمتيع لكم الى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم ﴿قال رب احكم بالحق﴾ حكاية لدعائه عليه الصلاة والسلام وقرئ قل رب على صيغة الأمر أى اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر أى تعذيب وقرئ رب احكم بضم الباء وربى أحكم على صيغة التفضيل وربى أحكم من الاحكام ﴿وربنا الرحمن﴾ مبتدأ أى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى ﴿المستعان﴾ أى المطلوب منه المعونة خبر وخبر آخر للمبتدا واضافة الرب فيما سبق الى ضميره عليه السلام خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه السلام كما أن اضافته هنا الى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضا لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم ﴿على ما تصفون﴾ من الحال فانهم كانوا يقولون ان الشوكة تكون لهم وان راية الاسلام تخفق ثم تركد وان المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم الى غير ذلك مما لاخير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله عليه السلام فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فاصابهم يوم بدر ما أصابهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله وقرئ يصفون بالياء التحتانية وعن النبى عليه السلام من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن

﴿تم الجزء الثالث من تفسير العلامة أبى السعود ويليه الجزء الرابع وأوله سورة الحج﴾

صحيفة

﴿تم فهرس الجزء الثالث من تفسير العلامة أبى السعود﴾





